الإمام محمّد بن حبّان

ودراسة آثاره العلمية

تأريخ وتحليل ونقد

تأليف الدكتور

عداب بن محمود الحمش

المجلد الأول

١٤٢٨هـ ٢٠٠٧ م

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



تنويهٌ وثناءٌ

تفضَّلَ معالي الشيخِ صالحِ بنِ عبدِالله الكاملِ المكِّيِّ ـ أمتَعَ اللهُ بحياتِهِ ـ بتمويلِ مراجعةِ وإخراجِ وتهيئةِ الكتبِ الناجزةِ في هذا المركزِ المباركِ للطباعة شريطةَ أن يجتمعَ في الكتابِ الناجزِ :

ـ الجِدَّةُ والموضوعيةُ في التناوُلِ .

ـ المنهجيَّةُ العلميَّةُ في البحثِ .

ـ حاجةُ المكتبةِ العربيةِ الإسلاميةِ إلى المؤلَّفِ .

ـ الإسهامُ في وحدةِ الأمَّةِ على ثوابتِها ، والابتعادُ عن دواعي الفُرقةِ والتناحرِ .

جزى اللهُ تعالى عبدَهُ الشيخَ صالحَ بنَ عبدِ الله جزاءَ المُحسنينَ الصادقينَ ونفعَ بجهودِهِ وجهادِهِ المسلمينَ ، وضاعفَ له البركاتِ والتمكينَ .

المُقِرُّ بالجميلِ المقيم

عدابُ بنُ محمودٍ الحَمْشِ



أصل هذا الكتاب جزءٌ من رسالة علمية حصل بها المؤلّف على درجة العالمِيّة الأولى «الماجستير» في (الكتاب والسنّة) من كليّة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أمّ القرى في مكّة المكرّمة، بتاريخ الرابع والعشرين من شعبان المعظّم، سنة ستّ بعد الأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، بتقدير ممتاز. والحمد لله ربّ العالمين.

الإهـــداء

إلى كلِّ مُتشوِّفٍ صوبَ الحقِّ، مُستشرِفٍ تَنَفُّسَ الصُّبحِ ليسيرَ على هُدى!

إلى كل بصيرٍ أريبٍ، يَزِنُ الرجالَ بالحق، ولو خالفه جميعُ الورى!

إلى كلّ مُعجَبٍ بمناهجِ الغرب، في النَّقد والتحقيق؛ ليعلمَ أننا مَصدرُ المعرفة!

إلى كلّ من علّمني، أو نصحني، أو أعانني، أو أَبْردَ عليّ صَدْره، فأزاحَ الجوَى!

عداب

الافتتاحية

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيّئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلّى الله تعالى عليهِ وعلى آلِه وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً .

قال الله تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة : ١١٩) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات : ٦) .

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النحل : ١٠٥) .

وقال رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم :

(إنَّ أفرَى الفِرَى مَن قوّلني ما لم أقل ، ومَن أرى عينيه ما لم تَريا ، ومَنِ ادّعى إلى غير أبيه)[1] .

(مَن حدّث عني حديثاً ، وهو يرى أنّه كذِبٌ ؛ فهو أحد الكاذِبَين)[2] .

(نَضّر الله امرَءاً سمع مقالتي فوعاها ، وحَفِظَها وبلّغها ، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه)[3] .

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى : «وقعت الفتنة الأولى ، فلم تُبْقِ من

(١) أخرجه الشافعي في الرسالة ـ واللفظ له (ص٣٩٥) ، وأحمد في المسند (٤ : ١٠٧) والبخاري نحوه بأتم منه رقم (٣٥٠٩) .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٤) في مقدمة صحيحه ، والترمذي رقم (٢٦٦٢) وقال : حسن صحيح .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

أصحاب بدر أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثانية ، فلم تُبْقِ من أصحاب الحديبية أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثالثة فلم ترتفع وفي الناس طَباخ !»[١] .

وقال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى : «لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة ، قالوا : سمّوا لنا رجالكم ، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ منهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ منهم»[٢] .

وقال : «هذا الحديث دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم»[٣] .

وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى : «الإسناد من الدّين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[٤] .

وقال سعد بن إبراهيم العوفي رحمه الله تعالى : «لا يحدّث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم إلا الثقات»[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب المغازي ، باب بيان من شهد بدراً ، عقب حديث (٤٠٢٤) . والطَّباخ : السِّمَن والقوة ، ويستعمل في الخير والعقل . وانظر الحديث وشرحه في الفتح (٧ : ٣٢٣ ـ ٣٢٥) والتغليق (٤ : ١٠٥) .

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١ : ١٥) .

(٣) أخرجه مسلم في المقدمة (١ : ١٤) ، والترمذي في الشمائل (ص ٢٢١) .

(٤) مقدمة المجروحين لابن حبان .

(٥) أخرجه مسلم في المقدمة (ص١٥) . وأخرج الآثار السابقة جميعاً ابنُ حبان في مقدمة المجروحين .

ومضات شكر وثناء

لقد كان من تمام نعم الله تعالى على خلقه ، إرشادُهم إلى ما فيه خلاصهم في حياتهم ومعادهم . وقد اقتضت حكمته أن يعمر هذا الكون ، وأن يستخلف فيه الإنسان ، بعد توجيهه إلى طريق سعادته .

وكان ممّا أرشد الله تعالى خلقَه إليه التعاونُ والتناصرُ على ما فيه خيرهم في دينهم ودنياهم .

قال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة : ٢) .

وحيث إنّ من أسباب دوام التعاون والتناصر ذكرَ الفضل لأهله وشكرَ المنعم على إنعامه ؛ فقد رغّب الله تباركَ وتعالى عباده المؤمنين بشكره وعدم كفرانه ، ليكون ذلك طريقاً إلى شكر أصحاب الحقوق . فقال جلَّ وعلا : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم : ٧) .

وقد قال النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم : (من لم يشكر النّاس ؛ لم يشكر الله)[١] تنبيهاً إلى : «أن من كان من طبعه وعادته كفرانُ نعمة الناس ، وتركُ الشكر لمعروفهم ؛ كان من عادته كفران نعمة الله تعالى وتركُ الشكر له»[٢] .

وقد مررت في أثناء كتابة هذه الرسالة بأيام محنة قاسية ، من مرض ، وحزن ، وفاقة ! فقيّض الله تعالى لي من أعانني ، وأخذ بيدي ، حتى تم فضل الله علي بإنجاز هذه الرسالة .

وإنّ أوّلَ من أتوجه إليه بثنائي من خَلق الله تعالى ، أُمُّنا جامعة أم القرى المباركة ، التي فجّرت بين أيدينا ينابيع العلم ، وأوقفتنا على حياضه العذبة ، فنهل كل منا بما قَدِر عليه وقُدّر له ، فلا زالت عامرةً بالخير ، والعلم النافع ، سائرةً في طريق الرقي والسموّ والكمال .

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً رقم (١٩٥٥) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . والحديث صحيح بشواهده المتكاثرة . وانظر جامع الأصول (٢ : ٥٥٨ ـ ٥٦١) .

(٢) تحفة الأحوذي (٦ : ٧٥) .

وإلى إداريّي جامعتنا المباركة ـ بدءاً بمعالي رئيسها الأستاذ الدكتور السيّد الشريف راشد بن راجح ـ وافر شكري ، وعاطر ثنائي ، فما منهم إلاّ من له في عنقي منّة ، وكلّهم قد قَدّم إليّ ما يُشكَرُ عليه .

ولا يفوتني أن أخصّ إدارة كلية الشريعة ، وعمداءها الأفاضل الذين عاصرتهم ووكلاءها الكرام ، على جهودهم وتقديرهم لظروفي الصحيّة والعلميّة ، فلم أسمع ، ولم يبلغني تأفّفٌ من أحد منهم على تأخّري في إنجاز رسالتي العلمية ، التي كان لسعة موضوعها وظروفي الصحية الخاصة بالغ الأثر في ذلك . فجزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

وقد كان لأستاذي النبيل فضيلة الشيخ الدكتور أحمد محمد نور سيف اليدُ البيضاءُ في عوني ، ومتابعَتي ، وتشجيعي على مواصلة البحث والدراسة ، حتى أثمر غرسه وأينع ، وسأظلّ أشكر له عناءَه وصبره وتحمُّلَه مراجعاتي الكثيرة على الهاتف وفي بيته العامر طيلة أربع سنوات قُضيت في إعداد هذه الرسالة !

وإنّ ما أفدته من سامي خلقه وجمّ أدبه ؛ لهو أغلى عندي مما حباني إيّاه من غزير علمه ودقيق تحريره .

أما أستاذي المبجّل صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمد أديب الصالح الدمشقيّ فقد كان نعم الوالدُ والمرشد . وقد تفضّل بقراءة فصول كثيرة من هذه الرسالة المترامية ، وقدّم إليَّ ملحوظاتٍ علميّةً ومنهجيةً غاليةً ، لهي عندي ـ على رفعتها ـ مُصَلِّيةٌ عن سوابق برّه وتأديبه ونصحه وتشجيعه ، وتفقّده المستمر لي في أثناء مرضي ، وشتى ظروفي الخاصة .

وإلى أستاذَيّ الجليلين فضيلة الشيخ الدكتور محمود بن أحمد ميرةَ الحلبيِّ ـ عافاه الله تعالى ونفع به ـ وفضيلة الشريف الدكتور منصور بن عون العبدلي ـ رحمه الله تعالى ـ خالص شكري وامتناني على عنائهما الكبير في دراسة هذه الرسالة ، وتقديمهما الملحوظات العلميّة في أثناء مناقشتهما إيّاي فيها .

وإنَّ مما يجمُلُ قوله حبّاً ووفاءً ؛ أنّني مَدينٌ بحياتي العلميَّة إلى المحسن الفاضل الشيخِ عبدالله بن علي بن عبدالوهابِ المطوّع القِناعي الكويتي رحمهُ اللهُ تعالى وأحسنَ

إليه ، وإلى أستاذي الكبير سعادةِ الأستاذِ الدكتور محمد بن سعد الرشيد النجدي ، فقد كان لشفاعة الأول ، وقبول الثاني شفاعته بانتسابي إلى جامعة أم القرى المباركة أكبرُ الأثرِ فيما أكرمني الله به من علم ، وما سهَّل علي من معرفة وتأليف .

وفي ظرفِ مَرضي الطويل الذي ناهزَ سبع سنين ؛ كانَ لي إخوةٌ أحباب ، وأصدقاء بررَةٌ ، لم يُسلموني ولم يخذلوني ، وكانوا نِعمَ الأوفياء الكرام ، أخصُّ منهم بالذكر والشكر والعرفان :

- صاحبَ الفضيلة الدكتور محمد حاتم بن عبدالحميد الطبشي النعيمي المُقرِئ .
- وصاحبَ السعادة الأستاذ وليد بن سعد الدين الزعيم الحلبي .
- وصاحبَ السعادة الأستاذ وليد بن نايف السُرَيحيني الحموي .

ومثل هذا العمل الكبير في حجمه ، يحتاج إلى جهودٍ متضافرة وتعاون صادق ، حتى يُؤتيَ أُكُلَه ، وتنضجَ ثمارُه .

وقد تطوع بعض الإخوة الأكارم من تلامذتي النجباء ، ففرّغوا شطراً من أوقاتهم لمساعدتي في إعداد ملاحق الرسالة الضخمة ، وكتابة أسماء الرواة ، وترتيبهم ، والبحثِ عن مظانّ تراجمهم ، قبل تحريرها ودراستها ، إضافةً إلى مساعدتهم إياي في شؤوني الخاصة وعونهم في كل سبيل .

وأخصُّ منهم :

- فضيلة الشيخ ناصر بن محيي الدين ناجي الطرابُلْسي .
- وفضيلة الدكتور صالح بن سليمان الحويس النجدي .
- وفضيلة الدكتور عصام بن حاتم الموصلي الدمشقي .
- وفضيلة الدكتور هشام بن حاتم الموصلي .

وقبلَ إخراجِ هذا الكتابِ رجوتُ عدداً منَ الزملاءِ المختصّينَ لمراجعةِ بعضِ فصولِهِ المهمَّةِ ، فتفضَّلَ الإخوةُ الأكارمُ :

- الدكتور السيّد محمد مختار بن ضرار المفتي .
- والدكتورُ عبدُ الرزّاقِ موسى أبو البصَل الأُردنيّ .

ـ والدكتور أسامة عبد القادر نمر الفلسطينيّ .

ـ والدكتور المهندس فراس عبدالرزاق السوداني .

بقراءةِ ما تيسَّرَ لكلٍّ منهم من فصولِ هذا الكتابِ ، وقدّمَ كلُّ واحدٍ منهم إليَّ ملحوظاتٍ كانت موضعَ تقديري واهتمامي عندَ تهيئةِ هذا البحثِ للطباعةِ .

وقد أبدى الأستاذ الباحث وائل علي البتّيري في قراءة الكتاب ومراجعة توثيقاته وضبطه معرفةً ونباهةً وجَلَداً دعَتْني إلى أن أرفعَ من شأنه ، وأنوّهَ بفضله ، وأشيدَ بجهوده وأثمّنَ استدراكاتِه ، وأغتبطَ بدأَبِه وحِرْصِه ، مع الخُلُق الكريم ، والأدب الجمّ ، والصبر الجميل .

جزى الله تعالى جميع مَنْ أسدى إليَّ معروفاً خير الجزاء . وسامحَ ربِّي كلَّ مَن أساء إليَّ من المسلمين ، وغمرني معهم بعميم برِّه ولطفه وإحسانه ، إنّه هو حسبنا ونعم الوكيل .

والحمد لله رب العالمين .

كتبه المثقل بالخطايا

عداب بن السيّد محمود الحمش

الحسيني الحموي

عمّان البلقاء ـ الأردنّ

عشية يوم الخميس

الرابع عشر من جمادى الأولى ١٤٢٨هـ

الموافق ٣١/٥/٢٠٠٧م

قبل مقدمة الكتاب

وَيْ ! وَيْ ! ما أصعبَ مقاضاة الحياة الدنيا ، وما أبعد ما بين لابتَيها التي يقف على طرفيها المتقابلين صنفان ممن يعيش في سوحها :

ـ فصِنف : لا يعنيهم أمر الآخرة ، ولا ينتظرون الحساب ، ولا يخشون العقاب !

ـ وصِنف : ازدروا بهذه الدنيا ، وطلّقوها ثلاثاً ، فانهزمت أمامهم ، وتلوّت تحت أقدامهم ، وطرحت كلّ أفلاذ كبدها بين أيديهم ، فما زادهم ذلّها هذا إلاّ إعراضاً عنها واحتقاراً لها ، وتعالياً عليها !

ولقد صارعتني الدنيا ، ولا تزال تصارعني ، فأصرعها مرّة ، وتخيفني مرّة ، فلا هي استسلَمَتْ واعترفت بالهزيمة ، ولا أنا يسعني الانهزام أمامها ؛ خشيةَ النار وغضبِ الجبّار !

حين تخرّجت في جامعة أمّ القرى بمرحلة (البكالوريوس) عام واحد وأربعمائة وألف من الهجرة ، كنت يومها ـ ولله الحمدُ والمنّة ـ الأول على طلاّب القسم ، والأول على طلاب الكلية ، والأول على طلاب الجامعة ، لكنني كنت الثالث على طلاب وطالبات الجامعة ، إذ كانت طالبتان متقدّمتين عليّ في غير الفروع الشرعية !

في تلك الأثناء ؛ رأت عمادة شؤون الطلاّب أن تعلن نتائج وجوائز المسابقات في وقت حفل التخرّج ذاته ! فكان نصيبي من شهادات تقديرِ وجوائزِ هذا الحفل هو الأكبرَ بالتأكيد !

فالثالث على الجامعة له جائزة ، والأول على الكليّة له جائزة ، والأول على القسم له جائزة ! وكنت المتسابق الأول في البحوث العلمية ، وفي الثقافة العامة (القراءة الحرّة) وفي الشعر ، والثاني في القصة القصيرة ، والثالث في المسرحية ، والثالث في حفظ القرآن العظيم وتلاوته .

وقبل عدّة أيام كنت الفائزَ الأول على مستوى المملكة العربية السعودية في مسابقة البحوث التربوية ، مما دعا الأمير ماجد بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لِيقول مبتسماً : ما هذا ! الجامعة كلّها الحمش !؟

وفي أثناء استلامي الجوائز وشهادات التقدير ؛ لقيني أحد الزملاء ، فاستوقفني وقال بابتسامة صفراء أفعوانية : أفّ أفّ أفّ !! ماذا تركت لغيرك يا شيخ عذاب؟ لقد

حصدت جميع الجوائز ، وطار اسمك في وسائل الإعلام !

وصلت إلى بيتي عقب منتصف الليل ، ولم أستطع تناول الماء من شدّة الصداع والدّوار والحرارة ، وبقيت بعدها مريضاً بين الفراش ، وبين أسرّة المشافي من لدن تلك الليلة (١٤٠١/٨/٢٥) وحتى عام (١٤٠٧هـ) وقد أُجريت لي خمسُ عمليّات جراحية : منها عملية قرحة المعدة الفاشلة ، وعملية الانزلاق الغضروفي ، وعملية استئصال ورم متقيح في البطن !

ومن شدّة بغضي للأَسِرّة ، أقلعتُ عن النوم على السرير ، وصرت أكرهه وأتبرَّم به وخاطبته مرّة وقلت له :

ملِلْتُك يا سرير أما مللتَ أما يكفيك مني ما أكلتَ؟

وقد كتبت مُعظمَ رسالة (الماجستير) هذه ، وأنا مستلْقٍ على ظهري ، فقد صُنعتْ لي طاولةٌ مائلة ، فكتبتُ عليها رسالتي هذه .

وكانت ابنتي الكبرى البارّة المتفانية «دُجانة» هي التي تناولُني الكتبَ من أرفُف المكتبات المتطاولة ، وتعيدُها إليها ، وتبحث في فهارس الكتب عن الموضوعات التي أكلّفها بها طيلةَ أربع سنواتٍ ، دون كَلَلٍ ولا مَلَلٍ ولا ضَجَرٍ ، فلها ولوالدتِها الفاضلة «أمّ محمود» تقديري وعِرفاني[1] .

كتبت هذه الرسالة وأنا في أشدّ ظروف الامتحان الصحيّ ، وكنت أحسب أنني أريد بها وجهَ الله تعالى ، ولا أريد بها دنيا !

وهذا ما عبّرتُ عنه بأبيات شعرية ارتجلتها قبل موعد المناقشة بساعتين :

هاجريني ما شئت أن تهجريني واطرحيني فما إليك حنيني

لو تمثّلتِ في مفاتن أنثى أو تخضّعْتِ في إسار حزين

أنت دنيا وما طموح شريف نحو دنيا تَخَدّعَتْه بدين

يا دُنيّا تململي واكرهيني عابدوك تديّنوا غيرَ ديني

(١) عندما بدأتُ كتابة الرسالة كان عُمْرُ طفلتي تسعَ سنوات ، وكانت تصعد الدرج الخشبي لإحضار كتاب ، فربما سقطت والكتابَ عن الدرج لثقل الكتاب عليها !

عشقوك ، وقد حُسبنا جميعاً غيرَ أنت ، فقد علمتِ يقيني
قد تساوت رؤوس قومي جميعاً من عليم وجاهل وظنينِ؟

وحينَ بَدَأَتِ المناقشةُ ؛ استفتحتُ خُطبتي بهذه الأبيات !

وعقب المناقشة التي استمرت أكثر من سبع ساعات ؛ نالت الرسالة درجة الامتياز فقط ، من غير توصية بالطبع والتبادل !

وبعد المناقشة بأيّام قلائل ، جاءني واحد من أصحاب المطابع ، ودفع لي بدل حقوق التأليف (٧٥٠٠٠) خمسة وسبعين ألف ريال سعودي ، فرفضت لاعتبارات عندي يومئذ ، منها أنني أرفض أن أُحسب على أيّ جهة فكرية !

ثمّ جاءني أحد الزملاء الأفاضل سلّمه الله تعالى من حقد الحاقدين ، وكيد الظالمين بصورة عقد فارغ من دار طيبة العامرة بالرياض ، وقال لي : اكتب الرقم الذي تريد ، وأنا أضمنه لك ، عسى الله تعالى أن ينفع بعلمك ، ويأجرنا من وراء ذلك !

فأخذتني يومها نشوةٌ غامرة ، ظننت منها أنني أتيت بما لم يستطعه غيري ، فأخبرت الشيخ الوسيط بأنني أحتاج إلى سنة كاملة لمراجعة أكثر من خمس مئة صفحة وألفي صفحة طباعية !

لكنّ الحقيقة هي أنّ هذه النشوة الشيطانية هي التي أفسدت عليّ فرحتي !

وتكفيراً عن هذا الشعور الحزين يومئذ ؛ قرّرتُ عدم طباعة الكتاب ، وأعطيت إذناً عامّاً بتصوير الرسالة البالغة خمسَ مجلدات ، بدون أيّ مقابل ماليّ ، فصُوّر منها آلافُ النّسخ ، ولا يزال يُصوّر منها في السعودية حتى اليوم ، كما حدثني أحد طلابي منذ فترة قريبة ، قريبة !

واليومَ بدأت أقرأ هذه الرسالة ؛ لإخراجها كتاباً ، وأسأل الله تعالى أن يتمّ عليّ نعمته ، وأن يعينني على قراءتها وتنقيحها ، وأن يُيسّر أمر صدورها لتخرج من محبسها الرهيب ! وأن يمدّ في عمري ريثما أُخْرِجَ كتبي جميعاً ؛ لأنّني لا أظن أحداً يستطيع إخراجها على الصورة العلميّة التي أريد .

والله هو حسبي ونعم الوكيل . والحمد لله ربّ العالمين .

مقدّمة الكتاب

في لجّة هذا الخضمّ المتلاطم من التّيه والضّياع ، وفي تجرُّدِ هاتيك البيداءِ القاحلةِ العُريان ! وفي زحمة تصارع الأهواء المدلهمّة الشّرودِ ؛ تتطاوح النّفس ولهى ! تتلمّظ جَرعةً عذبة تخفّف من عنفوان الأجاج ، أو تطفئ غُلّةَ الظمأ الفاجع ، أو تَهدي إلى سواء السبيل !

إنّ المجتمع الانسانيّ اليوم تتنازعه معسكرات غارقةٌ في وحل الهوى ، هائمةٌ في جفاف الفكر والضمير ، وتنساق البقية الباقية منها متعاديةً متحاربة ، من وراء اختلافات عقدية وفكرية وسلوكية ، خاليةً من معاني الخير والبركة والعطاء والنماء ، غير مشدودة بحبل ما ، إلى أعالي السماء .

ترى . . أين يقف المسلم اليوم ، ومتى يتحرك ، وفي أيّ اتجاه يسير؟

ترى . . هل أصاب المسلمينَ ما أصاب غيرَهم من الأمم ، ضياعاً واتّباعاً للشهوات وأَثَرةً للّذّات؟

وهل نَخَرَ فيهم سوسُ الجفاف الفكريّ والشعوريّ ، فصاروا هياكلَ جامدةً ، ليس فيها حياة الإيمان ، ولا روح الإسلام ، ولا ندى القرآن؟

وهل اصطلح المسلمون على الخصام ، والعداوة ، والحقد ، والحسد والاتهام؟

أين المسلمون اليوم؟ وكيف يتوجهون؟ وإلى أين؟

في أثناء هذه التساؤلات الكثيرة وغيرها ، يقرع المسامعَ نداءٌ عاتب شفيق : (لا تقوم الساعة ، حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع) .

فقيل : يا رسول الله ، كفارس والروم؟ فقال : (ومَن الناس إلاّ أولئك؟!)[١] ويردف : قائلاً : (لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم ، شبراً شبراً ، وذراعاً ذراعاً ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضّب تبعتموهم) قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال : (فمن)[٢]؟

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ، باب قول النبي صلّى الله عليهِ وآلِه وسلّم : «لتتبعن سنن من كان قبلكم» رقم (٧٣١٩) وغيره .

(٢) ما سبق ، الموضع نفسه ، رقم (٧٣٢٠) .

أجل ! لقد حذا المسلمون حذوَ فارس والروم في مدنِيَّتهم ونظمهم وإداراتهم وجبروتهم ، وتكالبهم على حطام الدّنيا ، وشاركوهم ، أو استنوا بهم في أفراحهم وأتراحهم وسائر مظاهر حياتهم !

فإذا كان ذلك كذلك ، فلا بد من أن يطفوَ على تعاملهم الأثرة والتعاظم والتشاحُ ؛ تحقيقاً للتنبؤ الحزين : (دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، هي الحالقة لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين)(١) .

وقد تحقق ما حذّر منه الحبيب الشفيق ، ولم نُفِدْ من تحذيره الأكيد : (إيّاكم وسوء ذات البين ، فإنّها الحالقة !)(٢) .

ترى : هل وصلنا إلى سوء ذات البين؟ أو غرقنا في مستنقعها ، وسكرنا في مناتنها حتى اقترب منا الوعيد الرهيب : (يذهب الصالحون ، الأول ، فالأول ، ويبقى حُفالة كحفالة الشعير ، لا يباليهم الله باله !!)(٣) .

أجل ! أقول : اقترب ، ولا أقول : تحقق ، لأن في المسلمين بقايا خير نرجو أن تُفيض وقبساً من نور الله نأمل أن يُستنار به ، وذخيرةً من تراث النبوة نسعى أن يُهتدى بهديها وتُحتذى في المسير ، حتى يأتي أمر الله تعالى .

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : كان الناس يسألون النبي صلّى الله عليه وآله وسلَّم عن الخير ، وأسأله عن الشرّ مخافةَ أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنّا كنا في جاهلية وشرّ ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : (نعم) قلت :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم (١٤١٢ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣٢) والترمذي (٢٥١٠) في صفة القيامة ، وذكر الخلاف حول انقطاعه واتصاله . وفي إسناده ضعف ، لعله يتقوى بشواهده ، ومنها الذي يليه ، ولا بأس به في بابه في الرغائب !

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم (٢٥٠٨) وقال : صحيح غريب من هذا الوجه . وفسّر سوء ذات البين بالعداوة والبغضاء .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ذهاب الصالحين رقم (٦٤٣٤) وقال البخاري : يقال : حفالة وحثالة يعني : بمعنى . والحثالة : هي الرديء من كل شيء . وحثالة الناس سقطهم . انظر الفتح (١١ : ٢٥٢) .

وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : (نعم ، وفيه دَخَن !) . قلت : وما دخنه؟ قال : (قوم يهدون بغير هَدْيي ، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِر) . قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال : (نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها ؛ قذفوه فيها) . قلت : يا رسول الله صِفْهم لنا ، قال : (هم من جلدتنا ، ويتكلّمون بألسنتنا) . قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال : (تلزم جماعةَ المسلمين وإمامهم) قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال : (فاعتزلْ تلك الفرق كلّها ، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[١] .

فنرجو أن يكون المسلمون اليوم في طريقهم إلى تحقيق الخير المشوب بشيء من الكدر ما دام الخير صافياً غير مقدور لأمثالنا .

ومما يدلّ على أننا في طريقنا إلى ذلك الخير ، ولم نتجاوزه إلى عصر الحياة مع الدعاة على أبوابِ جهنم ، قولُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم : (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبريّاً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)[٢] .

فنحن نعيش اليوم في العالم الإسلامي كلّه حياة المُلك الجبري ، وسيرفعه الله متى شاء أن يرفعه ، ثم تكون الخلافة على منهاج النبوة .

فما منهاج النبوة ، وما مصادر معرفته؟

أما منهاج النبوة ، فهو طريق النبي صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم في الوصول إلى تحقيق حكم الله تعالى في الأرض ، مُسدّداً من الله تبارك وتعالى بالوحي والتأييد .

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن رقم (٧٠٨٤) وانظر كلام الحافظ في الفتح (١٣ : ٣٥) فما بعد . وأخرجه مسلم في الإمارة رقم (١٨٤٧) وغيرهما .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤ : ٢٧٣) والطبراني في الكبير (١ : ١٥٧) مختصراً ، والحاكم في المستدرك (٥ : ٤٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

واليوم قد انقطعَ الوحي ، وانتقل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى جنان ربّه ، واستقرّ الشّرع ،فإبرازُ هذا المنهج النبويّ ، وتحديدُ أُطُرِه ، وبيانُ محاسنه ، ورسم هيكله المعاصر ؛ إنما يقوم به السياسيّون الشرعيّون ، وأهل الحلّ والعقد في هذه الأمة ![1] .

وأما عملنا نحن ـ أهلَ الحديث ـ فهو في دراسةِ مصادر هذا المنهج وسِيَرِها وتصنيفها حسب مراحل الحياة الإسلامية المقبلة ، والقيام بتمييزها إلى نصوص محتجّ بها ونصوص غير محتج بها .

وقد قام علماء الجرح والتعديل بدراسة أحوال رواة الأحاديث ، وتتبع سِيَرِهم وتصنيفِهم في سلّم الجرح والتعديل .

كما قاموا بدراسة النصوص المرويّة ، وأبرزوا عِلَلَها ، وبيّنوا القادحَ من غير القادح من هذه العلل ، فكانت النصوصُ عندهم على ثلاثة أقسام :

(١) نوع اتّفق أهلُ العلم بالحديث على صحّته ، وهذا على ضربين :

(أ) أحدهما : أن يكون مرويّاً من أوجه كثيرة .

(ب) والضرب الثاني : أن يكون مروياً من جهة الآحاد .

(٢) وأما النوع الثاني من الأخبار ، فهي أحاديث اتفق أهل العلم بالحديث على ضعف مخرجها ، وهذا النوع على ضربين أيضاً :

(أ) ضرب رواه من كان معروفاً بوضع الحديث ، والكذب فيه .

فهذا الضرب لا يكون مستعملاً في شيء من أمور الدين ، إلاّ على وجه بيان اختلاقه .

(ب) وضرب لا يكون راويه متّهماً بالوضع ، غير أنه عُرِف بسوء الحفظ ، وكثرة الغلط في رواياته ، أو يكون مجهولاً لم يَثْبُتْ من عدالته ، وشرائط قبول خبره ؛ ما يوجب قبول مروياته .

فهذا الضرب من الأحاديث لا يكون مستعملاً في الأحكام ، كما لا تكون شهادة

---

(١) يختلف العلماء في تحديد مفهوم أهل الحلّ والعقد ، والراجح أنهم العلماء في شتى التخصصات ، وكلّ قائد في موقعه . فشيوخ العشائر ، وقادة الجيوش ، وأصحاب الاختصاصات الحيوية كلهم منهم ، وليسوا علماء الشريعة فحسب !

مَنْ هذه صفته مقبولةً عند الحكّام . وقد يستعمل عند بعض العلماء في الدعوات والترغيب والترهيب ، والتفسير والمغازي ، فيما لا يتعلق به حكم تكليفيّ مُلزم .

(٣) وأما النوع الثالث من الأحاديث ، فهو حديث قد اختلف أهل العلم بالحديث في ثبوته ، فمنهم من يُضعّفه بجرحٍ ظهر له من بعض رواته ، خفي ذلك على غيره ، أو لم يقف من حاله على ما يوجب قبولَ خبره ، وقد وقف عليه غيرُه ، أو المعنى الذي يجرحه به ، لا يراه غيره جرحاً ، أو وقف على انقطاعه ، أو انقطاع بعض ألفاظه ، أو إدراج أحد رواته قول بعض رواته في متنه ، أو دخول إسناد حديث في حديث ، خفي ذلك على غيره .

فهذا الذي يجب على أهل العلم بالحديث بعدهم أن ينظروا في اختلافهم ، ويجتهدوا في معرفة مكانتهم في القبول والرد ، ثم يختاروا من أقاويلهم أصحَّها[(١)] .

وقد قام كثير من علماء الأمة بدراسة أسباب جرح المحدثين ، ضمن مصنفاتهم في علوم الحديث ، أو في أثناء كلامهم على الرواة في كتب الرجال والعلل ، أو في تعقيباتهم على الأحاديث التي يروونها ، كما نبّه كثير منهم إلى ما يَصلُح أن يكون سبباً جارحاً يَسقُط به الرّاوي ، أو عِلَّةً قادحة يُردّ بها الحديث .

بيدَ أنه لم يَقُم أحد من المتقدِّمين بدراسة مناهج أئمة النقد ، وتفسير مصطلحاتهم وموازنتها بأقوال غيرهم من أبناء صنعتهم .

كما لم يقم أحدٌ بحصر ألفاظ النقد ودراسة مدلولاتها عند أئمة النقد ، أو عند واحد منهم[(٢)] .

وقد خطا هذا العلم خطوات وئيدة في عصرنا الحاضر ، والتفت العلماءُ إلى توجيه طلبة العلم الراغبين بالتخصص في هذا العلم ، إلى أمثال هذه الدراسات النقدية الجادة فكتب أحد طلبة العلم عن نشأة النقد وتطوره حتى عهد التدوين ، وكتب آخر عن

---

(١) المدخل إلى دلائل النبوة للإمام البيهقي (١ : ٣٢ ـ ٣٨) ملخصاً مع المحافظة على عبارته .

(٢) كما نبّه إلى ذلك الإمام السخاوي في فتح المغيث ، وأشار إلى أن الحافظ كان يلهج في ذلك فما تيسر له .

أسباب اختلاف المحدثين في قبول الأحاديث وردّها ، وكتب ثالث عن حصر ألفاظ الجرح والتعديل في كتاب تهذيب التهذيب ، وكتب غيرهم في منهج الإمام أبي حاتم الرازي في النقد ، ونحو هذه الأبحاث العلمية التي تهدف إلى فهم هذا العلم ، وتقريبه وتيسيره ، ومحاولة الإفادة منه في حياتنا العلمية ، الحاضرة والمقبلة .

وقد تتبعت كل هذه الأبحاث العلميّة وغيرها ، فوجدت أصحابها في أكثر مباحثهم لم يتحرّروا من هيبة المتقدم ، ورهبة مخالفته ، وقلّما كنت أجد فيها مباحث إحصائيّة جادّة ، بُنيَتْ عليها دراساتٌ علمية ناقدة ، خلصت إلى نتيجة علمية متحرّرة ، على ما في هذه الأبحاث وأمثالها من خير ونفع وبركة .

وقد كان أكثرَ ما يسترعي انتباهي في دراساتي الحديثية أمران :

(١) الأول : اختلاف العلماء المتأخرين في شخصيّة ابن حبان ومنهجِه في الجرح والتعديل ، واضطرابُهم في فهم منهجه في الأنواع والتقاسيم ، ثم طعْنُ بعضهم في رجال كتابه (الثقات) حين يريد تضعيفَ حديث يراه هو ضعيفاً ، لا يوافق معتقده ومذهبه .

أو يحتج بتوثيقه إذا كان الحديث على ما يشتهي هو مذهباً ومعتقداً؟ فكنت أحار من هذا التناقض والتضارب ، بين أقوال الرجل الواحد في الكتاب الواحد !

(٢) والثاني : اختلاف العلماء في دلالة مصطلحات الإمام الترمذي في كتابه الجامع ، على نحوٍ من عشرة أقوال ، وعدم تصريح ، أو تلميح واحد منهم بأنه قام بإحصائية علمية لهذه المصطلحات ، ثم توفَّر على دراستها دراسة علميّة ناقدة متحرّرة في ضوء شجرة رواة الترمذي ، وتخريجه لهم ، وتَوافق أحكامه أو اختلافها بين حديث وآخر ، وبيان ذلك بالأدلة الواضحة التي تُقيم الحُجّة وتُلزم بالتسليم ، ثم يُشاعُ إستخدام هذه المصطلحات التي لم تُستعمل بعد صاحبها إلا لماماً ، وكيف؟

وقد اخترت في هذه المرحلة العلمية التخصصيّة الأولى (الماجستير) دراسة (الإمام ابن حبان ومنهجه في الجرح والتعديل) . وأرجو أن أوفَّق إلى دراسة (الإمام الترمذي

ومصطلحاته في كتابه الجامع) في بحث علميّ آخر ، وما ذلك على الله بعزيز[١] .

وقد قسمت رسالتي هذه على ثلاثة أقسام رئيسة ، وسوف تصدر في ثلاثة مؤلفات منفصلة :

(أ) **القسم الأول** : الإمام ابن حبان ودراسة آثاره العلميّة ، وقد حوى ثلاثة أبواب من هذه الرسالة :

(١) الباب الأول منها : عصر الإمام ابن حبان من النواحي السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية ، والحربية ، والعلميّة ، والعقديّة ، والسلوكية ؛ باعتباره عصر الصراع الأكبرَ بين الفرق التي تنتسب إلى الإسلام ، وتخضع للخلافة العباسية أو تقارعها .

(٢) وتناول الباب الثاني : حياةَ الإمام ابن حبان الشخصية ، والعلميّة ، والمذهبية والسياسية ، والخُلُقية ، ومناقشة الاتهامات التي وُجّهت إليه .

(٣) وتناول الباب الثالث : دراسةَ مصنفاته التي وقفتُ على أسمائها ، أو اطّلعت عليها مطبوعة كانت أم مخطوطة ، وإعطاء صورة واضحة عن كلّ واحد منها .

(ب) **القسم الثاني** : تاريخ علم الجرح والتعديل وأبرز أعلامه حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، وقد فصَلت هذا الباب عن الرسالة ، وطوّرته وزدت عليه ضعفي حجمه ، وسوف يصدر قريباً بعنوان : مناهج المصنفين في الجرح والتعديل ، إن قضى الله تعالى ذلك وشاءه .

(ج) **القسم الثالث** : منهج ابن حبَّان في الجرح والتعديل ، وقد اشتمل على أربعة أبواب من أبواب الرسالة الثمانية (٥ ـ ٨) .

(٥) كان الباب الخامس عن مصادر النقد وخطواته عند ابن حبان .

(٦) وأما الباب السادس فتناول دراسةً عن العدالة بين المحدثين وبين ابن حبّان .

(٧) وتناول الباب السابع دراسةً عن الضبط بين المحدثين وبين ابن حبان .

(٨) وتناول الباب الثامن ألفاظَ النقد ودراستها عند ابن حبّان .

---

(١) وقد يسّر الله تعالى ، واستجاب دعائي ، فكانت رسالتي الثانية لنيل درجة الدكتوراه ، عن الإمام الترمذي ، ومنهجه في كتابه الجامع ، وقد طبع الكتاب قبل ثلاث سنوات من الآن ، ولله الحمد والمنة !

وكانت خاتمة البحث عدداً كبيراً من النتائج المُهِمّة التي توصلت إليها من وراء معاناتي في هذا البحث، وبعض المقترحات التي أُوَجّهها إلى أساتذتي العلماء، وإخواني طلبة العلم .

ولّما كان مثل هذا العمل العلمي، لا يستوي على سوقه، ولا يؤتي ثمارَه، ما لم يرافق الأفكارَ النّظريةَ تطبيقاتٌ عمليّة تؤكّد حقيقتها، أو تصحّح عبارَتَها، أو تنفي وجودَها؛ فقد قمت بالأعمال التكميلية الواجبة الآتية :

(١) أعددت شجرة لرجال ابن حبان في كتاب (موارد الظمآن) حتى أقوم بدراسة من يلزم دراسة أحاديثه من الرواة عنده، وحتى أقارن بين رجاله وبين رجال الشيخين ودرجاتهم في سلّم النقد .

وقد كنت أرغب بإعداد شجرة رجال ابن حبان في صحيحه كاملاً، بيدَ أنني جهدت، ولم أستطع الحصول على نسخة كاملة من (ترتيب صحيح ابن حبان) ولما تيسر ذلك؛ كان قد فات الأوان .

ثمّ إنني أفدت من فهارس الإحسان بعد طباعته في تتميم عملي، وزيادةِ الدقّة في العزو والعدد .

(٢) قمت بإعداد سبعة ملاحق علميّة بنيتُ عليها هذه الدراسة النقديّة :

ـ الملحق الأول : خصصته لرواة مرتبة الاحتجاج، فجمعت الرواة الذين وصفهم ابن حبان بوصف من أوصاف التوثيق التي يُحتجّ بمن وصف بها .

ـ الملحق الثاني : وخصصته لرواة مرتبة الاعتبار، فقد جمعت الرواة الذين طعنهم ابن حبان طعوناً لا تُسقط عدالتهم الحديثية، وإنما تحطّهم عن درجة الاحتجاج إلى درجة النظر والاختبار، أو درجة الاعتبار، ويسمّيهم ابن حبان بالمقبولين . وقد تجد بين هؤلاء رواةً متروكين، وعذري في عدم تمييزهم عن المقبولين، هو أن ابن حبان قد أطلق على هؤلاء وأولئك اللفظةَ النقديّة ذاتها . وحين الدراسة الفردية لكلّ راو، كنت أحدّد درجته في سلّم القبول أو الترك ـ إن تيسّر لي ذلك ـ وأنبّه على هذا في أثناء دراسة الألفاظ النقدية في الباب الثامن .

ـ الملحق الثالث : وخصصته لرواة مرتبة الترك ، وقد جمعت فيه الرواة الذين حكم ابن حبان باستحقاقهم الترك ، وإن كان بعضهم لم يصل إلى هذه المرتبة عند غيره من النّقّاد ، أو في الأمر نفسه .

وقد ضمّت هذه الملاحقُ الثلاثةُ كلَّ الرواة الذين تكلّم عليهم ابن حبان بجرح أو تعديل في كتابيه (الثقات) و(المجروحين) وقاربوا أربعةَ آلاف رجل . وقد تجد الرّاوي الواحد يتكرّر ذكره تحت عدة إحصاءات نقدية ، وهذا لم يَفُتْنا معرفته ، ولكنّنا رضينا بالتكرار أحياناً ؛ لتستوفي الدراسة كلّ لفظ نقديّ أطلقه ابن حبان ، مهما تنوعت طريقة إطلاقه إيّاه .

وقد رأيت الحافظ ابن حبّان استعمل مصطلحاً مثل : ثقة ، حافظ ، ضعيف ، منكر الحديث ، واستعمل تعليلَ تلك المصطلحات ، مثل : يخطئ ، يروي الموضوعات ، ينفرد بما لا يتابع عليه .

واستعمل ما يمكن أن ندعوَه الأحكام على الرواة ، مثل : لا يجوز الاحتجاج به استحق الترك ، لا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد . .

وقد زادت ألفاظ النّقد عند ابن حبان على مائتي لفظ ، بعضها ينفرد بمدلول خاص وبعضها يجمعه وغيره معنىً مشترك ، وقد بيّنت ذلك كلّه في موضعه من الباب الثامن .

ـ الملحق الرابع : خصصته للرواة الذين ترجمهم ابن حبان في كتابيه (الثقات) و(المجروحين) ، وقد قمت بتفسير هذه الظاهرة ، ونبّهت إلى أن من الرواة الذين يقول الحافظ ابنُ حجر فيهم : ذكره ابن حبان في الثقات ، وذكره في المجروحين ، لا يُسَلّم للحافظ قوله أو على الأقل : كان عليه أن يكمل العبارة فيقول مثلاً : ذكره في المجروحين وقال كذا . وذكره في الثقات وقال : ضعيف . ويكون ابن حبان قد ذكره في أثناء ترجمة واحد من الثقات الذين ضعَّفهم بعض الحفاظ لرواية هذا الضعيف عنه ، أو روايته هو عن هذا الضعيف ، ونحو هذا ، مما هو ظاهر في مواضعه من هذا الكتاب .

ـ الملحق الخامس : خصصته للرواة الذين خرج لهم الشيخان ، أو أحدهما وجرحهم ابن حبان في كتابه (المجروحين) .

ـ الملحق السادس : وخصصته لشيوخ ابن حبان الذين روى عنهم في سائر كتبه الموجودة بين أيدي الناس اليوم .

– الملحق السابع : وجعلته للبلدان التي رحل ابن حبان إليها ، وتلقّى فيها على مشايخه العلم الشريف ، وكانت أكثر من مائة بلد مُصرّح بها ما بين إسفيجاب والإسكندريّة .

ثم جعلت ثبتاً لمصادر البحث ومراجعه ، وثبتاً عاماً للموضوعات(١) .

وبعد : فإنّني لا أدّعي في عملي هذا الكمال ، ولا ما يقاربه ، وحسبي أنني بذلت قصارى جهدي ، وقصوى طاقتي ، فإن كنت قد أصبت وقاربت ، فبمحضِ فضلِ الله عليّ وتوفيقه ، وإن كانت الأخرى ـ لا قدر الله ـ فحسبي أنني قصدتُ الخير ، وعملتُ ما بوسعي لأبلُغَه ، والأعمال بالنيات ، والله تعالى هو الرحمن الرحيم .

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف : ٢٣) .

وصلّى الله وسلم وبارك على عبده ونبيّه سيدنا مُحمّد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه وحزبه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

نجز الكتاب في صورته الأولى في

مكة المكرمة بتاريخ ١/٦/١٤٠٦هـ

(١) هذا ما كنت صنعته حين كتبت الرسالة ، لكنني حين راجعتها وأعددتها لتصبح كتاباً ؛ أضفت إليها عدداً من الكشافات المفيدة .

المدخل إلى الكتاب

الجهود العلمية في خدمة كتب ابن حبان

ـ جهود العلماء السابقين :

إنّ المتتبع لجهود العلماء السابقين في خدمة كتب ابن حبّان ؛ يتبين أن الرجل كان موضع عنايتهم واهتمامهم ، فمن مهتمٍّ بكتابه في الثقات ، إلى مهتمٍّ بكتابه الصحيح إلى مهتمّ بكتابه في الضعفاء . . . إلخ !

وسأتناول جهود العلماء الذين اهتموا بكتبه في الرجال ، وجهود العلماء الذين اهتموا بكتابه الصحيح معاً ، مراعياً الترتيب التاريخي في ذلك ؛ لأنّ بعض أولئك المصنّفين ألّف كتاباً في رجال صحيح ابن حبان ، وكتاباً في خدمة صحيحه ، مع لفت النظر إلى تناول رجال كتابه الصحيح ضمن كتبه في الرجال ؛ لأنّ رواة كتابه الصحيح مترجمون في كتابيه الثقات والمجروحين ، إلاّ نفراً يُعَدّون على الأصابع ، فات ابن حبّان ترجمتُهم ، مثلما فات البخاريَّ ترجمةُ عدد من رواة صحيحه أيضاً !

ـ كتاب «تذكرة الحفّاظ في ترتيب أحاديث كتاب المجروحين لابن حبان» للحافظ محمد بن طاهر المقدسيّ (ت : ٥٠٧هـ) وطبعته دار الصميعي في الرياض ، وقد حققه الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي وليته لم يفعل ، والتزم بما قاله في مقدمة تحقيقه كتاب التذكرة (ص : ٥) : «وكنت أمنّي نفسي لو حصلت على مخطوطة الأستانة وغيرها من مخطوطات كتاب المجروحين لأقوم بتحقيقه ، تحقيقاً علمياً ، حيث إن الأخطاء الفاحشة موجودة في مطبوعة حلب ، بل سقط منها بعض التراجم ، ولكني علمتُ من بعض الأساتذة أن الأخ الأستاذ عداب محمود الحمش يقوم بتحقيقه ، وهو الذي تخصَّص في منهج ابن حبَّان في الجرح والتعديل ، وصاحب الكتاب القيم «رواة الحديث» فتركت الأمر له ، وأرجو أن يوفَّق في ذلك» .

قلت : وما عابه على طبعة حلب ؛ وقع في تحقيقه ما هو مثله وأشنع ، غفر الله له !

وقد فات ابنَ طاهر عددٌ غير يسير من أحاديث المجروحين ، فصّلت القول عليه في

تحقيقي كتابَ المجروحين ، الذي تأخر صدوره لأسباب عديدة ، نسأل الله تعالى المعونة على إصداره .

ـ كتاب «رجال الكتب العشرة»[١] للحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصَّريفينيّ الحنبلي نزيل دمشق (٥٨١ ـ ٦٤١هـ)[٢] .

ـ كتاب «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» للأمير علاء الدين أبي الحسن علي بن بلبان الفارسي الحنفي (ت : ٧٣٩هـ) . وسوف يأتي التعريف به عند الكلام على «صحيح ابن حبان» في الباب الثالث .

ـ كتاب «ترتيب صحيح ابن حبان على الأبواب الفقهية» للحافظ علاء الدين مغلطاي بن قليج البكجري الحنفي (ت : ٧٦٢هـ) .

ـ كتاب «زوائد ابن حبّان على الصحيحين» له .

قال ابن حجر في «اللسان» : رأيتهما بخطّه ولم يَكْمُلا وذكرهما ابن فهد في «لحظ الألحاظ»[٣] .

ـ كتاب «ترتيب صحيح ابن حبان على الأبواب الفقهية» للحافظ ناصر الدين محمد ابن عبد الرحمن المقدسي الدمشقي الحنبلي (ت : ٨٠٣هـ) . ذكره ابن فهد في لحظه[٤] .

ـ كتاب «إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للفقيه سراج الدين أبي علي عمر بن علي الأنصاري المعروف بابن الملقّن (ت : ٨٠٤هـ)[٥] وقد نقل السخاوي عن الحافظ قوله : «ومن تصانيفه مما لم أقف عليه : إكمال تهذيب الكمال ، ذكر فيه تراجم رجال ستّةِ كتبٍ ، وهي كتب : أحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والدارقطني ، والحاكم» .

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ للسخاوي (ص : ٢٣٤ ـ ٢٣٥) ولا يُعرف عن وجوده شيء وانظر الخلاف في تسميته في زوائد رجال صحيح ابن حبان للدكتور يحيى الشهري (٧٠/١) .

(٢) ترجمته في تذكرة الحفاظ (١٤٣٣/٤) والنبلاء (٨٩/٢٣) .

(٣) لسان الميزان : (١٣٣/٧) ، ولحظ الألحاظ (ص : ١٣٩) .

(٤) لحظ الألحاظ (ص : ١٩٦) .

(٥) ترجمته في الضوء اللامع (١٠٠/٦ ـ ١٠٥) .

قال السخاوي : «وقد رأيت منه مجلّداً ، وأمره فيه سهل!»[١] .

ـ كتاب «اختصار صحيح ابن حبان» له أيضاً[٢] .

ـ كتاب «أطراف صحيح ابن حبان» للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت : ٨٠٦هـ) .

ـ كتاب «رجال صحيح ابن حبان» له أيضاً ، صرّح بالنقل منه ابنُ حجر في «اللسان» في ترجمة الحارث بن سُريج النقال فقال : «وقرأت بخط شيخي في ترجمة الحارث هذا من رجال ابن حبان له»[٣] .

قال ابن فهد : «بلغ في رجاله إلى النوع الستين من القسم الثالث سوى ما في تهذيب الكمال» وقال السخاوي في الإعلان : «وأفرد الزين العراقي رجال ابن حبان»[٤] ونقل منه السيوطي في التدريب[٥] .

ـ كتاب «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» للحافظ نور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي (ت : ٨٠٧ هـ)[٦] .

ولهذا الكتاب فوائد كثيرة ؛ منها أنه جمع في مجلد واحد الأحاديثَ التي لم يخرّجها البخاري ومسلم ، وهي صحيحة على شرطه ، وكان عددُها (٢٦٤٧) سبعة وأربعين حديثاً وستّ مئة حديث وألفي حديث . وهذا العدد أكبر من جملة أحاديث

---

(١) الضوء اللامع (٦ : ١٠٢) .

(٢) كشف الظنون (٢ : ٧٧ ، ١٠٧٥) .

(٣) لسان الميزان (٢ : ٣٦٠) .

(٤) لحظ الألحاظ لابن فهد (ص :٢٣٣) والإعلان بالتوبيخ (ص : ٢٣٣)

(٥) تدريب الراوي (٢ : ٨٢٤) وانظر زوائد الشهري (٢ : ٩٤٤) .

(٦) وقد اعتمدنا في هذه الرسالة على طبعة المطبعة السلفية بمصر بتحقيق الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة بعد أن أصلحنا آلاف الأخطاء في الأسانيد والمتون فيها . ثم طبع الكتاب بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط طبعة جيدة ، فقمنا بإصلاح الإحالات إليها ، حيث عزونا الحديث إلى المجلد ورقم الحديث ، وكلامَ ابن حبان إلى المجلد ورقم الصفحة .

صحيح البخاري من غير تكرار ، وهذا يبيّن حجم الصحيح الزائد على الصحيحين ضمن خطة ابن حبان في تأليف كتابه الصحيح حسب المنحى الأصولي له ، من غير قصد منه إلى جمع سائر الصحيح .

ـ كتاب «ترتيب ثقات ابن حبّان» على حروف الهجاء له ، ويوجد منه ثلاثة مجلّدات ، وهو ناقص ما بين حرف السين إلى حرف العين . ولديّ مصورة منه .

ـ كتاب «إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من زوائد العشرة» للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) جمع فيه الحافظ أحد عشر كتاباً ، وأحد هذه الكتب صحيح ابن حبان بتمامه .

وقد حُقّق هذا الكتاب وطبع في مركز خدمة السنة والسيرة النبوية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ومن يريد إعادة ترتيب صحيح ابن حبان على التقاسيم والأنواع ؛ فهذا الكتاب أحد مصادره الرئيسة .

ـ كتاب «الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة» للشيخ زين الدين أبي العدل قاسم ابن قُطْلوبغا الحنفي (ت : ٨٧٩هـ) يوجد قسم منه في مكتبة كوبرلي بإستانبول ـ تركيا ـ وعنه مصورة بالجامعة الإسلامية ، برقمَي (٦٩١٧ ، ٧٢٧٩) ولم أر هذا الكتاب في الحقيقة ، وقد وجدت الدكتور الشيخ يحيى الشهري أفاد منه كثيراً في كتابه زوائد رجال صحيح ابن حبان على الكتب الستة ، فإذا أحلت في كتابي هذا إلى هذا المخطوط فبطريقه ، وهذه المعلومات عن الكتاب أفدتها منه[١] .

ـ الدراسات العلمية المعاصرة :

حظي الإمام ابن حبان بدراسات متعددة في نصف القرن الأخير الماضي ، وسوف أتتبع هذه الدراسات بالتعريف العام في هذا المدخل تاركاً تقويم هذه الأعمال إلى مواضعها من هذه الدراسة ، مع التركيز على إظهار محاسنها ؛ لأن الاعتراف بالسبق والفضل لأهله من سمات الرجال من أهل العلم ، الذين يعرفون أن العالم والباحث والدارس إنما يتناول جانباً من جوانب العلم المتعدّدة فيصيب بالكثير منه ، ويخطئ

---

(١) زوائد رجال صحيح ابن حبان على الكتب الستة (٦ : ٢٧٩٦) .

بالقليل ، لكن جوانب كثيرة أخرى لا تدخل في إطار بحثه تحتاج إلى من يقوم بها .

وسأرصد هذه الدراسات حسب تاريخ إنجازها :

١ ـ «الإمام ابن حبان وأثره في الحديث» لأستاذي النبيل المحقق السيد أحمد صقر المصري ، وهو مشروع بحث سجّله في كلية أصول الدين من جامعة الأزهر بالقاهرة عام ١٩٧٤م ، وحين كان يدرسنا في السنة المنهجية من الماجستير عام (١٤٠٢هـ) حدثني بذلك ، واعتذر عن إتمام العمل ، لسوء حالته الصحية ، رحمه الله تعالى ، وأوسع له .

٢ ـ «دور العقل في التربية الإسلامية عند ابن حبّان البستي من خلال كتابه روضة العقلاء» للزميل الباحث عبد الكريم محمد أحمد زهد ، وقد حصل بها على درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة أم القرى ، عام (١٤٠٤هـ) وهي رسالة طيّبة في بابها أشرت على الزميل الفاضل بكتابتها ، وتم ذلك بفضل الله تعالى .

٣ ـ «الإمام ابن حبان ومنهجه في الجرح والتعديل» وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

وحين سجّلت هذا العنوان مشروعاً لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى ، في عام (١٤٠٢هـ) قال أستاذنا السيد أحمد صقر رحمه الله تعالى : «الموضوع عَسِر وصعب وعدابٌ أهل له ، وإذا أنجزه في عشر سنوات ؛ فيكون فتحاً مبيناً ، أمّا غير عداب فلا يستطيع إنجازَه أصلاً» .

وقد كان كلام أستاذي الصقر رحمه الله تعالى في بيان صعوبة هذا البحث صحيحاً ؛ فقد عانيت في إعداد هذه الدراسة أربعَ سنوات تامة ، حتى كملت عام (١٤٠٦هـ) وأكرمني الله تعالى بقبولها من أهل العلم المختصين ، وقلَّما تجد رسالةً علمية في هذا العلم ، إلا وأثرها واضح فيها ، ولا تزال تتصدّر الدراساتِ التي تناولت علم الجرح والتعديل حتى يومنا هذا ، ولله تعالى الفضل والمنّة !

وعليه فتكون دراستنا هذه أول دراسة علميّة شرعيّة عن ابن حبان في هذا العصر !

٤ ـ «زوائد ابن حبان دراسة ونقد» للباحث محمد عبد الله أبو صعيليك ، وهي بحث تكميلي حصل به الباحث على درجة الماجستير في أصول الدين من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية بعمان عام (١٤٠٩هـ) وقد بيّن منهجه في هذا

البحث وكان على النحو الآتي ـ كما هي عبارته ـ :

«حَصْرُ الأحاديث المنتقدة في كتاب موارد الظمآن من كتب التخريج والشروح وغيرها ودراستها والحكم عليها لبيان ما كان منها ضعيفاً وما لم يكن الأمر كذلك ، وقد قمت بحصر هذه الأحاديث من خلال الكتب التالية :

العلل الكبير للترمذي ، والترغيب والترهيب للمنذري ، وتخريج الإحياء للعراقي ونصب الراية للزيلعي ، والتلخيص الحبير لابن حجر ، وفتح الباري له ، ومصباح الزجاجة للبوصيري ، وفيض القدير للمناوي ، وكشف الخفاء للعجلوني ، وتنزيه الشريعة لابن عراق ، وسبل السلام للصنعاني ، ونيل الأوطار للشوكاني ، والتعليق المغني على سنن الدارقطني لشمس الحق العظيم آبادي ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري» .

ثمّ قال الباحث : «هذه القائمة قد تصفحتها وحصرت ما فيها من الأحاديث المنتقدة»[1] وبنى دراسته على ذلك !

قلت : قد زارني الباحث الفاضل في مكة المكرمة ، عندما كان يبحث عن مصادر لبحثه ، ولا أذكر الحوارَ الطويل الذي دار بيننا يومئذٍ ، والذي أذكره الآن أنني قلت له : إن عمله هذا يجب أن يُسْبَق بتخريج أحاديث موارد الظمآن كلها ونقدها من قبله هو ؛ لأن اعتماده على العلماء الذين سبقوه ؛ لن يوصله إلى نتائج صحيحة ، حيث إنّ لكلِّ عالم من هؤلاء العلماء منهجاً في التصحيح والتضعيف ، فقد يَجِدُ عالماً يضعّف حديثاً بينما يحسّنه عالم آخر ، ويصححه عالم ثالث ! ولكن الباحث في تلك الأيام كان متحمساً كثيراً لبحثه الذي اختاره ، فمضى فيه على ذلك المسلك الخاطئ في نظري .

وقد تناول هذا البحث في بابين :

ـ الباب الأول : صحيح ابن حبان ومنزلته .

ـ والباب الثاني : الهيثمي وزوائد ابن حبان .

وقد اطّلعت للباحث نفسه على كتاب سمّاه (محمد بن حبّان البستي فيلسوف الجرح والتعديل) صدر عن دار القلم بدمشق (١٤١٥هـ) ضمن «سلسة أعلام المسلمين»

(١) زوائد ابن حبان لمحمد أبو صعيليك ، مكتبة الجامعة الأردنية برقم (٢ : ٣٦٠٤) ص(ج ، د) .

رقم (٥٥) ظهر لي من المقارنة أن هذا الكتاب يشمل الباب الأول من رسالته سالفة الذكر ، أما الباب الثاني المتعلق بدراسة الزوائد فإنه لم يطبعه ، وإنما سأل الله في أواخر كتابه هذا ؛ أن ييسر له طباعته (ص : ١٨٣) .

وسوف أتناول دراستَه هذه بالنقد والتقويم عند كلامي على مؤلفات ابن حبان في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

ويبدو أنّ الباحث أبو صعيليك لا يعلم عن رسالتي شيئاً ، ولا اطّلع عليها في مكتبتي ، ولا في مكتبة جامعة أمّ القرى ، ولا في مكتبة الجامعة الأردنية في أثناء تحضير رسالته ، وبعد إنجازها ، ولهذا فإنه لم يشر إليها في رسالته الأولى ، ولا في كتابه المطبوع أمّا نحن ؛ فقد اطلعنا على كتابه ورسالته ، ووجدنا الأمانة تقضي أن نعرّف بها .

٥ ـ كتاب «منهج ابن حبان في مشكل الحديث في صحيحه» للباحث إبراهيم العِسْعِس .

وهي رسالة علمية نال بها درجة الماجستير في أصول الدين من كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية ، عام (١٩٩٢م) .

وقد جاءت هذه الرسالة في (١٦١) صفحة بما في ذلك المقدمة والخاتمة وأثبات البحث .

وقد قسم الباحث رسالته هذه على ثلاثة فصول :

ـ الفصل الأول : ابن حبان وصحيحه ، وتحته مبحثان ، ضمّا سبعة مطالب .

ـ والفصل الثاني : التعريف بعلم مشكل الحديث ، وتحته خمسة مباحث .

ـ والفصل الثالث : منهج ابن حبان في مشكل الحديث ، وتحته خمسة مباحث أيضاً ، وقد أخذَتْ (٥٠) صفحة من صفحات هذه الرسالة (٩٤ ـ ١٤٤) .

والرسالة بفصليها الثاني والثالث نافعة مفيدة ، يظهر على صاحبها الرغبة في تجديد علم الحديث ، وضرورة الخروج على الأبحاث التقليدية .

وقد طبع الباحث الفصلين الأول والثاني من رسالته هذه في كتاب سمّاه (دراسة نقدية في علم مشكل الحديث) وقد صدر عن المكتب الإسلامي عام (١٤١٦هـ) .

ولو أنه طبع الفصل الثالث تحت هذا العنوان ذاته ، بزيادة : دراسة تطبيقية في صحيح

ابن حبان ؛ لما كان من حرج ، ولما حُرِم الباحثون مما توصّل إليه من نتائج !

ولم أقف للباحث الفاضل على بحوث حديثية منشورة تكافئ غيرته الظاهرة هذه ووعودَه التجديدية الكثيرة ، سوى هذا البحث الوجيز[1] !

وظهر لي أنّ الباحث غير مصاب بعُقَد السبق والاستعلاء التي تربّي الحركات الإسلامية المسيَّسة أبناءها عليها ، فقد صرّح باطّلاعه على رسالتي هذه ، فقال : «وفي ظنّي أنه كما لا ينبغي قبول تفرّد ابن حبان في توثيق المجاهيل مطلقاً ، فإنه ليس من الدقّة رفضه على الإطلاق ؛ إذ علينا تجاوز القواعد العامة واللجوء إلى الدراسات التتبعية لكلّ حديثٍ حديث» . . . إلى أن قال : «وهي ـ يعني مسألة توثيق المجاهيل ـ مسألة تحتاج إلى بحث استقرائيّ دقيق وجهود متضافرة من أهل التخصص[2] .

ولعلّ دراسة الشيخ عدابِ الحمش في رسالته خطوة على الطريق ، وانظر كتابه «رواة الحديث الذين سكت عليهم أئمة الجرح والتعديل» (ص : ٣١)» .

٦ ـ «معالم فقه ابن حبان» للأستاذ الدكتور عبد المجيد محمود عبد المجيد ، فقد صدر الكتاب عن مكتبة البيان بالطائف عام (١٤١٦هـ) . وقد جعل الأستاذ الكريم رسالتي هذه أول مصادر بحثه (ص : ٢٤٧) وقال في مقدمة كتابه : «انتقد بعض العلماء ابنَ حبان في بعض آرائه وجرحه آخرون ، وقد اهتمَّ بجمع هذه الانتقادات الشيخ عداب الحمش في رسالته للماجستير بعنوان «ابن حبان وأثره في الجرح والتعديل» (ص : ١٥)» .

وقد جاء كتاب المعالم هذا في (٢٥٣) صفحة بما في ذلك المقدمة والفهارس ، وقد احتوى على بابين : تحت الباب الأول أربعة فصول ، وتحت الثاني منهما خمسة فصول .

---

(١) ووقفت له على كتيّبٍ بعنوان «السلف والسلفيون رؤية من الداخل» وكتيّب آخر بعنوان «الأمة والسلطة باتجاه الوعي والتغيير» وهما كتابان فكريان يعالجان بعض مشكلات الدعوة إلى الله تعالى ، ولا صلة لهما بعلم الحديث الذي يتحرّق عليه .

(٢) البحث الاستقرائي قد قام به تلميذي الفاضل الشيخ عبد الباسط أحمد ، وسوف يأتي الحديث عنه .

وسوف أتعرّض لبعض مباحث هذا الكتاب عند الحديث على فقه ابن حبان ، في الباب الثاني ، إن شاء الله تعالى .

٧ ـ كتاب «آراء ابن حبان في العقيدة ومنهجه في عرضها» للباحث عبد العزيز المبدل ، وهي رسالة نال بها الباحث درجة الماجستير من جامعة الملك سعود بالرياض (١٤١٦هـ) وتتكون من أربعة أبواب رئيسة :

الأول : في توحيد الأسماء والصفات .

والثاني : في توحيد الألوهية .

والثالث : في آراء ابن حبان في السمعيات .

والرابع : في الأسماء والأحكام . . وتحت كل باب من هذه الأبواب مباحث فرعية[١] .

٨ ـ كتاب «آراء الإمام ابن حبان في المسائل الاعتقادية ـ عرض ونقد» للباحث أحمد بن صالح بن حسن الزهراني .

وهي رسالة علميّة نال بها الباحث درجة الماجستير من جامعة أم القرى ـ كلية الدعوة وأصول الدين ـ قسم الكتاب والسنة ، عام (١٤١٨هـ) .

وتتكون الرسالة من سبعة فصول رئيسة :

الفصل الأول : ابن حبان وعصره .

الفصل الثاني : منهجه في العلم والتلقّي .

الفصل الثالث : مسائل التوحيد عند ابن حبان :

في تمهيد ، وستة عشر مبحثاً .

الفصل الرابع : عقيدة ابن حبان في الأسماء والصفات :

في تمهيد ، وواحد وعشرين مبحثاً .

الفصل الخامس : مسائل الإيمان والتصديق عند ابن حبان :

---

(١) وهذه الرسالة لم أطّلع عليها ، ونقلت هذه المعلومات عنها من كتاب «زوائد رجال ابن حبان» للدكتور يحيى الشهري ، وفقه الله تعالى ونفع بعلمه (٧٦/١) .

في تمهيد ، وعشرين مبحثاً .

الفصل السادس : عقيدة ابن حبان في القَدَر :

في تمهيد ، وخمسة مباحث .

الفصل السابع : موقف ابن حبان من الفِرق المخالفة .

والخاتمة ذكر فيها نتائج بحثه(١) .

٩ ـ كتاب «المجهولون ومروياتهم في صحيح ابن حبان» للباحث عبد الباسط أحمد كريج الحموي .

وهي رسالة علميّة نال بها الباحث درجة الماجستير في أصول الدين من جامعة صدّام للعلوم الإسلامية في بغداد ، عام (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) .

وقد جاءت هذه الرسالة في (٢٩١) صفحة ، أدارها الباحث على فصلين :

ـ الفصل الأول : دراسة دائرة الجهالة عند ابن حبان ، وتحته مبحثان ، اندرج تحتهما ثمانية مطالب .

ـ والفصل الثاني : الرواة الذين انفرد ابن حبان بالتخريج لهم ، وهو الجانب التطبيقي في الرسالة .

وهذه الرسالة من الرسائل القليلة التي رضيتُ عنها ، ولو استطاع الباحث أن يتحرر من ضغوط بعض أساتذته الطائفيين في العراق ؛ لكانت الرسالة أحسنَ من حُسنها الحاليّ !

وسوف أتناول بالنقد جوانب من هذه الرسالة في القسم الثاني من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

بيدَ أنني أحبّ أن أسجّل للباحث هنا كلمةً معبرة عن صلتي بهذه الدراسة منذ

---

(١) وهذه الرسالة لم أطلع عليها أيضاً ، ونقلت هذه المعلومات عنها من كتاب زوائد رجال ابن حبان للدكتور يحيى الشهري (١/٧٦) ومن المستغرب تكرار الأبحاث العلمية ذاتها في جامعات السعودية ، رغم أنها من أول البلاد العربية التي استخدمت الحاسوب . وسوف يأتي التعريف بهذه الرسالة عند الكلام على عقيدة ابن حبّان .

كانت فكرةً أشرتُ بها عليه ، إلى أن غدت ثمرة ناضجة ، حَصَلَتْ على درجة الامتياز !

قال الباحث في مقدمة رسالته : «ولا يفوتني أن أتقدم بوافر شكري ، وعظيم امتناني إلى أستاذي الشيخ الدكتور عداب محمود الحمش ، الذي أتحفني بنصائحه وتوجيهاته الرشيدة فضلاً عن فتحه بيته ومكتبته طيلة مدة كتابة بحثي هذا ، فله مني جزيل الشكر» (ص : ج) .

١٠ ـ كتاب «علل الأخبار ومعرفة رواة الآثار» استخرجها من صحيح ابن حبان وعلّق عليها الدكتور يحيى بن عبد الله الشهري ، وقد صدر هذا الكتاب عن مكتبة الرشد بالرياض ، عام (١٤٢٢هـ) .

ويقع هذا الكتاب في مجلّد بلغت صفحاته (٤٣٥) صفحة ، جمع فيه مؤلفه فوائد علمية عزيزة منثورة في تضاعيف صحيح ابن حبان الخِضمّ الذي بلغ في طبعته المحققة ستة عشر مجلّداً ، وعلّق المؤلف على هذه الفوائد تعليقات مفيدة .

وقد جاءت فوائده متنوعة في علم علل الحديث ، وعلم الرجال بمعناه الأوسع الذي يكوّن علم الجرح والتعديل فرعاً من فروعه .

وقد أفدت من هذا الكتاب فوائد كثيرة في مراجعة كتابي هذا ، وسوف يُفيد منه الباحثون كثيراً ، نسأل الله لمؤلّفه الأجر العميم على جهوده الطيبة .

١١ ـ كتاب «زوائد رجال صحيح ابن حبان على الكتب الستة» للدكتور يحيى بن عبدالله الشهري ، وهو في أصله أطروحة نال بها المؤلف درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية من كلية أصول الدين بجامعة أمّ القرى بتقدير ممتاز ، عام (١٤٢١هـ) .

وقد جاء هذا الكتاب في ستة مجلّدات بلغ مجموع صفحاتها (٣٤٣٤) صفحة كان المجلّد السادس الأخير منها للكشّافات العلميّة المتنوعة التي بلغت تسعة وعشرين كشافاً نافعاً !

وجملة الكتاب أنّ مؤلّفه الفاضل ترجم فيه (٧٤٨) سبع مئة وثمانياً وأربعين ترجمة على منهج الإمام المزّي في شجرات الرواة المترجمين في تهذيب الكمال .

وخرّج فيه (٨٥٨) ثمان مئة وثمانية وخمسين حديثاً تخريجاً وجيزاً يتناسب مع أهداف كتابه .

ولا أجد حرجاً من القول : إنّ منهج كتابه هذا ؛ أَتمُّ من كتاب تهذيب الكمال نفسه وأكثر نفعاً ، وهكذا فلتكن همم طلاّب العلم والباحثين المعاصرين !

وخليقٌ بهذا الكتاب أن يكون الكتابَ الأول في خدمة السنة النبوية الشريفة عامّة وعلم الرجال خاصّة ، في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، وأن ينال مؤلّفه عليه أفضلَ الجوائز العلمية وشهادات التقدير ! فقد أبان فيه عن فهم عميق ، وعلم ناضج وجلَدٍ وادع ، وصبر يندر وجود مثله لدى الباحثين الذين اطّلعت على دراساتهم ، في زماننا الذي صُرف فيه العلماء القادرون إلى تحصيل القوت ، بينما يتخوّض الفسقة والفجرة بأموال الأمة ومقدّراتها ، بل ويعادون أهل العلم ويحقرونهم !

ولقد سُررت بقراءة هذا الكتاب الماتع ، وأفدت منه على مدى السنوات الماضية ودعوت لمؤلفه بما أسأل الله تعالى أن يستجيب دعواتي له ، على عدم معرفتي به ، ولا رؤيتي إياه قطّ ، جزاه الله تعالى خير الجزاء .

١٢ ـ الرواة الذين ترجمَ لهم ابنُ حِبّانَ في المجروحين وأعادهم في الثقات ـ جمع ودراسة وتحليل ـ للدكتور مبارك بن سيف الهاجري ، وقد صدرَ هذا الكتاب عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت (٢٠٠٠م) وجاء في (٣٩٦) صفحة بما فيها الفهارس .

وسأتكلّم عن هذا الكتاب في المجلد الثالث من كتابي هذا عند دراستي مسألة ترجمة ابن حِبّانَ (١٨٤) مائة وأربعة وثمانين راوياً في «الثقات» و«المجروحين» .

١٢ ـ وقد حدثني الزميل الفاضل الدكتور محمد عبد ربّ النبيّ الجزائري ، بأنه سَمع بتسجيل مشروع بحث عن ابن حبان في المملكة المغربية ، بإشراف الدكتور فاروق حمادة الخالدي الحمويّ ، ولم أعرف عن المشروع أكثر من هذا !

هذه هي الجهود التي وقفت عليها ، أو علمت شيئاً من أخبارها في خدمة الإمام البارع محمد بن حبان البستي ومصنفاته ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

الإمامُ ابنُ حِبَّان

وَدِرَاسةُ آثَاره العِلْميّة

البابُ الأَوّلُ

عصر الإمَام ابن حبَّان

وتحته ستة فصول:

- الفصل الأول: الحياة السياسية في عصره
- الفصل الثاني: الثورات والنزاعات الداخلية في عصره
- الفصل الثالث: الحروب الخارجية في عصره
- الفصل الرابع: الحياة الاجتماعية في عصره
- الفصل الخامس: الحياة الفكرية في عصره
- الفصل السادس: الحياة العلمية في عصره

الفصل الأول

الحياة السياسية في عصر ابن حبان

تمهيد : إذا قدّرنا ولادةَ الإمام ابن حبان في نهايات العقد الثامن، من القرن الثالث الهجري (٢٧٠ ـ ٢٧٩هـ) فيكون قد وُلد في نهاية خلافة «المعتمد على الله» الذي تولى الخلافة سنة ستٍّ وخمسين ومائتين، وتوفي سنة تسع وسبعين ومائتين، أو في أوائل خلافة المعتضد بالله .

وتوفي ابن حبان في زمن الخليفة المطيع . قال رحمه الله[1] : (المطيع ابن المقتدر : الفضل بن جعفر بن محمد بن أحمد بن طلحة بن جعفر، هو باقٍ ! لا أدري ما الله صانع به، إلاّ أنّه خليفة، يموتِ أو يقتل لا محالة، لأنّ له أسوة بمن فقدهم ! والله أعلم) .

وعلى هذا فإنَّ ابن حبَّان قد عاصر تسعةً من خلفاء بني العبّاس، معظمهم قتل قَتلاً، أو مات مسموماً، أو مسمولاً، أو في السجن .

وقد عاصر ابن حبان نفوذَ الأتراك (٢٣٢ ـ ٣٢٤هـ) كما عاصر وعانى من نفوذ البويهيّين الرافضة إلى نهاية حياته .

ويحسن أن نعرض الحالة السياسية في عصره، في مباحث متعددة، ليَسْهُل اختصار أحداثٍ جسام، وسنين متطاولة في صفحات عديدة .

---

(١) الثقات لابن حبان (٢ : ٣٣٢ ـ ٣٣٦) وقارن بتاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٤٠٥) .

المبحث الأول

الخلفاء الذين عاصرهم ابن حبان

أوّل الخلفاء الذين يحتمل أن تكون ولادة ابن حبان في نهاية عصره «المعتمد على الله» أحمد بن المتوكل[١] (٢٢٩ ـ ٢٧٩هـ) . وقد بويع بالخلافة سنة ستٍّ وخمسين ـ وكانَ ابنَ سبع وعشرينَ سنة ـ واستمرَّ فيها إلى وفاته ، ولم يكن المعتمد رجلَ سياسة ، وكان أخوه الموفق طلْحة[٢] رجلَ الدَّولة الحقيقي ، وقد كانت له أياد بيضاء على الدولة في خلافة أخيه فقد حارب الزّنج ، والصفّار ، والرّوم ، والخوارجَ ، إلى أن تُوفّي سنة ثمان وسبعين ومائتين .

وتولّى الخِلافةَ بعد المعتمد ابنُ أخيه المعتضد بن الموفّق[٣] أحمد بن طلحة بن جعفر (٢٤٢ ـ ٢٨٩هـ) في سنة تسع وسبعين ومائتين ـ وكان عمره وقتها (٣٧) سنة ـ وكان ملكاً مهيباً شجاعاً ، يُقدِمُ على الأسد وحدَه . قال : والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت الخلافة . وله قَصص تدلُّ على فِراستِه ، وذكاءٍ عجيب أشار إلى بعضه الذهبيّ ، وقد حارب الزّنج ، وقتل الأسد بسيفه ، وما ذَكر ذلك على لسانه ؛ لقلة اكتراثه به ، وقد ساد العدلُ في زمنه ، وانتشر الأمن ، وأسقط المكوسَ ، وقلّل من الظلم ، وحارب القرامطة وغيرهم من المارقين إلى أن تُوفي ، وكان يحب علياً وآل بيته رضي الله عنهم ، ويحسن إليهم ، وهذا شرف كبير ناله !

وجاء بعده ابنه المكتفي بالله : علي بن أحمد بن طلحة (٢٦٤ ـ ٢٩٥هـ) وبويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه سنةَ تسع وثمانين ومائتين ـ وكان سنّهُ إذ ذاك (٢٥) سنة ـ وظلّ يحارب الروم والقرامطة إلى أن توفي ، وكان وسيماً يُضرب بحُسنه المثل في زمانه[٤] .

---

(١) انظر أخباره في الثقات (٢ : ٣٣٢ ـ ٣٣٣) وتاريخ الرسل والملوك للطبري (٩ : ٤٧٤) وتاريخ مدينة السلام (بغداد) (٤ : ٦٠) وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٢ : ٥٤٠) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٣٦٣ ـ ٣٦٨) .

(٢) انظر بعض أخباره في النبلاء (١٢ : ٥٤٠ ـ ٥٥٢) والمراجع السابقة .

(٣) الثقات (٢ : ٣٣٣) والطبري (١٠ : ٢٠ ـ ٢٢) ومواضع ، وتاريخ بغداد (٤ : ٤٠٣) والنبلاء (١٣ : ٤٦٣) والبداية والنهاية لابن كثير (١١ : ٦٦) وتاريخ الخلفاء (ص ٣٦٨) .

(٤) الثقات (٢ : ٣٣٣ ـ ٣٣٤) وبغداد (١١ : ٣١٦) والمنتظم (٦ : ٣١) والنبلاء (١٣ : ٤٧٩) والبداية والنهاية (١١ : ٩٤ ، ١٠٤) .

وجاء بعده المقتدر : جعفر بن أحمد بن طلحة (٢٨٢ ـ ٣٢٠هـ) وبويع بالخلافة سنة خمس وتسعين . وللمؤرخين أنظار متعددة في عهده[١] .

قال الذهبي : (بويع بعد أخيه المكتفي في سنة خمس وتسعين ومائتين ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ! وما وَلي أحدٌ قبله أصغر منه ، وانخرم نظام الإمامة في أيّامه ، وصَغُر منصب الخلافة . وقد خُلع في أوائل دولته ، وبايعوا ابنَ المعتز ، ثم لم يتمَّ له ذلك ، وقُتل ابن المعتز وجماعة ، ثم أعيدَ إلى منصبه ، ثمّ إنّه خُلع ثانية في سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، وبذل خطّه بعزل نفسه ، وبايعوا أخاه القاهر ، ثم أُعيد المقتدر بعد ثلاث ، ثم في المرة الثالثة قُتل) .

ووصفه الذهبي وغيره باللّعب ، والشغف بالجواري ، وعدم الالتفات إلى أمور الدولة وساد في عصره أهل الشغَب ، ووصل القرامطة إلى الكوفة ، وكان مِتلافاً ، مَحَقَ ما لا يُعدُّ ولا يُحصى من الأموال .

بينما قال ابن حبان عن زمن المقتدر بعد قتل ابن المعتز : (استوى أمر المقتدر ، وهدأت أمور الناس ، وصار الناس كأنهم نيام لا يحسُّون بفتنة ، وعَمّرت والدته (شَغَب) الحرمين وبيتَ المقدس ، وكانت تنفق عليهما وعلى الثغور في كل سنة أموالاً خطيرة ، وارتفع أهل العلم في كل بلد من الدّنيا .

ورأيتُ بغدادَ في تلك الأيّام أطيبَ ما كانت ، وأجلّها ، وأعمرها ، ثم أناءت أمورُ المقتدر عليه سنة ست عشرة وثلاثمائة ، واتفق الناس على خلعه فخلعوه ، وأقعدوا أخاه القاهر مكانه ، بعد أن خَلع المقتدر نَفْسَه ، فبقي القاهر ثلاثة أيام كذلك ، ثم خلع نَفْسَه ، وبايع الناسُ المقتدر ثانياً ، وعَمِل المقتدر إلى آخر سنة عشرين وثلاثمائة ، ثم اضطرب الجيش وهيّجهم مؤنس الخادم على المقتدر ، فركب المقتدر بنفسه ليسكّن القوم ، وعليه بُردةُ رسول الله ﷺ . فبينما هو واقف ومعه الخلق من الجند ؛ إذ جاءه رجل بربريّ لا يُعرَف من هو ، فتوهّموا أنه يريد أن يسلّم عليه ، فلمّا دنا منه ؛ رماه بحربته وذلك يوم الثلاثاء ، لثلاثٍ بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة) ا . هـ .

---

(١) الثقات (٢ : ٣٣٤) والنبلاء (١٥ : ٤٣) وبغداد (٧ : ٢١٣) .

وَوَلي بعده أخوه القاهر بالله[1] محمد بن أحمد بن طلحة بن جعفر (٢٨٦ ـ ٣٣٩هـ) ـ وكان عمره وقتها (٣٤) سنة ـ وبُويع بالخلافة وَقْتَ مصرع أخيه المقتدر ، وبقي في الخلافة سنة وستة أشهر ، ثم كُحل ـ أي سُمِلَت عيناه ـ وبقي أعمى إلى أن مات !

قالوا : كان أهوجَ سفّاكاً للدماء ، كثير التلوُّن ، قبيح السيرة ، مدمن خمر ، ولم يكن متمكّناً من الأمور ، وكان أولّ شيء فعله بعد ولايته ؛ أن صادرَ حاشية أخيه وعذّبهم ـ مع أن أخاه عفا عنه ـ وضرب أمَّ المقتدر بيده ، وهي عليلة ، ثم ماتت وهي معلقة بحبل وبالغ في الإساءة ، فنفرت منه القلوبُ ، ثم اتّفق جماعةُ الأتراك على خلعه ، فأمسكوه وخلعوه ، وكحلوه بمسمار ، لسوء سيرته وسفكه الدِّماء ! .

قلت : ولا أدري أكانت وصايةُ الأتراك هذه حبّاً بالعدل والسماحة ، أم ماذا ؟

وجاء بعده الراضي بالله[2] (٢٩٧ ـ ٣٢٩هـ) ـ وكان عمره وقتها (٢٥) سنة ـ قال ابن حبان : (هو الراضي ابن المقتدر ابن المعتضد ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . . .) وبُويع بالخلافة بعد عمّه القاهر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، إلى حين وفاته .

قال الخطيب : (للراضي فضائلُ كثيرة ، وخَتَم الخلفاءَ في أمور عدة منها : أنّه آخر خليفة له شِعْرٌ مُدوّن ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال ، وآخر خليفة خَطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الجلساء ، ووصل إليه الندماء) ا . هـ ملخصاً .

واسم الراضي : محمد بن جعفر بن أحمد العباسيّ .

وجاء بعد الراضي أخوه «المتّقي لله» إبراهيم بن جعفر بن أحمد (٢٩٧ ـ ٣٥٧هـ) فبويع بالخلافة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ـ وكان عمره وقتها (٣٧) سنة ـ ، وخُلع في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة[3] . وعاش بعد خلعه أربعاً وعشرين سنة ، وكانوا قد سَمَلوه ، حين

---

(١) الثقات (٢ : ٣٣٥) وبغداد (١ : ٣٣٩) والمنتظم (٦ : ٢٤١) النبلاء (١٥ : ٩٨) والبداية والنهاية (١١ : ١٧٠) وتاريخ الخلفاء (ص٣٨٦) .

(٢) الثقات (٢ : ٢٣٦) وبغداد (٢ : ١٤٢) والنبلاء (١٥ : ١٠٣) وتاريخ الخلفاء (ص ٣٩٠) .

(٣) الثقات (٢ : ٣٣٦) وتاريخ الخلفاء لابن ماجهْ (ص٥٩) وبغداد (٦ : ٥١) والمنتظم (٦ : ٣١٦) والنبلاء (١٥ : ١٠٤) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٣٩٤) .

خلعوه . قال الخطيب : (أخبرنا علي بن أبي علي البصري : حدثنا أبي قال : قال لي أبو الحسين بن عيّاش : اجتمعت في أيّام المتقي إسحاقات كثيرة ! فانسحقت خلافة بني العباس في أيامه ، وانهدمت قُبّة المنصور الخضراء ، التي كان فخرهم بها ، فقلت له : ما كانت الإسحاقات؟ قال : كان هو يُكنى أبا إسحاق ، وكان وزيره القراريطي يكنى ابن إسحاق ، وكان قاضيه ابن إسحاق الخرقي ، وكان محتسبَه أبو إسحاق بن أحمد ابن أمير خراسان ، وكانت داره القديمة في دار إسحاق بن إبراهيم المصّيصي ، وكانت الدّار نفسها دار إسحاق بن كنداج !!

قال أبو الحسين : كان مع هذا يتألّه ، وفيه صلاح ، وكثرة صيام وصلاة ، وكان لا يشرب النبيذ ، وقيل : إنه لم يشربه قطّ ، وكان فيه كفّ عن كثير مما كان مَن تقدمه يرتكبه ، وكان فيه وفاء وقناعة) .

وكان الخليفة الثامن «المستكفي بالله» عبد الله بن علي بن أحمد ابن الموفّق (٢٩٢ ـ ٣٣٨هـ) بويع بالخلافة بعد خلْع «المتقي لله» سنة ثلاث وثلاثين وخلع سنة أربع وثلاثين ـ وكان عمره وقتها (٤١) سنة ـ وحُبس بعد ذلكَ ، ولم يزل محبوساً إلى أن تُوفي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وكان قد سَمَلوا عينيه[1] .

وبعده استقلّ بملك العراق مُعِزُّ الدولة ابن بويه ، وضعفت الخلافة جداً ، وظهر الرفض والاعتزال .

واستُخلف بعده «المطيع لله» الفضل بن جعفر بن أحمد (٣٠١ ـ ٣٦٤هـ) وهو ابن المقتدر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ـ وكان عمره وقتها (٣٣) سنة ـ وخلعَ نفسه غيرَ مُستكرَهٍ ، كما نقل الخطيب وابن الجوزي وغيرهما ، سنة ثلاث وستين وثلاثمائة[2] .

قال ابن حبان : (هو باقٍ لا أدري ما الله صانع به ، إلاّ أنّه خليفة يموت أو يقتل ، لأنّ له أُسوةً بمن فقدهم !) .

---

(١) سقطت ترجمته من مطبوعة الثقات ، وتاريخ الخلفاء . وانظر : ابن ماجهْ (ص٥٩) وبغداد (١٠ : ١٠) والمنتظم (٦ : ٣٣٩) والنبلاء (١٥ : ١١١) والبداية والنهاية (١١ : ٢١٠) وتاريخ السيوطي (ص ٣٩٧) .

(٢) الثقات (٢ : ٣٣٦) والمنتظم (٧ : ٦٠ ، ٧٩) والنبلاء (١٥ : ١١٣) البداية والنهاية (١١ : ٢١٢) وتاريخ السيوطي (ص ٣٩٨) .

ولم يكن للمطيع من أمر الدولة شيء ، فقد تسلّط بنو بُوَيْه على الدولة ، وكان معزّ الدولة هو الحاكمَ الحقيقيّ .

من خلال ما سبق ؛ ظهر أنّ ابن حبّان عاش في عصر ضعفت فيه الخلافة ، ولم يَعُدْ لها سوى الاسم منذ تولّى المكتفي الخلافةَ ، كما وضح أن منصب الخليفة غدا أُلعوبةً بين أيدي نفر من المتنفّذين ، الذين قتلوا المقتدرَ ، وسملوا القاهر والمتقي والمستكفي وخلعوهم ، بل كانوا كلّما غضبوا على خليفة ؛ خلعوه ، ونصبوا غيره . ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران : ١٤٠) .

المبحث الثانـي

أصحاب النفوذ في الدولة العباسية

عاصر الامام ابن حِبّان تسلُّطَ الأتراك (٢٣٢ ـ ٣٢٤) والبويهيّين (٣٣٤ ـ ٤٤١هـ) على الحكم ، وقد كان المعتصمُ هو أوّلَ من قرّب الأتراك ، وكثّرهم واعتمد عليهم ، ذلك أنّ الزنادقة من الفرس كبابَك الخُرَّمي وأخيه ، والمازيار والإفشين تجمّعت لهم الجموعُ الكبيرة من الفرس ، وعَظُم شأن بابَك ، حتى أنفق المأمون والمعتصم على حربه قناطيرَ مقنطرةً من الذهب والفضّة ، إلى أن مكّن الله منه ، على يد الزنديق الآخر إفشين[1] الذي اعترف كاتبه بأنّه زنديق مجوسيّ يتآمر على الدولة والإسلام .

إلا أن الأتراك المماليك تعاظمت قُوّتهم ، وتطاولوا على أولياء نعمتهم ، فدبّروا قتل الخليفة المتوكّل الذي فَطِن لهمّ ، وقد قيل بأنّهم اتفقوا مع ولده على قتله[2] .

وضعف نفوذ الأتراك المماليك في عهد الموفّق طلحة ، ثم في عهد ابنه المعتضد ، ثم في عهد المكتفي ، إلاّ أنّ ولاية المقتدر ـ وهو صغير السن ـ وتدخّل النساء في شؤون الحكم والسياسة ؛ أعاد لهم قوّتَهم ، ونَشِب الصراعُ من جديد بين بني العباس من جهة ، وبين الأتراك من جهة أخرى ، وسادت الدسائس ، وطمّت الفتن ، وابتدعوا بدعة (سَمْل) الخلفاء وخلعهم ، حتى إذا كلّوا من الصراع ؛ برز البويهيون الروافض قوّةً هائلة بعيدةً عن الصراعات السابقة ، فاحتلَّ مُعِزّ الدولة بغدادَ ، وسيطر على الأمور فيها ، وجرّد الخليفة من كل شيء[3] .

وقد بدأت دولة بني بُوَيْهِ نشاطَها في أيام القاهر . ثم توسعت وعَظُمت ، حتى استولت على الأمور في زمن المطيع . وقد كان معز الدولة بن بُوَيْهِ (٣٢٠ ـ ٣٥٦ هـ) يتولى حكم العراق ويستبد بتصريف الأمور فيها ، وكان شيعيّاً غالياً في الرفض . وكان

(١) النبلاء (١٠ : ٢٩٨) وانظر محاكمة الإفشين هناك .

(٢) النبلاء (١٢ : ٣٨) والطبري (٩ : ٢٢٢ ـ ٢٣٠) وتاريخ السيوطي (ص ٣٥٠) .

(٣) الوثائق السياسية والإدارية للعصر العباسي الثاني (ص١٦) .

عماد الدولة بن بُوَيْهِ (٣٢٠ ـ ٣٣٨هـ) يتولى أمور فارس وخُراسان ، ثم تسلّط بعده عَضُدُ الدولة أبو شجاع (٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ) .

ولم يكن أحد من العباسيين أو العرب أو الأتراك يُحرّك ساكناً إلاّ بأمر هؤلاء الملوك الروافض .

وإذا استثنينا فترة تنفُّذ الأمير الموفق طلحة (٢٥٦ ـ ٢٧٨ هـ) وابنه المعتضد ، وحفيده المكتفي ؛ فإنّ تسلُّط قادة الأتراك ؛ كان قويّاً على الدولة ، ولم يكن مع ذلك منظِّماً شؤون الأمّة ، بل كان غرضُهم فيما يبدو تحقيقَ أطماعٍ شخصية لِبُغا الكبير ، أو موسى بن بُغا أو صالح بن وَصيف ، وغيرهم ممن جاء بعدهم وقبلهم ، إلى أن سلبهم بنو بُوَيْهِ كلَّ شيء[1] .

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١١ : ٢١) والفخري في الآداب السلطانية (ص٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢) وتاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن (٣ : ١٨) وغير موضع .

المبحث الثالث

الدّول المستقلّة في ظلّ الخلافة العباسية

حين ضَعُفت الخلافة العبّاسيّة ، وهانَ مَنْصب الخلافة على الطامحين والطامعين ؛ حاول كثير من ذوي الجاه والنفوذ الانفرادَ عن دولة الخلافة ببقعة الأرض التي كان يحكمها ، أو يصبو إلى حكمها ، ولم يكن للخليفة من الأمر سوى إقرارِ ذلك ومباركتِهِ غالباً .

أسس أحمد بن طولون[١] أحد أبناء الأتراك دولته في مصر (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ) ثم تدرّج وتوسّع ، حتى ضمّ إليها الشام ، في أثناء انشغال الخليفة في حروب الزّنج .

كما قام عصريّه يعقوب بن اللّيث الصفّار[٢] فأسس دولته في سجستان (٢٥٤ ـ ٢٩٧هـ) ثم استولى على فارس ، وظلت الحروب الطاحنة بين الخليفة وبينه ، وبعده مع أخيه عمرو ، ثم مع حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ، حتى قضى إسماعيل ابن أحمد السّامانيُّ على دولتهم بعد عام (٢٩٠هـ) .

وقامت الدولة السامانية[٣] (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ) في سجستان ثم توسّعت حتى شَمَلت فارس كلها بعد القضاء على الصفّاريين ، وقد كانت العلاقات طيّبة بين الخلفاء وبين ملوك بني سامان ، ولم تجر بين الطرفين أيّةُ منازعات .

وقد قامت دولة بني حمدان[٤] (٣١٧ ـ ٣٩٤هـ) في الموصل وحلب ، وكثرت حروب هذه الدولة ومنافساتها ، ويبدو أن طموح حكامها مع كثرة أعدائها من الرُّوم والبويهيين والبَريديّين ، والإخشيد ، ثم بعض أمرائها مع بعض ، كل ذلك أدّى إلى ضعف دولتهم وذهاب ريحهم على أيدي الفاطمّيين .

---

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي (٣ : ١٢٦ ـ ١٣٤) .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (٦ : ٢ ، ١٤ ، ٢١ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٣٦) .

(٣) الفخري لابن طباطبا العلوي (ص٢٨٠) وتاريخ الإسلام السياسي (٣ : ٧١ ـ ٨٢) .

(٤) تاريخ الإسلام السياسي (٣ : ١١٣ ـ ١٢٥) وانظر بحثاً جيداً عن نشأة الدولة الحمدانية وتطوراتها في كتاب (سيف الدولة الحمداني) للدكتور مصطفى الشكعة .

ومع أن الفاطميّين شيعة ، فقد قضوا على الحمدانيّين ، كما كانت المنافسة على أشدّها بين بني حمدان وبين البويهيّين ، وكلاهما رافضة . وذكر ابن كثير أن الحمدانيين أعانوا القرامطة وأمدّوهم بالحديد والسلاح ضد المسلمين ، فتأمل[١] .

ولم تطل مدّة دولة الإخشيد[٢] (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ) لأنها ـ فيما يبدو ـ كانت مرتبطة بشخص مؤسسها محمد بن طُغْج الإخشيد أحد أولاد ملوك فرغانة ، ولعل سبب قوة الإخشيد ونشوء دولته ؛ انتصاراته على جند الفاطميّين ، فَمَلك الشامَ ومصر ، ثم انتهت دولتهم على عهد أبي الفوارس بن بُوَيْهِ .

وكأنّ بني بُويهِ (٣٣٤ ـ ٤٤١هـ) لم ينفصلوا عن سلطة الخلافة الاسمية ، لما يجلب هذا عليهم من نقمة أهل السنة ـ فوق نقمتهم ـ ، وربما تحالفوا معهم لكيدهم والقضاء عليهم ، وإلاّ فإنّهم قد ملكوا البلاد ، وأذلّوا العباد ، وانتشرت في عهودهم الزندقة والإلحاد وذاع الفسادُ والفجور ، حتى قُضي عليهم على يد (كاليجار)[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١١ : ٢٥٤ ـ ٢٦٤) .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي (٣ : ١٣٥ ـ ١٤٢) .

(٣) الفخري (ص٢٧٧) وانظر عن تاريخهم كتاب (نظام الوزارة في الدولة العباسية ، العهدان البويهي والسلجوقي) (ص١٩ ـ ١١٥) .

المبحث الرابع

الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية

انفصلت عدة دول عن الخلافة العباسية ، وناصبتها العداء ، ونشأت دول أخرى لم يكن أُمراؤها خاضعين لسلطان العباسيين أصلاً .

وكان لبعض هذه الدول أثر مباشر على المشرق الإسلامي ، كالدولة الفاطمية وبعضها الآخر لم يؤثر تأثيراً مباشراً واضحاً على المجتمع الإسلامي في الشرق ، إلا أن صدى هذه الدول وتلك ، لا بدَّ أنّه أثار في نفس ابن حبان أشياء ، جعلته يقف بعض المواقف المتشددة ضد بعض الفِرَق والمذاهب .

قامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣٧٥هـ) وكان لها أثر بارز في نشر المذهب السنّي في تلك البلاد ، وقد حالت دون توسع الخوارج في تلك المنطقة . وكان قيامها منفصلة عن الخلافة العباسية ، نتيجةَ الصراع الدائم الذي نشب بين أبناء عليّ وبين خلفاء بني العباس ، وعلى إثر وقعة (فخ)[1] التي وقعت بين الحسين بن علي بن الحسن ، وبين العباسيين ، وقد نجا من المعركة يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن ، فأمّا يحيى فأمّنه الخليفة ثم قتله ، وأما إدريس فقد خرج في جملة حاج مصر ثم جاز إلى فاس وطنجة ، واستجاب له البربر ، وكوّن بداية دولة الأدارسة هناك إلا أنّ الرّشيد تمكّن فسمّه أيضاً في مملكته[2] ولم يكن قد أنجب بعد ، وكانت جاريته حاملاً ، فوضعت بعد شهرين ولداً ، سمّوه (إدريس) كذلك ، وكان هو مؤسّسَ الدولة الحقيقيَّ .

وقد عاصر ابنُ حبان من ملوك الأدارسة يحيى الرابع بن إدريس (٢٩٢ ـ ٣١٠هـ) والحسن بن محمد (٣١٠ ـ ٣١٢هـ) الذي انكمشت دولة الأدارسة بعد وفاته ، وانحصرت

(١) فخ : واد بمكة يقال له وادي الزاهر . معجم البلدان (٤ : ٢٣٧) .

(٢) أخبار هذه الوقعة في تاريخ الطبري (٨ : ١٩٢ ـ ٢٠٣) ومقاتل الطالبيين (ص ٤٣٥ ـ ٤٦٠) والبداية والنهاية (١٠ : ١٥٧) .

في بلاد الريف المغربي . ولم يَعُدْ لها كبير قيمة حتى انتهت على يد الفاطميّين[١] .

وقد قامت دولة الفاطميين (٢٩٦ ـ ٥٦٧هـ) في مصر وبلاد المغرب .

قال في الفخري : (هذه دولة اتسعت أكناف مملكتها ، وطالت مدتها ، فكان ابتداؤها حين ظهر المهدي في المغرب سنة ست وتسعين ومائتين ، وانتهاؤها في سنة سبع وستين وخمسمائة ، وكادت أن تملك ملكاً عامّاً ، وأن تدين لها الأمم) .

وقد اختلف العلماءُ في صحة نَسَب الفاطميين ، وعندما استفحل خطرهم ؛ أمر الخليفة العباسيّ زعماءَ البيت العلوي ، فكتبوا خطوطاً بتكذيب نسبتهم ، وقد كذّب الذهبيّ هذه النسبة ، وجزم صاحب الفخري بها ، ومال ابن الأثير إلى صِحّتها ، فقد قال بعد أن ذكر الخلاف حول صحة نسبهم : (وقد روي نسبهم على صورة أخرى ، وفيه اختلاف كثير ، والصحيح أنهم علويّون إسماعيليون صحيحو الاتصال ، وهذه الصورة التي أوردناها هي المعوّل عليها ، وبها خطوط مشايخ النسابين) .

وكانت نهايةُ دولتهم على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب الأيوبيّ حيث أعاد مصر إلى الخلافة العباسية أيّام الخليفة المستضيء ، وخُطِب له على المنابر ، فقلّده الخليفة السلطنة[٢] .

وفي الأندلس قامت دولة الأمويين على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي استولى على قُرطبة سنة (١٣٨هـ) واستمرّت دولتهم في الأندلس حتى سقطت في عهد آخر ملوكهم هشام الثالث المعتمد (٤٢٢هـ) .

وقد عاصر ابن حبّان عدداً من ملوكهم ؛ منهم عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ) وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالله (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) والحكمَ بن عبدالرحمن بن محمد (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ)[٣] .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي (٢ : ٢٢٦) و(٣ : ١٦٢) فما بعد ، ومقاتل الطالبيين (ص ٤٦٣ ، ٤٨٧) .

(٢) انظر بعضَ أخبار هذه الدولة في الفخري (ص٢٦٢) فما بعد ، والكامل (٦ : ١٢٤) والنبلاء (١٥ : ١٤١ ـ ٢١٥) فقد ترجم الذهبي لملوكها تِباعاً .

(٣) النبلاء (٨ : ٢١٧ ـ ٢٤١) حيث ترجم لعدد من ملوكهم تباعاً . وتاريخ الإسلام السياسي (٣ : ١٦٧) .

الفصل الثاني

الثورات والحروب الداخلية في عصر ابن حبان

كان يَسَعُني أن أتناول الثورات والفتن الداخلية في غضون حديثي عن الحياة السياسية في ذلك العصر ، إلا أنني آثرت إفرادها مستقلة لتشعُّب جوانبها ، وتعدد أغراضها ، وتنوع مذاهبها .

المبحث الأول

ثورة الزّنج

في منتصف شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج رجل اسمه علي بن محمد بن عبدالرحيم ، ونسبة في عبد القيس[1] من ساكني قرية من قرى الرّيّ ، وادّعى أنه عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم .

ولم يكن صاحب الزّنج في حقيقة أمره إلاّ رجلاً زنديقاً ، حيث إنّه زعم معرفةَ علم الغيب ، وأنّه يُوحى إليه ، وأنّ الملائكة تؤيّده . ومع هذه الزندقة ؛ فقد ادّعى أنّه خارجيّ .

ولقد أعدّ أتباعَه ، ووعدهم أن يقودهم ويملّكهم الأموال ، وذكّرهم بما كانوا عليه من سوء الحال ، وأنّه يريد أن يرفع أقدارهم ، ويملّكهم العبيد والأموال ، ويبلغ بهم أعلى الدرجات . وقد كانت حالة أتباعه من العبيد مهيأة للثورة ، حيث الفقر والجهل والحقد على السّادة ، وقد كَثُر عدد هؤلاء الأتباع ، وصاروا جماعاتٍ كثيرةً ، وكانوا يجتمعون ويبكون وضعهم ويَنْدِبون حظَّهم ، دون أن يستمع أحد إليهم .

وكان لتجمّعهم في جماعات كبيرة أعظمُ الأثر في قوة حركتهم ، وسرعة انفجار ثورتهم . وقد لخّص لهم صاحب الزنج أهدافه بما يأتي :

---

(١) تاريخ الطبري (٩ : ٤١٠) والكامل (٦ : ٨ ـ ٥٤) والبداية والنهاية (١١ : ١٨) والفخري (ص٢٥٠) وانظر أخبار هذه الثورة في الطبري (٩ : ٤١٠ ـ ٦٥٤) .

(١) تحرير الزنوج ورفع مستواهم .

(٢) تمكينهم من الحصول على الأموال والأرقاء والعبيد .

(٣) تمكينهم من الوصول إلى السلطان والقوّة والملك[١] .

ولا ريبَ في أن مثل هذه الأماني لشعبٍ مضطهد جاهل فقير ، تجعله يضحي بحياة بؤسٍ ؛ طمعاً في أن يحيا حياة كريمة . ولَلموت أهون على النفس الإنسانية من حياة ذُلٍّ بغيض .

وكان صاحب الزنج هذا فصيحاً بليغاً لبيباً ، استمال قلوبَ العبيد من زنج البصرة ونواحيها ، فاجتمع إليه خلق كثيرون ، وناس آخرون من غيرهم ، وعظم شأنه ، وقويت شوكته ، وكان في مبدأ حاله فقيراً ، لا يملك سوى ثلاثة أسياف ، حتى إنه أُهدي إليه فرس ، فلم يكن له لجام ولا سرج يركبه بهما ، فركبه بحبل ، فاتفقت له حروب وغزوات نُصر فيها ، فأثرى بسببها ، وعظم حاله ، وكثر نهبه ، وانبثّ عسكره في البلاد العراقية والبحرين وهجر . ونَهَد إليه الموفق طلحة في أيّام المعتمد بعساكر كثيفة ، فالتقيا بين البصرة وواسط ، وبَنَوا مدائن هناك ، وأقام كل من الفريقين يرابط الفريق الآخر .

ويرى الإمام الطبريّ أن ابتداء أمره ، هو شخوصه من سامرّاء إلى البحرين ـ وادَّعى أنّه من ذرية عليّ رضي الله عنه ـ سنة تسع وأربعين ومائتين ، ودعا الناس إلى طاعته في (هجر) ثم انتقل إلى الإحساء ، وكان أهل البحرين قد أحلّوه من أنفسهم محلّ النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم[٢] ثم دخل البصرةَ سنة أربع وخمسين ومائتين وسار ذِكْرُه وقويت شوكته ، وظلّت الحروب الطاحنة بين الموفق طلحة ، وبين صاحب الزنج ؛ حتى قُتل صاحبُ الزنج في صفر سنة سبعين ومائتين من الهجرة[٣] .

وقد قيل : إن عدد القتلى الذين قَضَوا في حروب صاحب الزنج كان ألفي ألف

(١) القرامطة وآراؤهم الاعتقادية (ص٥١ ـ ٥٣) .

(٢) الطبري (٩ : ٤١٠) فما بعد ، البداية والنهاية (١١ : ١٨) .

(٣) الطبري (٩ : ٦٥٤) فما بعد ، البداية والنهاية (١١ : ٤٤) .

وخمسمائة ألف إنسان ، يعني مليونين ونصف قتيلٍ ، في مدة أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام[١] .

ولقد سبى الحرائرَ الهاشميّات واستعبدهنّ ، وكان لبعض رجاله منهن عَشْرُ نسوة يطؤهن ويستخدمهن ، لعنه الله تعالى وإيّاهم ، إن كان ما نسب إليهم صحيحاً .

وقد ذَكرتُ ثورة الزنج مع أن نهايتها قبل ولادة ابن حبان ، لأنّ آثارها السيئة امتدت زمناً طويلاً ، ومجريات أحداثها ظلت في أذهان الناس وفي واقعهم دهراً .

إضافة إلى أنها فتحت الباب أمام ثورات القرامطة التي أنهكت الدولة والأمَّة وقتذاك[٢] .

---

(١) الفخري (ص٢٥١) . البداية والنهاية (١١ : ٤٤) .

(٢) هذا ما كتبته سنة ثلاث وأربعمائة وألف من الهجرة ، وبعد مضيّ عشرين عاماً على كتابة هذا الكلام ؛ تبدّلت لديّ مفاهيم كثيرة ، منها ؛ أنّ الفرقاءَ غيرُ مصدّق بعضهم فيما يرمي به بعضهم الآخر ! سواء كانوا من فرقة واحدة ، أم من فرق متناحرة . وبعد أن عشت في العراق عشر سنين ورأيت الأحقاد الطائفية التي تزيد على كلّ تصورات الخيال ، واتّهمني بعضُ أهل العراق بأنني زنديق ، ومدّع للنبوّة ، ومدّع أنه يوحى إليّ ، فيستحيل في حياتي أن أصدّق خصيماً على خصمه حتى لو كان من الذين يُزعم له أنه من الأولياء ، أعاذنا الله من شرّ الأشرار ، ومن الحقد الطائفي المدمّر للدين والدنيا معاً !

المبحث الثَّاني

ثورات القرامطة

يرى الطبري ـ وهو معاصرٌ بدايةَ حركة القرامطة ـ أنّ بدايةَ أمر قُرمط كان قبل سنة سبعين ومائتين ، وذَكر عن قُرمط أنّه قال : «صرت إلى صاحب الزنج ، ووصلت إليه وقلت له : إنّي على مذهب ، وورائي مائة ألف سيف ، فناظِرْني ، فإن اتفقنا على المذهب ؛ مِلتُ بمن معي إليك ، وإن تكن الأخرى ؛ انصرفت عنك !

وقلت له : تعطيني الأمان؟ ففعل ، فناظرته إلى الظهر ، فتبيّن لي في آخر مناظرتي إيّاه ، أنه على خلاف أمري ، وقام إلى الصلاة[1] ؛ فانسللت ، فمضيت خارجاً من مدينته ، وصرت إلى سواد الكوفة»[2] .

(١) عقيدة القرامطة:

العقائد القرمطية مجموعةُ آراء مختلفة ومتباينة ، تطوّرت من بلد إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن ، بحيث يَصْعب دراستُها ومعرفتُها ، فكانوا يقولون بآراء في بَلَدٍ ، ويأتون بنقيضها بعد فترة من الزمن في بلد آخر !

قال الشهرستاني عند حديثه عن الإسماعيلية ـ والقرامطة منهم ـ : «مِن مذهبهم أن مَن ماتَ ولم يعرف إمامَ زمانه ؛ مات ميتة جاهلية . وكذلك مَن ماتَ ولم يكن في عنقه بيعةُ إمام ؛ مات ميتة جاهلية .

ولهم دعوة في كل زمانٍ ، ومقالةٌ جديدة بكلّ لسان . . وأشهرُ ألقابهم : الباطنية

---

(١) لست أدري كيف يقوم إلى الصلاة من يكون زنديقاً ويدّعي أنه يوحى إليه؟

(٢) الطبري (١٠ : ٢٧) . وقد نسب الأخ الدكتور سليمان السلّومي إلى الطبري القولَ بأنه يرى بدايةَ أمر القرامطة سنة ٢٦٤هـ ، وأنّ الحسين الأهوازي لَقّن المذهب لحمدان قرمط ، ولم أقف عند الطبري على مثل هذا ، بل الذي وجدتُه أن الرجل المجهول سُمّي باسم صاحب الأثوار (كُرْميته) ثم خفف فقيل (قرمط) . انظر الطبري (١٠ : ٢٣ ـ ٢٥) وقارن بكتاب «القرامطة وآراؤهم الاعتقادية» (ص١٤٠) . رسالة ماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة . وهذه الرسالة أجود وأوسع ما كتب عن القرامطة فيما أعلم .

والقرامطة والمزدكية[١] .

ويحسن أن نعرض أهمَّ آرائهم الاعتقادية والعلميّة بإيجاز :

ـ ١ ـ الإمامة :

قالوا : (إن الإمامة ليست قضيّة مصلحيّة تناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضيّة أصولية ، وهي ركن الدين الذي لا يجوز للرسل إغفالها وإهمالها ولا تفويضها إلى العامّة وإرسالها .

كما أنهم يقولون : إنها نصّ من الله تعالى ، لا يجوز الاختيار من الأمة ، وعلى ذلك فالاختيار مع النص يعتبر باطلاً)[٢] ولهم في الإمامة معتقداتٌ غريبة سخيفة تنظر في كتاب (القرامطة)[٣] .

ـ ٢ ـ عقيدة الظاهر والباطن والتأويل :

وهم إنّما سُمّوا الباطنيّة لقولهم بعقيدة الظاهر والباطن ، وأن الظاهر هو القِشْر ، والباطن هو اللُّب .

وقد اعتقد الباطنية ومنهم القرامطة أن كلّ شيء ظاهر محسوس في هذا الكون ؛ له معنى آخر خفيّ ، يُعرف بالمعنى الباطن ، فألفاظ القرآن مثلاً ، لها معنى باطن ، غير المعنى الحرفي الظاهر ، ويقولون : إن الذي يقف على ظاهر القرآن ، ولا يقف على تأويله مَثَلُه مَثَلُ الحمار الذي يحمل أسفاراً . فقوله تعالى : ﴿مثل الذين حُمّلوا التوراة﴾ يعني ظاهراً ﴿ثم لم يَحْملوها﴾ يعني باطنها .

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : إن القرامطة هم أشهر الناس بادّعاء علم الباطن المخالف للظاهر ، ودعوى التأويلات الباطنة المخالفة للظاهر المعلوم المعقول من الكتاب والسنة .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١ : ١٩٢) .

(٢) القرامطة وآراؤهم (ص٢٩٦) فما بعد .

(٣) المرجع السابق .

وقسموا المعرفة على قسمين : ظاهر : وهو الإسلام ، وباطن : وهو الإيمان .

أما العبادات العملية من صلاة وصوم وزكاة وحجٍّ ، فلها دلالات على مَعانٍ باطنية وكذلك الغسل من الجنابة ، وغير ذلك[١] .

وغرضهم الأقصى ـ كما يقول الإمام الغزالي رحمه الله ـ (إبطال الشرائع ، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد مُوجِبَ الظّواهر ، وقدروا على الحكم بدعوى الباطن ، على حسب ما يوجب الانسلاخ من قواعد الدين ؛ إذ سقطت الثقةُ بموجب الألفاظ الصريحة ؛ فلا يبقى للشرع عصام يُرجع إليه ، ويُعوّل عليه)[٢] .

ـ ٣ ـ عقيدتهم في الأعداد والحروف :

أما عن الأعداد ، فقد أضفوا على العدد (٧) قداسةً خاصة ، وفلسفوها بفلسفة عقليّة مرذولة ، وكذلك العدد (١٢) . ثم إنهم حاولوا أن يجدوا لكل عدد من الأعداد معنى خاصّاً يتفرّد به ، ويدلّ عليه .

وأمّا عن الحروف فهي عندهم محدثة ، وأما الكلمات المركبة منها ؛ فهي أصل كل شيء ، فقولنا : ﴿بسم الله الرّحمن الرّحيم﴾ تدل على محمد وعلي والحسن والحسين وفاطمة : وكذلك تصرّفوا بالنسبة لكل حرف من أوائل السور وغيرها .

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ : (وهكذا تصرّفوا في قول محمد رسول الله ، وفي الحروف ، وفي أوائل السور ، وأبرزوا ضروباً من الحماقات تُضْحك المجانين ، فضلاً عن العقلاء ، وناهيك خِزْياً بطائفةٍ هذا منهجُ استدلالهم !)[٣] .

ـ ٤ ـ عقيدتهم في القيامة والمعاد :

قال الغزالي : (اتّفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة ، وأن هذا النّظام المشاهد في الدنيا ؛ من تعاقبِ الليل والنّهار ، وحصول الإنسان من نطفة ، والنطفة من إنسان ، وتولّد

---

(١) انظر : القرامطة وآراؤهم (ص٢٣٠) فما بعد .

(٢) فضائح الباطنيّة للغزالي (ص١٢) ، وذكر نحو ذلك ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٠٦) .

(٣) فضائح الباطنية (ص٦٨) .

النبات ، وتولّد الحيوان ؛ لا يَتصرّم أبدَ الدهر ، وأن السموات والأرض لا يُتَصور انعدام أجسامها . وأوّلوا القيامة ، وقالوا : إنها ترمز إلى خروج الإمام ، وقيامِ قائم الزمان ، وهو الناسخ للشرع ، المغيّرُ للأمر .

وأما المعادُ ؛ فأنكروا ما جاء به الأنبياء ، ولم يُثبتوا الحشرَ والنشرَ للأجساد ، ولا الجنة والنار ، ولكن قالوا : معنى المعاد : عود كل شيء إلى أصله ، فالجسد يعود إلى الطبيعة التي تركّب منها ، وهي الصفراء والسوداء والبلغم والدم ، فالصفراء تَصير ناراً ، والسوداء تصير تراباً ، ويصير الدم هواءً ، ويصير البلغم ماءً ، وهذا هو معاد الجسد .

أما مَعاد الروح ، فإنها إن صَفَت من مواظبة على العبادات ، وزُكّيت بمجانبة الهوى والشهوات ؛ اتحدت عند مفارقة الجسد بالعالم الرّوحاني الذي منه انفصالها ، وتسعد بالعودة إلى وطنها الأصلي ، ولذلك سُمّي رجوعاً ، فقيل : ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[١] وهي الجنّة)[٢] .

ـ ٥ ـ عقيدتهم في التكاليف الشرعية :

قال الغزالي : (المنقول عنهم : الإباحة المطلقة ، ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها ، وإنكار الشرائع ـ إلا أنّهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نُسب إليهم ـ وإنما الذي يصح من معتقدهم فيه أنّهم يقولون : لا بد من الانقياد للشرع في تكاليفه ، على التفصيل الذي يُفَصّله الإمام ، من غير متابعة الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما ، وأن ذلك واجب على الخلق ، والمستحبين إلى أن ينالوا رتبة الكمال في العلوم ، فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور ، واطّلعوا على بواطن هذه الظواهر ؛ انحلّت عنهم هذه القيود وانحطّت عنهم التكاليفُ العمليّة ، فإن المقصود من أعمال الجوارح ؛ تنبيهُ القلب ، لينهض لطلب العلم ، فإذا ناله ؛ استعدّ للسعادة القصوى ، فيسقط عنه تكليفُ الجوارح)[٣] .

فالباطنيّة القرمطيّة تستّروا بادّعائهم إسماعيلَ بن جَعْفر الصادق ، وأحاطوه والأئمةَ

---

(١) الفجر : ٢٧ .

(٢) فضائح الباطنيّة (ص٤٤ ـ ٤٥) .

(٣) فضائح الباطنية (ص٤٦) فما بعد .

من قبله بهالات من التقديس ، وادّعوا له معرفة علم الغيب وإمامة الزمان .

فمذهبهم ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، إذ إنّهم بالآخر يظهرون ما يناقض الشرع ، وكأنه غايةُ مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ؛ ليس بمتعين في فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه ، بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم فيوافقون اليهود والنّصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ، ويقرّونهم عليها ، فهذه جملة المذهب)(١) .

وقد عدّهم الإمام ابن الجوزي من المارقين من الدّين كبابَك الخرّمي وصاحبِ الزّنج(٢) .

هذه بعض معتقداتهم التي خالفوا بها نصوص الكتاب والسنّة وانفردوا بمعظمها عن بقية الفرق التي ظهرت في الإسلام .

(٢) حروب القرامطة في زمن ابن حبان:

ذكرتُ في صدر الحديث عن القرامطة أنّ دعوتهم بدأت قبل عام سبعين ومائتين للهجرة ، ثم اشتدت سواعدهم ، وعظمت قوّتهم ، وبدأوا بشراء السّلاح وبنوا لهم مدينة حصينة سمّوها (دار الهجرة) في سنة سبع وسبعين ومائتين ، فخافهم كثير من ضعاف المسلمين ، وانضموا إليهم ، جَزَعاً ورُعْباً .

ومن الجدير بالذكر أنّ القرامطة على تعدّد الأمكنة ، واختلاف الأزمنة ؛ اتّبعوا ما سَنَّه لهم حمدان قرمط ، من اتخاذ دور للهجرة ، يعتصمون بها ويجاهدون أعداءهم منها .

فعل ذلك حُريث بن مسعود القرمطي حين استولى على مدينة واسط ، وفعل مثله أبو طاهر القرمطي سنة (٣١٦هـ) .

ومن اهتمام القرامطة بالنّظم الحربيّة ، ما نُقل عن أبي سعيد الجنابي من تدابير دقيقة ، ومن أبرزها تدريب الجنود وتوجيه كامل العناية بشؤونهم الحربيّة . فإن أبا سعيد أقبل على جمع الخيل ، وإعداد السّلاح ، واتّخاذ الإبل ، وإصلاح الرحال ، ونسج الدروع

---

(١) فضائح الباطنية (ص٣٧) .

(٢) تلبيس إبليس (ص١١١) . قلت : أعود وأذكّر بأن من الضروريّ نقل مذاهبهم من كتبهم .

والمغافرة ، وأخذ في تعليم الصبيان الفروسية ، حتى إنّه جمعهم في دور ، وأقام عليهم قوماً ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، ووسمهم لئلا يختلطوا بغيرهم ، ونصب عليهم عرفاء ، وأخذ يعلّمهم ركوب الخيل والطعانَ ، فنشأوا لا يعرفون غير الحرب ، وقد صارت دعوته طبعاً ، وطاعته ديناً ، والطعن والنـزال حرفة لهم . . . وكان لهذه التربية القتاليّة أَثرُها البالغ في تحركات القرامطة ومعاركهم[١] .

والقرامطة الذين عظم شأنهم ، وأرهبوا النَّاس ، وحاربوا المسلمين في ذلك العصر ، هم قرامطة العراق ، وقرامطة البحرين ، وقرامطة الشام . ويحسن أن نشير إلى حروب كل من هؤلاء مع أهل السنّة ، ومدى أثرهم وتأثيرهم عليهم .

ـ ١ ـ قرامطة العراق :

ذكرت سابقاً أنَّ ابتداء أمر القرامطة في العراق كان قبل السبعين والمائتين على يد رجل قدم من خوزستان ، كان يظهر الزهد والتقشف ، وراح يشكك النّاس فيما هم عليه من الدين ، ثم ادّعى أنّه يدعو إلى إمام من آل الرَّسول[٢] ثم قويت شوكتهم ، وطمّت بليّة المسلمين بهم ، وانتشروا بسواد الكوفة ، فوجّه المعتضد إليهم (شبلاً) غلام أحمد بن محمد الطائي ، فظَفِر بهم وأسر رئيساً لهم يعرف بأبي الفوارس ، أو ابن أبي الفوارس فدعا به المعتضد لثمان بقين من المحرم سنة تسع وثمانين ومائتين ، فسأله وناظره[٣] ثم أمر به فَعُذِّبَ وقلعت أضراسه ، ثم خُلع بمدّ إحدى يديه ببكرة ، وعُلِّق في الأخرى صخرةٌ ، وتُرك على حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قُطعت يداه ورجلاه من غدِ ذلك اليوم ، وضُربت عنقه ، وصُلب بالجانب الشرقي ، ثم حُملت جُثّتُه بعد أيام إلى الياسريّة ، فصلب مع مَن صُلب هناك من القرامطة)[٤] .

وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة ؛ اجتمع من كان بسواد العراق ممن يعتقد مذهب

---

(١) القرامطة وآراؤهم (ص٤٨٧ ـ ٤٩٠) مقتطفات .

(٢) الكامل في التاريخ (٦ : ٦٩) فما بعد ، الطبري (ص٢٣ ـ ٢٧) .

(٣) انظر المناظرة في الكامل (٦ : ١٠٠) حوادث سنة ٢٨٩ .

(٤) الطبري (١٠ : ٨٦) .

القرامطة ، فيكتم اعتقادَه خوفاً ، فأظهروا اعتقادهم ، فاجتمع منهم بسواد واسط أكثرُ من عشرة آلاف رجل ، وولّوا عليهم رجلاً يعرف بحُرَيث بن مسعود ، واجتمع طائفةٌ أخرى بعين التمر[١] ونواحيها في جمع كثير ، وولّوا أمرهم إنساناً يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدي الفاطمي في مصر ، فسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج ، وصرف العمّال عن السّواد ، وسار حُرَيْث بن مسعود إلى أعمال الموفّقي فبنى بها داراً أسماها (دار الهجرة) واستولى على تلك النّاحية .

فسيّر المقتدر بالله إلى حريث بن مسعود ومن معه ؛ هارونَ بن غريب ، وسيّر إلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصري ، فظَفِر جيش الخليفة وانهزمت القرامطة ، وأُسر منهم كثيرٌ ، وقتل منهم كثير ، واضْمَحلّ أمرُ من كان بالسّواد منهم)[٢] .

وفي سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة ، عَظُم أمر مِرْداويج بأصبهان ، وكان بينه وبين أمير القرامطة صاحب البحرين تفاهمٌ على انتزاع الملك من العرب ، وردِّه إلى العجم وكأنه كان يوافقه على أفكاره في الزّندقة . . ففطن رعيته لذلك ، فثاروا عليه ، وقتله أخص مماليكه «بَجْكَم»[٣] (ولما أُسر جماعة ممن معه من القرامطة ، وأُخذوا إلى بغداد ؛ حبسهم الخليفة في مطامير كان قد بناها لُمقدَّمي الساجية والحجريّة ـ كما صرح لهم ـ وكان يدخل إليهم الخليفة القاهر ، ويحسن إليهم لعلّه يتقوى بهم على الساجيّة والحجريّة)[٤] وما ذلك عندي إلا لما يَعرف من خطرهم وشدّة بأسهم .

ـ ٢ ـ قرامطة البحرين :

ابتدأ أمر القرامطة في البحرين على يد رجل يدعى يحيى بن المهدي قصد بلده (قطيف) فنـزل على رجل يعرف بعليّ بن المُعلّى بن حمدان مولى الزياديين ، وكان يغالي في التشيع ، فأظهر له يحيى أنّه رسول المهدي ، وكان ذلك في سنة إحدى

---

(١) عين التمر مدينة كثيرة أشجار التمر بين كربلاء والنجف .

(٢) الكامل (٦ : ١٩٤) .

(٣) البداية والنهاية (١١ : ١٧٨) .

(٤) الكامل (٦ : ٢٣٧) .

وثمانين ومائتين فجمع له ابن المعلّى الشّيعة ، وأقرأهم كتاب المهدي ، فأجابوه ، ووعدوه بالخروج معه إذا هو خرج ، وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي .

وظهر أبو سعيد سنة ست وثمانين ، فَقَتَل من حوله من أهل القرى ، واستولى على القطيف ، وأظهر أنّه يريد البصرة ، فكتب الخليفة إلى متولّيها أن يعمل حولها سوراً[١] .

أما أبو سعيد الجنابي فإنّه أغار بمن معه على هجر ، واقتربوا من البصرة ، فأرسل الخليفة إلى العبّاس بن عمرو الغَنَوي أمير فارس ، وولاّه البحرين واليمامة ، وأمره بمحاربة القرامطة ، فسار إلى البصرة بمن معه من الجيوش ، ولقيهم أبو سعيد الجنابي فهزمهم واستولى على ما معهم من الأموال وأسر من أسر ، ثم قدّم الأسرى ، فقتلهم في صباح اليوم التالي وحرقهم ، إلا العبّاسَ بن عَمرو الغَنَوي ، فإنه بقي عند الجنابي أياماً ، ثم أطلقه وقال له : عَرِّف مولاك بما رأيت !

وفي السّنة نفسها أوقع بدرٌ غلامُ الطائي بقرامطة ميسان ، فقتل منهم مقتلة .

وفي سنة تسعين ومائتين كبس «ابنُ بانو» أمير البحرين حصناً للقرامطة فقتل منهم مقتلة عظيمة[٢] .

واستفحل أمر قرامطة البحرين في عهد مُقَدَّمهم الجنابيّ ، حتى أراح الله منه العباد . ففي سنة إحدى وثلاثمائة دخل حمّاماً له ، وعنده خادم له صِقِلِّي ، فأراده الجنابي على الفاحشة ، فخنقه خادمه ، ولـمّا قتله ؛ استدعى رجلاً من أكابر رؤسائهم وقال له : السيد يستدعيك ، فلما دخل ؛ قتله ، ففعل ذلك بأربعة نفر ، واستدعى الخامس ، ففطن لذلك ! فأمسك بيد الخادم ، وصاح ، فدخل الناس وقتلوا الخادم .

ولم يمت الجنابي ـ لعنه الله ـ حتى كان قد استولى على هجر ، والإحساء ، والقطيف والطائف ، وسائر بلاد البحرين .

وكان قد عَهِدَ بالأمر إلى ابنه سعيد ، فعجز عن الأمر ، وغلبه أخوه الأصغر سليمان أبو طاهر .

---

(١) الكامل (٦ : ٩٢) .

(٢) الكامل (٦ : ٩٤ ـ ٩٥ ، ١٠٧) .

وفي تلك الأثناء كان الخليفة المقتدر كتب إلى أبي سعيد كتاباً ليّناً ، فيمن عنده من الأسرى ، وراح يُدَلّل له على فساد مذهبه ، فكان قد مات ، فوصل الكتاب إلى ابنه أبي طاهر ، فأكرم الرسل ، وأطلق الأسرى ، وأجاب على الكتاب[١] .

وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، قصد أبو طاهر البصرة في ألف وسبعمائة رجل فتسوّروا السّور ، وقتلوا الموكّلين ببابه ، ثم استولوا على المدينة ، وقتلوا خلائق ، وألقى النّاس أنفسهم بالماء ، فغرق كثيرون ، ثم تركها وانصرف إلى بلاده[٢] .

كما سار أبو طاهر القرمطي إلى «الهبير» سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، ليلقى وفودَ «الحاجِّ» فنهبهم ، فثار أهلوهم من البغداديين ينددون بابن الفرات الوزير ، وكان رافضياً مُتَّهَماً بميله إلى القرمطي ، فوبّخه الخليفة ، ثم قبض عليه ، وسُلِب الوزارة[٣] .

وفي سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة ، غزا القرمطي أبو طاهر الكوفةَ ، فهزم عسكرَ الخليفة ونهب البلد ، ولم يحجَّ في هذه السّنة من العراق أحدٌ خوفاً منه[٤] .

كما عاد إلى الكوفة ثانية سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، واستولى عليها وسلب ميرتها ووصل يوسف بن أبي السّاج ، فنظر إلى قلّة جيش القرمطي فاحتقره ، إلا أن أبا طاهر باشر الحرب بنفسه ، فطحن عسكر يوسف ودقّهم ؛ فانهزموا بين يديه ، وأُسر يوسف وعددٌ كبير من أصحابه ، وهرب من بقي إلى بغداد حفاة عراة ، فخاف أهل بغداد وأرادوا الهرب ، وجرت معارك ضخمة في تلك السَّنة استولى القرمطي فيها على مدينة الأنبار ، وجعلها مركز غاراته على جيش الخليفة[٥] وعاود الغزو سنة ست عشرة وثلاثمائة وحارب جيش الخليفة في الرحبة ، والرقّة ، ورأس العين ، وكفرتوثا ، وسنجار[٦] وأوقع بالمسلمين الوقائع وكبّدهم الخسائر الجسيمة .

---

(١) الكامل (٦ : ١٤٧) .

(٢) الكامل (٦ : ١٧٥) .

(٣) الكامل (٦ : ١٧٧) .

(٤) الكامل (٦ : ١٨٠) .

(٥) انظر هذه المعارك في الكامل (٦ : ١٨٧ ـ ١٨٩) .

(٦) الكامل (٦ : ١٩١ ـ ١٩٢) .

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة سار أبو طاهر إلى مكة ، فوصلها يوم التروية ، فنهب هو وأصحابه الحُجّاجَ ، وقتلوهم حتى في المسجد الحرام ، وفي البيت نفسه ، وجلس على باب الكعبة والرجال تُصرع بين يديه وهو يقول :

أنـا لله وبـالله أنـا يخلقُ الخلقَ وأُفنيهم أنا

وقلع الحجر الأسود ، وأنفذه إلى هجر ، فبلغ الخليفةَ الفاطميَّ ، فكتب إليه ينكر عليه ذلك وقال له : إن لم تردّ على أهل مكة ، وعلى الحجاج وغيرهم ما أَخذتَ منهم ، وتردّ الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة ؛ فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة . . .[1] قبّح الله الجميع .

وفي سنة ثنتين وعشرين ؛ استرضاه الخليفة ، وطلب منه أن يعلن الطاعة فيقرَّهُ على ما بيده من البلاد ، فلم يتعرَّض أبو طاهر للحجاج ، وطلب منه أن يعيد الحجر الأسود فلم يفعل[2] .

واعترض سبيل الحُجاج سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، فقاتله أصحاب الخليفة والحجّاج بالقادسية ، فشفع جماعة من العلويين لديه ، فرجع واشترط ألاّ يحج أحدٌ ذلك العام ، ففعلوا[3] .

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة قتل القرامطة بعضُهم بعضاً ، حتى قُتل خلق من عظمائهم ، واختلَّ أمرهم بسبب فتنة حصلت بينهم ـ لعنهم الله ـ وكان هذا سبب تمسكهم بمدينة «هجر» وترك العدوان على البلاد والإفساد بها[4] .

وقد أراح الله العباد والبلاد من شرور أبي طاهر سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، فخلفه إخوته سعيد بن الحسن وهو الأكبر ، والفضل بن الحسن ، وكان لهم أخ ثالث يهتم

(١) الكامل (٦ : ٢٠٣ ـ ٢٠٥) .
(٢) الكامل (٦ : ٢٤٢) .
(٣) الكامل (٦ : ٢٤٩) .
(٤) الكامل (٦ : ٢٦٨) وانظر فيها تلك الفتنة .

باللَّهو والشرب ، وإن كان لا يخالف أخويه في المعتقدات والفعال[١] .

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أراد معزّ الدّولة بن بُويهِ استنقاذَ البصرة من البريدي وسار في البرية ، فأرسل القرامطة إليه من «هجر» يستنكرون مسيره في أرضهم فلم يجبهم ، وقال للرّسول : قل لهم : من أنتم حتى تُستأمروا؟! وليس قصدي مِنْ أخْذِ البصرة غيركم[٢] .

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة وقالوا : أخذناه بأمر وأعدناه بأمر . وهناك خلاف كثير في كيفية استعادته ؛ هل كانت بأمر الخليفة الفاطمي في مصر؟ وهل أعادوه بدون شيء ، أو اشتراه بَجْكم منه ، كما ذكر ابن كثير؟ أم أعادوه حين شعروا بالضعف في تلك الفترة ، فخافوا من الاستئصال[٣]؟ أم رأوا من مصلحتهم نقلَ أعمالهم إلى بلاد أخرى غير تلك البلاد؟ الله أعلم أيّ ذلك كان .

ـ ٣ ـ قرامطة الشام :

وكانت بداية ظهور القرامطة في الشام على يد ذَكْرَوَيْهِ بن مَهْرَوَيْهِ ، وكان داعيةَ قرمط ، فراح ينشر دعايتَه في بلاد الشام حتى كانت سنة تسع وثمانين ومائتين فانضم قرامطة سواد الكوفة إلى مَن استمالهم ذكرويه من أعراب بني عُلَّيْص[٤] ومواليهم فبايعوا يحيى بن ذكرويه ولقبوه بالشَّيخ ، وأتاه جماعة من بني الأصبغ وُسِمُوا بالفاطميين ودانوا بدينه .

وفي هذه السّنة غزاهم شِبلٌ غلام المعتضد بناحية الرصافة ، فأخذوه على غِرّة ، وقتلوه وأحرقوا مسجد الرّصافة ، واعترضوا كلَّ قرية اجتازوا بها ، حتى بلغوا ولاية هارون بن

---

(١) الكامل (٦ : ٢٩٩) .

(٢) الكامل (٦ : ٣٢٤ ـ ٣٢٥) .

(٣) الكامل (٦ : ٣٣٥) وقارن بالكامل (٦ : ٢٠٣) والبداية والنهاية (١١ : ١٦٠ ـ ١٦٣) و(١١ : ٢٢٣) .

(٤) قبيل من العرب ينتسبون إلى عُلَّيْص بن ضِمْضِم بن عديّ . إكمال ابن ماكولا (٤/٧٩) و(٧/٢١١) .

خُمارَوَيْهِ ، فأكثروا القطعَ بها والإغارةَ ، فقاتلهم طُغْج فهزموه غير مرّة[١] .

وفي سنة تسعين ومائتين سيّر طُغْج جيشاً كثيفاً لقتال القرمطيّ ، فقاتلهم حتى لم يبق من أصحاب طُغْج إلا اليسير ، فاستنجدوا الخليفة ، وأمدهم المصريون حتى قاتلوا القرامطة ومقدمهم يحيى بن ذكرويه على أبواب دمشق ، فرماه بعض المغاربة بِمِزْراقِ نارٍ فاحترق ، فبايعوا أخاه الحسين بن ذكرويه فسمى نفسه أحمد ، وكُني بأبي العباس ، ودعا النّاس فأجابه أكثر أهل البوادي ، وأظهر في وجهه شامة زعم أنها آيتُه ، ثم سار إلى دمشق فصالحه أهلها على خراج يدفعونه إليه . ثم غلب على حمص ، وخُطب له على منابرها ودُعيَ المهديَّ أميرَ المؤمنين ، ثم سار إلى حماة ومعرّة النّعمان وغيرهما ، فقتل أهلها وسبى النّساء . وذكر ابن الأثير حوادث يَقشعرّ لها البدن . ثم كبس حلب واستفحل خطره ، حتى أتاه بَدْرٌ مولى ابن طولون فهزمه ، وقُتل من أصحابه خلق كثير ومضى مَن سَلِمَ منهم إلى البادية ، فوجّه الخليفة المكتفي في إثْرِهم الحسينَ بن حمدان وغيره من القوّاد[٢] .

وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين ؛ التقت عساكر الخليفة بجيوش القرمطيّ قرب حماة ، فقدّمَ القرمطيُّ أصحابه ، وتأخر هو وجماعةٌ من خاصته ، فانهزمت جيوش القرمطي ، فلما رأى ذلك ؛ أمر أخاه أن يأخذ الأموال ويهرب إلى بعض البوادي ، ثم هرب هو أيضاً ، وقُتل من القرامطة خلق لا يُحصَون ، وتشتّت الباقون في البوادي . وتابع صاحب الشّامة سيره هارباً ، ومعه ثلاثة نفر وغلام رومي ، فلما نَفِد زادُهم ؛ أرسلوا الغلام الرّومي ليشتري لهم ما يحتاجون إليه ، فدلّ عليهم ، فأسرهم شَرِطَة أحمد بن محمد بن كَمْشَرْدَ متولّي دالية (ابن طوق)[٣] ثم أُدخلوا رَقّة بغداد مُشَهَّرين ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضربت أعناقُهم بعد ذلك !

---

(١) الكامل (٦ : ١٠٠) .

(٢) الكامل (٦ : ١٠٥ ـ ١٠٦) .

(٣) قال ياقوت في بلدانه (٢ : ٤٣٣) : الدالية ، واحدة الدوالي التي يستقى بها الماء للزرع ، مدينة صغيرة على شاطئ الفرات في غربيّه بين عانة والرحبة ، بها قبض على صاحب الخال القرمطي بالشام لعنه الله .

واستأمن جماعةٌ من بني العليص ومواليهم ، فأمّنهم الخليفة وأقرَّهم في السماوة[١] حتى جاءهم كتاب الخبيث ذِكْرَويهِ يُعْلِمُهم أنه مما أُوحي إليه أنّ صاحب الشّامة وأخاه المعروف بالشّيخ ؛ يُقتلان ، وأنَّ إمامه سيظهر ويظفر[٢] .

بعد ذلك أنفذ ذِكْرَويهِ عبد الله بن سعيد أبا غانم وسمّاه (نصراً) فدار على أحياء العرب ، فاجتمع إليه طوائف من الأصبغيين المنتمين إلى الفواطم وغيرهم ، فسار بهم إلى بُصرى وأذرعات الشّام ، وكان العامل بدمشق والأردن أحمد بن كيغَلْغ ، وهو بمصر يحارب الخَلَنْجي ، فحارب القرمطيُّ أهل بُصرى وأذرعات والبثينة ، حتى استسلموا ، فلمّا أمّنهم ؛ قتل مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم ، وأخذ أموالهم ، ثم قصدَ دمشق فهزموا نائب أحمد فيها ثم أمّنوهم ونكثوا ، وقتلوا النائب صالح بن الفضل ، وقصدوا طَبَريّة ، فقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها ، وسبَوا النِّساء .

ثم جاءهم جيشُ الخليفة بقيادة الحسين بن حمدان ، فرجعوا إلى السماوة ، وغوّروا المياه ، حتى اضطُرّ ابنُ حمدان إلى الرجوع ، فهجم القرامطة على مدينة «هيت» وأهلها غافلون ، فقتلوا منهم مائتي نفس .

ثم سيَّر الخليفةُ محمّدَ بن إسحاق بن كُنْداج في أثرهم ، وراسل هذا الحسينَ بن حمدان ، ليجتمعوا عليهم فيقتلوهم ، فلما أحسّ الكلبيّون القرامطةُ بذلك ؛ قام رجل منهم يسمىّ الذئب بن القائم ، وقتل نَصْراً ، وسار برأسه إلى المكتفي مستأمناً متقرّباً .

واقتتلت القرامطة بعد نصرٍ اقتتالاً شديداً ، فكتب الخليفة إلى ابن حمدان ، يأمره بمعاودة حربهم ، واجتثاث أمرهم .

وفي هذه الأثناء أرسل إليهم ذِكْرَويهِ رسولاً يبلّغهم فيه ارتدادهم عن الدّين بفعل الذئب ، وأنّ موعد ظهورهم قد حان ، وأنه يوم النّحر سنة ثلاث وتسعين ومائتين في الكوفة ، فاستقبلوا النّاس بعد صلاة العيد في المصلّى ، وكان عددهم ثمانمائة فارس ، فقاتلوا النّاس ، وقتلوا منهم نحو عشرين نفساً ، فبادر النّاس إلى الكوفة ، وأخذوا السِّلاح ، ونهض

---

(١) هي بادية مشهورة بين الكوفة والشّام . معجم البلدان (٣ : ٢٤٥) .

(٢) الكامل (٦ : ١٠٨ - ١٠٩) .

بهم إسحاق بن عمران أميرها ، وقاتل مع إسحاق جماعةٌ من الطالبيّين من آل البيت وأمدّ الخليفة إسحاقَ بجماعة من قواده ، فساروا حتى لقيهم ذَكْرَويهِ بالقادسية ، وكان قد خرج من الجبّ الذي دام به سنين عديدة بقرية «الدّريّة» فحملوه على أيديهم ، وسمّوه وليَّ الله ، وسجدوا له ، فأعلمهم أنَّ القاسم بن أحمد من أعظم النّاس عليهم ذمّة ومنّة وأنّه ردّهم إلى الدّين .

واصطدم جيش الخليفة بجيش ذَكْرَويهِ ، وكانت الهزيمة في أول النهار على جيش ذَكْرَويهِ ، إلا أنّ اللّعين كَمَن في آخر النهار لجيش الخليفة ، فلم يشعروا إلا والسّيف من خلفهم ، فانهزموا أقبح هزيمة ، وغنم القرامطة غنائم عظيمة تقوّوا بها . بينما قُتِل من جيش الخليفة أكثر من ألف وخمسمائة رجل[١] .

وقام ذَكْرَويهِ بعد ذلك بنفسه في تدبير الأمور ، فرحل في المحرّم ، يقطع الطريق على الحجّاج وكانت وقائع مذهلة ! قَتل فيها ذَكْرَويهِ ـ لعنه الله ـ أكثر من عشرين ألفاً من حجّاج المسلمين ، فلمّا بلغ الخليفة ذلك استعظمه ، فجهّز المكتفي الجيوشَ وسيّر مَصيف ابن سُوارْتَكين ، وجرت بينه وبين القرامطة وقائعُ ، انتصر فيها جندُ الخليفة ، وقُتل ذَكْرَويهِ ، وأُسر خاصته ، وانهزم جماعة من القرامطة إلى الشّام ، فقتلهم الحسين بن حمدان[٢] عن آخرهم ، وتتبع الخليفةُ القرامطةَ بالعراق فقتل بعضهم ، وحبس بعضهم ومات بعضهم بالحبس .

إلا أنَّ القرامطة تجمّعوا من جديد ، وذهبت جماعة منهم إلى الشّام ، وقصدوا مدينة طبريّة ، ليأخذوها من الإخشيد صاحب مصر والشّام ، وطلبوا من سيف الدّولة أن يمدّهم بحديد يتّخذون منه سلاحاً ، فقلع لهم أبواب الرقّة ، وكانت من حديد صامت[٣] وأخذ لهم من حديد النّاس حتى أخذ أواقي الباعة في الأسواق وأرسل بذلك كلّه إليهم . . .[٤] . كان ذلك في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة .

---

(١) الكامل (٦ : ١١٢ ـ ١١٥) .

(٢) الكامل (٦ : ١١٦ ـ ١١٧) .

(٣) الحديد الصامت : هو الحديد الصلب المعالج بحيث لا يصدأ . القاموس ، (صمت) .

(٤) البداية والنهاية (١١ : ٢٥٤) .

وأقتصر على هذا القدر من تاريخ القرامطة ، فإن غايتي بيانُ خطرهم وأثرِهم في عصر ابن حبّان رحمه الله تعالى .

وإنّما أفضتُ في الحديث عنهم ـ نسبياً ـ لأنهم أخطر ثورة فكريّة وعسكريّة مسلّحة داخل المجتمع المسلم في القرن الرابع الهجري ، وكان من نتائج ثورتهم الفكريّة والحربيّة قيام دولة الفاطميين الباطنيّة في مصر . أو قل : لعلّ من مخطّطات قيامها في مصر والمغرب ، إشغالَ الخليفة في المشرق عن التفكير في أمور تلك البلاد البعيدة .

المبحث الثّالث

ثورات الخوارج

تمهيد : إنّ مما يحسن قوله تمهيداً لثورات الخوارج ، وثورات الطالبيين ؛ أنّ مدرسة آل البيت ، هي المحضِن الذي تربّى فيه الخوارج بفِرَقهم ، والشيعة بفِرَقهم عامّة ، ولمّا كانت دعوة آل البيت ، إنما تعني في أخصّ ما تعنيه ، تحكيمَ كتاب الله وسنةِ رسوله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم في سائر شؤون الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية ، وغيرها ، ولمّا كان عليٌّ ورجال آل البيت رضي الله عنهم ، هم النماذجَ العالية في ذلك كلّه ؛ فقد كان طبيعياً أن يتشرّب أتباعهم من أخلاقهم ، وأن يتأثّروا بصفاتهم والتزامهم الدينيّ العالي !

بيدَ أنّ مما لا يخفى على الدارسين ؛ أنّ الالتزام إعجاباً ، ليس مثل الالتزام تقليداً وهما غير الالتزام عن قناعة وفهم ، وهذه الأصناف كلّها تختلف اختلافاً جذريّاً عن مسالك المنافقين وأصحاب الأهواء الذين يندسّون بين الصفوف ؛ ليمزّقوها من الداخل !

على أنَّ الصفة المشتركة التي تكوّن الأرضية العامّة للفكر والفقه والسلوك الخارجيّ للإماميّ ، والزيديّ ، والإباضيّ ؛ هي صفة الانتماء إلى هذه المدرسة !

وحين كنت أكتب بحثاً عن «مسند الربيع بن حبيب الإباضيّ» لأُدخله في كتابي (مناهج المصنفين في الحديث النبويّ) ما كنت أعرف عن الإباضية إلاّ ما تذكره كتبنا ـ معشر أهل السنة ـ وكنت أعتقد أن الإباضية فرقةٌ جاهلة ليس لديها رصيد من العلم والفكر ، وأنهم يكفّرون عليّاً وأهل بيته ، ولا يقيمون لهم وزناً ، خاصّة وأنهم لا يرون النسب القرشيّ شرطاً في استحقاق الخلافة أصلاً !

وحيث إنّ كتابتي عن «مسند الربيع» جاءت بعد كتابتي أبحاثاً مماثلة عن «مسند الإمام زيد» وكتب الإمامية الأربعة : «الكافي» للكليني ، و«من لا يحضره الفقيه» لابن بابويه القمّيّ الملقّب بالصدوق ، وكتابَي «التهذيب» و«الاستبصار» كلاهما للشيخ الطوسيّ ، فلقد أدهشني كثرة التوافق بين فقه هذه المدارس الثلاث : «الزيدية ، والإمامية والإباضية» ؛ على ما بينها من احتراب وأحقاد ، تصل إلى حدّ التكفير ! كما أدهشني

كثرة الموافقات بينها وبين فقه أهل المدينة ، وفقه الحنفية ، مما يضع أيدينا على مصادر جديدة لمعرفة فكر آل البيت وفقههم ، وفق منهج علميّ دقيق ، بعيداً عن دعاوي هذه الفرق ، وانتساباتها !

إن حركة الخوارج بدأت مع ظهور قضية التحكيم بين علي رضي الله عنه ، ومعاوية واستطار شرّ الخوارج دهراً ، وعظم خطرهم الفكري والحربي على المسلمين ، إلا أن العصر الذي عاش فيه ابن حبان ، قد أمِن شرّهم في معظم البلاد الشرقية من العالم الإسلامي وإنْ كان خطرهم في المغرب العربي ؛ كان لا يزال ملموساً .

على أنّ ثمة حركاتِ تمرّدٍ ، وثوراتٍ ، قد قاموا بها في بلدان المشرق ، في ذلك العصر .

فقد ذكر ابن الأثير أنّ هارون الشّاري وحمدان بن حمدون ومن معهم من الشُّراة[١] دخلوا الموصل ، واستولوا عليها ، وصدّوا غارات بني شيبان الذين عاثوا في البلاد فساداً إلاّ أن بني شيبان جمعوا جموعهم ، وقصدوا هارون الشّاري وحمدان بن حمدون ، فغلب بنو شيبان الشُّراةَ ، وهرب هارون ومن معه في سنة اثنتين وسبعين ومائتين .

وفي سنة ثلاث وسبعين استولى ابن أبي السّاج على الموصل ، فأرسل طائفة من عسكره مع غلامه (فَتْح) ، وكان شجاعاً ، إلى «المرج» من أعمال الموصل ، وكان اليعقوبيّة من الشّراة قريباً منه ، فأرسل إليهم وهادنهم ، ثم إنّه كبسهم ، فهرب قسم منهم إلى أصحابهم ، وقتل قسم ، فتجمعوا وعادوا لقتال (فتح) فهزموه ، وقتلوا من أصحابه ثمانمائة رجل ، وكان أصحابه ألف رجل[٢] وكأن هارون الشّاري وحمدان بن حمدون ومن معهم من الخوارج ، لم ينسوا لبني شيبان فعلتهم ، كما أنّ بني شيبان ـ فيما يبدو ـ مُعادون للخوارج عداءً فكريّاً ، إلى جانب عدائهم الموروث لبني تغلب أصحاب حمدان ابن حمدون التغلبيّ الشاريّ . أضف إلى ذلك كلّه أن بني شيبان كانوا أعراباً ـ فيما يبدو ـ همُّهم الإغارة والنّهب ، ولذلك ينقل ابن الأثير أنّ الخوارج قد اجتمعوا ، ومعهم متطوعة

(١) لقبت هذه الفرقة بالشُّراة ، لأنهم شروا الجنة بأنفسهم .

(٢) الكامل (٦ : ٥٩ ـ ٦١) مقتطفات .

أهل الموصل وغيرُهم وحمدان بن حمدون التغلبيّ على قتال بني شيبان ، بسبب أنّ هؤلاء عبروا الزّاب[١] وقصدوا نينوى من أعمال الموصل للإغارة عليها وعلى البلد . . . وكان محمد بن إسحاق بن كِنْداج قد أرسل هارون بن سليمان ، مولى أحمد بن عيسى بن الشّيخ الشيباني صاحب ديار بكر ، والياً على الموصل ، فلم يمكّنه الخوارج منها ، وطرده أهلها ، فلما التقوا ؛ انهزم بنو شيبان ، وتبعهم حمدان والخوارج ، إلا أنّ بني شيبان أيقنوا بالهلاك ، بسبب زيادة مياه الزّاب ، فرجعوا إلى القتال ، والنّاس مشغولون بالنَّهب ، فقتلوا من أهل الموصل مقتلةً عظيمة ، وعاد الظفر لبني شيبان الأعراب[٢] فغضب الخليفة من تطاول بني شيبان الذين أقلقوا الجزيرة والموصل فسار إليهم بنفسه ، وأوقع ببعضهم ، فلمّا نزل الموصل ؛ سألوه العفو والصّفح[٣] .

وفي سنة ثمانين خرج محمد بن عبادة ، ويعرف بأبي حوزة ، على هارون الخارجي ومن معه ، وكان هارون قد قصد حصناً لمحمد بن عبادة فيه ولده أبو هلال ، فقتل هارون أبا هلال ، واستولى على الحصن ، ثم سار فلَقِيَ محمد بن عبادة فاقتتلوا ، فانهزم هارون ومن معه ، فوقف بعض أصحابه ونادى رجالاً بأسمائهم ، فاجتمعوا نحو أربعين رجلاً فحملوا على ميمنة محمد بن عبادة فانهزمت الميمنة ، وعادت الحرب فانهزم محمد بن عبادة ومن معه ، وقُتل من أصحابه ألفٌ وأربعُمائة رجل ، وحَجَزَ بين الفريقين الليلُ !

فانهزم محمد بن عبادة إلى آمد ، فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى بعد حرب ، فَظَفِر به وأرسله إلى المعتضد ، فسلخ جلده كما يسلخ الشّاة[٤] .

وتتابعت أعمال شغب الخوارج ، وظلّ الخليفة يتتبّعهم حتى استأمن حمدان بن حمدون سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وجرت حروب ووقائع بين عسكر الخليفة وهارونَ

(١) هو الزاب الأعلى بين الموصل وإربيل في شمال العراق . والزاب النّهر الذي حفره أحد ملوك الفرس فسمّي باسمه . معجم البلدان (٣ : ١٢٣) .

(٢) الكامل (٦ : ٧٢) .

(٣) الكامل (٦ : ٧٦) .

(٤) الكامل (٦ : ٧٦) .

الشّاري ، انهزم في آخرها هارون ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، واستأمن كثير من أصحابه[١] وأصرّ الخليفة على إنهاء أمره ، فأرسل في طلبه الحسين بن حمدان في ثلاثمائة فارس ، ثم قسم الحسين بن حمدان جيشه ، وتبع الشّاري وحاربه ، ثم ألقى نفسه عليه وأسره ، وجاء به أسيراً إلى المعتضد ، فأدخله بغداد مُشهّراً ، ثم صلبه سنة ثلاث وثمانين ومائتين[٢] . وضعف أمر الخوارج في المشرق بعد ذلك ، ولم تقم لهم قائمة إلا في اليمن وعُمان ، فقد استولوا عليها سنة ٤٤٢هـ فيما بعد[٣] .

ولهم بقايا في المغرب العربيّ حتى اليوم ، وخاصّة في ليبيا والجزائر .

---

(١) الكامل (٦ : ٧٨ ـ ٧٩) .

(٢) الكامل ٦ : ٨١) .

(٣) تاريخ الإسلام السّياسي (٣ : ٢٠٩) .

المبحث الرابع

ثورات العلويِّين[١]

عرف التاريخ الإسلامي الإمام علياً رضي الله تعالى عنه فارساً مظفّراً ، وعلَماً من أعظم أعلام الإسلام على مر التاريخ ، وذكياً ألمعياً ، وقاضياً حصيفاً ، ومشيراً حكيماً قد اجتمعت فيه خصالٌ جعلته يقول غيرَ مرّة بأن رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم توفي ، ولم يكن يظن هو أنَّ أحداً يجرؤ أن يتقدمه في منصب الخلافة العظمى !

فهو أول من أسلم بعد خديجة زوج النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، وزيدِ بن حارثة مولاه ، أو قل : إنّ هؤلاء جميعاً أسلموا معاً لأنهم أهل بيت رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، وهو أخو رسول الله ، وابنُ عمِّه أبي طالب سيّد البطحاء وناصر الإسلام ، ولم يعرف عليٌّ الشّرك والوثنيّة ، وإنما جُبل بالإسلام منذ عرف الحياة ، وَمَيّز الأمور ، وأفاض عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم من علمه وحلمه وحسن عنايته ، ما جعله موضع إجلال المسلمين وعنايتهم وإكبارهم .

علاوةً على أنّ بني هاشم هم سادة قريش في الجاهليّة ، ولم يكن يجرؤ أحد أن يتقدم عليهم ، خاصّة بعد حادثة الفيل التي ظهر فيها من إكرام الله تعالى لعبد المطّلب جدّ النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، وجدّ عليّ رضي الله تعالى عنه ، إرهاصاً لنبوّة المصطفى صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم .

وبنو هاشمٍ وحدَهم بدون ريب ، هم الذين حَمَوا رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم في مكة المكرمة ، وهم وآل المطّلب ومواليهم ، وحدَهم الذين حُصروا في شعب أبي طالب ثلاث سنين ، وهم وحدهم من قريش ، كانوا فرسان معركة الفرقان (معركة بدر) .

---

(١) العلويّون ذريّة أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه . أما من سُمُّوا بالعلويين هذا العصر في بلاد الشام ، فهؤلاء هم النّصيريون ، أكثرهم من بقايا القرامطة الكلبية الذين مرّ ذكرهم في ثورات القرامطة ، ومنهم طائفةٌ من الإماميّة الجعفرية ، وقد سمتهم فرنسا بالعلويين ، وسمّت جبالهم (جبال العلويين) ، كما سمّت جبال الدّروز (جبل العرب) . وقد كانت الكتب التي درسناها في سوريا قبل عام (١٩٦٣م) لا تذكرهم إلا بالنّصيرية والدّروز .

وظلّت سيوف بني هاشم عامّة ، وسيف عليّ ـ الذي ما خاض معركة إلاّ انتصر فيها انتصاراً ساحقاً ـ خاصّة ، هي الذائدة عن رسول الله طيلة حياته صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم .

وإنّ تقديرنا العظيم لسائر أصحاب النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم المخلصين رضي الله عنهم ، يجب أن لا يصرفنا عن قول الحقّ ، وتعريف أجيالنا الحقيقةَ .

ومن المتفق عليه بين المحدِّثين والمفسرين ؛ أنّ بيت عليّ رضي الله عنه كان في وسط بيوت النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم[١] ـ وحتّى هذا اليوم معروفٌ بيتُ فاطمةَ عليها السلام ـ وكان ربما استدعاه من الليل فناجاه إلى الصباح[٢] ولهذا فقد كان عليّ يتفرّد بكثير من العلم والمعرفة والسلوك الذي اقتبسه من رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم .

بيدَ أنّ بيعة الصدّيق كانت فلتةً كما قال عمر رضي الله عنهما ، وقد وقى الله شرّها[٣] وسارت الأمور نحو خير الأمة ووحدتها بفضل الله تعالى ، ثم بإخلاص الصدّيق وعليّ وكبار الصحابة الذين آثروا الله تعالى على مناصب الدنيا ومُتعِها التي ما كانت تستهويهم ، أو تحرك ساكناً في قلوبهم !

ولا ريب أنّ في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان على علي رضي الله عنهم اعتباراتٍ عديدةً ـ إذا ما تجاوزنا مسألة التفضيل هذه ـ منها :

(١) أنّ أبا بكر وعمر وعثمان كانوا مقرّبين إلى رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم كما كان عليّ مقرّباً .

(٢) وأنّ أبا بكر وعمر وعثمان حين استُخْلِف كلُّ واحد منهم كان عَلَماً يُنظر إليه كما كان ينظر إلى عليّ رضي الله عنه .

(٣) وأنّ قريشاً التي كانت تدين بالطّاعة والرّضا لبني هاشم في الجاهلية ، لم تَعُدْ كذلك في بداية الإسلام ؛ لأنّ قريشاً أرادت أن ترتدّ عن الإسلام بعد النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، لولا عقلُ سهيل بن عمرو الذي أقنعهم بانتظار الحروب التي سوف تحدث

---

(١) من حديث ابن عمر أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٠٤) .

(٢) من حديث جابر أخرجه الترمذي (٣٦٦٠) .

(٣) من حديث ابن عباس أخرجه البخاري (٦٨٣٠) .

بين المسلمين وقبائل العرب ، وهذا يعني أنّ آثار الجاهلية كانت لا تزال راسخة في أذهان الكثيرين منهم ، فكيف يقبلون بعليّ أو بأحدٍ من بني هاشم ، وهم الذين أفنَوا أكابرهم وقتلوا زعماءهم ، ولم يتركوا بيتاً من بيوت قريش ، إلاّ وفيه قتيل أو أكثر من أسيافهم؟!

بينما لم يصحّ أنّ أبا بكر وعمر وعثمان قتلوا أحداً من قريش ، لا في جاهلية ، ولا في إسلام ، إضافةً إلى أنّ النفس البشرية ، قد تقبل الرئاسة عليها ممّن هو دونها في المآثر وترفض من يفوقها ، إذا حَسِبت أنّ رئاستَه ستطول عليها ، وهذا ما جاء عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قوله : كأنّ قريشاً عن بكرة أبيها أبت أن يُجمع لبني هاشمٍ نبوّةٌ وخلافة !

(٤) أنَّ علياً رضي الله عنه ـ وهو المرشّح الوحيد في بني هاشم للخلافة في زمن هؤلاء الأكابر ـ كان أصغرهم سنّاً ، فإن أبا بكر توفي بعد رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم بسنتين وأشهر ، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة على الراجح ، ولم يكن عُمُر عليّ يوم توفي رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم يزيد كثيراً على خمسة وثلاثين عاماً .

أفيترك المسلمون شيخ المهاجرين ابنَ السّتين ، ويجعلون ابن الثّلاثين خليفتهم؟ ولعلّهم نظروا إلى مثل هذا في تولية كلّ من عمر وعثمان رضي الله عنهما أيضاً .

وما دامت الخلافة مسألة شرعيّة مصلحيّة ، وجميع هؤلاء من قريش ، وقد توفّرت فيهم كلّ مؤهّلات الخلافة من الدّين والتّقوى والعلم والعقل والنّسب ، فما وَجه صرف الخلافة إلى صغيرِهم الواتِر لقبائل قومه ، حتى على فرض أنه أكثرهم علماً ، وأعظمهم في الإسلام أثراً ، وأرجحهم صفاتٍ ومزايا ، ما داموا سيستعينون بما لديه ، وما دام هو لن يتردد في تقديم كلّ ما يطلبونه من عون؟

وإنما وَجَد عليّ رضي الله عنه في نفسه شيئاً يوم تولية عثمان ، لأن عثمان بطبيعته ـ رضي الله عنه ـ رحيم ، حيّي ، وديع ، يحب أقرباءه ، ويصلهم ، ولطالما توسّط لأخيه طريد رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم لردّه ، فرفض الرّسول عليه وآله الصلاةُ والسّلام . وكان بنو أمية ـ باستثناء عثمان رضي الله عنه وعددٍ يسيرٍ معه منهم ـ من الطلقاء ، ومن المؤلّفة قلوبهم ، فخافهم عليّ رضي الله عنه على الإسلام ، بل لعلّ عنده علماً من رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم بأن بني أميّة سيذلّون هذه الأمّة ، ويسومونها

سوء العذاب ، وكم من حديث صحيح يشير إلى مثل هذا ، وكم من حديث يشير إلى أنّ الحسين ستقتله هذه الأمة ، وكم من حديث يشير إلى أنّ لدى عليّ علماً خاصّاً في بعض مسائل الخلاف ، جعلته يسكت في وقت ، بينما يثور ويغضب في وقت آخر ، وما قصة قتاله الخوارجَ عنّا ببعيدة عندما قال لأصحابه : والذي نفسي بيده ، لا يُقتل منكم إلاّ دون العشرة ، ولا ينجو منهم إلاّ دون العشرة ، وعندما أمر أصحابه بالبحث عن ذي الثُّديّة فلم يجدوه قال : سوف تجدونه ! لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما كُذِبتُ ولا كَذبتُ .

هذا وغيره ممّا لا مجال لذكره الآن ، قد يكون ممّا جعل عليّاً رضي الله عنه يتحفظ ويتوقع الشّر في خلافة عثمان .

وشاءت حكمة الله أن يتحقق ما ظنّه ، أو عَلِمَه عليّ ، وتحكّم بنو أميّة في رقاب المسلمين ، وصار ولاة الأقاليم الرئيسة منهم ، أو من مواليهم وأشياعهم ، وكان عليّ رضي الله عنه هو الشخصية الوحيدة المؤثرة على عثمان رضي الله عنه وبني أمية ، بما له من شخصية ، وبما لبني هاشم من مكانة مكافئة لبني أميّة وزيادة .

وذهب بنو أمية يتربّعون على عروش البلاد ، وراح بنو هاشم يتربَّون على يَدَيْ عليّ رضي الله عنه ، فكان من بني هاشم أبناء عليّ ، وعبد الله بن عبّاس ، وأبناء جعفر وأبناء العبّاس ، وأبناء عقيل ، ممّن جمعوا العلم والفضائل ، بينما تركت السّياسة طلقاء بني أميّة يبتعدون عن جلّ ذلك إن لم نقل كله ! حاشا عثمان الذي كان قد جاوز الثمانين من عمره رضي الله تعالى عنه وأرضاه .

وظَلَم بنو أمية النّاسَ ، فاتّجهوا بطبيعتهم إلى بني هاشم وأبناء عليّ ، وكانت الصّراعات التي ظهرت أحياناً صراعات سياسية ، إلا أنها في جوهرها ـ غالباً ـ جهاد خالص لإعادة الدّين إلى صفائه ، والحق إلى نصابه .

وجاء بنو العبّاس ، وظنّ النّاس أنهم يعودون إلى السّيرة الحميدة وأخلاق الراشدين ، إلا أنّ الزمن الذي جاءوا فيه ، والظّروف التي تربّوا في أحضانها ، والصّفات الجبليّة التي طبعوا عليها ؛ لم تكن تسعفهم في ذلك كلّه ، وأَيِسَ الناس وتشوفّوا ثانية إلى بني عليّ خُلاصةِ بني هاشم ، وصفوة المسلمين حتى ذلك العصر . وكان النِّزاع ، واحتدام الصّراع ، وكم من ثورة ثارها

العلويّون ضد بني العبّاس ، منها ما كان دافِعَهُ الحقُّ والإصلاحُ ، ومنها ما كان شهوةَ حكم وانتقام من بني العبّاس ، ومنها ما كانت ظروف آل عليّ الصعبة تحتّمه ـ بمشيئة الله ـ وتُمْلِيه .

وعصر ابن حبّان الممتدّ بين عامي (٢٧٧ ـ ٣٥٤هـ) جرت فيه عدّة ثورات للعلويين لا ريب أنّه قد كان لها أثر في حياته ، وخاصّة أنّ العلويين قد ظُلموا أمرَّ الظّلم في زمن الأمويين والعباسيين ، خوفاً وحسداً ونفاسةً من جهة ، وبسبب ما كان يدّعيه باسمهم القرامطة والفاطميون والروافض والشّيعة على اختلاف نزعاتهم من جهة أخرى .

ثورة محمد بن زيد العلوي:

ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم في سنة خمسين ومائتين ، وكثر جيشه ، واستولى على جُرجان وتلك الناحية ، واستفحل أمره ، وهزم جيوشَ الخلفاء . ثم أخذ الريَّ ، وصاهر الدَّيْلَم ، وتمكّن وعظم[١] وقضّى على تحركات مناوئيه ، وكان بطّاشاً حتى مع أقربائه العلويين[٢] حتى مات سنة سبعين ومائتين ، فتولّى بعده أخوه محمّد بن زيد ، وكانت عاصمة ملكه طُبْرُسْتان ، وكان قد أقلق الخليفة في بغداد ، فوجّه إليه جيشاً سنة اثنتين وسبعين ومائتين بقيادة (إذكوتَكين) بأربعة آلاف فارس ، وكان جيش محمد بن زيد كثيفاً ، إلا أنّ الغلبة كانت لجيش الخليفة ، وَقُتل من عسكر محمد ستة آلاف رجل وأسر ألفان ، وتشتّت الباقون ، ودخل إذكوتكين الريّ ، وفرض على أهلها غرامة حربية[٣] .

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين سار رافع بن هرثمة إلى جرجان ، فأزال عنها محمّد بن زيد ، فسار محمّد إلى (إستراَباذ) فحصره رافع فيها ، وأقام على حصاره نحو سنتين ففارقها محمّد بن زيد ليلاً إلى (ساريةَ) وظلّ رافع يتتبعه من مكان إلى آخر حتى توفي الموفق طلحة ، ثم عزل الخليفة المعتضدُ رافعَ بن هرثمة عن خراسان ، فلم يقبل العزلَ ، وحارب جيشَ الخليفة ، وكان رافع قد عادى الكثيرين من ولاة تلك الأقاليم ، فصالح رافعٌ ابنَ عبد العزيز ، ومحمد بن زيد ، وتوجه إلى ملاقاة عمرو بن

---

(١) سير أعلام النّبلاء للذهبي (٣ : ١٣٦ ـ ١٣٧) .

(٢) مقاتل الطالبيين (ص٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧١٧) .

(٣) الكامل (٦ : ٥٩) .

اللّيث في خراسان ، فراسل عمرو بن اللّيث محمّدَ بن زيد ، وذكّره بفعال رافع ، فعَدَلَ محمّد عن إمداده بأربعة آلاف فارس ، ثم انهزم رافع في حروبه مع عمرو بن اللّيث فعرف عمرو ذلك لمحمد بن زيد ، وترك له طبرستان .

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين قُتل رافع بن هرثمة ، وصَفَتْ خراسان لعمرو بن الليث الصفّار[١] .

وفي سنة سبع وثمانين بلغ محمّدَ بن زيد أسرُ عمرو بن الليث الصفار ، فسار قاصداً خراسان ظناً منه أنه يحوزها ، وأن إسماعيل الساماني لا يتجاوزُ عَمَلَه ، فلما سار إلى جرجان ، أرسل إليه إسماعيل : الزَمْ عملك ، ولا تتجاوز جرجانَ . وحذّره من قصده خراسان ، إلا أنّ محمّداً أبى ، فسيّر إليه السامانيُّ جيشاً التقى بمحمد بن زيد وجيشه فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزم جيش الساماني ، وانشغل جيش محمّد في الطلب فعطف عليهم محمد بن هارون قائد جيش الساماني ، فهربوا وَقُتل منهم بشرٌ كثير وأصيب محمد بن زيد بجراحات في رأسه توفي على أثرها ، وأُسر ابنه زيد بن محمّد فأكرمه إسماعيل الساماني كثيراً[٢] ووقعت بعد ذلك حوادث خفيفة لم تَصِلْ إلى درجة الثورات ، كان من أبرزها القتال الذي دار بين العباسيين وبين العلويين في المسجد الذي بناه أبو الحسن علي بن إبراهيم العلوي . إلى غير ذلك من الأحداث[٣] .

وليس ما ذكرته كلَّ ما يقال عن الفتن والثورات والحروب الطاحنة التي كان يعاني منها المجتمع الإسلامي في ذلك العصر ، فقد كانت هناك حروب أخرى كبيرة تجري بين ولاة الأقاليم أنفسهم ، وما أشدها وأكبر أثرها .

ولو تصفَّح القارئ تاريخ الطبري وذيله ، والكامل لابن الأثير ، والمنتظم لابن الجوزي والبداية والنهاية لابن كثير ، و غيرها من كتب التاريخ الإسلامي العام ؛ لصعب عليه أن يجد عاماً أبيضَ ، لم تُذكر فيه وقائع طاحنة ، المتصارعون فيها من المسلمين ، والخسارة لهم أجمعين في حالتي الظفر والهزيمة ، وللأسف !

(١) الكامل (٦ : ٧٤ ـ ٧٥ ، ٨٤ ، ٩٥) .
(٢) الكامل (٦ : ٩٦ ـ ٩٧) ومقاتل الطالبين (ص٦٩٣) فما بعدها .
(٣) انظر مقاتل الطالبين (ص٦٩٤ ـ ٧٢٢) ففيها ذكر مَقاتل عدد كبير من آل علي لأسباب متعددة .

الفصل الثالث

الحروب الخارجية في عصر ابن حبّان

كان ضَعْف سلطان الخِلافة العباسيّة في ذلك العصر بيّناً ، لا يخفى على أعداء الإسلام والمتربصين بالمسلمين من الرّوم وغيرهم .

وقد كان هذا مثيراً لكثيرٍ من الطامعين والحاقدين ، وحافزاً لهم على النّيل من كرامة المسلمين ، وإذلالهم ، وتعكير صَفْوهم ، بل ربما طمع بعضهم باحتلال ديار الإسلام والقضاء على المسلمين ، واستعبادهم .

ولعل العدوّ الأكبر المحارِب للمسلمين في القرن الرابع الهجري ، هو الرّوم ، مع وجود أمم عديدة تتربّص بهم ، إلا أنّ ضعفها كان يحول دون حرب المسلمين وأذاهم .

بيدَ أنّه قد ظهر عدو محارِب جديد للإسلام والمسلمين آنئذ في الجبهة الشرقية من ديار الإسلام . ولذلك فإنّني سأتحدث عن الحروب الخارجيّة في مبحثين .

المبحث الأول

الحروب الخارجيّة في الجبهة الشرقية

كانت الفتن والثّورات الداخلية كثيرة في الجبهة الشرقيّة من الدّولة الإسلامية ، أما الحروب الخارجية فكانت معدومةً في ذلك العصر ، اللّهمَّ إلا ما حكاه ابن الأثير وابن مسكويه وغيرهما من الهجوم الروسي على ديار الإسلام .

كان الرّوس فى ذلك العصر أمةً صغيرة ، لا يزيد عددهم على مائة ألف إنسان[1] . وقد كانت لهم ديانتهم وشريعتهم الخاصّة ، وكانت بلادهم تُتاخم بلاد الصقالبة والأتراك ، وقد وصفهم أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد مولى محمّد بن سليمان رسول المقتدر إلى ملك الصّقالبة ، وكان مما وصفهم به أنهم (أقذر خلق الله ، لا يستنجون

(١) معجم البلدان لياقوت مادة (روس) (٣ : ٧٩) .

من غائط ، ولا يغتسلون من جنابة ، كأنهم الحمير الضّالة . . . يجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر ، ولكلّ واحد منهم سرير يجلس عليه ، ومعه جواريه . . . فينكح الواحد منهم جاريته ورفيقه ينظر إليه ، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة ، بعضهم بحِذاء بعض ، وربما يدخل التّاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية ، فيصادفه ينكحها ، فلا يزول عنها حتى يقضي إربه .

وذكر أنّ من عاداتهم حرقَ موتاهم . وإذا مات الرّجل منهم قالوا لنسائه وجواريه : من يموت معه؟ فمن قالت : أنا ؛ لزمها ذلك ، ولا يمكنها العَود ، ويحرقونها مع الميت في النار . ويعتقدون أنّ حرقه في النّار يدخله الجنّة سريعاً[١] .

وكان إذا ولد لأحدهم ولد ؛ ألقى إليه سيفاً ، وقال له : ليس لك إلاّ ما تملكه بسيفك[٢] .

(ومِن رَسْم ملوك الرّوس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثّقة عنده ، فهم يموتون بموته ، ويقتلون دونه ، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه ، وتصنع له ما يأكل ويشرب ، وجارية أخرى يطؤها .

وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره ، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر ويجلس معه على السّرير أربعون جارية لفراشه ، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا ، ولا ينزل عن سريره ، فاذا أراد قضاء حاجته ؛ قضاها في طست)[٣] أخزاه الله !

---

(١) معجم البلدان (٣ : ٧٩ ـ ٨٣) . وعلى هذا فالروس يريدون إعادة الإباحيّة الأصلية فيهم وفرضَها على النّاس تحت اسم التقدمية والشيوعية الملعونة .

(٢) ما سبق (٣ : ٧٩) .

(٣) معجم البلدان (٣ : ٨٢ ـ ٨٣) ، والطَّسْتُ ، وحُكي بالشين المعجمة : الإناء الواسع المستدير وفي بلدنا يطلقونه على الإناء المستدير ، الضيق الأعلى ، الواسع الأسفل ، وفي بعض البلدان الشامية يطلقون الطِّست على الإناء المستدير المتساوي أعلاه وأسفله ، أما إذا كان واسع الأعلى ، ضيّق الأسفل ، فهو (الجَنَق) وعكسه القارورة . وفي عربية الطِّست وتعريبها خلاف قديم . انظر القاموس المحيط ، والمصباح ، ومعجم الأغلاط اللغوية المعاصرة للعدناني (طست) .

ومع قلة عددهم فهم (أمة عظيمة ، لهم خِلَق عظام ، ولهم بأس شديد ، لا يعرفون الهزيمة ولا يولّي الرّجل منهم ، حتى يَقتل أو يُقتل . . .)[١] .

وقد أغار هؤلاء على مدينة (برذعة)[٢] فخرج إليهم نائب المرزبان ـ أميرها ـ في جمع من الدَّيلم والمطاوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل ، فلقوا الرّوس ، فلم يكن إلا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم ، وقُتل الدّيلم عن آخرهم ، وأقبلت العساكر الإسلامية لقتالهم ، فكان الرّوس يقاتلون أشدّ القتال ، ولم يثبت المسلمون لقتالهم ، ولمّا دخلوا برذعة قتلوا من أهلها مقتلة عظيمة ، وأَسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس ، وقالوا للنّاس : اشتروا أنفسكم ، وإلا قتلناكم . . . فلمّا لم يفتدوا ؛ قتلوهم عن آخرهم ، وغنموا أموال البلد ، واستعبدوا السبي ، واختاروا من النساء من استحسنوها .

واستعظم المسلمون ما فعل الرُّوس فتنادوا بالنّفير ، فجمعوا ثلاثين ألفاً من الرجال ، إلا أنّهم لم يقدروا على الرُّوس ، وسار الرُّوس نحو (مراغة) لاحتلالها ، فأكلوا الفواكه الكثيرة المتنوعة ، فأصابهم الوباء ، وكثر فيهم المرض والموت ، ودارت بينهم وبين المرزبان المعارك الطّاحنة فلم يُفلح ، فأعمَلَ معهم الحيلة ، فلم تنجح ، حتى أبادهم الله بالوباء وأراح المسلمين من شرورهم[٣] .

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه (٢ : ٦٢) .

(٢) بلدة سُمعت بالدال المهملة والمعجمة تقع في أقصى أذربيجان . معجم البلدان (١ : ٣٧٩) .

(٣) ذيل تاريخ الطّبري (ص٣٤٥ ـ ٣٤٦) ، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٦ : ٢٩٧ ـ ٢٩٨) .

المبحث الثَّاني
الحروب ضد الرّومان

كانت الحروب على أشدّها في الأندلس بين المسلمين من جهة ، وبين القوطِ والفرنسيين من جهة أخرى ، إلا أنني لن أعرّج على تلك الحروب ؛ لأنّ ما يعني بحثي هذا ؛ هو ما كان له أثر مباشر ، أو قريب الصّلة بحياة الإمام ابن حبّان في مجتمعه .

لذا فإنني سأعرض ـ بإيجاز بالغ ـ للحروب التي جرت بين الدّولة العباسية وبين الرّوم ، لأن ابن حبّان عاش حياته في ظل هذه الخلافة ، ولم يغادر ربوعها إلا قليلاً إلى مصر في رحلته التي سأعرض لها ، والتي كانت قبل تمكُّن الفاطميين من تلك الدّيار .

وإنه لا يخفى على مثقفٍ أنّ الرّوم ورّاث حضارة ماديّة وثنية ، وبناة حضارة مدنية شامخة ، وأنّهم يأنفون الغلبة ، ويستنكرون التبعيّة لغير أبناء جنسهم .

كما أنّ الرّومان باردو التفكير ، كسائر الأمم الأوربيّة ، لا ييأسون ولا يضجرون ، وهذا من أسباب استمرار عدائهم ومحاربتهم للمسلمين .

وكأن كلمة الرّوم إذا أطلقت عندنا ، فإنّما تعني الأمم النّصرانيّة ، حيث إن الروم أشرفُهم وأقواهم في ذلك العصر ، وعلى هذا يُفسَّر قول رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم : (تقوم السّاعة والرّوم أكثرُ النّاس)[1] .

ولقد ذكّر النّبي صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم أمته في غير ما حديث بأشهر الملاحم التي تقع بينهم وبين الرّوم[2] وبشّرهم بأنّ فتح رُوميّة يكون قبل خروج الدّجال[3] ثم يخرج الدّجال ، وينتصر عليه المسلمون .

ولعلّ ثمة أسباباً أخرى مكّنت لهم في الأرض ، وزادتهم قوة ، منها ما ذكره عمرو ابن العاصي ، الذي خبِرهُم ـ في حروب الشّام ومصر ـ ما يزيد على ربع قرن من الزّمان

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط السّاعة ، باب (تقوم السّاعة والرّوم أكثر النّاس) رقم (٢٨٩٨) من حديث المستورد القرشي مرفوعاً .

(٢) انظر في صحيح مسلم الحديث رقم (٢٨٩٩) .

(٣) مسلم رقم (٢٩٠٠) .

قال : (إنّ فيهم لخصالاً أربعاً : (١) إنّهم لأحلم النّاس عند فتنة (٢) وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة (٣) وأوشكهم كرة بعد فرّة (٤) وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف ! وخامسة حسنة جميلة : وأمنعهم من ظلم الملوك)[١] .

فليس بعيداً عن الصّواب إذاً أن أقول : إنّ النّصارى أعتى عدوّ للإسلام والمسلمين منذ فجر التّاريخ الإسلامي ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها[٢] .

ولقد كانت الحروب بين المسلمين وبين الرّوم على جبهتي الجزيرة والشّام سجالاً بين الفريقين ، وغالباً ما يرافق النّصرُ المسلمين ، إذ كانت صلتهم بربهم قويّة ، وكانت أحوالهم الداخليّة مستقرّة .

قال ابن كثير بعد ذكره أنّ الروافض من بني بُوَيْه وأتباعهم كانوا يسبّون أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم . قال : لا جرم أن هؤلاء لا يُنْصَرون ، وكذلك سيف الدّولة بن حمدان بحلب ، فيه تشيُّع ومَيْل إلى الروافض ، لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء ، بل يُديل عليهم أعداءَهم لمتابعتهم أهواءهم ، وتقليدِهم سادتَهم وكبراءهم وآباءهم ، وتركِهم أنبياءهم وعلماءهم .

ولهذا لـمّا مَلَكَ الفاطميون بلاد مصر والشّام ، وكان فيهم الرفض وغيره ؛ استحوذ الفرنج على سواحل بلاد الشام كلّها ، حتى بيت المقدس ، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة وبعض أعمالها ، وجميع السواحل وغيرها مع الفرنج ، والنّواقيس النّصرانية ، والطّقوس الإنجيلية تُضرب في شواهق الحصون والقلاع ، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع ، والنّاس معهم في حصر عظيم ، وضيق من الدّنيا ، وكل ذلك بعض عقوبات المعاصي والذُّنوب ، وإظهار سَبّ خير الخلق بعد الأنبياء) . ومن المسلّم به أن القرن الرابع الهجري كان مسرحاً لحركات الرفض وعصراً

---

(١) هو طرف من حديث المستورد القرشي عند مسلم رقم (٢٨٩٨) . والذي ينعم النّظر في واقع النّصارى اليوم يجدهم أكثر النّاس تماسكاً وتراحماً على ما بين مذاهبهم من تباين شديد .

(٢) وهذا لا يُناقض قولَ الله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة : ٨٢) لأنَّ العداوةَ أمرٌ قلبيٌّ يعقبه سلوكٌ عدائيٌّ عند القدرة ، واليهود لا يقدرون على شيءٍ ـ غالباً ـ إلا بعون غيرهم إياهم . أما النصارى ؛ فهم قُوَّةٌ مُعادية هائلة منذ فجر الإسلام إلى اليوم .

لهيمنتهم ، فقد كان الفاطميّون في مصر والشّام ، وبنو بويه في معظم بلاد فارس والأهواز والعراق ، وبنو حمدان في حلب والجزيرة والموصل وكلهم رافضة[١]!

ومع سيطرة الرافضة على بلد ؛ تكثر الذّنوب ، ويقل التمسك بالدّين ، وتثار النزاعات الدّاخليّة التي تنخر في جسد الأمة ، وهل ثورة الزنج ، وثورة القرامطة إلا غلو وجموح من الرفض والباطنية؟ . . وهل ظهرت الزّندقة ، وشاع المجون إلا في أوساط الرافضة الغالية وأحيائهم؟

ولا يرِد على هذا أن بني حمدان كانوا بمثابة حرّاس حدود بلاد الشّام ضد الروم ، فإن بني حمدان على تشيّعهم ورفضهم ، لا نتهمهم بأنهم يريدون كيد الإسلام ، وتقوية أعدائه ما دام هذا الإسلام ما يرغبون ويرضون ، أضف إلى هذا كله أن هذه البلاد تحت سيطرتهم وكانت ربوع مملكتهم ، فحريّ بهم الدّفاع عنها ، والذّود عن حياضها ، شأنهم في ذلك شأن سائر الملوك من المسلمين وغيرهم .

ولقد خاض المسلمون مع الروم في عصر ابن حبان قرابة عشرين معركة حربيّة ، أو أكثر ، كان النّصر للمسلمين في بعضها ، وللروم في بعضها الآخر ، إلا أنّ مما لاحظته أنّ الدّمستق ملك الأرمن المتوفى عام اثنتين وخمسين وقيل خمس ، وقيل ست وخمسين وثلاثمائة ، كان أعتى هؤلاء الطّغاة ، وأشدهم عداوة للمسلمين ، وأكثرهم فتكاً بهم ، وقد كان عصريَّ سيف الدّولة بن حمدان !

وقد وقعت المفاداة بين المسلمين وبين الروم مرات عديدة كما في سنة (٢٩٥هـ)[٢] و(٢٩٧هـ)[٣] و(٣٠٥هـ) بل إنّ ملك الروم نفسه قد دخل بغداد في هذه السّنة (٣٠٥هـ)[٤]

---

(١) التفرقة بين الرافضة والشيعة ، وبين السنّة والنواصب ؛ ضرورية لتصويب الفكر ، وإن كان تداخل النواصب بين أهل السنة ، والروافض بين الشيعة ؛ يجعل من العسير على العامّة التفرقة بين الفِرَق ، فكلّ من يلعن الصحابة ويكفرهم ؛ فهو رافضيّ ، وكلّ من يدافع عن ظلمة بني أمية وبني العبّاس وظلمهم ؛ فهو ناصبيّ ، وإن زعم أنه سنيّ !

(٢) البداية والنهاية (١١ : ١٠٣) .

(٣) البداية (١١ : ١١٠) .

(٤) البداية (١١ : ١٢٧) .

لعقد الهدنة والمفاداة ، كما طلب الروم الهدنة مرة أخرى عام (٣٢٦هـ)[١] .

وتبين لي من خلال استقراء تواريخ الحروب التي جرت بين المسلمين والروم بين عامي (٢٨٥ ـ ٣٥٤هـ) أنّ الغلبة للمسلمين كانت عام (٢٨٥) (٢٩٤) (٢٩٦) (٢٩٧) (٢٩٨) (٣٠١) (٣٠٢) (٣٠٦) (٣٤٢) (٣٤٣) (٣٤٥) (٣٥٠هـ)[٢] .

وكانت الغلبة للروم عام (٢٨٩) (٣١٤) (٣٢٢) (٣٣٢) (٣٤١) (٣٤٧) (٣٤٨) (٣٥١) (٣٥٣) (٣٥٤هـ)[٣] .

وقد تحدث التاريخ عن أبطال الحرب من المسلمين مثل : يازمان الخادم ، وطُغج بن جَفّ ، وسِيما الطويل ، ومُؤنس المظفر ، وبشر الخادم ، وغلام زرافة[٤] وسيف الدولة الحمداني ، وأبي فراس الحمداني الشاعر ، وغيرهم .

ويلمح مما سبق أنّ الغلبة كانت أكثر للمسلمين قبل القرن الرابع الهجري ، بينما كانت للروم أكثر في القرن الرابع . ورغم ما بذله آل حمدان في الدّفاع عن ثغور الشّام والجزيرة ، إلا أنّ قوة العدو اجتمعت مع ذنوب المسلمين ، فكانت الكارثة عليهم ، في وقعات كثيرة (حتى إنّ الإمبراطور قسطنطين السّابع ، طلب من أهل الجزيرة الخراج ، ولما امتنعوا من ذلك ؛ دخل ملطية (٣١٤هـ) فأخربها وسبى منها ، وغادرها بعد أن أقام فيها ستة عشر يوماً ، وخرج أهلها إلى الخليفة المقتدر ، فلم يغاثوا ، وفي سنة (٣١٥هـ) دخل سُمَيْساط ، وغنم ما فيها من مال وسلاح ، وضرب في الجامع بالنّاقوس .

وفي سنة (٣١٦هـ) أصبحت الثغور البكرية بأيدي الرّوم ، وفي سنة (٣١٧هـ) تقدم الرّوم صوبَ منطقة الجزيرة ، فدخلوا أرْزَن ، وميّافارقين ، ونصيبين ، وحاصروا الرُّها ، ثم

---

(١) البداية (١١ : ١٨٨) .

(٢) البداية (١١ : ٨٧ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧) .

(٣) البداية (١١ : ٩٤ ، ١٥٣ ، ١٧٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤) .

(٤) المواضع السابقة نفسها وانظر (شعر الصراع مع الروم حتى نهاية القرن الرابع الهجري) للدكتور نصرت عبد الرحمن (ص٢٥) .

انسحبوا بعد أن سُلِّم إليهم المنديلُ المقدّس الموجود في إحدى كنائسها)[١] .

وبالجملة فلم تكن الحروب لصالح المسلمين في ذلك القرن الكئيب ، كما قدمت .

كل هذا يجري ، وابن حبان يجوب الشرق والغرب ، ويعاني ويكابد الآلام من هول الويلات الداخليّة والخارجيّة .

وليت المسلمين اليوم يستذكرون هذه المآسيَ للعبرة ، وليت حكّامهم يتّقون الله تعالى في هذه الأمة ودينها وتاريخها وثرواتها ، حتى يتنزّل الله علينا برحماته وبركاته ونصره !

ولو اجتمع العرب وحدهم على رجل يخاف الله تعالى ، بوحدة «فدراليّة» أو «كونفدراليّة» وأخلص بعضهم لبعض ، وسخّروا إمكاناتهم لنصرة دينهم وسعادة أمتهم ؛ فلن تقوى أمم الأرض على مخالفتهم ، فضلاً عن حربهم ؛ لأنّ المسلمين أصحاب عقيدة سامية ، وأصحاب إيمان بالله واليوم الآخر ، لا يملك شيئاً منه أبناء القردة والخنازير ، ولا يملك القذرون الماديّون عبّاد الصليب شيئاً منه أيضاً ، ناهيك عن القدرات العربية الشخصية التي لا يمتلكها أحد من أمم الأرض ، من ذكاء وذاكرة وفطنة ونبل وشجاعة وكرم ونجدة وفداء وتضحية !

ولكنّ حكامنا فيما يبدو لا يفطنون إلى مقولة : (أُكلتُ يوم أُكلَ الثور الأسود) ولا يتعظون بالمثل الحمويّ المعبّر : (إذا حلقَ جارُكَ ؛ فبُلّ لحيتك أنتَ) بل كأنهم لا يريدون أن يتنبهوا إلى مأساة العراق ، ولا فرق في تقديري بين حكّام العراق وغيرهم في نظر الغرب ، إلاّ بمقدار التبعية ، وتنفيذ مخططات الغرب الصليبيّ الحاقد .

بيد أنّ على شباب المسلمين اليوم ، أن ينصحوا إلى الحكّام ، عن طريق الحرص والإشفاق وتحميل المسؤولية ، وليس عن طريق الاغتيالات ، والتفجيرات ، والتصرفات الفردية غير المسؤولة ، فإنّ قتل المسلم من أكبر الكبائر ، سواءٌ أكان جنديّاً في جيش حكومة ظالمة ، أم كان شرطيّاً مسكيناً يسعى على قوت أولاده . ومن الذي خوّل أولئك الشباب أن يجعلوا من أنفسهم وصاةً على المسلمين ، ومتحدّثين باسم الإسلام ، ولم

---

(١) شعر الصراع مع الروم (ص٢٦) ، وانظر للوقوف على الحروب مع الروم كتاب (سيف الدّولة الحمداني . . .) للدكتور مصطفى الشكعة .

نجد فيهم عالماً واحداً ، فضلاً عن أن يكون فيهم مجتهد ، يستحقّ أن يناقش كلامه وينظر فيه؟!

وعلى حكّام العرب جميعاً أن يُسارعوا إلى تربية مجتمعاتهم على عقيدة الإسلام ويقوموا بتطبيق شريعته ، أو ما يستطيعون منها في ظروف الانهزام هذه ، وأنْ يبيّنوا لشعوبهم الضغوط التي تمارس عليهم ، ويوضحوا لهم بصدقٍ الضعفَ الذي نحن عليه في مقابل القوّة الهائلة التي يملكها الغرب الكافر !

عليهم أن يبينوا لهم ذلك كلّه بالطريقة التي يرونها مناسبة ، وعليهم أن يربّوا شعوبهم لتغدوَ قادرةً على الثبات أمام الطغاة ، وأن تعتقد ضرورة الولاء الشرعيّ لهم ، فإنّ القهر والبطش يربّي منافقين ، ولا يمكن أن يربّي مخلصين صادقين !

عليهم أن يبينوا لنا ذلك ، فنحن لسنا عبيداً لهم ، وإذا هم ملكوا تسيير أمور الأمة بقوّة أنصارهم من أهل الوطن ، أم من الغرب ، أم كان باختيارنا إيّاهم ورضانا بهم ، فهذا وذاك وذُلّيّاك ، لا يجعلهم يملكوننا ، ولا هم بهذه السلطة يصبحون أشرف منا ، ولا أنسب ولا أكرم ، ولا أعلم ، ولا أشجع !

يجب على جميع الحكّام أن يعلموا هذا يقيناً ، ويعتقدوه عقيدة ، وأن يتيقنوا أنّ وجودهم مرتبط بوجودنا ، وأن ملكهم مرهون برضانا ودعمنا وتضحياتنا ، وأنّ سقوط بغداد بدبابتين تجوبان شوارعها من دون أن تتلقّيا رصاصةً واحدة ؛ يجب أن يكون عبرةً للجميع من أنّ القهر والكبت والإرهاب ؛ يربّي كثيراً من الخانعين والمنافقين الذين يُسلِمون الحاكم إلى أعدائه ، إذا لم يقوموا هم بقتله وقتل ذرّيته أيضاً ! وإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في عصر ابن حبّان

لا ريب في أنّ الحياة الاجتماعيّة تتأثر تأثراً كبيراً بالحياة السّياسيّة للأمة ، فالاستقرار السياسي ، والأمن العام للمجتمع ؛ من أهم أسباب التقدم الحضاريّ واستقراره . ومُحالٌ أن تعيش أمّةٌ في صراعات داخليّة وخارجيّة مسلّحة ، ويعيشَ أبناؤها حياة اجتماعية هادئة مستقرّة ، تقودهم إلى التقدم والرقيّ والإبداع .

وعصر ابن حبّان كان عصر حروب وشرور وفتن ، والخليفة كما رأينا ، لا حول له ولا طول ، في معظم الأحايين ، وخاصّة منذ وَلِيَ المقتدر ، إلى نهاية عصر ابن حبّان .

وقد كان للصراعات الفكريّة أثرها البالغ في إذكاء نار الخصومات وإثارة الشّحناء وهذا وذاك مؤثّران خطيران على الحياة الاجتماعية .

وقد مرّ معنا آنفاً بعض الحركات والمذاهب الهدّامة كالقرامطة والزّنج والرّوافض من بني بويهِ والحمدانيين وغيرهم ، وذكرنا بعض آثارهم في الحياة الإسلاميّة ، ولكنّنا سنحاول في هذا الفصل إلقاء بعض الأضواء على الحياة الاجتماعيّة مباشرة .

المبحث الأول

طبقات المجتمع الإسلامي

إنّ كلّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية ينقسم إلى عدة طبقات ، تكاد تكون متقاربة في جميع المجتمعات الإنسانية ، والذي يختلف هو درجة التفاوت المادي بينها وأثر ذلك التفاوت على الحياة الاجتماعية .

فمجتمع عصر الرّسول صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، كان من النّاحية الاجتماعية ينقسم ـ باستثناء الرسول الأكرم ـ بصفته القائد الدينيّ والدنيويّ معاً ـ إلى ثلاث طبقات :

(١) طبقة القادة : وهم رؤوس المهاجرين والأنصار ، وزعماء الأمة .

(٢) طبقة الأغنياء والتجار : وهؤلاء يمثلون طبقة وسطى بين القادة وعامة النّاس .

(٣) طبقة الفقراء : وهؤلاء هم الغالبية العظمى من المجتمع في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

غير أن الملاحظ في عصر الرسالة أنّ الغنى لم يكن مرافقاً للقيادة غالباً ، بل كان من بين هؤلاء القادة من يشارك أفقر الفقراء في فقره .

كما لم يكن الفقر في عصر الرسالة دليلاً على الجهل والتخلف والانحطاط ومرافقاً لها ، بل كان ـ في الغالب ـ على العكس تماماً ، فعليّ بن أبي طالب ، لم يكن يملك قليلاً ولا كثيراً ، وقد كان هو وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أفقهَ الصحابة على الإطلاق ، وأهل الصُّفة كانوا من أفقر المسلمين يومئذ ، ومن الذين يعيشون على صدقات الأغنياء ، غير أنه قد تَخَرَّج منهم عدد من كبار حفّاظ السنن كأبي هريرة[(١)] وعشرات القرّاء والرواة ، الذين تفرغوا للأخذ عن رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم وحرصوا على متابعة مجالسه العلميّة .

---

(١) انظر عن أهل الصُّفّة حلية الأولياء لأبي نعيم (١ : ٣٣٧) فما بعد ، وانظر بحثاً طيباً للدكتور أكرم العمري في كتاب (المجتمع المدني في عهد النبوة ـ خصائصه وتنظيماته الأولى) (ص٨٩) فما بعد .

فالتفاوت الطبقي في عصر الرسالة ، إنّما كان ملحوظاً بدرجة التأثير في المجتمع والبتّ في الأمور الكبيرة ، وتعليم النّاس وتثقيفهم .

أما الأموال فلم تكن ذات أثر كبير في النّفوذ ، في ذلك المجتمع الفريد .

نعم ! ربما اكتسب بعض قادة الصّحابة مركزاً عالياً في نفوس النّاس ، لكونهم جمعوا بين صفة القيادة الأصيلة فيهم ، والأموال المكتسبة من الطّرق الشّرعية ، والمبذولة في سبيل الله ، وقد جبلت النفوس على حُبّ من أحسن إليها .

أمّا أن تكون الأموال هي التي أوصلتهم إلى القيادة ، فغير صحيح البتّة .

ولم تختلف الصورة كثيراً في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، إلا أننا لا نغفل تأثرها بالانحراف العامّ الذي بدأ طفيفاً ثم اتسع ، حتى إذا جاء عصر ابن حبّان كانت ظواهر المجتمعات بعيدة جدّاً عن الإسلام ، في كثير من قيمها وأخلاقها وطبيعة تعاملها الحياتي .

وإذا قسمنا المجتمع في عصر ابن حبّان إلى الطّبقات الثّلاث سالفة الذكر ، فإننا نلحظ أنّ كل قسم منها يندرج تحته أنواع عديدة تشترك في جملة من الصّفات ، وتختلف في صفات وأمور كثيرة أُخَر .

وسأحاول عرض أهم أنواع كل قسم من الأقسام السّابقة ، لتنجلي الصورة ويتوضح السبيل .

وسيرى القارئ الكريم أنني أزاوج بين الحياة الاجتماعية العملية كالسلوك والأخلاق والمنزلة ، وبين النّاحية المالية والاقتصادية ، وما ذلك عن غفلة مني ، ولكنني رأيت دمجها لتشابكها في الحياة أولاً ، ولأن أثر أحدها في الآخر واضح ، فلا داعي للتفريق بينها في بحث غير متخصص في الاجتماع والاقتصاد كبحثي هذا .

(١) طبقة القادة:

إن طبقة القادة في عصر ابن حبّان واسعة عريضة جداً ، والحديث عنها مفصلاً يحتاج إلى بحث متخصص يدرسها ، إلا أنّ إشارات خفيفة يمكن أن تسعف القارئ فتطلعه على طبيعة هذا العصر ، ومتناقضاته العجيبة .

وقد أمكن تقسيم طبقة القيادة إلى ثمانية أقسام هي :

(أ) طبقة أسرة الخلافة ، وهي الأسرة العباسيّة .

(ب) طبقة الملوك والسّلاطين وولاة الأقاليم .

(ج) طبقة الأمراء في حاضرة الخلافة وما حولها .

(د) طبقة الوزراء .

(هـ) طبقة قادة الجيوش والعساكر .

(و) طبقة قادة الشرطة وجنود الخليفة .

(ز) طبقة القضاة والعلماء .

(ح) طبقة الأشراف الطالبيين .

(أ) الخليفة :

الخليفة العباسي هو السلطة الشّرعية العليا في الدولة ، وطبقة القيادة كلّها تأخذ شرعيّتها منه ، وقد كان للخليفة العباسي في عصر الأتراك بعض الشأن في الأمور السياسية ـ كما تقدم ـ إلا أنّه كان من النّاحية المالية من أغنى الأغنياء في الدّنيا . فلم يكن لأحدٍ الحق في أن يمنع الخليفة من شيء ، فإليه تجبى الأموال الطائلة من شتى بقاع الأرض التي يُظلّها الإسلام .

ذكر الصّابي في كتابه «الوزراء» أنّ جزءاً من دَخْل سواد العراق قد بلغ في عهد المعتضد لسنة (٢٨٠هـ) مليونين وخمسمائة وعشرين ألفاً من الدّنانير[١] .

وتدهور الدّخل في عهد المقتدر ـ بسبب ضعفه ، وبسبب كثرة الأحداث ـ فبلغ دخل سواد العراق مليوناً وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار .

ويورد الصّابي مع هذا الإحصاء الدّخل العام لعهد المقتدر في سنة (٣٠٦هـ) ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليوناً وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفاً وثمانية وأربعين ديناراً[٢] .

---

(١) عن العصر العباسي الثاني (ص٥٣) .

(٢) عن العصر العباسي الثاني (ص٥٣) .

ولا يخفى أنّ هذه الأموال التي تجبى من سواد العراق، وأقاصي الدّولة وأدانيها كانت هي الفائض الذي يرسله ولاة الأقاليم لدار الخلافة، بعدما يقتطعون منه حصّتهم. ونفقات ولاياتهم، من بناء المساجد ودور العلم والفنادق والشّوارع والجسور، وغير ذلك من مرافق الحياة الأساسية[١].

وهذا يعني أنّ هذه الأموال ليست سوى نفقة الخليفة وحاشيته ومن يلوذ به في حاضرة الخلافة.

(وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدّراهم والدّنانير، تنفق سنوياً، وقلّما كان يتبقى منها شيء.

ويقال: إنّه لمّا ولي المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) ادّخر في كل سنة من سنيّ خلافته مليون دينار، فبلغ ما ادّخره تسعة ملايين، وخلفه ابنه (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ) فبلغ بالمدّخر أربعة عشر مليوناً.

وجاء بعده المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) فلم يقف عن الادّخار فحسب، بل أتلف كل المدّخر، مع ما صار إليه من أموال الخراج سنوياً، ومما كانت تُغِلُّه الضياع السلطانية، حتى قالوا: إنّه بدّد ثمانين مليوناً من الدّنانير)[٢].

وإذا ما رُحنا نستعرض مجالات صرف هذه الأموال الطائلة، وجدنا معظمها كان ينفق على قصور الخلفاء.

أورد الصّابي في كتابيه «الوزراء» و«رسوم دار الخلافة» أثباتاً بما كان يُنْفَق على حواشي الخليفة وداره في عصر المعتضد والمقتدر، وهي تصور عِظَم هذه النّفقات، فقد كان ينفق على القصر والحريم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهرياً، وكان ينفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهرياً، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألف دينار، غير ما ينفق على البوابين من البيض والسودان، وكان يبلغ ألف

(١) العصر العباسي الثاني (ص٥٣).
(٢) ما سبق (ص٥٤).

دينار ، وغير ما ينفق على المماليك والحرس ، وكانوا يعدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدّار من القرّاء ، وأصحاب الأخبار ، والمنجّمين ، والبوقيين ، والمضحكين والطبّالين ، وأصحاب الصيد ، والملاّحين في السفن ، وأصحاب المشاعل والأطباء . . . وإنّ نفقة ذلك وما يجري مجراه مما يلزم الدار ؛ كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً . ويقال : إنه كان في الدّار أيامَ الخليفة المكتفي عشرون ألف غلام للحرس ، وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة !

أما في أيام المقتدر ، فكان بها أحد عشر ألف خادم ، منهم سبعة من السُّود ، وأربعة من الصقالبة ، وأربعة آلاف امرأة حرّة ، ومملوكة . . . وعمل الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ) على القَصْد الشديد في نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار يومياً)[١] .

أما عن بناء القصور الشّامخة ، فقد بنى المتوكّل وحده عشرين قصراً[٢] .

وأما قرابةُ الخليفة من العبّاسيين ، فقد كانوا في نعيم ورفاه ، فكانت لهم الإقطاعات الكبيرة التي يجبى إليهم خراجها .

(ب) الوزراء :

لقد كان الوزراء يعيشون في نعيم الخلفاء نفسه بما يأخذونه من مرتبات ضخمة وإقطاعات ، و ما كان كثيرون منهم يختلسونه لأنفسهم من أموال الدّولة . وقد كان للوزير إقطاع يَدِرُّ عليه مائةً وسبعين ألف دينار سنوياً ، إلى أن كان عهد المقتدر ، فأجرى عليه راتباً قدره خمسة آلاف دينار شهرياً ، ثم صار سبعة آلاف .

ولكي نتصور مدى الثّراء الذي كان للوزراء ، يكفي أن نعرف أنّ المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) صادر من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ، نحو مليون دينار ، وكان مبلغ غلّته في سائر ضياعه مليوناً وثلاثمائة ألف دينار[٣] .

---

(١) العصر العباسي الثاني (ص٥٤) .

(٢) ما سبق (ص٥٥) .

(٣) ما سبق (ص٥٦) .

ولا يخفى أنّ مثل هذه المبالغ الضّخمة وغيرها، لم يكن هؤلاء ليحظوا بها لولا اسم الوزارة الكبير، لذلك فقد كان الكبراء يتنافسون عليها، ويبذلون في سبيلها الأموال الطّائلة.

فهذا القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، أراد المعتضد أن يستأصل شأفته مع إخوته، فتوسّط لدى الخليفة بغلامه «بدر» المعتضدي، وكتب خطاً بألفي ألف دينار (مليونين) فاستوزره المعتضد[(١)].

وهذا ابن رائق يتوسّط للفضل بن جعفر بن الفرات، فيستوزره الراضي بالله، ظناً من ابن رائق أنّه يجتذب له الأموال[(٢)].

وهذا هارون بن خُمارويهِ يسترضي المعتضد، فيتنازل عن قِنّسرين والعواصم، ويدفع إلى بيت المال ببغداد، كل عام أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، وسأله أن يجدد له ولايته على مصر والشّام[(٣)].

وقد كان الوزراء يختلسون أموالَ الأمة، ويكنزونها، فكان منافسوهم يصارعونهم عسكرياً، ويفضحونهم إعلامياً على سرقاتهم.

فمحمد بن أبي الساج حارب عبد الله بن الحسين، بعد أن أمّنه وأصحابه، فقيّده وحبسه، وقرّره بكل أمواله، ثم قتله[(٤)].

وقد كان الصراع بين الوزراء على أشدّه، ليحظى كل واحد منهم بنصيب غيره من المال والجاه ورضى الخليفة، فمرة يدسُّ بعضهم لبعض سمّاً، وبعضهم يقتل الآخر علانية حسب مقتضى الحال[(٥)]، بل إنّ الخلفاء أنفسهم ـ وقد تيقنوا هذا في وزرائهم وولاتهم ـ صاروا يُوَلُّون الرجل على قدر برّه بهم وإحسانه إليهم، وتتوسع ولايته على قدر سعة ما يرسل إلى الخليفة من مال[(٦)] كما كان القادة والولاة يشتري بعضهم بعضاً بالمال

(١) الفخري (ص٢٥٦).

(٢) الفخري (ص٢٨٢).

(٣) الطبري (١٠ : ١٢) الكامل (٦ : ٦٢).

(٤) الطبري (١٠ : ٣٣).

(٥) الطبري (١٠ : ٨٨).

(٦) ما سبق الموضع نفسه.

أيضاً . فكان القائد يدعو للوالي على المنابر ، إذا أكرمه ذلك الوالي ورشاه[١] .

وقد كان للمعتمد خمسة وزراء ، إضافة إلى أخيه الموفق ، كما كان للمقتدر اثنا عشر وزيراً في مدّة خلافته !

فإذا علمتَ ضعف المقتدر ؛ فقدِّر البلاء الذي صُبَّ على الأمة في عهده من هؤلاء الوزراء .

وكان للراضي بالله خمسة وزراء ، أحدهم ابن مقلة ، بذل في الحصول على وزارته الثالثة فقط مبلغ خمسمائة ألف دينار[٢] !

أما أمير الأمراء فقد تسمّى به ابن رائق ، وكان له الأمر والنهي في حاضرة الخلافة وتسيير الجيوش ، بل وصل الأمر إلى أنْ يكون الخليفة ملزماً بأوامره ، وما يقضيه ، حتى جاء بنو بُوَيْه ، فأمسكوا بزمام الأمور ، وحددوا سلطات النّاس ، وصار معزّ الدّولة بن بُوَيه هو أمير الأمراء ، وهو الذي يعيّن الوزراء ويختارهم من حزبه ، بل وصل بهم الأمر إلى تحديد راتب للخليفة يفي باحتياجاته فحسب ![٣] .

ولم تكن أمور ولاة الأقاليم وقادة الجيوش ، ورؤساء الشّرطة أحسن حالاً ، وأكثر رحمة بالأمة ممن فوقهم ، إذ الأدنى يتعلم من الأعلى ، ويزيد عليه سُوءاً من دناءته غالباً .

(ج) الأشراف الطالبيّون :

وقد كان الأشراف الطالبيون من وجهاء المجتمع ، وكبار الدّولة الاستشاريين ، إلا أنهم كانوا مجرّدين من كل حول أو قوّة ، سوى قوة التأثير الذاتي بشرفهم ودينهم ، وقد كان لهم إقطاعات وجرايات يقدّمها لهم الخليفة ببغداد ، على أنّ منهم من كان يعيش فقيراً ككثير من سائر الرعية ؛ لأنه ينفق عطاءه على المعوزين من أبناء المسلمين ، ولم يُنقَل عن جمهور الطالبيين أنهم كانوا يتعاطون الظلم والعسف ، بل كانوا ملجأ المظلومين

---

(١) ما سبق (١٠ : ١٨) .

(٢) الفخري (ص٢٨٠) .

(٣) الفخري (ص٢٨٨) .

وعون الضعفاء، وشفعاء ذوي الحوائج ما أمكنهم[١].

(د) العلماء والقضاة:

كانت حياة القضاة مرموقة ممتازة، وكانت مرتباتهم وعطاءاتهم عالية، وكلّما كان القاضي متجرداً مبتعداً عن النّفاق والمجاملة؛ كان أكبر في عين الخليفة والوزراء.

على أنّ هناك قضاةً كان يستخدمهم الوزراء الظّلمة لتنفيذ أغراضهم، وكان هؤلاء القضاة المأجورين أغنياءَ من الرشاوي والعطاءات المحرّمة.

أمّا علماء الأمة فتختلف حالهم باختلاف عهد الخليفة ووزرائه، وقد كانت محنة خلق القرآن وآثارها السيئة فتنةً عصفَتْ بكثير من النّفوس، وأذاقت الويل كثيراً من العلماء العاملين الصالحين.

غير أنّ عدداً من خلفاء هذا العصر كانوا يُحسنون إلى العلماء ويتعهدونهم، وقد يمر معنا شيء من هذا فيما يأتي، إن شاء الله.

(٢) طبقة الأغنياء:

وأما طبقة الأغنياء، فأعني بها الطّبقة التي تلي طبقة القيادة، وإذا استثنينا طبقة القيادة الغارقة في الترف؛ فإنّ هذه الطّبقة تعتبر العليا في المجتمع، ذلك أنّ الغنى والفقر يلحظ فيه أمران اثنان معاً:

(١) الأمر الأول: مستوى المعيشة، والقيمة الشرائية للدرهم والدّينار.

(٢) الأمر الثاني: الموازنة النسبية بين أصحاب الأموال، وبين المُعْدِمين.

فباعتبار الأمر الثاني تحسب هذه الطّبقة هي الوسطى إذا ما قيست بالطّبقة العليا طبقة القيادة، كما تعد طبقة عليا بالنسبة للطبقة الفقيرة وبالنسبة للقوة الشرائية للدّرهم والدّينار.

---

(١) العصر العباسي الثاني (ص٥٩)، وانظر بتوسع: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز (١ : ٢٧٩) فما بعد.

ويمكن أن نعدّ أبناء هذه الطبقة من التّجار ، وأصحاب المصانع والمزارع ، وأصحاب شبكات الصيد ، وأصحاب الحوانيت الضخمة ، ونحوهم .

وذلك بالاعتبار الأول الذي يَلْحظ مستوى المعيشة ، والقوة الشرائية للنّقود ، وقد جاء في كتب التاريخ أنّ من يمتلك سبعمائة دينار تُعَدّ ثروته غير قليلة[1] .

ومما يؤكد ضرورة اعتبار القوة الشرائية ؛ (أن أحد أبناء الولاة أضاع ثروته على بعض المغنّيات ، ثم مات خادمٌ كان مولى لأبيه ، وابن عم له ، فورث من تركتهما أربعين ألف دينار .

(١) فعمر داراً بألف دينار .

(٢) واشترى آلاتٍ وفرشاً وثياباً وجواريَ ثلاثاً بسبعة آلاف دينار .

(٣) وسلّم لتاجرٍ ألفي دينار ليتَّجر له فيها .

(٤) وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد .

(٥) وابتاع ضيعة تغل في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته)[2] .

فهذا نصٌّ يدل على أنّ القوة الشرائية كانت عالية جداً ، فدار السكنى تبنى بألف دينار ! كما يدل على ارتفاع قيمة الجواري في ذلك العصر ـ كما سيأتي ـ .

ويمكن أن نعدَّ من هذه الطبقة من النّاحية الماديّة فحسب ؛ الشعراءَ والمغنّين المشهورين ، حيث كانت تتدفق عليهم الأموال والصلات والأعطيات ، كما كان من هذه الطّبقة كبار الكتّاب ، ورؤساء الدواوين ؛ لأنهم وإن كانوا أغنياء ، إلا أنّهم لم يصلوا في الغنى إلى طبقة القيادة العليا .

كما يمكن أن يكون بعض القضاة من أبناء هذه الطبقة ، وإنما صنفت القضاة في طبقة القيادة باعتبار أثرهم في المجتمع ، دون اعتبار النّاحية الماليّة المجردة .

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٢ : ٢٠٩) .

(٢) المصدر السابق ، الموضع نفسه .

(٣) الطّبقة الوسطى:

(وإذا تركنا الطّبقة العليا إلى الطّبقة الوسطى ، وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفي مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب من الدّولة ، وكان منهم معلّمون يختلف إليهم النّاشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة .

ويدخل في عداد هذه الطّبقة الشعراء والمغنّون عامة ، وعمال الدّواوين والكتّاب وموظفو الحسبة ورقابة الأسواق ، وموظفو المكوس والضرائب .

ومن هذه الطبقة أيضاً أوساط الصناع ، وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل في الأثاث صناعة البسط والسجاد والنّمارق والمقاعد والتخوت والوسائد)[١] .

(٤) طبقة الفقراء:

وهي الطّبقة التي كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة ، وفي الصناعات الصغيرة ، وفي خدمة أرباب القصور .

فهي التي تعمل في الإقطاعات والضياع ، وهي التي تقوم على أسباب الحياة للطبقتين الوسطى والعليا ، عاملة تارةً ، أو صانعة وخادمة تارة ثانية ، فكلّ ما تتقلب به الطبقتان من النّعيم ، إنّما هو من أيدي هذه الطّبقة العامة .

وقد مرّ معنا فيما سبق ثورة الزنج ، وكيف أنهم كادوا يدمّرون الدّولة تدميراً ، لشدة نقمتهم على الأوضاع التي كانت سائدة ، وما كادت تخمد ، حتى هبّت ثورة القرامطة وعصفت بالدولة هي الأخرى عصفاً شديداً .

والحقّ أنّ توزيع الثروة في هذا العصر كان توزيعاً غير عادل ، وزاد من سوئه موت الضمائر في النفوس ، وضعف الوازع الديني في الصدور ، وقسوة القلوب التي ما كانت ـ في الغالب ـ تتنبه لمآسي المجتمع ، وآلام الطبقة الفقيرة .

---

(١) العصر العبّاسي الثاني (ص٦١) .

ورب قائل يقول : إنّ هؤلاء الفقراء ، كانوا في الغالب من العبيد الأرقّاء ، وليس من حقهم أكثر من أن يأكلوا ويشربوا ويُكْسَوا بالمعروف ، ولقائل في الطرف الآخر أن يقول ـ جدلاً ـ : إن هذا من السّهام التي توجه إلى نظام الرق في الإسلام .

ولهؤلاء وأولئك أقول : إنّ الإسلام حين أقرّ موضوعَ الرق الذي كان سائداً في تلك الأعصر ، كان من نظامه التّشجيع على العتق بكل مناسبة ، وبدون مناسبة ، وكان من أهداف الاسلام ، أن يقرّب الرقيق من سيّده ، فيتعلم منه الإسلام ، ويتخلّق بأخلاقه وسيّان بعد ذلك بقي رقيقاً ، أم أعتق ـ وهو المرغوب فيه ـ ما دام قد عاش مسلماً ومات مؤمناً يرجى له المغفرة في الآخرة ؛ لأن الإسلام يُعَلّم النّاس أن الحياة الدنيا ليست سوى جسر يَعبُر الناس عليه إلى حياة الخلود في الجنة أو النّار ، وليس معنى هذا أن يستسلم الرقيق لوضعه ، أو أن يظلم السّيد المالك عبدَه ، بل إن المصطفى صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم قد حدّد النّظام الأخلاقي الإسلامي لمعاملة الأرقاء حين قال : (إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مّما يلبس ، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[١] .

وفي هذا العصر قرأت دراساتٍ كتبها بعض الكتّاب الذين يظهر على ما كتبوا قلّةُ معرفتهم بالدّين ، وقلّة تمسكهم به ، ومنهم مَن ينكر أن يكون الإسلام أقرّ نظام الرقّ ويرى هؤلاء أنّ هذا يعيب الإسلام ، ويضعه في صفّ النظام الإقطاعيّ الذي كان يستعبد الناس ! وقد التقيت ببعض هؤلاء ، وحاورته في ضرورة استقراء النصوص القرآنية خاصةً ؛ لفهم موضوع الرقّ بعيداً عن الاعتساف ، بيد أنّ الموضوع يحتاج إلى بحث جدّيّ منّي ! يوضّح أنّ الرقّ لم يأتِ به الإسلام ابتداءً ، وإنّما هو وضعٌ اجتماعيٌّ قائم قبل الإسلام . وأنّ الإسلام حرصَ على تقليل ظاهرة الرقّ ؛ وذلك من خلال

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ، باب المعاصي من أمر الجاهلية رقم (٢٠) ومواضع أُخَر . وأخرجه مسلم في الإيمان ، باب إطعام المملوك مما يأكل رقم (١٦٦١) وأبو داود في الأدب باب حقّ المملوك رقم (٥١٥٧) وما بعده ، والترمذي في البرّ والصّلة باب ما جاء في الإحسان إلى الخدم رقم (١٩٤٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب : عن علي ، وأمّ سلمة وابن عمر ، وأبي هريرة .

الكفّارات : الظهار ، تعمُّد الصوم ، وغيرها . وأنّ هناك نصوصاً كثيرة في الحثّ على العتق .

أما قول القائل : لِمَ لَمْ يقطع الإسلام هذه الظاهرةَ؟

فهذا مستحيل ، ولعلَّ تجربة أبراهام لنكولن قريبة عهد في الولايات المتحدة ، حيث رجع العبيد بعد فترة يطالبون بإعادتهم إلى ما كانوا عليه ، لوجود أرقّاء كثيرين لا يستطيعون تدبير شؤونهم بأنفسهم[١] .

فأسأل الله تعالى العون والتوفيق إلى كتابته على النحو الذي يرضيه .

---

(١) وانظر في موضوع الرق : الموسوعة الفقهية (٢٣ : ١١ ـ ٩٣) مادة (رق) والموسوعة العربية الميسّرة (٢ : ١١٩٤ ـ ١١٩٨) مادة (رق) و(٤ : ٢٠٩٢) مادة (النكولن) .

المبحث الثَّاني

أخلاق المجتمع وعاداته

لَمّا كان المفترضُ في المجتمع الإسلامي السُمُوَّ، ومقاربةَ الكمال، والتزامَ أوامر الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، والتأدب بآداب الدّين القويم، فإن الجانب الإيجابي لا معنى لذكره في معرض بيان الانحراف، وإن كنت سأشير إليه في مبحث (الزهد والتصوف) إن شاء الله تعالى.

لقد بلغ الانحلال الخلقي في القرن الرابع الهجري مبلغاً مزرياً، واعتاد بعضُ النّاسِ هُجْنَ العادات، وأَلِفُوا مستنكر الطّباع، ممّا كانت العرب تتأفف منه في جاهليتها ـ أحياناً ـ وفي عصور الإسلام الأولى.

ولعل مردّ ذلك إلى عوامل عدّة يحسن التذكير بأهمها:

(١) ضعف سلطة الخليفة العبّاسي، واستئثار وزرائه الغارقين في الترف والملذات بشؤون العامة، وإذا فسد الراعي؛ فسدت الرعيّة، والنّاس على دين ملوكهم غالباً.

(٢) تسلّط القادةِ غيرِ العرب من الفرس والترك ممن لم يتربّوا التربية الإسلامية الصحيحة، وممن كانوا عبيداً أو خدماً في كثير من الأحيان. ومثل هؤلاء تنحرف طبائعهم غالباً، وتقلّ مروءاتهم، ويحقِدون على من فوقهم، ويرغبون في إهانة من يُسلَّطون عليه. أضف إلى ذلك؛ أن كثيراً من هؤلاء كانوا من الروافض، أو الشعوبيين.

(٣) تمازج عناصر المجتمع الإسلامي بجميع شعوبه، وطوائفه وفرقه وحضاراته وعاداته وقيمه وأديانه.

فقد كان المجتمع الإسلامي يعجّ بالمسلمين والنّصارى واليهود والصابئة والمجوس وغيرهم، وكان في المسلمين أهل السّنة والشيعة، ولكل منهما طوائف وطوائف.. وكان المجوس والشعوبيون الذين أبطنوا الثنوية أو الزّندقة، وأظهروا الإسلام في كثير من الأحيان. كما كان النّصارى واليهود والمجوس المنهزمون حاقدين على أمة الإسلام لا يريدون لها صلاحاً، ولا يبتغون من خدمتها سوى الكيد والوقيعة بوجه عام.

(١) ولا يخفى أن للعقائد والأفكار أثراً كبيراً على الأخلاق والعادات.

هذا كله وغيره مما سأذكر بعضه في مبحث (الحياة الفكرية) كان من أهم الأسباب التي أسرعت في تدنّي أخلاق شرائح من المجتمع المسلم في عصر ابن حبّان ـ القرن الرابع الهجري ـ .

(٤) الترف والغنى : ولا ريب أنّ كثرة المال ، وقلة المشاغل ، ووفرة الوقت مدعاة استيقاظ الغرائز في النّفوس ، ومظنّة ولع القلوب بالعبث والمرح ، وقد كانت أكثر طبقات المجتمع ، إما متمتعةً ، أو وسائل متعة للمتمتِّعين ـ حاشا الطبقاتِ الشريفةَ المتديِّنة ـ .

ولا ريب أنّ كثيراً من أخلاق المجتمع في ذلك العصر ، كان وافداً على العرب ، ولم يكن من شيَمهم ، (فإنّنا لو قارنّا قصص العرب في عصرهم الأول ونوادرهم وكلامهم وشعرهم بمثيلاتها في القرنين الثالث والرابع للهجرة ؛ لأدهشنا ما نجده في هذين القرنين من ميل شديد إلى الإفحاش في القول والفعل ، وليس هذا ـ شأنه شأن غيره ـ إلاّ من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام . . .)[1] .

وقد كانت هناك أمور أخرى كثيرة تتعلق باللّهو كلعب الشطرنج والحَمام والسّباق والنّدماء والحمقى والمغفَّلين ، مما ينبغي أن يُفْرَد لكل قسم من هؤلاء مبحث ، إلا أن الوقت لا يُسعفنا ، وطبيعة هذا البحث تتأبى على الإسهاب في هاتيك القضايا ، كما كانت هناك أمور تتعلق بالرشوة والغصب وقطع الطريق ، دلَّ عليها حديثي فيما مضى عن سوء توزيع الثروة ، وعن الحركات الهدّامة كالزنج والقرامطة .

على أنّ من الضروري قَولَه : إنّ تيّار الخير في المسار الإسلامي كان قوياً في نفوس كثير من النّاس ، بينما توضّعت مُعظمُ هذه العادات السيئة في الدّاخلين على مجتمع الإسلام ، وعند الفرق المنحرفة الأخرى .

وسوف أشير إشارات سريعة إلى أقبح مظاهر الانحراف الأخلاقيّ في عاصمة دار الخلافة ، معتذراً للذين اعتادوا على رصد الجوانب المشرقة وتضخيمها ، والإعراض عن الجوانب المظلمة وتمويتها ؛ رغبةً في الحاجة التربوية إلى الجانب المشرق للاقتداء والانتماء ، وستراً على فضائح المذنبين ، لكنني أرى أنّ هذا أبعَدَنا عن معرفة تاريخنا

---

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز (٢ : ١٨١ ـ ١٨٢) .

وألصقَ بنا تهمة التحيُّز والانتقائية ، ممن تناسى الطبيعةَ البشرية ، وندرةَ من يتمكّن من الوصول إلى الالتزام الصحيح !

(١) انتشار الغناء والموسيقى :

لقد عرف الإنسان الغناء قديماً ، ولا ريب أنه يؤثّر في المشاعر الإنسانية تأثيراً بالغاً فإذا اجتمع مع الغناء الصوتُ الرخيم ؛ كان التأثير أشدَّ ، والأَسرُ أحكمَ ! وقد تكون النغمات الموسيقية أبلغَ أثراً من الكلمات ذاتها ، ومن جرس الأصوات بها .

والإسلام الدين الذي جاء منسجماً مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها ؛ عرف خبايا هذه النفس البشرية ، وعرف ما يصلحها ، ويبعدها عن مهاوي الضلالة ، وسبل الغيّ !

والإسلام يريد لأبنائه عمارة الكون بالقيم والأخلاق والمثل التي جاءهم بها ، بعيداً عن أوحال الشهوات ، وجماح الغرائز ، والنزعات الشهوانية في البشر ، فهو يريد لهم أن تكون حياتهم مسخّرةً في طاعة الله تعالى ، وأن تكون أمانيهم مقصورة على ما عند الله تعالى ، ويأبى لهم أن يكونوا ممن عُجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا .

ولا أريد في هذا البحث أن أتحدث عن الغناء والموسيقى من الوجهة الشرعية ، فإنّ له عندي موضعاً غير هذا ، وإنما أُذكّر بأنّ الإسلام حين حرّم بعض أنواع الغناء والموسيقى[١]

(١) الفقهاء مختلفون قديماً وحديثاً في الغناء والموسيقى ، ما بين مبيح ومحرّم ، مع اتفاق الجميع على إباحة غناء الرجال للرجال ، من غير فحش ، ولا تشبيب بمعين ، وغناء النساء للنساء في الأفراح ، من غير آلات عديدة ! وإنني أذهب إلى كراهة سماع الغناء والموسيقى نهائياً ، مع ذهابي إلى تحريم كثير من أنواعهما ؛ لأنّ الغناء يحفر في القلب معانيه ، وتتراقص الأحاسيس مع أنغامه . وانظر فقه الغناء والموسيقى للدكتور يوسف القرضاوي .

وأنا الفقير إلى الله تعالى ، كلما سمعت أو شاهدت مغنياً ، أو مغنية ، ومع أحدهما هذه الجوقة الكبيرة ؛ أحزن عليهم كثيراً ، وأتساءل في نفسي : هل يعرف هؤلاء أنّهم يثيرون شهوات الشباب والشوابّ ، وأنّهم آثمون عند الله تعالى؟ وهل يا ترى ينجو المسلمون من مثل هؤلاء من النّار؟

أتساءل ذاك التساؤل في نفسي ، ثمّ أقول : وهل أنت مطمئنّ إلى نجاتك وأنت من أهل العلم فربّ نشوة من نشوات التحقيق العلميّ تأخذ عليك قلبك ، فيحبط عملك ، وربما تاب هذا المغنّي أو تلك المغنية ، فنجيا ، وهويت !

فإنما حرّمه لحكمٍ عديدةٍ ، منها أن تقوم مغنية رخيصة ماجنة ، وموسيقيّ منحرف بإثارة مشاعر أبنائه وعواطفهم ، وسلوكهم ، ومن يدّعي عدم التأثّر ، فليحمد الله تعالى على أن سلبه نعمة الحسّ والشعور !

وقد انتشر الغناء في العصر العباسي انتشاراً كبيراً ، ورافقته الموسيقى . يتضح ذلك من كثرة الكتب المترجمة في الفنّ الموسيقي ، منذ مطالع العصر ، على نحو ما يتضح في أوائل ترجمة إسحاق بن إبراهيم الموصليّ في كتاب الأغاني .

ولإسحاق الموصلي في ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خَلَفوه في القرن الثالث على التأليف في هذا الفنّ ، الجارية (بزل) فقد كان لها كتاب في الأغاني ، يشتمل على اثني عشر ألفَ صوت ! والجارية (دنانير) البرمكيّة ، كان لها كتاب مجرّد في الأغاني مشهور !

وممن ذكرهم ابن النديم (النصيبي) وله كتاب في الأغاني ألفه على حروف المعجم للمتوكّل .

ومما يدلّ على ما كان للغناء حينئذٍ من سموّ المنزلة ؛ أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك في وضع أصواته ، مثل المنتصر والمعتزّ والمعتضد وابن المعتزّ وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، واشتُهر أنه كان يستطيع أن يجمع ألحاناً كثيرة في صوت واحدٍ ، وكانت له كتب في النغم وعلل الأغاني[١] .

بل قد كان عبد الله بن الخليفة الأمين بن هارون الرشيد ينادم الواثق ، ثمّ نادم بعده سائرَ الخلفاء إلى المعتمد ، وكان ظريفاً غزِلاً ، يقول شعراً ليّناً ، ويصنع صناعة صالحة[٢] .

والظاهر أنّ صنعة الغناء والموسيقى كانت متقدمة في ذلك العصر ، وكان الغناء يؤدّى على أنغام ذات أصول وضوابط ، يتعلمها المغني قبل الأداء ، على نحو ما يفعل

(١) العصر العباسي الثاني (ص : ٨٥ ـ ٨٦) مقتطفات .

(٢) شخصيات كتاب الأغاني ، للدكتور سلوم (ص : ٣٧٠ ـ ٣٧١) .

اليوم المغنّون والمغنّيات ، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني أنّ سُليم بن سلاّم الكوفيّ ، غنّى يوماً بين يدي الرشيد ، و(برصوما) يزمر عليه ، فقصّر سُليم في موضع صيحة ، فأخرج (برصوما) الناي من فيه ثم صاح به وقال : يا أبا عبد الله : صيهةً أشدّ من هذا !

يريد : صيحةً ، فضحك الرشيد حتى استلقى ! فهذا دليل على تقدمهم بمعرفة الغناء والأنغام والإيقاع ، وولعهم الشديد بهذا اللون من اللهو !

نسأل الله تعالى دوام الحفظ والصيانة والستر ، لنا ولأعراضنا وللمسلمين ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

(٢) انتشار شرب الخمور والأنبذة :

لقد كانت الخمرة والأنبذة ديدنَ الأمم والعرب في الجاهلية ، وقد طفحت قصائدهم بوصفها وتعشُّقها ، وكان فرسان العرب ووجهاؤهم يتباهون باقتنائها وتقديمها للأضياف واصطفاء الأنواع العالية منها .

حتى إذا جاء الإسلام بتشريعه الحكيم الباقي إلى نهاية الحياة الدنيا ، والذي يريد به تحرير الناس من عبودية الأوثان والأصنام والطواغيت والعادات ، وتعبيدهم لله تعالى وحده ؛ شرع بمحاربة هذه العادة المتأصّلة ، وتدرّج مع الناس في تحريم الخمرة والأنبذة المشتدّة حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوه ﴾ فغدا محرّماً تحريماً قاطعاً ، سواء أكانت الخمور والأنبذة المشتدّة متّخذةً من العنب والتمر ، أم كانت متخذة من القمح والشعير والذرة والفاكهة بأنواعها ، إلاّ أنّ خلاف بعض علماء الكوفة وغيرهم في هذه المسألة وعدّهم الخمرةَ المحرمة لعينها ، هي الخمرة المتخذة من ثمرة العنب ، دون سواها ، ما عدا القدر المسكر منه ؛ فتح الباب أمام عشّاق الخمرة على مصراعيه[١] .

ومع هجمة البطر والغنى الفاحش على كثير من الناس ؛ ضعف الدين في نفوس

---

(١) انظر كتابي القرآن الكريم ودعاوي النسخ فيه ، فقد أوفى على الغاية في مناقشة هذه المسألة ، وعرض أدلّة أصحابها ، وانظر أحكام القرآن لابن العربي المالكي (١/ ٢٠٨) فما بعد ، ورحمة الأمة في اختلاف الأئمة لأبي عبد الله العثماني الشافعي (ص : ٥١٨) .

كثيرين منهم ، وكانت هذه الأنبذة هي أوّل ما نفذ إلى نفوسهم ، واستهوته قلوبهم حتى شربه الخلفاء والأمراء والقوّاد ، فتبعهم عامّة الناس عليه بعدئذٍ ، إلا من عصم الله تعالى .

وكانت البساتين حول سامرّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمور والسّماع ، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها . . وكان عامّة من يعملون فيها من الأجانب ، سواء كانوا من الرجال أم من النساء .

يقول الجاحظ : من تمام آلة الخمّار ، أن يكون ذمّياً ، وأن يكون اسمه (آذين) أو (مازيار) أو (أزدانقاذار) أو (ميشا) أو (شلوما) ويكون أرقطَ الثياب[١] مختوم العنق ![٢] .

أمّا الجواري فكنّ من القِيانِ الأجنبيات غالباً ، وكانت تعجّ بهنّ حانات البساتين وحانات الكرخ على شواطئ دجلة ، ودور المقيّنين[٣] ، وقلّما كنّ يشعرن بشيء من الكرامة ، أو يستشعرن شيئاً من التحفّظ والاحتشام ![٤]

(٣) انتشار الخصيان في المجتمع :

الخِصاء : هو استلال بيضتي الذكر ، وقطعهما ، بحيث يصبح غير قادر على ممارسة الجنس والإنجاب !

ولا يُعلم بين العلماء خلاف في أنّ خصاء الرجل الحرّ والعبد حرام ، وأنه مثلةٌ وتغيير لخلق الله تعالى !

وقد اتفق العلماء على أنّ إتلاف عضوٍ وحيد في الإنسان ؛ يوجب الدية كاملةً فالأنف السليم واللسان السليم والذكر السليم فيه الدية كاملة !

---

(١) الأرقط : النمر ، والثوب الأرقط ، هو الذي يشبه لونه شعر النمر في تلوّن نسيجه . القاموس (رقط) .

(٢) العنق المختوم هو الذي لا ينتهي بترقوة غائرة ، وهي النقرة في أسفل العنق . القاموس (رقو) .

(٣) المقيّنين : جمعٌ مفرده مقيّن ، وهو المزيّن ، والتقيين : التزيين . القاموس (قان) .

(٤) العصر العباسي الثاني (ص : ٨٧) فما بعد .

أما ما كان في الإنسان منه عضوان ، ففي إتلافهما معاً الدّية كاملةً ، كالعينين واليدين والرجلين والخصيتين ، وإتلاف أحدهما يوجب نصف الدية .

وقد اتفقوا على أنّ الرجل الخصيّ والمجبوب حكمهما حكم الرجال في إمامة الصلاة وستر العورة ، ولبس الإحرام ، والميراث ، والغنيمة[١] .

بيد أنّ كثرة الرقيق ، وازدياد الترف والرفاه ، جعل الخلفاء والقادة محتاجين إلى رجال يقومون بشؤون القصور المليئة بالجواري والخادمات ، ناهيك عن نساء المترفين أنفسهم ، وما يولّده الفراغ لديهنّ من رغبة في اللّهو والترفيه ، الذي قد يقود إلى الفواحش والزِّنى !

وقد أكثر الخلفاء والقوّاد من هؤلاء الخصيان في قصورهم .

ولّما كان العبد الرقيق لا خيار له ، وهو لا يملك ذاته ، فقد اخترع النخّاسون فكرة خصاء العبيد .

ولّما كان الإسلام يحرّم على المسلم فعل هذا ، ويوجب فيه ما ذكرته قبلُ من الدية فقد امتنع النخاسون المسلمون من فعل ذلك ، تاركين لليهود والنصارى إثم هذا العمل القبيح ![٢]

ومع ما ذكرت قبلُ من اعتبار الفقهاء الرجلَ الخصيَّ رجلاً كامل الأهلية ؛ فلم يلتفت هؤلاء الكبراء إلى شيء من هذا ، وكان لبعض هؤلاء الخصيان حظوةٌ لدى نساء كثيرات في الاستمتاع معهم بما دون الزنى ، ولا يخفى ما لهذه الممارسات من أثر في قلّة الحياء والخشية ، وتهييج المرأة وإثارة رغبتها إلى الرجل ، مما قد يقود بعضهنّ إلى الفحش والفجور ، مع القطع بأن ذلك كلّه محرّم تحريماً قاطعاً !

ولم يكن هؤلاء الخصيان دائماً ممتهنين مضطهدين ، فقد وصل عدد غير قليل منهم

---

(١) موسوعة الإجماع (٣٩٤/١) وكفاية الأخيار للحصني (٥٥٨/٢) والمصباح المنير (ص : ٦٦ (خصى) .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز (١٨١/٢ ـ ١٨٢) .

إلى مناصب قيادية عالية ، فقد كان «مؤنس» الخادم ، و«فائق» قائد الحرب عند السامانيين و«شكر» غلام عضد الدولة ابن بويهِ ، وغيرهم كثير ، كلهم من هؤلاء الخصيان[١] .

(٤) انتشار الفجور والفواحش :

إنّ السفور والتهتك والزّنى ، مما لاخلاف بين طوائف الأمة على تحريمه واستهجانه والعجب أن ينتشر البغاء في القرن الرابع الهجريّ ، رغم كثرة الأموال ، وإمكان الزواج المبكر ، وإباحة التعدُّد ، وكثرة الجواري والإماء .

وقد حدد الشارع الحكيم للزاني أحدَ حدّين ، فإذا كان متزوّجاً ؛ أُخِذَ بحدّ الرجم حتى الموت ، وإن كان عزباً ؛ أخذ بحدّ الجلد .

واحتاط الإسلام لثبوت هذه التهمة شروطاً شديدة ، حتى لا يلعب المغرضون بأعراض الناس ، وينتقموا من كلّ من يغضبون منه ، أو يتخاصمون معه ![٢] .

وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالي عام (٣٠٠هـ) حال البغاء في الصين وتكلّم عن الزواني ، وهنّ يُثبتن في ديوان خاصّ بهنّ ، يسمّى ديوان الزواني ، وعليهنّ في كلّ سنة ضريبة ، يؤدينها لبيت المال ، ونحن نحمد الله تعالى على ما طهّرنا به من هذه الفتن !

ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنةً ، حتى بلغ من مخالفة عضد الدولة (ت : ٢٧٢هـ) للشريعة ، أنه فرض على الراقصات والزواني في بلاد فارس ضريبة ، وكان يُضمّن هذه الضريبة[٣] .

---

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز (٢/١٦١) .

(٢) ذكر آدم متز في كتابه الحضارة الإسلامية (٢/١٧٣) أنّ الشارع قد احتاط في إثبات تهمة الزنى ، إلى حدًّ لم يمكن معه الحكمُ بهذه العقوبة ، وعزاه لكتاب محاضرات الأدباء . والحقيقة غير ذلك ، فقد رجم رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلّم ، غير مرّة ، وجلَدَ عدة مرات ، ورجم وجلد خلفاؤه من بعده ، ومن ثمّ فإنّ تشريع هذه العقوبة ، ليرتدع الناس ويتعظوا ، وليس لإفنائهم وفضحهم .

(٣) الحضارة الإسلامية لآدم متز (٢/١٧٣ ـ ١٧٤) .

(٥) الولوع بالغلمان والولدان :

لقد ولع الكبراء والشعراء والمُجّان بالولدان المُردِ ، ولوعاً غريباً ، بل قد كان الانهماك بهم شأن الخاصّة وكثير من العامّة في ذلك العصر . ولم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأن طوال الفترة التي كانت السيادة فيها للروح العربية . وفي الأخبار المأثورة ؛ أنّ هذا اللواط أتى من المشرق مع جيوش العباسيين الذين جاؤوا من خراسان .

والغزل الذي قيل في التوجّع من هوى الذكران ؛ يعادل ما قيل في النساء على الأقل !

أمّا الشعراء الذين كان تشبيبهم مقصوراً على الغلمان دون غيرهم ، وكانوا مجاهرين بالاستهتار بالغلمان ، فقد كانوا قليلين ، مثل مصعب السلامي الشاعر (ت : ٣٩٤هـ)[١] .

وقد كان عشق الولدان منتشراً بين القادة والكبراء ، إلاّ أنه لم يُحكَ عن خليفة من خلفاء بني العبّاس شيء من هذا ، ولله الحمد والمنّة !

وقد حُكي عن الأمير بختيار البويهي الرافضي ، أنه أُسر له في إحدى المواقع غلام تركيّ ، فجنّ عليه جنوناً ، وحدث له من الحزن ما لم يُسمع بمثله ، وزعم أنّ فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة ، والانسلاخ منها ومن النعمة ، وما زال يظهر الشكوى ، حتى خفّ ميزانه عند الناس ، وسقط من عيونهم[٢] .

وأقول : هذه هي الانحرافات العامة التي كوّنت ظاهرة في دار الخلافة بغداد ، في تلك الحقبة من الزمان ، **وهذا لا يعني فقدان الخير منها ! كما أنّ هذا لا يعني أنّ جميع** بلاد المسلمين على هذه الشاكلة المحزنة ، والله هو المستعان ، وعليه التكلان .

---

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز (١٦٦/٢) . وقد نقل متز عن الفقهاء أنّ أكثرهم يرون في اللواط التعزير ، وعزاه إلى طبقات الشافعية (١٨/٣) والكلام في الطبقات ؛ لا يدلّ على هذا ، وقد حكى وجهاً لبعضهم من غير تعيين من هو ، بل إنّ جمهور الفقهاء على أنّ فيه حدّاً شرعياً ، وإن اختلفوا في صفته ، مع إجماع الجميع على حرمته ، وكونه من الكبائر ، وأبو حنيفة هو القائل : فيه التعزير دون الحدّ . المغني مع الشرح الكبير (١٦٠/١٠) فما بعد .

(٢) تجارب الأمم (٢ : ٣٧١) والحضارة الإسلامية لآدم متز (١٦٧/٢) .

المبحث الثالث

مدرسة الزُّهد والتصوُّف

تمهيد : (يجب ألاّ يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون في العصر العباسي الثاني ـ عصر ابن حبان[1] ـ أنه كان عصراً ملحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب عليه المجون والإلحاد ، وانحلال الأخلاق ، فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة من المجتمع .

أما المجون فكان يشيع في الطبقة المترفة ، وأما الشعوبيّة فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم ، ومثلها الزندقة ، فقد كانت مقصورة على أفراد .

ومن الخطر أنّ نجعل ذلك كلّه صفات عامة للمجتمع ، فقد كان المجتمع إسلامياً[2] وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام ، تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره ولم تكن تعرف الترف ، ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق ، وإنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجّان وعلى الشعوبيين ، وعلى الملحدين من أعداء الإسلام)[3] .

ومع كل ما قرأناه سابقاً عن اضطراب حبل الأمن ، وخلخلة نظام الحكم ، وشيوع الفساد والترف ، فإن كثيراً من العلماء يعدّون القرن الرابع الهجري عصر النهضة في الإسلام ، وذروة ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في العلوم والمعارف العامة ، حتى إنّ بعضهم جنح إلى أن قيام الدويلات المستقلة ذاتياً ، وشبه المستقلة عن كيان الدولة الأم من أسباب هذه النَّهضة ، وتسارع النضوج الفكري والعلمي[4] ، وإن كنت أرى أنّ ذلك علامة تدهور في العقيدة والفكر والسلوك والتديُّن .

---

(١) ما بين المعترضين زيادة لفت نظر .

(٢) كون المجتمع إسلامياً ـ بكل ويلاته آنئذ ـ يحتاج إلى وقفة ، فهو وإن كانت السّمة العامة فيه هي الإسلام ، إلا أنّ انحرافاً بالغاً قد طغى على صفحات التطبيق الواقعي .

(٣) العصر العبّاسي الثاني (ص١٠٤ ـ ١٠٥) .

(٤) انظر الحضارة الإسلامية لآدم متز (ص٢٥ ـ ٣٠) وأبو الفتح البستي للدكتور الخولي (ص٢٦ ـ ٣٢) .

وقد اتسم هذا العصر ـ فيما اتسم به ـ بانتشار روح الزهد والعزلة[١] ونضوج التصوف وبروز أثره في الحياة العامة ، ووضوح مفاهيمه ، وتدوينه كعلم مستقل له مدارسُه ، كالفقه والحديث والتفسير والكلام . . . إلخ .

(واقرأ في تراجم الفقهاء والمحدثين لهذا العصر ، فستجدهم ـ أو على الأقل ستجد كثرتهم ـ وهم يعدون بالمئات ، إن لم يكن بالآلاف ، قد أخذوا أنفسَهم بالانصراف عن متاع الدنيا ، بل لكأنما تجردوا للجهاد في سبيل ذلك ، أسوة بزاهد الأمة الأول محمد بن عبد الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذي لا يزول . . .)[٢] .

وإذا كان الزهد في كل عصر من عصور الإسلام هو السِّمة البارزة والشارة الوضّاءة لأئمة الإسلام وعلمائه من محدِّثين ومفسِّرين وفقهاء ومتكلِّمين ؛ فهل الزهد هو التصوف ، أو التصوف شيء آخر؟ وما صلة كلٍّ منهما بالآخر؟

لكي نعرف ضوابط ذلك ، فلا بدَّ من دراسة كل من الزهد والتصوف في مطلب منفرد ، مشيرين إلى الفوارق الأصلية بينهما ؛ بغية الوصول إلى حكم واضح على أفكار ومظاهر التصوّف المشروعة ، من الأفكار والمظاهر الباطلة أو المكروهة ، أو المبتدعة !

أمّا إطلاق حكم عام على مدرسة ، أو مدارس التصوف كلِّها ؛ فليس من العدل والإنصاف في شيء ، بل هو أشدُّ خطراً من انحراف بعض مدارس التصوف ذاتها !

وسبب ذلك ، أنّ هذه المدارس قد تخصصت في التربية القلبية والروحية ، وصار لها فكرها ومناهجها وكتبها وتجاربها الطويلة في تربية النفس البشرية ، فإذا نحن تنكّرنا لذلك كلّه ، وأعرضنا عنه جملةً ؛ لزمَنا إعادة التجربة من بداياتها ، وقد نقع في أخطاء أكثر مما وقعت فيه بعض المدارس الصوفية ، ولهذا كان الإصلاح والتصفية هما السبيل الأقوم !

---

(١) كتب الإمام الخطابي في ذلك كتاباً أسماه العزلة ، وهو يحدد فيه منهج الإسلام في هذا الجانب .

(٢) العصر العباسي الثاني (ص١٠٥) .

المطلب الأول: مدرسة الزّهد في عصر ابن حبان

ليس الزهد بِدْعاً في تاريخ الحياة الإسلامية العملية ، وما هو بطارئ حادث على أصالتها ، بل هو السّلوك الأمثل للحياة الإنسانية التي ارتضاها الله تبارك وتعالى لعباده فقد قال جلّ شأنه : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص : ٧٧) .

وإن كانت لفظة (الزهد) لم ترد في القرآن الكريم سوى مرة واحدة : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (يوسف : ٢٠) وقد جاءت في معرض استهانة القوم بنبيّ الله يوسف عليه السلام .

وأما في السّنة فقد روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم يقول : (ليست الزهادة في الدّنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزّهد : أن تكون بما في يد الله تعالى أوثقَ منك بما في يديك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها ، أرغبَ منك فيها لو أنها أبقيّت لك)[١] .

وأخرج ابن ماجه عن أبي خلاّد قال : قال رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم : (إذا رأيتم الرجل قد أُعطي زهداً في الدّنيا ، وقلَّةَ منطق ، فاقتربوا منه ، فإنه يُلقّى الحكمة)[٢] .

ولم أقف على حديث صحيح يذكر لفظ الزهد ، ولم يترجم البخاريّ في صحيحه

---

(١) أخرجه الترمذي في الزّهد ، باب ما جاء في الزّهادة رقم (٣٢٤٠) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو إدريس الخولاني اسمه : عائذ الله بن عبد الله . وعمرو بن واقد : منكر الحديث . وأخرجه ابن ماجه في الزهد ، باب الزهد في الدنيا رقم (٤١٠٠) ثم قال : قال هشام ابن عمار : قال أبو إدريس الخولاني : مثل هذا الحديث في الأحاديث ، كمثل الإبريز في الذهب . قلت : لكنّه واهي السند .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ، باب الزهد في الدنيا رقم (٤١٠١) . قال البوصيري : لم يخرج ابن ماجه لأبي خلاّد ـ وله صحبة ـ سوى هذا الحديث ، ولم يخرّج له أصحاب الكتب الخمسة شيئاً . وفي الحديث أبو فروة يزيد بن سنان الجزري . قال الذهبي في الميزان بعد سياق هذا الحديث : أبو فروة واهٍ (٤ : ٥٦٢) وقال في التقريب (٢ : ٣٦٦) : ضعيف .

كتاباً للزهد ، وترجم النووي كتاباً للزهد في صحيح مسلم .

غير أنّ العبرة للمعاني ، وليست للألفاظ ، ولهذا فقد عقد عدد من المحدِّثين للزهد كتباً في مصنّفاتهم كما أن عدداً من الأئمة قد أفرد الزهد بمصنف مستقل ؛ كالإمام عبدالله ابن المبارك (ت : ١٨١هـ) ولعله أول من صنف في الزهد ، والإمام المعافى بن عمران الموصلي (ت : ١٨٥هـ) والمحدث الحافظ محمد بن فضيل بن غزوان الكوفي (ت : ١٩٥هـ) والإمام وكيع ابن الجراح (ت : ١٩٧هـ) والحافظ أسد بن موسى (ت : ٢١٢هـ) والإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت : ٢٤١هـ) والحافظ هنّاد بن السري (ت : ٢٤٣هـ) والحافظ إبراهيم بن الجنيد (ت : في حدود ٢٦٠هـ) والإمام أبو داود السّجستاني (ت : ٢٧٥هـ) والإمام عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (ت : ٢٨١هـ) والحافظ محمد ابن أحمد العسّال (ت : ٣٤٩هـ) والإمام محمد بن الحسين الآجري (٣٦٠هـ) والحافظ عمر بن أحمد بن شاهين (ت : ٣٨٥هـ) والإمام البيهقي (ت : ٤٥٨هـ) وغير هذه المصنفات كثير[١] . والآيات القرآنية في هذه المعاني تَعْسُر على الحصر .

ومن ينظر في مباحث هذه الكتب جميعاً ، ما أُجمِل الزهد فيها مع غيرها من الكتب كما في كتب السّنن وغيرها ، وما أفرد بمصنف مستقل ؛ فإنّه يجد تحت كتاب الزهد : الحض على طاعة الله ، والتخويف من عذابه ، والترغيب في الذكر ، وتلاوة القرآن والتخويف من عواقب الذنوب ، واختيار الأصدقاء ، وحفظ اللسان ، والتواضع والتوكل على الله ، والتقلل من الدنيا ، والورع .

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ : (كانت النّسبة في زمن رسول صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم إلى الإيمان والإسلام ، فيقال : مسلم ومؤمن ، ثم حدَثَ اسمُ زاهدٍ وعابد . ثم نشأ أقوام تعلّقوا بالزهد والتعبّد ، فتخلّوا عن الدّنيا وانقطعوا إلى العبادة ، واتخذوا في ذلك طريقة تفرَّدوا بها ، وأخلاقاً تخلَّقوا بها)[٢] .

وقد اشتهر جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم بالزهد ، إلا أنّ دخول

(١) انظر مقدمة كتاب الزهد لابن المبارك ، للشيخ حبيب الرحمن الأعظمي (ص٦٤ ـ ١٦) .

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص١٦١) .

المتصوفة في مدرسة الزهد ، وتلبّسهم بأثوابه ، قد عمّى على كثير من النّاس حقيقة الزهد .

قال ابن الجوزي : (وجاء أبو نعيم الأصبهاني ، فصنّف لهم ـ للمتصوفة ـ كتاب الحلية وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ، ولم يستح أن يذكر في الصوفية : أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً وسادات الصَّحابة رضي الله عنهم ، فذكر عنهم فيه العجب ، وذكر منهم شريحاً القاضي ، والحسن البصري ، وسفيان الثوري ، وأحمد ابن حنبل .

وكذلك ذكر السّلمي في طبقات الصوفية الفضيلَ بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ومعروفاً الكرخي ، وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزّهاد)[١] .

لقد عرف صحابة رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم حقيقة الزّهد ، كما عرفه أكابر التابعين ومن بعدهم ، وحرصوا على التّمثل به أيّما حرص ، فكان الواحد منهم تأتيه عشرات ألوف الدّراهم ، فلا يبيت وعنده منها إلاّ النزر اليسير الذي يفي بضرورياته وحاجاته ، ولقد جهد علماء الأمة الصالحون أن يعيشوا الكفاف والقناعة خوفاً من أن يدخل أجوافهم لقمةُ حرام ، ربما أودَتْ بهم إلى ألّيم العقاب .

وإذا كان الإسلام قد وازن بين حاجات الإنسان في الدنيا ، ورغباته في اللذائذ ، وبين غاياته الأخروية ، والحكمة التي خلق من أجلها ، وهي عبادة الله تعالى بمعناها الأوسع فإنّه لم يمنع أحداً من العيش في نعمة وارفة ، وإنَّما خاف عليه أن تبطره النعم ، فتجرّه إلى الترف الذي يؤدي إلى اللّهو والمجون والفسوق . ويبدو أنّ اتّجاه العلماء إلى مسلك الزهد قد حبب إليهم العبّاد الذين صاروا يعرفون باسم الصوفية ، وتمازج بعضهم ببعض ، وصار كبار العلماء والمحدثين يوصَفون بهذا الوصف (الصوفيّ) على سبيل المدح والتوقير ![٢] .

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٦٥) قلت : إذا كان أبو نعيم يرى الزهد ، هو التصوف ، فلم يعاب عليه فعله؟

(٢) انظر على سبيل المثال ، لا الحصر : تذكرة الحفاظ للذهبيّ : ١/ ٣١٣ ، ٣٤٦ ، و٢/ ٤٢٦ ، ٤٤٤ ، و٣/ ٨٩٥ ، ٩٥٠ ، و٤/ ١٢٥٨ ، ١٣٩١ ، و النبلاء له : ٦/ ٢٢٥ ، ٣٩٢ ، و٨/ ١٢٨ ، ٣٤٥ ، و١٠/ ١٩٠ ، ٥٩٠ ، وهكذا حتى نصل إلى : ٢١/ ١٣٤ ، ٥٠٢ ، و٢٢/ ١٧ ، ٣٩٥ ، و١٩/٢٣ ، ٣٤٩ .

المطلب الثاني: مدرسة التَصوف في عصر ابن حبان

لقد اختلفت آراء العلماء حول كلمة (التّصوف) من أين أتت ؟ كما اختلفوا في بدء تاريخ الصوفية ؛ فالذين لم يفرّقوا بين الزّهد والتصوف ؛ عدّوا الرسول صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم أول صوفي ، والذين تأدبوا قليلاً عدّوا أبا بكر رضي الله عنه أول المتصوفة !

فإذا نحن رجعنا إلى الكتاب الأم في تاريخ التصوف الاسلامي ـ على حد تعبير محقِّقَيه[١] ـ وهو كتاب «اللمع» لأبي نصر الطوسي ـ رحمه الله ـ رأيناه ينقل عن أبي بكر الواسطيّ قوله : (أول لسان الصوفية ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر)[٢] وارتضى هذا القول ، وعدّه (إشارة جليلة لأهل التوحيد في حقائق التفريد)[٣] وبعده عمر رضي الله عنه ، ثم أكابر الصحابة بعدهما .

وكذلك عدّ الحافظ أبو نعيم الأصبهاني أبا بكر أول صوفي ، وعدّ قرن الصحابة أول قرون المتصوفة[٤] ، إلاّ أنَّ التحقيق في هذا هو أنَّ اسم التصوف ، لم يعرف إلا في أواخر القرن الثاني الهجري .

قال ابن الجوزي : (وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ، ولما أظهره أوائلهم تكلّموا فيه ، وعبّروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها أنَّ التصوف عندهم : رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع بردِّه عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا ، والثواب في الأخرى)[٥] .

وأمّا عن مصدر كلمة (صوفي) فينقل لنا ابن الجوزي أنَّ الصوفية (رأوا أنّ أول من

---

(١) محققا كتاب اللمع : طه عبد الباقي سرور ، والدكتور عبد الحليم محمود وكلامهما في المقدمة (ص١٠) .

(٢) اللمع (ص١٦٨) .

(٣) اللمع (ص١٦٩) .

(٤) الحلية (١ : ٤ ، ٢٨) .

(٥) تلبيس إبليس (ص١٦٣) وانظر العصر العبّاسي الأول (ص٨٥ ـ ٨٨) .

انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له : صوفة ، واسمه الغوث ابن مر ، فانتسبوا إليه ؛ لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى ، فسُمُّوا بالصوفية ، وذكر بسنده إلى وليد بن القاسم نحو ذلك . . .

ثم ذكر أنَّ آخرين ذهبوا إلى أنَّ التصوف منسوب إلى أهل الصُّفَّة ، وإنَّما ذهبوا إلى هذا لأنّهم رأوا أهل الصُّفة على ما ذكرنا من صفة صوفة في الانقطاع إلى الله عز وجل . . .

وقال آخرون : بل هو منسوب إلى الصوف وهذا محتمل ، والأوّل أولى)[١] .

أمّا صاحب اللمع فيرى أنَّ نسبتهم إلى الصوف ، وأنهم إنما نسبوا إلى ظاهر اللبس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسِّمون ؛ لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء والصديقين ، وشعار المساكين المتنسكين[٢] .

ولا أريد الإطالة في هذا ، وسواء كانت نسبتهم إلى صوفة ، الذي كان رجلاً منقطعاً إلى عبادة الله تعالى ، أم كانت إلى الصوف ، فالمراد أنهم قوم تركوا هذه الدنيا لأهلها ورغبوا فيما عند الله تعالى ، وكفى هذا شرفاً ، إذا كان على منهج شرعي سليم !

وإذا كنت قد سلَّمت له النسبة فإنّني لا أسلِّم له ولأبي نعيم بداية تاريخهم ، حيث إنَّ الطوسي نفسه فرق بين الزهد والتصوف ، وبين الزهاد والمتصوفة فقال : (إن سأل سائل فقال : قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ، ونسبت الفقهاء إلى الفقه ، فلم قلت : الصوفية ، ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم ، ولم تضف إليهم حالاً ، كما أضفت الزهد إلى الزهّاد ، والتوكل إلى المتوكلين . . .)[٣] .

ولأنّ هناك فوارق عديدة ـ حقاً ـ بين الزهد والتصوف ، وإن كانا يجتمعان في أنَّ ظاهر كل منهما العزوف عن الدنيا ، وابتغاء ما عند الله تعالى .

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٦١) .

(٢) اللمع (ص٤١) .

(٣) اللمع (ص٤٠) .

ولقد عدّ الصوفية من أعلامهم إبراهيم بن أدهم[١] (ت : ١٦٢هـ) وعبد الواحد بن زيد[٢] (ت : بعد ١٥٠هـ) ورابعة العدوية[٣] (ت : ١٨٠هـ) والفضيل بن عياض[٤] (ت : ١٨٧هـ) وشقيق بن إبراهيم البلخي[٥] (ت : ١٩٤هـ) ومعروفاً الكرخي[٦] (ت : ٢٠٠ أو ٢٠٤هـ) وبشر ابن الحارث الحافي[٧] (ت : ٢٢٧هـ) والحارث المحاسبي[٨] (ت : ٢٤٣هـ) ؛ رحمهم الله .

والحقيقة أنَّ هؤلاء من الزُّهاد ، وفي عدِّهم من المتصوفة تجوُّزٌ غيرُ مرضٍ ، وإذا عدَدْنا الحارث المحاسبيَّ آخر هؤلاء وفاة ، وعدَدْنا هؤلاء من المتصوفة ؛ فإن من الواجب علينا أن نعدّ الحارث المحاسبي نهاية حلقة التصوف الزهدي المستقيم ، وأنَّ التصوف دخل بعده مرحلة جديدة ابتدأت بذي النّون المصري (ت : ٢٤٥هـ) .

قال الذهبي : «كان ذو النّون المصري أول من تكلم في المقامات والأحوال بمصر» كما ذكر الذهبي أنّه «هُجر وحُكم عليه بالزَّندقة»[٩] .

والسري بن المغلس السقطي (ت : ٢٥٣هـ) أول من أظهر لسان التوحيد ، وتكلم في الحقائق ، وهو إمام البغداديين في الإشارات[١٠] .

أما أبو يزيد البسطامي[١١] (ت : ٢٦١هـ) فقد (جاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها

---

(١) النبلاء (٧ : ٣٨٧) ، الحلية (٧ : ٣٦٧) فما بعد ، مشاهير علماء الأمصار لابن حبَّان (ص١٨٣) ، البداية والنهاية (١٠ : ١٣٧) .

(٢) المشاهير (ص١٦٠) ، النبلاء (٧ : ١٨٠) ، وأخطأ من جعل وفاته (١٧٧هـ) فذاك المحدث الحافظ عبدالواحد بن زياد البصري .

(٣) النبلاء (٨ : ٢١٥) فما بعد . وقد نُسب إليها الحلول . وكذّب ذلك الذهبي .

(٤) النبلاء (٨ : ٣٧٢ ـ ٣٩٠) .

(٥) النبلاء (٩ : ٣١٣ ـ ٣١٦) .

(٦) النبلاء (٩ : ٣٣٩ ـ ٣٤٥) ، طبقات الحنابلة (١ : ٢٨٩) .

(٧) النبلاء (١٠ : ٤٦٩ ـ ٤٧٧) .

(٨) النبلاء (١٢ : ١١٠ ـ ١١٢) .

(٩) النبلاء (١١ : ٥٣٢ ـ ٥٣٦) .

(١٠) النبلاء (١٢ : ١٨٥ ـ ١٨٧) .

(١١) النبلاء (١٣ : ٨٦ ـ ٨٩) ، وقارن باللمع (ص٤٥٩ ـ ٤٧٧) ، وأيّ تفسير ينقل لا نقبله إلاّ بقبوله شرعاً .

الشأن في ثبوتها عنه ؛ إذ ظاهرها إلحاد ، مثل : سبحاني ، و : ما في الجبة إلا الله . . .) . وقد ذكر له الطوسي حكايات عديدة وقال : قد شاع كلام أنّه قال ذلك ، ولا أدري يصح ذلك منه أم لا؟ وأورد تفسيرات بعضها عن الجنيد البغدادي .

وعصريّه أبو حمزة[١] محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي (ت : ٢٦٩هـ) كان بصيراً بالقراءات ، كثير الغزو إلاّ أنّه كالبسطامي صاحب انحراف وشَطْح . . .) فمن ذلك ما ذكره أبو نصر السَّرّاج في اللمع قال : (بلغني أنه ـ أبو حمزة ـ دخل على الحارث المحاسبي ، فصاحت شاة : ماع ، فشهق وقال : لبيك ، لبيك يا سيدي ! فغضب الحارث وأخذ السكين وقال : إن لم تتب أذبحك ، فقال له أبو حمزة : أنت إذا لم تحسن أن تسمع هذا الذي أنت فيه ، فلم لا تأكل النخالة بالرماد؟ . .) ثم قال الطوسي : «رموه بالحلول لبعد فهمهم في معنى إشارته ، وذلك أنَّ أرباب القلوب ، ومن كان قلبه حاضراً بين يدي الله ، ويكون دائم الذكر لله ، فيرى الأشياء كلها بالله ، ولله ، ومن الله ، وإلى الله ، فإذا سمع كلامه ، فكأنه سمعه من الله . ولا يكون ذلك الحال إلا لعبد مجموع على الله ، لا ينصرف منه جارحة إلى سوى الله فعند ذلك يقع له حقائق الفهم عن الله في جميع ما يسمع ، وجميع ما يرى من الأشياء . . .)[٢] .

وجاء بعد هؤلاء أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخزاز (ت : ٢٨٦هـ) شيخ الصوفية الذي يقال إنّه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء . . . فولّد أمراً كبيراً تشبث به كلّ اتحاديّ ضال[٣] .

والحكيم الترمذي[٤] (في حدود ٢٨٥هـ) ألف كتاب (ختم الولاية) وكتاب (علل الشريعة) فهُجر لذلك . قال السّلمي : وليس فيه ما يوجب ذلك ، ولكن لبُعْد فهمهم عنه .

وقال الذهبي[٥] : (كذا تُكُلّم في السُّلمي من أجل تأليفه حقائق التفسير فيا ليته لم

(١) انظر : النبلاء (١٣ : ١٦٥) فما بعد .

(٢) اللمع (ص ٤٩٥) .

(٣) النبلاء (١٣ : ٤١٩ ـ ٤٢٢) .

(٤) النبلاء (١٣ : ٤٣٩) طبقات الشافعيّة (٢ : ٢٠) .

(٥) النبلاء (١٣ : ٤٤٢) .

يؤلفه ، فنعوذ بالله من الإشارات الحلاّجية ، والشطحات البسطامية ، وتصوف الاتحادية فواحزناه على غربة الإسلام والسّنة !

قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام : ١٥٣) .

وأما الجنيد بن محمد بن النهاوندي[١] (ت : ٢٩٨هـ) شيخ الطائفة فكان متماسكاً مع أحواله ، إلا أنّ له كلمات تدل على أنّه ينهج منهج القوم في الإشارات ، وإن كان قليل التصريح بذلك ، قال معتذراً عن أبي يزيد البسطامي : (وكان من كلام أبي يزيد رحمه الله لقوته وغوره ، وانتهاء معانيه ، مغترف من بحر قد انفرد به ، وجعل ذلك البحر له وحده . . .)[٢] .

وذكر الجنيد عن أبي يزيد (أنَّه غرق فيما وجد . . . وذهب عن حقيقة الحق إذ لم يرد عليها ، وهي معان عرفته على تارات من الفرق ، كل واحدة منها غير صاحبتها) .

وَصِنْوُ الجنيد أحمد بن محمد الخراساني النوري[٣] (ت : ٢٩٥هـ) شيخ الصوفية بالعراق . من أقواله : (سبيل الفانين ؛ الفناء في محبوبهم ، وسبيل الباقين ؛ البقاء ببقائه ، ومن ارتفع عن الفناء والبقاء ؛ فحينئذ لا فناء ولا بقاء . . .

إذا كنت فيما ليس بالوصف فانياً فوقتك في الأوصاف عندي تحيّرٌ) .

قال الذهبي : (قيل : كان النوري يلهج بفناء صفات العارف ، فكان ذلك (أبو جاد) ذات العارف ، كما زعمت الاتحادية ، فقالوا بتعميم فناء السّوى ، وقالوا : ما في الكون سوى الله ، وصرحوا بأنه تعالى اتحد بخلقه ، وأنت أنا ، وأنا أنت ، وأنشدوا :

وألتذُّ إن مرّت على جسدي يدي لأنّيَ في التحقيق لست سواكمُ

فنعوذ بالله من الضلال)[٤]

(١) النبلاء (١٤ : ٦٦ ـ ٧٠) .

(٢) اللمع (ص٤٥٩) .

(٣) النبلاء (١٤ ـ ٧٠ ـ ٧٧) .

(٤) النبلاء (١٤ : ٧٢) فما بعدها .

وبمجيء الحسين بن منصور الحلاّج[١] (ت : ٣٠٩هـ) الذي لم يستخدم الرموز والإشارات في تعبيراته عمّا يريد من الحلول والاتحاد ، وإنما كان صريحاً واضحَ العبارة[٢] في ذلك ؛ أخذ التصوف يتعدى كلَّ طور ، وازداد الشطح ، وطمَّت الدعاوي العريضة !

قال الذهبي : (منهم من نسبه إلى الزّندقة ، ومنهم من نسبه إلى الحلول . . .

قال السُّلمي : وحُكيَ عنه أنّه رُئي واقفاً في الموقف ، والنّاس في الدعاء ، وهو يقول : أنزهك عما قَرَفَك به عبادك ، وأبرأ إليك مما وحّدك به الموحدون .

قلت ـ أي : الذهبي ـ : هذا عين الزّندقة ، فإنه تبرأ مما وَحّد الله به الموحّدون الذين هم الصحابة والتابعون وسائر الأمة ، فهل وحّدوه تعالى إلا بكلمة الإخلاص التي قال رسول الله ﷺ : «مَن قالها مِن قلبه فقد حُرِّم ماله ودمه»؟! فإذا برئ الصوفي منها ؛ فهو ملعون زنديق ، وهو صوفيّ الزي والظاهر ، متستر بالنسب إلى العارفين ، وفي الباطن من صوفية الفلاسفة أعداء الرسل)[٣] .

وكان ممن عاصر الحلاّج أبو الحسين الخوّاص (ت : ٣٠٣هـ) وأبو علي الرَوْذباري[٤] (ت : ٣٢٢هـ) .

وكان بعدهما الشِّبلي[٥] (ت : ٣٣٤هـ) قال عنه الذهبي : (كان يحصل له جَفافُ دِماغ وسُكْر ، فيقول أشياء يعتذر عنه ، فيها بَأْوٌ ، لا تكون قدوة)[٦] . والبأو : الكبر والفخر .

قال الطوسي : (سمعت أبا عبد الله بن جابان يقول : دخلت على الشِّبلي ـ رحمه الله ـ في سنة القحط فسلّمت عليه ، فلمّا قمت على أن أخرج من عنده ، فكان يقول لي ولمن معي ـ إلى أن خرجنا من الدار ـ : مرّوا ، إنّا معكم حيث ما كنتم ، أنتم في رعايتي وكلاءتي) . قال الطوسي : (أراد بقول ذلك أن الله تعالى معكم حيثما كنتم ، وهو

(١) النبلاء (١٤ : ٣١٣ ـ ٣٥٤) .
(٢) الوحدة المطلقة عند ابن سبعين (ص٩١) فما بعد .
(٣) النبلاء (١٤ : ٣٤٢) فما بعدها .
(٤) العصر العباسي الثاني (ص١١٤) .
(٥) النبلاء (١٥ : ٣٦٧) .
(٦) ما سبق الموضع نفسه .

يرعاكم ويكلؤكم ، وأنتم في رعايته وكلاءته ، والمعنى في ذلك : أنّه يرى نفسه محقاً فيما غلب على قلبه ، من تجريد التوحيد ، وحقيقة التجريد والوجْد ؛ إذ كان وقتَه كذلك فإذا قال : أنا ؛ يعبّر عن وجده ، ويترجم عن الحال الذي قد استولى على سرّه ، فإذا قال : أنا ؛ يشير بذلك إلى ماغلب على حقيقة صفة مشاهدته قرب سيده)[١] .

وقد ذكر الطوسي أنَّ جماعة من أئمة التصوف قد رُمُوا بالكفر والزندقة ، زوراً وبهتاناً ؛ منهم ذو النون المصري ، وسمنون المحب ، وأبو سعيد الخزاز ، والحسين بن منصور الحلاّج ، الذي أصابه ما أصابه ؛ بسبب سرقته كتاب شيخه عمرو بن عثمان المكّي الذي كتب فيه بعض علوم الخاصّة ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأبو عبد الله الحسين ابن مكي الصبيحي ، وأبو العبّاس أحمد بن عطاء الله ، والجنيد .

«وهذه التهم كلها باطلة ؛ لأن الذين رموهم بذلك ؛ لم يفهموا كلامهم ، أو لم يصبروا على حالهم بعد أن عايشوهم فترة»[٢] ، كما ذكر الطوسي حكايات ظاهرها الشّناعة وباطنها الحق الصريح ـ على حد تعبيره ـ عن عدد من أئمة التصوف منهم أبو علي بن الحسين ابن يازدانيار ، ومحمد بن موسى الفرغاني الواسطي الذي ذكر له جملة من كلامه ، ثم راح يفترض لتفسيرها وجوهاً عديدة من الاحتمالات[٣] .

والحقيقة أنّ خير كتاب يتحدث عن التصوف حتى أواخر القرن الرابع الهجري هو كتاب اللمع لأبي نصر السراج الطوسي[٤] وما حشده في كتابه من مسائل شائكة وأقوال عجيبة شهدها بنفسه ، أو نقلها بسنده ، يوحي بأن التصوف في هذا العصر قد بلغ غاية أمره ، وتوضّحت فيه معالم التصوف وعرف المتصوفة الفناء والاتحاد والحلول ودافع الطوسي عن ذلك كله باسم الشطحات تارة ، وباسم المواجيد والأذواق تارة أخرى .

وإذا تأمَّلنا ـ بعين الإنصاف ـ تحول التصوف في بداية العصر العبَّاسي الثاني عن

---

(١) اللمع للطوسي (ص٤٧٨) .

(٢) اللمع (ص٤٩٧ ـ ٥٠١) .

(٣) ما سبق (ص٥٠٢ ـ ٥١٥) .

(٤) الطوسي توفي سنة ٣٧٨هـ فهو معاصر لابن حبَّان ، انظر ترجمته في شذرات الذهب (٣ : ٩١) .

مسيرة الزهد ؛ وجدنا أنَّ أكثر الذين حملوا راية التصوف من الأعاجم أبناء المجوس ، أو تلامذتهم الذين تأثروا بهم .

كما أنَّ ترجمة الكتب الهندية واليونانية والفارسية ، كل هذا ؛ كان له بالغ الأثر في الحياة العقلية في هذا العصر ، مهما حاولنا دفع ذلك[١] . . وأنَّ كتاب اللمع للطوسي خير شاهد على وجود ذلك كله .

والذي ينظر في كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ يجده ذَكَرَ أموراً خطيرة قد تسرَّبت إلى التصوف ، وجرفت كثيراً من مدارسه في تيارها الإلحادي البغيض إلا بقايا متناثرة من الخير ، كان لها أثر كبير في الحياة العامة ، وفي تربية الناس وإرشادهم .

والذي أحبّ أن أختم به هذا المبحث الوجيز ، هو أنّ مدارس التصوف قديمها وحديثها ، لا تزال موجودة في المجتمع الإسلامي ، ولا زال شيوخ التصوّف هم الأكثر قبولاً وتقديراً من العامّة ؛ لأنّ العاميّ إذا أراد التزام دين الله تعالى ؛ فإنه يبحث عن صلاح قلبه ، واستقامة سلوكه ، والعامّة لا تألف العلم ، وإنما تألف الوعظ والترهيب والترغيب ، وأهل التصوف هم أهل الاختصاص في هذه الجوانب !

ولقد قام كثيرون في القديم والحديث على حرب التصوّف ، فما فعلوا شيئاً سوى أنهم كسبوا عداوة جماهير الأمّة من العوامّ ، وطالبي السلوك الروحي وصلاح القلب وبقي التصوف بخيره وشرّه ، بل ازداد دعاته ، وكثر أتباعه !

والذي يتعيّن على أهل العلم من الدعاة إلى الله تعالى ، أن يقتربوا من ساحة التصوّف ، ففيها من ذكر الله تعالى ، ومن الأوراد المأثورة ، والأخلاق الحميدة ، ما لا يكاد يتحقق وجوده عند غيرهم !

وفي هذه الساحات من الأخطاء والأغلاط والبلايا ، ما يوجع القلب ، ويهزّ المشاعر ممّا يوجب التقويم والتصحيح والتطوير !

---

(١) انظر الوحدة المطلقة عند ابن سبعين (ص٨٣ ـ ٩٢) ، تلبيس إبليس (ص١٦١) فما بعد والفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢ : ٥٣) .

بيد أنّ من المحال أن يكون هذا التقويم والتغيير، عن طريق المحاربة والتهم والتكفير والتضليل، وإنما يكون عن طريق المصاحبة والمحبة والقرب من الشيوخ، والتواضع بين أيديهم، فأكثرهم فيهم من الخير ما لا يقدّر، وما رأيت أحداً فيهم يريد عداوة الدين، ولا تحريف شريعة الله تعالى، وإنما وجدت تراثاً موروثاً، وجهلاً كثيفاً أحياناً، وهذا وذاك يحتاجان إلى الدعوة والإرشاد والجهاد؛ لأنّ عدداً من المواعظ الحكيمة المدعمة بالأدلة من غير طعن بالرموز والصالحين عندهم، من شأنه أن يفتح القلوب لسماع الخير والنصح وتجربتي في هذا الجانب كانت ناجحة جدّاً بفضل الله تعالى، وحسن توفيقه.

وقد كتب أحد الإخوة الأفاضل ردّاً وجيزاً على كتابي (المهديّ المنتظر) سمّاه (سلّ الهندي على من ضعّف أحاديث المهدي) جعل أحد عناوين ردّه هذا (انحرافات عذاب العقديّة!) ولم يورد تحت هذا العنوان من انحرافاتي إلا أنني أثنيت على الصوفية بمثل هذا الكلام هنا.

وأنا لا أريد مناقشة ما كتب هذا الفاضل، ولكنني ألفت نظر من يعنيهم أمرُ أمّة الإسلام إلى ضرورة الاهتمام بهذه الطائفة الصوفية الكبيرةِ التي كان لها أثرٌ بارز في الدعوة إلى الله تعالى، حجبَ هذا الأخَ الفاضل وأمثالَه عن رؤيته نظرتُهم الأُحادية!

فقد حضرت مجلس حوار واحد من مجالس إحدى الطرق الصوفية في بغداد كنت فيه أحد المحاورين، فأسفر المجلس عن إسلام خمسة كلّهم يحملون درجة الدكتوراة، وكلّهم بدرجة «أستاذ» في جامعات ألمانيا.

أفأترك مثل هذا الخير العظيم لإرضاء أناس، ملأوا قلوبهم بسوء الظنّ والتعالي على شرائح كثيرة من أمّة الإسلام؟

وسيّان عندي أرَضي هذا الكاتب وأمثاله، أم لم يرضوا، وحسبي في هذا المقام قول الشاعر العربي:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبـاناً عليّ ...!

الفصل الخامس

الحياة الفكرية في عصر ابن حبّان

إثر احتكاك المسلمين بغيرهم من أصحاب الدّيانات والعقائد والأفكار المباينة لدين الإسلام ، وبعد تمازج وتداخل الحضارات والقيم والمفاهيم ، عَقِبَ ترجمة كثيرٍ من كتب الفلسفة اليونانيّة الوثنيّة والهنديّة : البوذية ، والهندوسية ، والفارسيّة المجوسيّة . وتعايش المسلمين مع اليهود والنّصارى أصحاب العقائد الباطلة الضالّة ، ومن خلال اطّلاع العامة على كتب الأقدمين من الصابئة والبابليّين وعبدة النّجوم والكواكب ، وغير ذلك من عقائد الملل والنحل القديمة ؛ أصبح من العسير على كلّ امرئ أن يعرف وجه الحقّ فيما ينبغي له معرفته ، وأصبح العِلْمُ الصحيح مقتصراً على أهل المعرفة من العلماء الراسخين .

وكان النّاس في القرن الأول لا يخوضون في المتشابهات من القرآن الكريم ، ولا بالأحاديث التي اصطلح على تسميتها أحاديث الصفات التي وردت على لسان سيد المرسلين صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، بل كانوا يسلّمون بثبوت ما صحّ عندهم منها ، ولا يخوضون في تفسيرها .

حتى إذا علا كعبُ الجدل ، وظهر الكلام ، وانتشرت الزندقة ؛ أصبح علماء المسلمين مضطرين للقيام بواجب النّصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فقام المعتزلة ينافحون ويدافعون عن دين الله ، ورأوا أنّ خصومهم لايقنعون إلا بحجج العقل فكافحوهم بمثل أسلحتهم ، ووجّهوا إليهم أحدَّ سهامهم ، وما ساروا في هذا الطريق أشواطاً ، حتى قنعوا بما هم عليه ، وخبطوا وراء عقولهم القاصرة ، وأنكروا كثيراً من الأحاديث الصحيحة ، لأنّها لم تثبت في موازين عقولهم ، وقام غيرُ المعتزلة بالدفاع عن حياض الدين بطرقهم الأخرى على ما سيأتي بيانه .

وفي عصر بني العبّاس ، طفحت الزندقة والقرمطة والباطنيّة ، وظهر الرفض ، وكلها - في نظري القاصر - بنات الشعوبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين .

قال الجاحظ : (إنَّ عامة من ارتاب بالإسلام ، إنما كان أوّلَ ذلك يرى الشعوبية والتمادي فيها ، وطولَ الجدال المؤدي إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً ؛ أبغض أهله ، وإنْ

أبغض تلك اللغة ، أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة ؛ أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات به ، حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السّلف والقدوة)[١] .

(ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء ، هو الزندقةُ !

والزنادقة : هم الذين كانوا يبغضون العرب ، وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام . . . والزندقة إنما كان يوصم بها أولاً من يتابعون (ماني) في عقيدة النّور والظلمة وما اتّصل بها من مبادئ ، بالضّبط كما كانت تُطْلَق عند الفرس .

ثم اتسع مدلولها ، فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية ، كنحلة المزدكيّة وما دعت إليه من التحلل الخلقي ، والإباحية المسرفة .

واتسع استعمال هذه اللفظة أكثر من ذلك ، فشملَتْ كلَّ إلحاد بالدّين الحنيف ، أو بالديانات مطلقاً ، وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفجور)[٢] .

واشتدت حركة الإلحاد والزندقة في العصر العبّاسي الثاني ، فكان منهم أبو عيسى الورّاق (ت : ٢٤٧هـ) وتلميذه أبو الحسين أحمد بن إسحاق الراوندي الخبيث (ت : حوالي ٢٥٠هـ) ثم ورثهما معاصر ابن حبّان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت : ٣٢٠هـ)[٣] .

وقد كان كل من الورّاق وابن الراوندي معتزليّاً في بداية الأمر ، ثم أحس المعتزلة إلحادَ كلّ منهما ، فطردوه ، فتحول كلّ منهما شيعياً رافضياً ، ثم كفرا بالدّيانات عموماً .

ولعل هذا يفسر لنا كراهية الإمام أحمد ومن تبعه من المسلمين للمعتزلة ، ويسوِّغ حملته الشّديدة عليهم ، ورميهم بالكفر والزندقة والتجهّم والقدر .

---

(١) انظر : العصر العبّاسي الثاني (ص١٠٠ ـ ١٠١) .

(٢) العصر العبّاسي الثاني (ص١٠٠ ـ ١٠١) .

(٣) ترجمه الذهبي في النبلاء (٣٥٤/١٤) وقال : بلغ الغاية في علوم الأوائل ، نسأل الله العافية !
لكنه ذكر في ترجمة أبي الحسن علي بن رضوان المصري (ت ٤٥٣هـ) أن له رسالة في الردّ على أبي بكر الرازي في العلم الإلهي وإثبات الرسل !
ويحتاج الأمر إلى زيادة بحث ، لا موضع له هنا .

ولا يبعد أن يكون مثل هذا الصنف كثيراً في صفوف المعتزلة، حتى غدت صفحتهم سوداء قاتمة، على ما فيها من بصيص نور، من حسن نوايا كثيرين منهم.

(ومن هنا ـ أيضاً ـ نفهم السرّ في أنّ الخليفة المعتمد، حلّف الورّاقين سنة (٢٧٩هـ) ألاّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة، فقد كان من المتفلسفة من يبطنون الإلحاد والزندقة، ويدخلونها على ما يصنّفون أو يترجمون من الكتب)[١].

ولمَ نذهب بعيداً؟ فقد يكون دخول المرء دائرة التفتيش الدقيق وراء الكلام والفلسفة مؤدّياً به في النّهاية إلى الشك، ثم إلى الزندقة. ولقد حكى لنا علماء الكلام الذين خبروه كثيراً عن قلقهم وحيرتهم وشكهم.

وفي هذا العصر ظهر الرفض، والاعتزال، والقرمطة، والباطنيّة، وعمّت البلاد الفتن ـ كما مرّ سابقاً ـ حتى إنّ نور السّنة كاد يخبو، وشعاع الحقيقة أوشك على الانكماش.

وقد كان عصر ابن حبان هذا، هو عصر توضّع المدارس الفكرية، ووضوح معالمها.

وسوف أعرض سريعاً مذاهب أبرز المدارس السنّية التي تأثّر ابن حبّان بفكرها في مسألة صفات الله تعالى، التي كانت ولا تزال من أكثر المسائل أثراً في اختلاف المسلمين، وقد أثّرت على سمعة ابن حبان، وساهمت في ضياع أكثر كتبه وأبحاثه العلمية، على حسب تسلسل ظهورها في تاريخ الفكر الإسلاميّ.

---

(١) العصر العبّاسي الثاني (ص١٠٣).

المبحث الأوّل

مذهب الحنابلة في الصِّفات

الحنابلة ، ويقال لهم الحنبلية ، هم أتباع إمام أهل الحديث في عصره ، ومقدم فقهائهم أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله تعالى ورضي عنه(١) .

ترجمه ابن حبان في ثقاته ، فقال : (كان حافظاً ، وَرِعاً ، فقيهاً ، لازماً للورع الخفي مواظباً على العبادة الدائمة ، به أعان الله عزّ وجل أمّةَ محمد صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم وذلك أنّه ثبت في المحنة ، وبذل نفسه لله عز وجل ، حتى ضُرب بالسياط للقتل ، فعصمه الله عن الكفر ، وجعله علَماً يُقتدى به ، وملجأً يُلتجأُ إليه)(٢) .

وقد روى ابن أبي يعلى ، عن الإمام الشافعي أنّه قال في تلميذه أحمد : (أحمد إمام في ثمان خصال : إمام في الحديث ، إمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، إمام في السنّة)(٣) .

وقد كان لمحنة الإمام أحمد أثرها الشديد على نفسه ، وعلى أتباعه ، مما زاده إصراراً وتمسكاً في البعد عن الكلام وأهله ، لأنه لما خبر أهل الكلام ؛ وجدهم لا دين لهم ، وأنهم يمرقون من الدين من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ على حدّ قوله ـ حتى إنه كان يوجه التهمة لكل من تعرّض لشيء من الكلام ، وتأكّد هذا عنده بعد أن ثبت لديه أن الزنادقة والشعوبيين و الملاحدة كانوا يتسترون بالكلام ؛ ليتمكّنوا من بث سمومهم وتشكيك المسلمين بدينهم .

ومما هو مشهور عن الإمام أحمد نفوره الشديد من كل ما هو مُحدَثٌ ، فقد كان يكره لأصحابه صحبة الحارث المحاسبي ، على شدّة تديُّنه ، ومنزلته لديه ، لأنه كان يأتي

---

(١) طبقات ابن سعد (٧ : ٣٥٤) وأعلام النبلاء (١١ : ١٧٧) فما بعد ، وتاريخ بغداد (٤ : ٤١٢) وطبقات الحنابلة (١ : ٤) فما بعد .

(٢) الثقات لابن حبان (٨ : ١٨) .

(٣) طبقات الحنابلة (١ : ٥) وفي إسناد هذه الرواية نظر !

بعبارات ، ومجاهَدات ، لم يأت بمثلها سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك[١] .

كما كان يُبْغض أهلَ الكلام عموماً ، لأنهم يستخدمون عقولهم في الجدال والخصومات ، وكان يرى أن الجدال من علائم الضلال والزيغ ، قال : (من سمع بدعة ؛ فلا يَحْكِها لجلسائه ، لا يلقيها في قلوبهم)[٢] .

وقد تَبعَ الحنابلة إمامَهم في العقيدة والفقه والزهد والبعد عن المحدثات ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحاولوا أن يقلّدوه في كل أقواله وأفعاله .

وكان المجتمع الإسلامي في أواخر عصر الإمام أحمد يسير بشدة نحو الانحدار ، وبعد وفاته ـ رحمه الله ـ غزَتْ بغدادَ موجاتُ الزندقة والقرمطة والباطنية والحلوليّة ، وغلب الرفض في مطالع القرن الرابع ، وكثرت الفتن والثورات ، وانتشرت الفواحش ، وشُربت الخمور ، وضَعُفَ سلطان الخلافة ، وارتفع صوت أهل الباطل ؛ بسبب تسلط الحمدانيين والبويهيين والفاطميين وغلبة القرامطة ، وتهديد الروم والفرس ، فوقف الحنابلة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على طريقتهم الصارمة التي لا تعرف هوادة ، وكان أهمَّ ما ذهبوا يعالجونه موضوعاتُ العقيدة ، لأنها ركيزة الإسلام ، وأصله المكين ، ولما كان إنكارُ الصفات هو مذهبَ الاعتزال والرفض ؛ فقد تشدد الحنابلة في إثبات الصفات ، وبالغوا مبالغةً شديدةً في ذلك ، ربّما خرجت عن حدود القبول أحياناً ، وأطلق خلفاء بني العباس أيديَهم ، لما في ذلك من قوة لهم ، خاصة أن الإمام أحمد وأتباعه لا يرون الخروج على السلطان ، سواء تملَّك الأمة بالشورى والرضى ، أم بالسيف والغلبة ، ما دامت الأمور قد استقامت له ، والناس قد اجتمعوا عليه ، وإن جار وظلم (وأخذ مالَكَ ، وضَرَبَ ظهرك) فكانت هذه العقيدة تُعجب خلفاء بني العباس ، وتُمكّن لهم ، فيرضون عن الحنابلة أحياناً[٣] .

إلا أن الحنابلة بالغوا في ذلك مبالغةً شديدة ، وحاربوا كل من يخالفهم في شيء مما

---

(١) حيث إنّ هذين العالمين الجليلين عنده قدوةٌ في العلم والزهد والتمسّك بالسنّة .

(٢) مقدمة شرح أصول الاعتقاد للالكائي للدكتور أحمد سعد حمدان (ص ٥٧) .

(٣) انظر عقيدة الحنابلة في طبقات ابن أبي يعلى (١/٢٦ ، ٢٧ ، ١٤٤) .

يذهبون إليه ، ولو كان إماماً من أئمة المؤمنين ، بل إنّ بعضهم لم يتورّع عن قذف بعض أئمة الهدى وأعلام المسلمين بالزندقة والضلال .

فقد كتب أبو بكر ابن أبي داود السجستانيّ إلى نصر الحاجب كتاباً يتّهم فيه الإمام العلَم محمد بن جرير الطبري بالرفض ، ثم اتهمه بالإلحاد .

أما تُهْمته إياه بالرفض ؛ فلأنه كان يرى أن مسح القدمين يجزئ في الوضوء عن الغسل ، وأما تهمته إياه بالإلحاد ؛ فلأنه فسَّر قوله تعالى : ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ فقال : نعمتاه .

مما حزّ في نفس ابن جرير وآلمه ، فكتب إلى نصر الحاجب ضمن جواب ما أورده الحنابلة في اتهامه : (لا عصابة في الإسلام كهذه العصابة الخسيسة) .

قال ابن الجوزي : (وهذا قبيح منه ، لأنه كان ينبغي أن يخاصم من خاصمه ، وأما أن يذمّ طائفته جميعاً ، وهو يدري إلى من تنتسب ؛ فغاية في القبح)[1] .

ويرى ابن الأثير أن سبب تعصب الحنابلة عليه هو أنّه ألف كتابه (اختلاف الفقهاء) ولم يذكر فيه أحمد ابن حنبل ، فقيل له في ذلك ، فقال : لم يكن أحمد فقيهاً ، وإنما كان محدثاً . فاشتدّ ذلك على الحنابلة ، وكانوا لا يُحْصَون كثرةً ببغداد ، فشغَّبوا عليه وقالوا ما أرادوا ! قال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبري : ما على أديم الأرض أعلم من أبي جعفر ، ولقد ظلمته الحنابلة[2] .

وكان علي بن عيسى يقول حين بلغه ما يقول الحنابلة عن ابن جرير : (والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ؛ ما عرفوه ولا فهموه)[3] .

قال ابن الأثير : (وفي عام (٣١٧ هـ) وقعت فتنة كبيرة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروزي ، وبين غيرهم من العامة ، ودخل كثير من الجند فيها ، وسبب ذلك أنّ

---

(١) المنتظم (٦/ ١٧٢) والكامل (٦/ ١٧٠) ولا ريب أنّ هذا من ردّ الفعل العنيف !

(٢) الكامل (٦/ ١٧١) .

(٣) الكامل ، الموضع نفسه . وهذا بدوره غلوّ في الخصومة !

أصحاب المروزي ـ البربهاريّ وأتباعه من الحنابلة ـ قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء : ٧٩) ؛ هو : أن الله سبحانه يقعد النبي صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم معه على العرش ، وقالت الطائفة الأخرى : إنما هو الشفاعة . فوقعت الفتنة ، واقتتلوا فقتل بينهم قتلى كثيرة !)(١) .

فالحنابلة إذاً كانوا أقوياء ببغداد ، وكانوا يريدون حمل الناس على عقيدتهم بالقوة حتى ولو كانت هذه العقيدة ـ في هذه الجزئية ـ فيها نظرٌ ! لأنهم لا يعذرون أحداً بخلافهم .

وكان البربهاري مناضلاً في سبيل عقيدته ، لا يخاف في سبيلها لومة لائم ، حتى كان خصومه يشكونه إلى السلطان ، ويغيظون قلبه عليه (ففي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في خلافة القاهر ، أمرَ وزيرَه ابن مقلة ، فتقدم بالقبض على البربهاري ، فاستتر وقُبض على جماعة من كبار أصحابه ، وحملوا إلى البصرة)(٢) .

لكن ابن أبي يعلى يرى أنّ البربهاريّ وأصحابه كانوا على الحقّ ، فانتصر الله تعالى لهم من خصومهم ، فما منهم من أحد إلاّ عاقبه الله تعالى ، على قدْر أذاه إيّاهم !

قال ابن أبي يعلى : (وعاقب الله تعالى ابن مقلة على فعله ذلك ، بأن أسخط عليه القاهر ، وهرب ابن مقلة ، وعزله القاهر عن وزارته ، وطرح في داره النار ، ثمّ قُبض على القاهر بالله يوم الأربعاء لستٍّ من شهر جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وحُبس وخُلع وسُملت عيناه في هذا اليوم حتى سالتا جميعاً فعمي ، ثم تفضَّل الله تعالى ، وأعاد البربهاريّ إلى حشمته وزادت ، وعلت كلمته وزادت .

حتى إنه لما توفي أبو عبد الله بن عرفة ، المعروف بنِفطويهِ ، وحضر جنازته أماثلُ أهل الدين والدنيا ؛ كان المقدَّمَ على جماعتهم في إمامة الصلاة على جنازته : البربهاريُّ وذلك في صفر سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة .

(١) الكامل لابن الأثير (٦/ ٢٠٦) ولم يُشر ابن الجوزي إلى هذه الحادثة .

(٢) المصدر السابق ـ حوادث سنة (٣٢١هـ) .

وفي هذه السنة ازدادت حِشْمةُ البربهاري ، وعَلَتْ كلمته ، وظهر أصحابه ، وانتشروا في الإنكار على المبتدعة ، فبلغنا أنّ البربهاريَّ اجتاز بالجانب الغربي ، فعطس ، فشمّته أصحابه فارتفعت ضجّتهم حتى سمعها الخليفة وهو في روشَنِه[١] ، فسأل عن الحال فأُخبر بها ، فاستَهْوَلَها ، ولم تزل المبتدعةُ ينقلون قلب الراضي على البربهاري ، حتّى تقدّم الراضي إلى بدر الحرسي صاحب الشرطة ، بالركوب والنداء ببغداد أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان . . . واستتر البربهاري فتوفي مستتراً في رجب سنة تسع وعشرين وثلاثمائة)[٢] .

ومن هذا النص نتبين أن أعمال البربهاري كانت من القوة والشمول والرهبة بحيث كانت تزعج الخليفة ، وأنّ إنكارهم كان شديداً !

فالسلطان لاحَقَهُ وتابعه ، فاستتر منه سنين حتى مات ، رغم أنّه يقول :

(إذا رأيت الرجل يدعو على السلطان ؛ فاعلم أنّه صاحب هوى ، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح ؛ فاعلم أنّه صاحب سنة إن شاء الله)[٣] .

ولا يخفى أن الحنابلة على جانب كبير من الحق في إنكار المنكر والأمر بالمعروف ، إلا أن اعتبارَهم كلَّ من خالفهم من المبتدعة ، سبّب أن أساء بعضهم من حيث يريدون الإحسان ، واتهموا غيرهم بكل تهمة جائرة .

عقيدة الحنابلة في الصِّفات :

الحنابلة في كل عصر يثبتون لله تعالى من الصفات ما أثبته لنفسه ، وما أثبته له رسوله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل .

والتحريف : هو تغيير أسماء الله الحسنى ، أو صفاته العليا في اللفظ أو المعنى ، أو فيهما معاً .

---

(١) في القاموس : الروشن : الكُوَّة ، والنافذة الصغيرة .

(٢) طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤) والنبلاء (١٥/ ٩٠) وذكر ثمة وفاته سنة ثمان وعشرين .

(٣) طبقات الحنابلة (٢/ ٣٦) .

والتعطيل : هو نفي الصفات الإلهية عن الله تعالى ، وإنكار قيامها بذاته ، أو إنكار بعضها .

فالتحريف هو التأويل بالباطل ، والتعطيل نفي المعنى الحقيقي .

والتمثيل : هو التشبيه ؛ كأن يقال يدٌ كَيَدٍ ، أو نزول مثل نزول .

والتكييف : هو تعيين كنه الصفات ، وجعل كيفيات محددة لها(١) .

إلا أن انتشار الزندقة والإلحاد وظهور الرفض الذي كان يتبنى مذهب نفي الصفات أو تأويلها ؛ جعل بعض الحنابلة يبالغون في الإثبات ، ويثبتون كثيراً من الصفات بما لا تثبت بمثله .

وكذلك كان أبو يعلى يبالغ في الإثبات إلى درجة عجيبة ، ومن يطالع كتابه إبطال التأويلات ؛ يستَهْوِل ما فيه !

والحنابلة لا يقولون بأن مذهبهم في فهم صفات الباري ـ جل شأنه ـ صواب يحتمل الخطأ ، أو يحتمل بعض فَهْمهم الخطأ ، بل هو صواب كلّه .

والسبب في ذلك اعتقادهم أنّ فهمهم نابع من اتباعهم طريقة السلف في الصفات والوقوف عند ظواهر النصوص ، ومن تمسك بالنصوص ؛ فكيف يكون على خطأ؟

ومن هنا فقد غلا بعضهم ، فرموا بعض أئمة المسلمين بالزندقة والإلحاد والرفض . . . إلخ ، وما قصة ابن جرير الطبري عنك ببعيد .

وبين يديَّ مثال آخر يوضح ما سبق .

ذكر ابن أبي يعلى عن الشيخ النجّاد ، وهو من كبار أئمة الحنابلة في القرن الرابع الهجري عند تقريره عقيدة الحنابلة في المقام المحمود : (فالذي ندين الله به ونعتقده ، ما قد رسمناه وبيَّناه من معاني الأحاديث المسندة عن رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم

---

(١) انظر الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص ٩٠ ـ ٨٦) وانظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ، رسالة ماجستير ، تحقيق الأخ الدكتور جميل قرارعة ، جامعة أم القرى (ص٩١) .

وما قاله عبد الله بن عباس ، ومَن بعده من أهل العلم ، وأخذوا به كابراً عن كابر ، وجيلاً عن جيل إلى وقت شيوخنا ، في تفسير قوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ : أن المقام المحمود : هو قعوده صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم مع ربه على العرش وكان من جَحَد ذلك وتكلّم فيه بالمعارضة ؛ إنما يريد بكلامه في ذلك كلامَ الجهمية يُجانَب ويُبايَن ويُحذّر منه ، وكذلك أخبرني أبو بكر الكاتب عن أبي داود السجستاني أنّه قال : من رَدّ حديث مجاهد ؛ فهو جهمي .

وروى عن محمد بن عبد الملك الدقيقي قال : سمعت هذا الحديث منذ خمسين سنة ، ما سمعت أحداً ينكره ، إنما يكاذبه الزنادقة والجهمية !

قال النجاد : وذكر لنا أبو إسماعيل السلمي أمرَ الترمذي الذي رد فضيلة النبي صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، وصغَّر أمره : لا يؤمن بيوم الحساب .

قال النجّاد : وعلى ذلك من أدركت من شيوخنا أصحاب أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل ، فإنهم منكرون على من ردّ هذه الفضيلة ! ولقد بين الله ذلك على ألسنة أهل العلم على تقادم الأيام ، فتلقاه الناس بالقبول ، فلا أحد ينكر ذلك ، ولا ينازع فيه !

قال النجاد : (فبذلك أقول ، ولو أن حالفاً حلف بالطلاق ثلاثاً ، أنّ الله يُقْعِدُ محمداً صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم معه على العرش ، واستفتاني في يمينه ؛ لقلت له : صدقتَ في قولكَ وبررت في يمينك ، وامرأتك على حالها !

فهذا مذهبنا وديننا واعتقادنا ، وعليه نشأنا ، ونحن عليه إلى أن نموت إن شاء الله فلزمنا الإنكار على من رد هذه الفضيلة التي قالها العلماء ، وتلقوها بالقبول ، فمن ردها ؛ فهو من الفرق الهالكة)[1] .

فليس بخافٍ أن بعض الحنابلة ممن تكلموا في الصفات قد أخطأوا خطأً فاحشاً (فلم

(١) طبقات الحنابلة (٢ : ١٠) وقد انفرد الإمام الترمذي عن الأئمة الستة بإخراج حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ سئل عنها فقال : هي الشفاعة ! أخرجه الترمذي في التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل رقم (٣١٣٧) وقال : هذا حديث حسن . فهل غاظ ذلك النجادَ وشيخَه السلمي ، حتى صار الإمام الترمذي رحمه الله ، لا يؤمن بيوم =

يفرقوا بين حديث مرفوع إلى النبي صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم، وبين حديث موقوف على صحابي أو تابعي، فأثبتوا بهذا ما أثبتوا بهذا، كما أنهم لم يفرقوا في الإثبات بين خبر مشهور كقوله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم: (ينزل تعالى إلى السماء الدنيا) وبين حديث لا يصح كقوله: (رأيت ربي في أحسن صورة) بل أثبتوا بهذا صفة، وبهذا صفة، ثم حملوا الأحاديث على مقتضى الحس فقالوا: ينزل بذاته، وينتقل، ويتحول، ثم قالوا: لا كما نعقل، فغالطوا من يسمع، وكابروا الحس والعقل، فحملوا الأحاديث على الحسيات)[١].

وأمام ازدياد جرأة عوامّ الحنابلة وتطاولهم، وإظهارهم مثل هذه العقائد الغريبة، لم يجد الخليفة الراضي، وهو الذي أكرمهم، وأعلى مقام شيخهم البربهاري، إلا أن يكتب إليهم كتاباً يبين لهم ما هم عليه من خطأ وغلو. جاء فيه: (تارة تزعمون أنّ صُوَر وجوهكم القبيحة السَّمِجَة على مثال رب العالمين، وهيئتكم الرَّذِلة على هيئته؟ وتذكرون الكفَّ والأصابع، والرجلين والنعلين المُذْهَبين، والشعر القطط، والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا ـ تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً ـ ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة، وتشنيعكم على زوارها بالابتداع، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام، ليس بذي شرف ولا نسب برسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم، وتأمرون بزيارته، وتدّعون له معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء؟![٢]

فلعن الله شيطاناً زيَّن لكم هذه المنكرات ما أغواه! وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جَهْداً إليه يلزم الوفاء به، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم، ومِعوَجِّ طريقتكم؛

= الحساب عندهما! فلا حول ولا قوة إلاّ بالله. وقد ردّ أبو بكر الخلاّل في كتاب السنّة (٢٠٩، ٢٦٣) على (ترمذيّ) وصفه بكل ألوان الزندقة والإلحاد، ولم يعرّفنا من هو، والمحقّق الفاضل الدكتور عطيّة الزهراني لم يعرفه أيضاً، وقيل: إنّ مراد السّلمي، الحكيمُ الترمذيّ الصوفيّ، وأيّاً من كان؛ فمثل هذا التكفير لا يليق صدوره عن مسلم فيمن هو دون هؤلاء علماً وديناً!

(١) دفع شُبه التشبيه لابن الجوزي (ص ٢٩ ـ ٣٠).

(٢) يريد الخليفة بذلك الإمامَ أحمد، ونقول له: بل هو رجل من خيار عباد الله المؤمنين وأشرافهم ولا ينقص قدره، أن لم يكن من آل رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم، فكم من آل رسول الله، قد وصل في العلم إلى مرتبة أحمد في ذلك العصر يا ترى؟

ليوسعنَّكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً ، وليستعملنَّ السيف في رقابكم ، والنار في منازلكم ومَحالِّكم)[١] .

قال في الفكر السامي : (وعلى كل حال : فالإمام أحمد والجِلَّة من أصحابه برآء من تلك المعتقدات الزائغة)[٢] .

ولست مبالغاً إذا قلت : إنّه لا يخلو كتاب من كتب عقائد الحنابلة في ذلك العصر من العُنْف والقسوة على المخالف ، والغلو في الإثبات ، وقد نقل الأخ الحنبليّ الدكتور أحمد سعد حمدان نماذج من كتب الدّارمي وابن أبي عاصم وعبد الله بن أحمد وابن خزيمة وابن مندهْ وابن بطّة وشرح أصول الاعتقاد ما يؤكد الذي ذكرته ، فارجع إليه في موضعه[٣] .

على أنّ في هذه الكتب خيراً كثيراً ، وفوائد عميمة ، أقلّها رصد الصراع الفكريّ في تلك المرحلة المحزنة من فترات تاريخنا العلميّ ! والله تعالى أعلم .

(١) الكامل لابن الأثير (٢٤٨ : ٦) والوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الثاني (ص٢٢٠) .
(٢) الفكر السامي للحجويّ (٢/٢٣) .
(٣) مقدمة شرح أصول الاعتقاد (١/ ٥٨ ـ ٦٣) .

المبحث الثاني

مذهب الأشاعرة في الصِّفات

الأشاعرة أو الأشعرية : مذهب كلامي ينتسب أتباعه إلى الإمام أبي الحسن علي ابن إسماعيل ابن أبي بشر الأشعري ، من ذرية الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه[(١)] .

أسند الخطيب إلى خادم أبي الحسن الأشعريّ ، بندار بن الحسين ، أنّ أبا الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ كان يأكل من غَلَّةِ ضيعةٍ ، وقَفَها جدُّه بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري على عقبه . وكانت غلتها في كل سنة سبعة عشر ألف درهم[(٢)] وكانت نفقته سبعة عشر درهماً في السنة ، في كل شهر ينفق درهماً وشيئاً يسيراً[(٣)] .

ولد الإمام أبو الحسن سنة ستين ، وقيل : سبعين ومائتين ، وتوفي والده وهو صغير فتزوجت أمه بعد وفاة والده ، بأبي علي الجُبّائي شيخ المعتزلة في عصره ، وحامل راية الاعتزال ، ونشأ أبو الحسن في حجره وتلقى علومه ، حتى صار نائبه ، وموضع ثقته وأمين سره[(٤)] .

ولما تبحّر في كلام الاعتزال ، وبلغ الغايةَ ؛ كان يورد الأسئلة على أساتذته في الدرس ؛ فلا يجد جواباً شافياً ، فتحيّر في ذلك[(٥)] .

---

(١) ترجمته في : تاريخ بغداد (١١ : ٣٤٦) وتبيين كذب المفتري (ص ٣٤) فما بعد ، أعلام النبلاء (١٥ : ٨٥) فما بعد ، المنتظم لابن الجوزي (٦ : ٣٣٢) البداية والنهاية لابن كثير (١١ : ١٨٧) طبقات الشافعية لابن السبكي (٢ : ٢٤٥) فما بعد ، مقدمة كتاب الإبانة تحقيق الدكتورة فوقية حسين ، ترجمة أبي الحسن الأشعري لأبي الحسن الندوي في مقدمة كتاب الإبانة ، طبعة مكتبة دار البيان تحقيق الشيخ الأرناؤوط .

(٢) الذي في تاريخ بغداد : وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهماً (١١ : ٣٤٧) .

(٣) طبقات الشافعية (٢ : ٢٤٨) .

(٤) مقدمة كتاب الإبانة (ص ٧) .

(٥) تبيين كذب المفتري (ص ٣٨) .

فحُكي عنه أنّه قال : وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمتُ وصليت ركعتين ، وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم[١] .

ولا ريب أن الرجل الغارق في علم الكلام على طريقة المعتزلة ، لا يمكن أن ينتقل نقلة واحدة إلى المذهب المقابل المناقض ، إذ بين النفي والإثبات مفاوز ، فنظر أبو الحسن في كتاب الله وسنة رسوله ، فرأى أنهما يجتمعان على إثبات صفات المعاني السبع الملازمة للذات وهي صفات : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر والكلام . . . وزاد أتباعه بعده إثبات الصفات النفسية والمعنوية والسلبية[٢] .

وقد كان له في كلام الله آنئذ رأي آخر مخالف لرأي المعتزلة ، ولأقوال أهل الأثر ، وهو أن القرآن : هو الكلام النفسي القديم القائم بذات الله تعالى ، وما بين أيدينا هو الألفاظ والحروف المعبِّرة عن هذا المعنى النفسي .

قال ابن الجوزي : (كان الناس لا يختلفون أن هذا المسموع كلام الله ، وأنه نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، فالأئمة المعتمَد عليهم قالوا : إنه قديم ، والمعتزلة قالوا : إنه مخلوق . فوافق الأشعريُّ المعتزلةَ في أن هذا مخلوق وقال : ليس هذا كلام الله ، إنما كلام الله صفة قائمة بذاته ؛ ما نزل ، ولا هو مما يُسمع)[٣] .

ثم ازدادت حيرته ، فلم يقنع بهذا وذاك ، وظل مشغولاً مهموماً حتى رأى رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم في المنام ، فأمره باتباع الكتاب وصحيح السنة . وقال : (فقويَتْ أدلة الإثبات في قلبي ، وضَعُفَتْ أدلة النفي) فانتقل إلى المرحلة الثالثة

---

(١) تبيين كذب المفتري (ص ٣٨) .

(٢) مقدمة كتاب الإبانة (ص ٤) وشرح السنوسية الكبرى لمحمد بن يوسف السنوسي (ص ٢٠٩) .

(٣) المنتظم (٣٣٢ : ٦) وهذا القول من ردود الأفعال أيضاً ، فلا يوجد مسلم يقول : إنّ القرآن الذي بين أيدينا ليس كلام الله تعالى ! والذي يقوله الأشعريّ : إنّ صفة الكلام قائمة بالله تعالى ، والقرآن من كلام الله تعالى ، فهو باعتباره من صفة الكلام التي يتصف بها الله تعالى ؛ ليس بمخلوق ولا محدث ، أما هذه الحروف التي يكتب بها ، فهي الكلام العربيّ المعبّر عن الكلام النفسيّ القائم بذات الله تعالى ، وهل يقول البخاري غير هذا؟

الأخيرة ، ورجع إلى مذهب أهل الحديث ، وألف بعد ذلك عدة كتب نصر فيها مذهب أهل الحديث[١] .

قال الذهبي : (رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول ـ يقصد أصول الدين ـ يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات وقال فيها : تُمَرُّ كما جاءت ثم قال : وبذلك أقول وبه أدين ، ولا تؤوَّل)[٢] .

وكتابه (الإبانة) هو عقيدته الصحيحة على مذهب السلف ، وهو راجع عن غيره من أقواله ، بل ورد عنه من طرق عديدة أنّه صعد منبر البصرة ، و أعلن توبته ، ورجوعه إلى مذهب أهل الحديث[٣] . وقال : (قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد ابن محمد بن حنبل نضَّر الله وجهه ، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ؛ لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين ، وشَكَّ الشاكين ، فرحمة الله عليه من إمامٍ مقدَّم ، وجليل معظَّم ، وكبير مفخم ، وعلى جميع أئمة المسلمين)[٤] .

وذهب أبو الحسن ينافح عن السنة ، ويقارع خصومها ويدفع باطلهم ، حتى قال فيه أبو بكر الصيرفي : (كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم ، حتى أظهر الله تعالى الأشعريَّ فحَجَرَهم في أقماع السمسم)[٥] .

وقد ترك أبو الحسن الأشعري البصرة ، وتوجه إلى بغداد ليشارك أهل السنة في نصرة عقائدهم ، ويبين للحنابلة بعض ما أخطأوا فيه ، نتيجة ردود الفعل العنيفة التي

---

(١) التبيين (ص ٤٢) .

(٢) النبلاء (١٥ : ٨٦) .

(٣) ما سبق (١٥ : ٨٩) والتبيين (٤٠ ـ ٤١) .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة للأشعري (ص ١٧) .

(٥) تاريخ بغداد (٣٤٧ : ١١) .

عاشوا في أتونها ، وحين دخل بغداد توجه إلى شيخ الحنابلة في وقته الحسن بن علي ابن خلف البربهاري الفقيه فقال له : (رددت على الجبائي ، رددت على المجوس ، وعلى النصارى . فقال أبو محمد البربهاري : لا أدري ما تقول ، ولا نعرف إلا ما قاله الإمام أحمد ، فخرج الأشعري ، وصنف كتاب الإبانة فلم يقبل منه)[١] .

قال ابن الجوزي : وما زال خائفاً على نفسه ، لخلافه أهل السنة ـ يعني الحنابلة ـ حتى إنّه استجار بدار أبي الحسن التميمي حذراً من القتل[٢] .

أما لماذا لم يقبل الحنابلة توبته ، فلأنهم يرون الكلام في الردّ على المجوس والنصارى والمعتزلة من الشك في الدين ، ومن الكلام الذي يجرُّ إلى الزندقة ، قال البربهاريّ : كل شيء لم يذكر فيه عن الإمام أحمد قول ؛ فهو عندهم بدعة وضلالة !

ولم يقبلوا منه كتاب الإبانة وهجروه ؛ لأنه إنما صنّفه وقايةً من الحنابلة الذين كان كثير منهم في ذلك العصر يعتقدون أنّ المبتدع لا تقبل توبته[٣] .

قال السفاريني : ذكر القاضي وأصحابه من علماء المذهب روايةً عن الإمام أحمد رضي الله عنه : لا تقبل توبة داعية إلى بدعة مضلَّة ، واختارها أبو إسحاق بن شاقلا . . . وذكر هذا عنه أبو يعلى في كتاب (المعتمد في أصول الدين) وبَيَّن دليلَه فيه[٤] .

وابن شاقلا هذا : (هو شيخ الحنابلة في عصره أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر ابن حمدان بن شاقلا البغدادي البزاز ، قالوا : كان رأساً في الأصول والفروع . . . مات في رجب سنة تسع وستين وثلاثمائة)[٥] .

---

(١) أعلام النبلاء (١٥ : ٩٠) .

(٢) المنتظم (٦/٣٣٢) . ولست أدري لماذا لا يزال المسلمون أشدّاء فيما بينهم ، ورحماء على الكافرين؟!

(٣) التبيين (ص ٣٨٧) .

(٤) لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٩٥) وقارن بكتاب المعتمد لأبي يعلى (ص : ٣٠٢) . ولو روى مائة من أمثال أبي يعلى مثل هذا عن الإمام أحمد ؛ فلن نقبل ذلك ، وننفي ثبوته عنه ؛ لأنّ الله تعالى قَبِلَ ويقبل توبة المشركين !

(٥) النبلاء (١٦/ ٢٩٢) وتاريخ بغداد (٦/ ١٧) .

ويعتبر من طبقة تلاميذ ابن حبان ، وله تعليقات على كتابه (المجروحين) .

وقد ذكر ابن أبي يعلى من عقيدة ابن شاقلا أيضاً : أنّ الله مسَّ آدم حقيقة حين خلقه ، وأنه مسَّ محمداً صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم (وضع يده بين كتفيّ ، فوجدت بردها . . . وذكر الحديث)[١] .

ويعتقد أن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن ـ تعالى ـ ويروي عن أحمد أنّه قال : (من قال : إنّ آدم خلقه الله على صورة آدم فهو جهمي ، وأيُّ صورة كانت لآدم قبل أن يُخلق؟) .

وبهذه العقيدة (توبة المبتدع لا تقبل)[٢] عامل الحنابلة خصومهم في ذلك العصر .

قال الحافظ ابن عساكر : (وقد حطَّ الحنابلة على الأشعري حطّاً ذريعاً ، حتى لقد كتب أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي ما يشين به أبا الحسن الأشعري بل طعن في نسبه ، وجعل جده يهوديّاً) وقد تولى الحافظ ابن عساكر الردَّ عليه في التبيين[٣] .

قال ابن عساكر : (ولئن صحَّح الأهوازيّ حكاية البربهاري وقال بثبوتها ؛ فلقد نعته وطائفته بالجهل ، وهو أخصُّ نعوتها ، هل يَردُّ على اليهود والنصارى أو المجوس بقول أحمد ، إلا ذو اللب المعكوس؟)[٤] .

---

(١) طبقات الحنابلة (١٢٨ ـ ١٣٩) .

(٢) وقد صحَّح المحدِّث الشيخ ناصر الدين الألباني حديث : (إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة) في سلسلته الصحيحة رقم (١٦٢٠) وفي تخريجه كتاب السنة لابن أبي عاصم رقم (٣٧) وذكر مصادر تخريجه في السلسلة ، وقد صحح هو في صحيح الترغيب والترهيب (١ : ٢٦) قوله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم : (إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة ، حتى يدع بدعته) من حديث أنس وابن عباس ، والحديثان عندي ضعيفان بكلّ تأكيد ، ولو سلَّمنا بصحتهما معاً ؛ لكان على الشيخ أن يحمل العامّ على الخاصّ ، فيكون الثاني هو الذي عليه العمل ، لأنّ الله تعالى قبل توبة المشركين ، وهم أشد ضلالاً من المبتدعة الموحدين ، العابدين لله تعالى .

(٣) التبيين (ص : ٣٦٤ ـ ٤٢٠) .

(٤) التبيين (ص : ٣٩٢ ـ ٣٩٣) . وتأمَّل الصراع الفكري ، وردود الأفعال بين طوائف المسلمين .

فالإمام الأشعري ردَّ على المعتزلة وغيرهم بمثل لسانهم ، وأيّد نصوص الكتاب والسنة وشرحها ، بل استخرج منها الأدلة العقلية للرد على هؤلاء ، ولكن ذلك كلّه لا يقرُّه حنابلة عصره ، ويرونه من الابتداع في الدين .

أما أتباع أبي الحسن الأشعري ، فقد اختلفوا بعده اختلافاً كبيراً ؛ فمنهم من تمسك بأقواله التي في الإبانة ، ومنهم من ردّ هذا الكتاب ، ولم يعتبره من مصنفاته ، ومنهم من قال : إنه صنفه لينتشل الحنابلة من ورطة التجسيم التي كانوا يعيشونها ، فألف هذا الكتاب على طريقة السلف ، كخطوة في هذا السبيل .

والذي ينبغي التذكير به أن مذهب الإمام الأشعري المدون في كتابه الإبانة ـ بوجه عام ـ والذي صرح بمثله في كتابه مقالات الإسلاميين ، هو مذهبه الأخير ، ولكن الأشاعرة اليوم ، بل ومنذ قرون متطاولة لا يقولون بأكثر ما فيه .

فأبو الحسن الأشعري في كتابه هذا يقول : إنّ الله استوى على عرشه ، ويردُّ على من قال بأن استوى بمعنى استولى ، ويعتبره قول المعتزلة والجهمية والحرورية . والأشاعرةُ يقولون : استوى بمعنى استولى[1] .

وأبو الحسن في كتابه هذا يثبت لله تعالى الوجه والعينين والبصر واليدين[2] والأصابع[3] والأشاعرةُ يعتبرون ذلك تجسيماً ، وأن هذه صفات المخلوقين ، وأوّلوا كل هذا ، وأثبتوا لله تعالى صفات المعاني ، والصفات النفسية ، والسلبية ، والمعنوية .

ومن هؤلاء من فَطِنَ إلى الأحاديث الكثيرة الواردة في الصفات والإضافات الخبرية وحار في فكره ، كما احتار قبلَه إمامُه ، فقال بالتفويض . والتفويض معناه : الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة من الصفات ، مع عدم الخوض في تفسيرها وتفويض المعاني المرادة بها إلى الله ، فكأنهم عَدُّوها من المتشابه ، قالوا : مع القطع بأن ظاهرها الذي قد

(١) الإبانة (ص : ٨٥ ـ ٩٤) .
(٢) الإبانة (ص : ٩٥ ـ ١٠٦) .
(٣) الإبانة (ص : ٢٢ ـ ٢٣) .

يتوهّم بعضهم منه التجسيم غير مراد ، وقالوا : إن مذهب السلف هو هذا[١] .

ولا يزال الأشاعرة ـ على طريقة المؤولين ـ هم الجمهور الأعظم من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فلا يستخفنَّ الشيطان أحداً فيذهب إلى تكفيرهم أو تفسيقهم أو تضليلهم ، ويجب على دعاة الحق تبيين الحق والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا تكفير الناس واتهامهم بما تنفر منه قلوبهم ، ويبعُد بهم عن معرفة الصواب ! فكلُّ مجتهدٍ معذورٌ قبل إقامة الحجة ؛ فإذا قامت الحجة صار التمسك بالخطأ من الباطل الذي يبغضه الله تعالى .

قال الذهبي : (رأيت للأشعري كلمة أعجبتني ، وهي ثابتة رواها البيهقي عن زاهر ابن أحمد السرخسي ، قال : لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد دعاني فأتيته ، فقال : اشْهدْ عليّ أني لا أكفّر أحداً من أهل القبلة ، لأنّ الكلَّ يشيرون إلى معبود واحد ، وإنما هذا كله اختلاف العبارات .

قال الذهبي : وبنحو هذا أدين ، وكذا كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول : أنا لا أكفّر أحداً من الأمة ، ويقول النبيّ صلّى الله علَيه وآلِهِ وسلَّم : (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)[٢] . . . فمن لازم على الصلوات بوضوء ؛ فهو مسلم)[٣] .

أقول : فما أحرانا نحن طلبةَ العلم ، أن نقتدي بهؤلاء العلماء الأجلاّء من أتباع السلف الصالح ؛ الأشعري وابن تيمية والذهبي ـ رحمهم الله تعالى ـ فلا نُطلقْ ألسنتنا بتكفير المسلمين وتضليلهم ، وإنما نأخذ بأيدهم إلى ما نراه الحق بعد دراسة واستقصاء وتتبُّع ومعرفة وبرهان .

---

(١) علاقة الإثبات والتفويض بصفات ربّ العالمين للأخ الفاضل الدكتور رضا نعسان معطي الحموي .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ : ٢٨٢) والدارمي (١ : ١٣٣) وابن ماجه والطهارة ، باب المحافظة على الوضوء رقم (٢٧٧) والحاكم في المستدرك (١ : ١٣٠) كلهم من حديث ثوبان مرفوعاً ، ورجاله ثقات إلا أنّ فيه انقطاعاً بين سالم بن أبي الجعد وبين ثوبان . لكن جاء من طريق أخرى عند أحمد (٥ : ٢٨٢) والدارمي (١ : ١٣٣) وابن حبان (١٦٤ موارد) متّصلاً ، وله شواهد من حديث أبي أمامة وعبد الله بن عمرو وجابر ، وقد صحَّحه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٢ : ١٣٥) فما بعد ، والشيخ شعيب الأرناؤوط في حاشية النبلاء (١٥ : ٨٨) .

(٣) أعلام النبلاء (١٥ : ٨٨) .

المبحث الثالث

مذهب محدّثي الشّافعية في الصِّفات

سبق أنّ المعتزلة أنكروا صفات الباري تعالى ، وأنّ الأشاعرة أثبتوا له صفات المعاني ، والصفات النفسية ، والصفات السلبية ، وأوّلوا ما جاء من الآيات والأحاديث المثبتة للصفات ، تأويلاً ينسجم مع مذهبهم في كثير من الأحيان ، وعُذْرُ هؤلاء وأولئك تنزيه الله تبارك وتعالى عن مشابهة المخلوقات .

والسلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يخوضوا في تفسير ذلك ، ولا بحثوا في دلالاته ، ولا كيفياته ، لأن الكيف غيب من غيب الله ، ولا يقال عن الله : كيف .

ومن ينسب إلى السلف أنّهم قالوا في الصفات شيئاً ؛ فهو متقوّل عليهم ، وإنما هو يَعُدّ سكوتهم موافقةً له على مذهبه ، ولخصومه أن يدّعوا العكس ، فالاحتجاج بأقوال السلف من الصحابة والتابعين ، لهذا الفريق أو هذا ، غير صحيح البتّة !

بيد أنّ شدة التعطيل والنفي عند المعتزلة والرافضة آنئذ ، أدّت إلى ردة فعل عند الحنابلة ، فغالى بعضهم في الإثبات إلى درجة الإفراط ، وأثبت بعض مصنفيهم لله تعالى صفاتٍ بأحاديثَ باطلةٍ ، وحملوا الأحاديث التي ضربت مضرب الأمثال على ظاهرها ، فأثبتوا بها لله تعالى صفات ، واعتبروا أن أي استخدام للعقل في فهمها إنما هو التعطيل والزندقة !

والحنابلة ليسوا وحدهم أهل الحديث ، بل إنّ كبار المحدثين من الحنابلة في ذلك الوقت ؛ نسبة قليلة بين عظماء المحدثين في نهاية القرنين الثالث والرابع !

بل لو قلنا : لم يأت بعد الإمام أحمد وولده عبد الله ، من الحنابلة ناقد واحد في القرنين الرابع والخامس ؛ لما جانبنا الصواب !

فنظَر كثير من محدّثي الشافعية خاصّة فيما آل إليه الأمر في آيات الصفات وأحاديثها ، وتتبعوا أقاويل السلف الصالح في ذلك ، فوجدوا علماء القرن الثالث بين مثبت لهذه الصفات بلا كيف ، وبين ساكت يقول : قراءتها تفسيرها ؛ وبين مفسِّر لها

تفسيراً قريباً تقتضيه اللغة ، ولا يُبطل النصوص ، ولا يُلجم العقل كليَّة ، فوضعوا منهجاً عامّاً في إثبات الصفات كان إطاره العام :

- إنّه لا يجوز إنكار صفة أثبتها الله لنفسه ، أو أثبتها له رسوله ، كما لا يجوز إثبات صفة له تعالى لم يثبتها لنفسه ، أو يثبتها له رسوله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم في الحديث الصحيح .

- إنّ الأحاديث النبوية قد رُوي أكثرها بالمعنى ، فيجب التأكُّد حين الإثبات أو النفي : هل أدَّى الراوي الحديثَ على وجهه؟ أو تصرَّف في المعنى تصرُّفاً أبْعَدَهُ عن أصله؟ وهل الذي روى بالمعنى عَمّن يَعقل ما يحيل المعنى ، أو إنه حاطب ليل؟

- إنّ مسائل الأحكام الشرعية نحتاط فيها لديننا ، فلا نقبل الرواية بالمعنى إلا من عالم بما يحيل مِنَ المعاني ، مع أن الأحكام العملية إنما تتعلَّق بأفعالنا نحن المكلَّفين ، فكان أوجب في الدين التثبّت في مسائل الصفات ، لأنها تتعلق بذات الباري تبارك وتعالى .

ثم انقسم هؤلاء فريقين . قال البيهقي :

(وأصحاب الحديث فيما ورد به الكتاب والسنة من أمثال هذا - ولم يتكلّم أحد من الصحابة والتابعين في تأويله - على قسمين :

- فمنهم مَن قَبِلَه وآمن به ، ولم يؤوّله ، ووكل علمه إلى الله ، ونفى الكيفيّة والتشبيه به .

- ومنهم مَن قَبِلَه وآمن به ، وحمله على وجه يصحُّ استعماله في اللغة ، ولا يناقض التوحيد)[1] .

فالقسم الأول يحتمل أنّه اعتبره من المتشابه ، ففوَّض معناه إلى الله تعالى ونفى الكيفية والتشبيه مبالغة في التنـزيه ، ويحتمل أنّه أثبت الصفات الواردة على ظاهرها من غير تفسير ونفى الكيف الممنوع !

- أمّا القسم الثاني فإنهم قالوا :

---

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي (ص ١١٧ - ١١٨) .

(الأصل في هذا وما أشبهه في إثبات الصفات ، أنّه لا يجوز ذلك إلا :

١ ـ أن يكون بكتاب ناطق ، أو خبر مقطوع بصحته (متواتر) .

٢ ـ فإن لم يكونا ، فبما ثبت من أخبار الأحاديث المستندة إلى أصل في الكتاب ، أو في السنة المقطوع بصحتها ، أو بموافقة معانيها .

٣ ـ وما كان بخلاف ذلك من الأخبار التي لم يَرِدْ في الكتاب أو السنة المتواترة مثلُ لفظها أو معناها ، فالتوقف عن إطلاق الاسم به هو الواجب ، ويُتَأوّل حينئذ على ما يليق بمعاني الأصول المتفق عليها من أقاويل أهل الدين والعلم ، مع نفي التشبيه)[١] .

ثم راح هؤلاء يضربون لنا مثلاً لما ليس له أصل في الكتاب أو السنة المتواترة فقالوا :

(وذِكر الأصابع لم يوجد في شيء من الكتاب ، ولا من السّنة التي شرطها في الثبوت ما وصفناه ، وليس معنى اليد في الصفات بمعنى الجارحة[٢] حتى يتوهم بثبوتها الأصابع ، بل هو توقيف شرعي أطلقنا الاسم فيه على ما جاء به الكتاب ، من غير تكييف ولا تشبيه)[٣] .

ومِثلُ الأصابع القدمُ والضحك والتعجُّب ؛ فقد فسَّروها على مقتضى اللغة ، لأنهم رأوا أنها لا تحتمل أن تكون صفاتٍ ، لأن سياقها في الكلام ، يدّل على ذلك المعنى[٤] .

وقد كان من هؤلاء الأئمة ابن جرير الطبري في تفسيره ، وابن حبان في «صحيحه» والخطابي في كتابيه «أعلام الحديث» و«معالم السنن» ومحمد بن مهدي الطبري في كتابه «السنّة» والبيهقي في «الأسماء والصفات» .

وهؤلاء كلهم من أهل الحديث ، ومن رؤوس أعلامه ، في ذلك العصر وبعده .

والذي أحب الانتهاء إليه ، هو أنّه يخطئ أشد الخطأ من يظن أنّ أهل الحديث كلّهم

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٣٣٥ ـ ٣٣٦) .

(٢) يقال للذي يذهب إلى أنّ اليد صفة : ما معنى اليد في اللغة؟ ولا يُسأل عن كيفية اليد ! غفر الله للمسلمين !

(٣) ما سبق ، الموضع نفسه .

(٤) ما سبق (ص : ٣٣٧) .

على رأي واحد في الصفات ، أو أنهم على رأي الحنابلة فيها ، أو أنّ الحنابلة هم أهل الحديث ، دون سواهم من محدِّثي المذاهب الأخرى ، وخاصّة حفّاظ الشافعية .

فمن يذهب اليوم فيدّعي أنّ مذهب السلف ، ومذهب أهل الحديث ، هو إثبات جميع الصفات ؛ يحتاج إلى برهان واضح ، ومثله من ادّعى أنّ السلف لم يختلفوا في الصفات .

علّق البخاري عن أبي العالية أنّه قال : استوى : ارتفع ، وعن مجاهد قال : استوى : علا على العرش[١] وذكر مثله الطبري عن الربيع بن أنس[٢] وقال : (وأَولى المعاني بقول الله جل ثناؤه : ﴿ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ﴾ : علا عليهنّ وارتفع ، فدبّرهن بقدرته ، وخلقهنّ سبع سموات) إلى أن قال : (فإن زعم أنّ ذلك ليس بإقبال فعل ولكنه إقبال تدبير ؛ قيل له : فكذلك فقل : علا عليها علوَّ ملك وسلطان ، لا علو انتقال وزوال)[٣] .

فالطبري يرى أن القول بأنّ الاستواءَ استواءُ فعل ، مثل قولك : علوّ ملك وسلطان بينما يرى الحنابلة أنّه استواء ذات .

وقال الحافظ : (اختلف أهل السنة : هل الاستواء صفة ذات ، أو صفة فعل ، فمن قال : معناه علا ؛ قال : صفة ذات ، ومن قال غير ذلك قال : هي صفة فعل)[٤] .

قلت : ما قدّمت نقله عن الطبري يدلّ على أنّ من قال : علا ، وارتفع ، فإنما يعني صفة فعل ، وليس صفة ذات ، ومن استثقل هذا ، فليقل علوّ ملك وسلطان !

ولا أريد أن أطيل في النقول ، فقد أطنب الطبري وابن حجر في مناقشة هذه المسألة فانظرها[٥] .

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣ : ٤٠٣) .

(٢) جامع البيان للطبري (١ : ٤٢٩) .

(٣) ما سبق (١ : ٤٣٠) .

(٤) الفتح (١٣ : ٤٠٦) .

(٥) تفسير الطبري (١ : ٤٢٨ ـ ٤٣٧) .

وأنا هنا لا أريد ترجيح مذهب على مذهب ، كما لا أريد تخطئة أحد ، ولكنني ألفت نظر طلبة العلم من أمثالي ، إلى أنّ المسلمين حيال العلم ثلاثة أصناف :

- فصنف مجتهد ، والاجتهاد مراتب !

- وصنف مقلّد ، وهؤلاء على مراتب أيضاً ، ولكنهم الشريحة العظمى من الأمّة وغالباً ما يكون التقليد وراثةً !

- وصنف متّبع محتاط ، وهؤلاء هم أهل العلم ممن لم يبلغ درجة الاجتهاد !

وللعلماء مذهبان فيمن هذا حاله :

فبعض العلماء يقولون : الاحتياط معناه اختيار أشقّ الحكمين الشرعيين في مسائل الخلاف ، لأنّ هذا المحتاط ، وإن ادُّعيَ له اطّلاعه على دليل المتبوع ، فمن أين له معرفة صحّةِ دليله ، أو صلاحية دلالته إلاّ تقليداً؟

ومن العلماء من يقول : بل الاحتياط هو تقديم ما كان دليله في واحد من كتب الصحاح على غيره ، وتقديم رأي من عرف باتّباعه السنّة على غيره !

وأقول : أمّا المجتهد ، فلا يُلزم باجتهاد غيره ، كائناً من كان ، بل ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز له متابعة أحد من العلماء ، أو تقليدُه !

وأمّا المقلّد ، فلا يجوز أن يعيبه بتقليده مقلّدٌ آخر ، مهما كانت الدعوى التي يدَّعيها ؛ لأنها من باب تعالي جاهل على جاهل !

وكلّي أمل أن يحتمل المسلمون بعضهم بعضاً ، ويعذر بعضهم بعضاً في اختيار فهوم العلماء ، فالإمام أحمد إمام ، وابن جرير الطبري إمام ، والسبكيّ إمام ، وليس تقليد واحد أولى من تقليد الآخر عند من يعقل !

ومن تجرّد عن العصبية المذهبية ، فقد يرى ابن جرير الطبريّ مَلَكَ من العلم ما لم يملكه بعض الأئمة المتبوعين أنفسهم ، ولكنّ الفضل للمتقدّم ، وقد أَلِفَت الأمّة تعظيم المتقدِّم لتقدُّمه ، وليس هذا صحيحاً دائماً ، فليس الزهري أعلم من مالك ، وليس مالك أعلم من الشافعيّ ، وليس ابن المنذر أعلم من ابن حزم ، وليس ابن تيمية أعلم

من السبكي ، أو العراقي ، أو ابن حجر ! فيكفي هذه الأمَّة تعصُّباً يأباه أولئك الأئمة أنفسهم ، ونتمسَّك به نحن ، وكأنه قول الله تعالى أو قول رسوله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم !

إنّ الأمَّةَ لا يسعها إلاّ الحوار ، والإعذار ، ومن المحال أن تتوحّد هذه الأمّة ، وهي على هذه الحال من التراشق بالتكفير والتضليل والتفسيق ، وجلّها إن لم تكن كلّها مقلّدةٌ إلاّ أفراداً في هذا العالم كلّه ، لم تتَّفقِ الأمة على قَبول اجتهادهم ومتابعتهم ، فما العمل؟!

الفصل السَّادس

الحياة العلميَّة في عصر ابن حبَّان

تمهيد : إنَّ دراسة الحياة العلميّة في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري والنّصف الأول من القرن الرابع ؛ ليس مما يهون ويَسهُل ، لأن القرن الرابع الهجري يُعدّ عصر نضوج الثقافة الإسلامية وتكاملها عند مؤرخي النهضة العلمية الإسلامية .

ودراسة الحياة العلمية إنما تعني دراسة علوم المنطق والفلسفة والطب والهندسة وعلوم الأوائل ، ودراسةَ التاريخ واللغة والنحو والأدب والبلاغة والنقد ، والعلوم الشرعية من تفسير وقراءات ، وحديث وتراجمَ وقواعدَ حديثية ، وفقه وأصول .

وهذا كله يتطلَّب معرفة درجة النمو والنُّضوج التي وصلت إليها هذه العلوم في ذلك العصر .

ولا يخفى على باحث أنَّ دراسة علم من هذه العلوم يتطلب بحثاً يخصُّه ، وهيهات أن يلمَّ بأصوله العامة ، ومزاياه ، وما وصل إليه .

لهذا كلِّه فإنني سأشير إشارات عابرة تلقي بعض الأضواء على الحياة العلميَّة في ذلك العصر ، ثم أخص العلوم الشَّرعية بمبحث يخصّها ؛ لما لها من صلة وثيقة بطبيعة بحثنا هذا .

وقد جاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أسباب نشاط الحركة العلمية في عصر ابن حبان .

المبحث الثاني : تعدُّد الأنشطة العلمية في عصره .

المبحث الثالث : نضوج العلوم الشرعية .

ولولا أنّ كتابي هذا هو أول كتاب يتحدّث عن حياة ابن حبان وشخصيته ؛ لَكُنتُ أعرضت جملةً عن المباحث التكميلية .

المبحث الأول

أسباب نشاط الحركة العلميَّة

إنَّ الدِّين الإسلامي دين العلم ، حرب على الجهل ، ولا يرتضي الجهّال ، وكلُّ مسلم مطالب أن يتعلم ما يلزمه في حياته من أمور دينه ، طلبَ إلزام ووجوب ، فيجب عليه أن يتعلم الطَّهارة والصَّلاة ، والصَّوم ـ إذا جاء رمضان ـ وأحكامَ الحجّ إذا أراده وأحكام الزكاة التي لها صلة بماله .

وإذا كان تاجراً ؛ لزمه أن يتعلّم ما يخصّ مثل تجارته من أحكام ، أو كان يبيع ويشتري في الأسواق ؛ فعليه أن يتعلم أصول البيع والشراء ، وأدب الإسلام في ذلك وكلما جدَّ له أمر من أمور دينه أو دنياه ؛ وجب عليه أن يسأل أهل العلم عنه .

وبذلك ترى أنَّ المفترض بالرجل العادي المسلم أن يكون على جانب لا بأس به من الثقافة الدِّينية ، وأصول التعامل ، وقواعد الأخلاق .

فطبيعيٌّ أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمع علم ، تكثّر فيه المعرفة ، ويقلُّ الجهل والجهّال .

وإذا كانت الدولة الإسلامية قائمة ، فإن من أُولى مهامِّها نَشْرَ العلوم وتشجيع العلماء وكفالتهم ، ومساعدة طلبة العلم ؛ لأن ازدياد المعرفة الدينية معناه التقليل من المخالفات الشرعية ـ كما هو المفترض ـ وهذا يساعد الدولة في أداء مهامّها ، ويقلل من أعبائها .

أضفْ إلى ذلك أنَّ الحكام المسلمين في العصور الأولى كانوا على جانب من العلم والمعرفة ، وإنَّما يحبُّ العلم ويشجعّ عليه مَن يعرفُ قيمته وقدره .

وهذا ما كان بالفعل ، فقد شجع الخلفاء والحكام العلمَ والعلماء ، وفتحوا أبواب المساجد على مصاريعها ، وغذّوها بكل ما يُحتاج إليه ، إذ كانت المساجد هي معاهد العلم الرئيسة ، كما كان إلى جانب المساجدِ المدارسُ العلمية المنتشرة في كل صقع من أصقاع الدَّولة الإسلامية المترامية الأطراف .

وقد كان العلماء محلَّ تقدير الحكام والولاة ، وكان العالم المصون أعزَّ جانباً من الخليفة نفسه .

ومما شجَّع على نضوج العلم ، وكثرة العلماء في هذا العصر ؛ ظهورُ الدويلات التي استقلّت عن الدولة العبّاسية ، وظلت ترتبط بها ارتباطاً عاماً ، فقد أخذت هذه الدويلات تتشبّه بالدولة العباسية ، وتحاول منافستها ، أو تحاول منافسة الدويلات الأخرى التي كان بينها نوع من الصراع الخفيِّ حيناً ، والظاهر أحياناً .

وقد كان من أهم مظاهر عظمة الدول في ذلك العصر أن تجتذب إلى بلاطها نخبة من العلماء المبرِّزين ، والأدباء النَّابهين ، والمفكِّرين الكبارِ ، وقد كان هؤلاء ينالون من ولاة الأقاليم وحكّامها كلَّ حفاوة وتبجيل .

وعلى هذا ، فبَعْد أن كانت بغداد هي المركز الكبير ، والينبوع الوحيد لتخريج كبار العلماء والعناية بهم ، فقد كثرت المراكز الكبرى وتعددت .

وبالإضافة إلى المدن عامة ، فقد كان للعلماء فيها نشاطهم الخاص ، سواء كان ذلك بانفرادهم ، أو بمساعدة ولاة الأقاليم .

وقد كان العلم حرّاً يستطيع كلُّ إنسان أن يقول ما شاء ، ويكتب ما أراد ، إلا أنَّ الذي ينتشر ويستفاد منه ما شهد لصاحبه العلماءُ ، وأقرَّه أهلُ الاختصاص .

وقد كان للدولة البويهية ثلاث عواصم كبرى هي : بغداد ، وشيراز ، وأصبهان ، وقد كانت هذه الدولة حريصة على أن يكون وزراؤها من كبار الأدباء ، فوزر لها ابن العميد والصَّاحب بن عباد ، والوزير المهلبي ، وابن سعدان ، ممن كانوا غرة في جبين الأدب وكانت مجالسهم ملاذ العلماء والأدباء من شتى البقاع[١] .

كما كانت الدَّولة السامانية في بخارى وسمرقند وسجستان حريصةً كلَّ الحرص على رعاية العلماء وطلبة العلم ، وكان أمراء البيت الساماني مُولَعين باقتناء نفائس الكتب ، فقد ذكر ابن سينا الذي كان على صلةٍ وطيدة بآل سامان أنه رأى في مكتبة

(١) أبو الفتح البستي للدكتور مرسي الخولي (ص٢٦) .

بخارى حاضرة الدَّولة السَّامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل[١] .

كما كان الأمير سيف الدولة الحمداني مولعاً بجمع الأدباء والشّعراء والعلماء والعناية بهم ، وكم أغدق من الأموال على الشّعراء والأدباء وقرَّبهم ! بل كانت له ندوة خاصة يجمع فيها صفوة الأدباء في حضرته ويحاورهم ، لتشحذ القرائح ويظهر الإبداع ويجاز المتفوقون[٢] .

وليس هؤلاء نهاية ما يمكن ذكره ممن اهتم بالعلم ، وأشاد بأهله ، بل لعلَّنا لا نبالغ إذا قلنا بأن المجتمع الإسلامي في ذلك العصر كان شغوفاً بالعلم ، محبّاً لأهله .

ومما يؤكد ذلك أنَّ أحد العلماء الزهّاد دخل خراسان ، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم لاستقباله[٣] .

(وكان في كل جامع كبير مكتبة ، لأنَّه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع ، وقد كان الخلفاء والملوك يفاخرون بجَمْع الكتب ، حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولعٌ شديد بالكتب فكان الحَكَم صاحب الأندلس يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها)[٤] .

وقد كان كبار علماء الإسلام في ذلك العصر يُنشؤون المدارس ، ودور العلم . فقد أنشأ الإمام ابن حبَّان داراً بنيسابور ، وخزانة كتب للغرباء الذين يطلبون العلم ، وأجرى لهم الأرزاق ، ولم تكن الكتب تُعار خارج الخزانة خشية الضياع ، كما أنشأ مدرسته الكبرى بمدينة بُست ، ووقف بها كتبه .

وقد أنشأ أبو علي بن سوّار الكاتب ، أحد رجال حاشية عضد الدولة (٣٧٢هـ) دار

---

(١) ما سبق (ص٢٧) وانظر تاريخ الإسلام السِّياسي (٣ : ٨٢) يتيمة الدَّهر للثعالبي (٤ : ٩٥) .

(٢) سيف الدولة الحمداني للدكتور الشّكعة (ص١٨١) فما بعد .

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز (١ : ٣٢١) .

(٤) ما سبق (١ : ٣٢٢) .

كتب في رامهرمز ، كما بنى داراً أخرى بالبصرة ، وجعل فيها أُجَراء على مَن قصدها ولزم القراءة والنَّسخ فيها . . .[١] .

ومن يطالع كتاب (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) وكتاب (حضارة العرب) ؛ فسوف يجد أضعاف ما أشرت إليه في كلّ جانب من جوانب المعرفة .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز (١ : ٣٢٩) .

المبحث الثَّاني

تعدُّد الأنشطة العلميَّة وتنوّعها

كانت الحركة العلميّة عامَّة تشمل جميع البقاع التي كانت معروفة في ذلك العصر وقد كان العلم حراً مشاعاً ـ كما أسلفت ـ وكلٌّ يدلي بدلوه في الحياة الثقافية ، ففي مجال العقائد والغيبيات ، كنت ترى الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة وأهل الحديث من الحنابلة وغيرهم ، ولكلٍّ منهم مسجد يدرِّس فيه آراءه ومذهبه ، بل كان عدد من علماء هذه المدارس يدرّس مذهبه في مسجد واحد ، كلٌّ في زاوية من زواياه ، أو تحت سارية من سواريه .

كما كان فقهاء المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة والظاهرية وأهل الحديث يختصُّ كل منهم بمكان مجاور للآخر ، أو قريب منه ، وعند كلٍّ منهم طلاّبه الذين يَختصُّون به ، والذين كان كثير منهم يتنقَّل في جميع هذه الحلقات أو كثير منها ليحصل على ما لديها من علم وفائدة .

وفي تلك المواقع نفسها كان يعلَّم القرآن الكريم والتفسير والقراءات والفرائض ، وكانت تُعقد حلقات التحديث والإملاء ، و تُقرأ كتب التراجم ، وتُستعرض أقوال أئمَّة الحديث حول صحة ما يُملى من أحاديث و تراجم .

وقُلْ مثل ذلك عن حلقات اللّغة والنَّحو والصَّرف والأدب والبلاغة والحساب . بل لم يكن الطبُّ والصّيدلة ودراستهما مما يستهجن في دور العلم وحواضر الخلافة ، ومراكز الولايات .

وقد كان علماء ذلك العصر فُحُولاً في علوم شتى ، ولم يكن الاقتصار على علم واحد معروفاً لديهم ، وإن كان أحدهم في علم ما ، أبرعَ منه في غيره من العلوم .

ففي حوالي عام (٣٠٠هـ) كان ابن كيسان النّحوي يبدأ مجلسه بدرس القرآن والقراءات ، ثم بأحاديث الرسول صلّى الله عليه وآله وسلَّم[١] وهذا يدل على أنَّه لم

(١) الحضارة الإسلامية (١ : ٣٣٧) فما بعد .

يكن نحوياً فحسب ـ وإن كانت شهرته بالنَّحو ـ بل كان إلى جانب ذلك مقرئاً محدِّثاً .

وقد كان الإمام ابن جريرٍ الطبريُّ لغوياً أديباً مفسِّراً مقرئاً مؤرّخاً محدّثاً فقيهاً صاحب مذهب مستقلٍّ في الفقه ، ينحو فيه منحى الإمام الشافعي .

كما كان الإمام ابن حبَّان لغوياً طبيباً فلكياً فيلسوفاً ، إلى جانب كونه عملاق الحديث والتاريخ والتراجم . كما كان فقيهاً بارعاً ، وأصولياً متيناً ، ومربياً فريداً ، وناسكاً زاهداً .

(ويحسُّ كلُّ من يتعقب الحركة العلمية في ذلك العصر كأن سباقاً نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدُّون في طلبه وتحصيله ويصارعون عوائقه صراعاً متصلاً . . . وهذا الشغف العلمي هو الذي دفع العلماء إلى الرحلة من بلد إلى بلد بعيد آخر ، طلباً للعلم ، مهما تجشَّموا من مشاقَّ . . . وأكبر مَن شُغفوا بالرحلة في هذا العصر المحدِّثون ؛ لأنَّ الصحابة كانوا قد نزلوا في أمصار العالم الإسلامي . . . وكانوا يروون أحاديث كثيرة وفي كل مصرٍ أحاديث قد لا تعرفها الأمصار الأخرى ، كما كانوا يرحلون لعلوِّ الإسناد والوقوف على أقوال أئمة الحديث ، ومعرفة طرق الأحاديث التي يحملونها لبيان عللها)[1] .

وإذا أردنا الحديث عن ذلك العصر ، فلا بد من الإشارة إلى أنَّ سوق الترجمة كان نافقاً ، وكان الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء يشجِّعون عليه ، ويغدقون الأموال بسخاء في سبيل ترجمة كتب الهنود والفرس والإغريق ، حتى إذا ترجمت معظم الكتب الهامّة وقف العلماء منها موقف المستفيد النَّاقد المشارك ، فهذا الخوارزمي يبتكر علم الجبر ، ولم يُسبق إليه من العلماء الأوائل ، وله شروح على كتاب إقليدس في الهندسة ، وكتاب بطليموس في الجغرافية ، وقد خلّف فيها أول كتاب عربي سمّاه (صورة الأرض) . . .

وعلى نحو ما نهضوا بعلم الجبر والهندسة والجغرافية ، نهضوا بعلم الرياضيات ، وعلم الفلك . ومن الفلكيين النَّابهين في ذلك العصر ، الفضلُ بن حاتمٍ الرازيُّ (ت : ٣١٠هـ) وكان متقدماً في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النُّجوم .

---

(١) العصر العباسي الثاني (ص١٢٧) .

ويبدو أنَّ المتطببين كثروا في هذا العصر ، حتى إنَّ ابن أبي أصيبعة ليذكر أنَّ عددهم في جانبَي بغداد وحدها عام (٣١٩هـ) ثمانمائة رجل ونيِّفٌ وستّون ، سوى من كان في خدمة السُّلطان . . وطبيب العصر غير مدافع أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (حوالي ٣٢٠هـ)[١] .

أما علم اللغة فكان قد وصل مرحلة عالية من النُّضج والاكتمال ، وكان من أبرز علماء ذلك العصر ثعلب المتوفَّى (٢٩١هـ) صاحب كتاب الفصيح ، وابن دريد صاحب الجمهرة في اللغة (ت : ٣٢١هـ) وعبدالرحمن ابن عيسى الهمذاني (ت : ٣٢٧هـ) صاحب كتاب الألفاظ الكتابية ، وابن الأنباريِّ (ت : ٣٢٨هـ) ونفطويه (ت : ٣٢٨هـ) وقُدامة بن جعفرٍ (ت : ٣٣٧هـ) صاحب كتاب جواهر الألفاظ ، وإسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت : ٣٥٠هـ) صاحب كتاب ديوان الأدب ، وأبو علي القالي (ت : ٣٥٦هـ) صاحب الأمالي ، والمقصور والممدود ، والبارع ، والمعجم الكبير ، وأبو منصور الأزهري (ت : ٣٧٠هـ) صاحب كتاب تهذيب اللغة ، وغير هؤلاء الأئمة أضعاف أعدادهم ، وأضعاف كتبهم[٢] .

ومن أبرز النحويين في ذلك العصر إبراهيم بن السُّري الزجاج (ت : ٣١٠هـ) وابن السَّرَّاج (ت : ٣١٦هـ) إلى جانب ابن الأنباري (ت : ٣٢٨هـ) والزجاجي (ت : ٣٣٧هـ) صاحب كتاب الجُمَل .

ونشطت البلاغة في هذا العصر ، وتشعَّبت مقاصدها ومسالكها ، كما نشط النقد نشاطاً ملحوظاً حتى وُجد مَن ألَّف في أخطاء الشعراء ، وبيان هفواتهم البلاغية ، كأحمد ابن عبيد الله بن عمار (٣١٩هـ) الذي صنَّف كتاب أخطاء أبي تمام في الألفاظ والمعاني وكَتب قدامةُ بن جعفر كتابه نقد الشعر[٣] .

---

(١) العصر العبَّاسي الثاني (ص١٣١ ـ ١٣٧) مقتطفات .

(٢) العصر العبَّاسي الثَّاني (ص١٤٢ ـ ١٤٨) ومقدمة كتاب الصِّحاح لأحمد عبد الغفور عطَّار (٧٨ ـ ٨٦) .

(٣) العصر العبَّاسي الثَّاني (ص١٤٩ ـ ١٥٥) .

كما نشطت في هذا العصر الكتابات التاريخية ، فمن كتابة في تاريخ السيرة النبوية ، إلى كتابة في الأحداث الإسلامية وأحوال الأمم والدول وتواريخ المدن ، والتراجم وطبقات الرواة .

ومَن أبرز كُتّاب هذا العصر أحمد بن يحيى البلاذُريُّ (ت : ٢٧٩هـ) صاحب كتابَي فتوح البلدان ، وأنساب الأشراف ، وأبو حنيفة الدِّينَوَري (ت : ٢٨٢هـ) صاحب كتاب الأخبار الطوال .

ثم جاء الإمام محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠هـ) فصنَّف كتابه الفريد تاريخ الرسل والملوك ، وبعده أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت : ٣٤٥هـ) صاحب مروج الذهب .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة ، كانت هناك تواريخُ لبعض المدن ؛ كتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد (بحْشل) المتوفَّى سنة (٢٨٨هـ) وتاريخ أصبهان لابن مندهْ (ت : ٣٠١هـ) وتاريخ الموصل ليزيد بن محمد الأزدي (ت : ٣٣٤هـ) .

ولم يَفُتِ الكُتَّابَ والمؤلفين أن يكتبوا في أخبار فئةٍ خاصة ، فألَّف ابن قتيبة (ت : ٢٧٦هـ) كتابه (الشعر والشعراء) وألَّف ابن المعتزِّ (ت : ٢٩٦) كتاب طبقات الشعراء المحدَثين . . . كما ألَّف بعضهم في الوزراء وكتاب الدواوين ؛ مثل كتاب الوزراء والكتاب لمحمد بن عبدوس الجِهِشْياري (ت : ٣٣١هـ) وكتاب الأوراق للصولي (ت : ٣٣٥هـ) الذي يخصُّ العباسيين وأخبارهم .

وعلى هذا النحو نشط التأليف في التاريخ لهذا العصر نشاطاً واسعاً ، حتى كادوا لا يتركون في التاريخ جانباً إلا رصدوه وسجّلوه ودوّنوه[1] ؛ أحسن الله تعالى إليهم .

---

(١) العصر العبَّاسي الثاني (ص١٥٧ ـ ١٦٠) .

المبحث الثّالث

نضوج العلوم الشَّرعيَّة

لا يخفى على باحث أنَّ علم اللغة والنَّحو والبلاغة مفتاح العلوم الشَّرعية ، وبدونه تُغلَق كثير من الأبواب في وجوه طلبة العلوم الشَّرعيَّة ، لأنَّها لا تُنال إلا بالاطِّلاع على قدر من هذه العلوم . ولذلك فإنّ عدداً من الأسماء ذات الشُّهرة اللغوية والأدبية ستتكرر كعلماء في علوم القرآن والتفسير والفرائض ، كما أنّ عدداً من المؤلفين في التواريخ والأخبار سيُذكر في جملة عظماء المحدِّثين وفحول الفقهاء والمفسِّرين ، وهذا ليس غريباً ـ كما أسلفت ـ لأنَّ علوم الشَّريعة كانت متشابكة ، وكان لكل عالم نصيب وافر من علوم شتى إلى جانب تخصُّصه ونبوغه فيما اشتهر به من علم .

ويحسن أن أتناول العلوم الشَّرعية في ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: القرآن العظيم وعلومه

لقد كانت عناية الأمة المسلمة بكتاب الله تعالى لا تعدلها عناية بكتاب آخر سوى عنايتها بسنّة المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم .

ولو استعرض امرؤٌ كتاب البرهان للزركشي ، أو الإتقان للسّيوطي ؛ لَهاله أن يرى في معظم أنواع هذه العلوم مؤلفات مستفيضة ، كل مؤلف يخص جزئية من جزئيات علوم القرآن تتناول جانباً من جوانب هذا الكتاب العظيم .

وأول علوم القرآن علم أدائه وكيفيات قراءته . وقد كان من أشهر علماء القراءات في هذا العصر الإمام محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠هـ) وله كتاب في القراءات ، كما طارت شهرة الإمام ابن مجاهد (ت : ٣٢٤هـ) خاصّة بعد أن كتب كتابه السّبعة في القراءات والإمام محمد بن أحمد بن شنبوذ (ت : ٣٢٨ هـ) والإمام أبو جعفر ابن النحاس (ت : ٣٣٨هـ) ومن معاصري ابن حبان ؛ الإمام محمد بن مقسم العطار (ت : ٣٥٤هـ) .

وقد كتب ابن النَّحَّاس عدداً من المصنَّفات التي خدم بها كتاب الله ؛ منها كتاب

القطع والائتناف في كيفيات الوقوف والابتداء ، وإعراب القرآن في خمسة مجلدات كبار ، ومعاني القرآن في التفسير ، والنّاسخ والمنسوخ ، وكل كتبه هذه مطبوعة .

ومن الآثار التي وصلتنا من القرن الرابع فيما يتعلق بعلوم القرآن كتاب المصاحف لابن أبي داود السّجستاني (ت : ٣١٦هـ) وهو مطبوع ، وقصيدة في التجويد لموسى بن عبيدالله ابن خاقان (ت : ٣٢٥هـ) وأحمد بن محمد بن أوس (ت : ٣٣٠هـ) ومن أبرز أعلام العصر في القراءات أيضاً أحمد بن الحسين النيسابوري (ت : ٣٨١هـ) وأبو الحسن الدارقطني (ت : ٣٨٥هـ) وأبو الطيب ابن غلبون (ت : ٣٨٩هـ)[1] .

أما كتب التفسير ؛ فقد كانت ثمة أربعة اتجاهات تتنازع التفسير في ذلك العصر : التفسير بالمأثور ، وهو التفسير الذي كان يستمسك به أهل السُّنة ويعتمدونه ، والتفسير بالرأي ، وقد كان زعماؤه في ذلك العصر هم المعتزلة ، والتفسير الشّيعي ، والتفسير الصُّوفي .

أما التفسير بالمأثور فقد بلغ غايته المرجوّة على يد الإمام محمد بن جرير الطبري ، إذ استطاع أن يجمع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كلَّ ـ أو جُلَّ ـ ما أُثِرَ عن الصحابة والتابعين في تفسير الآية القرآنية . وهناك كتاب (تفسير القرآن العظيم) لابن أبي حاتم في هذا الاتجاه ، إلاّ أنه لا يوازَن بتفسير ابنِ جريرٍ البحرِ !

وأهمُّ تفسير اعتزالي ، حاول المعتزلة إنفاذ آرائهم الاعتزاليَّةِ من خلاله هو تفسير أبي عليٍّ الجبائيِّ (ت : ٣٠٣هـ) وكانت تأويلات المعتزلة لآيات القرآن تأويلات عقلية صرفة .

وكان وراء هذين الاتجاهين من التفسير : التفسير الشِّيعي والتفسير الصُّوفي ، وكلاهما يحاولان تفسير القرآن الكريم تفسيراً اعتقادياً ، وإشارياً .

فكان الشِّيعة يخرجون عن ظاهر القرآن أحياناً ملتمسين تأويلات بعيدة ؛ إذ يذهبون إلى أنّ لفظاً بعينه ، يقصد به عليّ أو غيره من أئمتهم ، وأنَّ لفظاً آخر يقصد به ما اعتبروه خصماً من خصومهم ، كما فسَّر بعضهم الجبت والطَّاغوت بمعاوية وعمرو بن العاص .

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٤ : ١ ـ ٦) العصر العبَّاسي الثاني (ص١٦٠) فما بعد مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده (ص٦ ـ ٥٩ ، ٣٦٩ ـ ٣٧٧) .

أما تأويل المتصوفة حينئذ ، فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ ، بُعْدَ التفسير الشّيعي ، إذ كان كل مأربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصُّوفية ، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التّستري (ت : ٢٨٣هـ) فنراه في تفسير قوله تعالى : ﴿الله نور السّموات والأرض﴾ (النور : ٣٥) يجعل النور المحمدي في سابق الأزل أساساً للآية وكأن سهلاً قد سبق الحلاّج في فكرة النُّور المحمدي[١] .

وقد وصل من كتب التفسير في القرن الرابع الهجري كتب عديدة من أبرزها :

تفسير الطبري (ت : ٣١٠هـ) وبعض «أحكام القرآن» للطحاوي (ت : ٣٢١هـ) وتفسير ابن أبي حاتم (ت : ٣٢٧هـ) و«معاني القرآن» و«إعراب القرآن» لأبي جعفر النحّاس (ت : ٣٧١هـ) ومعاني القراءات لأبي منصور الأزهري (ت : ٣٧١هـ) وغير ذلك[٢] .

المطلب الثّاني: الفقه وأصوله

(كان القرن الرابع أهم نقطة فاصلة فى تاريخ التشريع الإسلامي ، فيقال : إنه في هذا القرن وقف التكوين المستقل للتشريع الإسلاميّ المبنيّ على الاجتهاد المطلق ، وعلى فهم الفقيه الحكمَ من القرآن والسّنة)[٣] .

(وفي هذا العصر اختلط المجتهدون بغيرهم ، فكان يوجد أهل الاجتهاد المطلق ، ولكن غلب التقليد فى العلماء ورضوا به خطّة لهم ، ولا يزال يزيد التقليد وينقص الاجتهاد في هذا العصر ، إلى المائة الرابعة ؛ إذ أصبح كثير من علمائها راضين بخطّة التقليد ، عالةً على فقه أبي حنيفة ومالك والشّافعيِّ وابن حنبلٍ وأضرابهم ، ممن كانت مذاهبهم متداولة إذ ذاك .

وانساقوا إلى اتخاذ أصول تلك المذاهب دوائر ، حصرت كل طائفة نفسها في داخلها لا تتخطاها ، وأصبحت أقوال هؤلاء الأئمة بمنزلة نصوص الشّريعة ، ضخمت شيئاً فشيئاً إلى أن تُنُوسيت السّنة ، ووقع البعد من الكتاب ، بازدياد تأخُّر اللغة ، وأصبحت

(١) العصر العبّاسي الثاني (ص١٦٣) .

(٢) تاريخ الأدب العربي (٤ : ٧ ـ ٢٠) .

(٣) الحضارة الإسلامية (١ : ٣٨٧) .

الشّريعة هي نصوص الفقهاء وأقوالهم لا أقوال النّبي صلّى الله عليه وآلِه وسلّم . . .)[١] .

وهذا كلُّه باعتبار الغالب ، وإلا فقد كان في علماء الأئمة من يجتهد ، كأبي القاسم عبد العزيز بن عبد الله الدّاركي الشافعي ، وأحمد بن ميسر بن محمد القرطبي ، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ، بل كان قبلهم الإمام محمد بن إبراهيم ابن المنذر ، والإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة ، كما كان الإمام ابن حبان مجتهداً وسيأتي ذكر بعض المسائل التي خالف فيها الإمام الشافعي الذي ينتسب هو إلى مذهبه . وغير هؤلاء كثير ، إلا أنَّه ليست لهم مذاهب مدوَّنة متكاملة ، ولذلك عُدَّ بعضهم من مجتهدي المذهب ، وعُدَّ آخرون من الفقهاء فيه .

وقد كانت جملة الأئمة المجتهدين الذين دُوِّنت مذاهبهم ، وصار لهم أتباع ، ثلاثة عشر إماماً هم على الترتيب الزّمني : الحسن بن أبي الحسن البصري ، أبو حنيفة النُّعمان ابن ثابت ، أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعي ، أبو سعيد سفيان الثوري ، الليث بن سعد مالك بن أنس ، سفيان بن عيينة ، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشّافعي ، إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المشهور بابن راهويه ، أبو ثور إبراهيم بن خالد بن اليمان الكلبي ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني المعروف بداود الظاهري ، وآخرهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . وهؤلاء جميعاً فقهاء أهل السُّنة . كما كان للشيعة الزيدية والإمامية فقهاؤهم ، ولكل فرقة من فرق الخوارج فقهاؤها وأئمتها . وقد كان لكل إمام من هؤلاء الأئمة أتباعه المنتشرون في الأرض ، إلا أنّه لم يبق من مذاهب أهل السنّة ، إلا المذاهب الأربعة المعروفة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشّافعي وأحمد . وأتباع الإمام أحمد أقل هؤلاء عدداً من القديم إلى يومنا هذا ، ولعلّ من أسباب ذلك ، أنه كان هو ينهى عن كتابة أقواله ، إضافة إلى أنَّ كثيراً من الأئمة اعتبره أحد تلامذة الشّافعي وأتباعه ، أو لأنّ أتباعه في بداية أمرهم لم يكونوا على المستوى المطلوب من العلم والحكمة وحسن الدعوة ، ولين الجانب . وقد مرّ قبلُ بعضُ ما يمكن عدُّه سبباً .

---

(١) الفكر السّامي (٢ : ٥) .

المطلب الثالث: الحديث وعلومه

يمكنني القول بأنَّ علم الحديث الشَّريف قد بلغ غاية نضجه ، ومنتهى كماله في المائة الرابعة ، وقد وجد في هذا العصر من الأئمة الأعلام ما لا يُحصَى كثرة ، ولا يستهان بما قدموه إلى السُّنة النبوية من خدمة . ومن يذكر أنَّ ابن حبّان (ت : ٣٥٤هـ) قد كان له أكثر من ألفي شيخ في بقاع العالم الإسلامي ؛ عَلِمَ أنَّ هذا العصر عصر خير وبركة ، وإنْ ذمَّه أهله وحطّوا عليه .

ومن يطالعْ تذكرة الحفّاظ للإمام الذهبي ؛ يجدْ ما يدهشه من كثرة الحفّاظ في عصر ابن حبّان ، وحتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ناهيك عن آلاف المحدِّثين الذين لم يبلغوا درجة هؤلاء في الحفظ والإتقان ، فالطبقة الحادية عشرة هي طبقة شيوخ ابن حبان والطبقة الثانية عشرة طبقة أترابه وأقرانه ، والطبقة الثالثة عشرة طبقة تلامذته ، وهؤلاء يشغلون نسبة عالية من الحفّاظ ؛ فمن الطبقة الحادية عشرة سبعة وسبعون حافظاً ، ومن طبقة أقرانه ، وهي الطبقة الثانية عشرة ، تسعة وسبعون حافظاً ، ومن الطبقة الثالثة عشرة أربعة وسبعون حافظاً .

كما أنَّ نظرة أخرى في سير أعلام النبلاء ؛ تنبئ عن وجود أعلام من المحدِّثين في هذا العصر أضعاف هؤلاء ، ولو لم يكن في هذا العصر من الأعلام سوى أبي خليفة الفضل بن الحباب الجُمَحي ، وابن خزيمة ، والنَّسائي ، والإسماعيلي ، وابن عبدوس والأنماطي ، والحسن بن سفيان ، وأبي يعلى الموصلي ، وزكريا السَّاجي ، وابن جرير الطبري ، وابن السَّرَّاج ، والباغَنْدي ، وابن منده ، وأبي عروبة ، وأبي عوانة ، وابن المنذر وابن الجارود ، والطحاوي ، وعبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي ، والعقيلي ، وابن عقدة وابن الأنباري النّحوي ، وأبي بكر الشّافعي ، وأبي علي النّيسابوري ، وأبي أحمد الحاكم الكبير ، والرامَهُرْمُزِيّ ، والطبراني ، والجِعَابي ، وابن حبَّان ، وأبي بكر الصعلوكي ، وابن السُّنّي ، والآجرِّي ، وابن عَدِيٍّ ، وابن شاهين ، والدارقطني ، والحاكم النّيسابوري والخطّابي ، وغُنْجَار ، وتمّام الرازي ، وأبي نعيم الأصبهاني ، لكان هذا العصر مليئاً بالعلم والمعرفة .

وقد تشعَّبت علوم الحديث في هذا العصر ، فاستقلَّ علم التراجم ، وانقسم إلى تراجمَ خاصّة بالثِّقات ؛ كثقات ابن حبَّان ، وثقات ابن شاهين ، وإلى تراجم خاصّة بالضعفاء من المحدّثين ، والضعفاء للعقيلي ، كالمجروحين لابن حبّان ، والكامل في الضعفاء لابن عَدِيٍّ الجرجاني ، والضعفاء للدَّارقطني .

كما كثر التأليف في السُّنة ، فألَّف الطبراني معاجمه الثَّلاثة : الكبير ، والأوسط والصغير ، وألّف الحسن بن سفيان مسنده الكبير ، وألّف أبو يعلى الموصلي مسنده البحر ، وألّف ابن خزيمة كتابه الصَّحيح ، وكتب ابن الجارود العبسي «المنتقى» وابتكر أبو حاتمٍ بنُ حبَّانَ طريقة فريدة في كتاب التقاسيم والأنواع .

كما انتشر التدوين في أصول الحديث ، ومما وصلنا من تلك الحقبة المحدِّث الفاصل للرامَهُرْمُزي ، وعلل الحديث لابن أبي حاتم ، وعلل الحديث للدَّارقطني .

إلى غير ذلك من المؤلفات والأنواع التي يصعب حصرها في هذه العجالة .

ويمكننا بعد هذا العرض السَّريع تلمُّسُ الحركة العلمية والفكرية المتوقِّدة في هذا العصر ، وبهذا التلمُّس ؛ نستطيع أن نفسِّر كثيراً من الظواهر التي تعرض علينا في هذا العصر ، والله تعالى هو العليم الخبير .

البابُ الثاني

ترجمة الإمَام ابن حبّان

وتحته ثمانية فصول:

- الفصل الأول: بيئة ابن حبّان في مدينة بُسْت
- الفصل الثاني: ترجمة ابن حبّان
- الفصل الثالث: رحلات ابن حبّان العلميّة
- الفصل الرابع: شيوخ ابن حبّان وتلامذتِهِ
- الفصل الخامس: عقيدة ابن حبّان
- الفصل السادس: فقه ابن حبّان
- الفصل السابع: أخلاق ابن حبان ومكانته العلميَّة
- الفصل الثامن: الاتِّهامات المتبادلة بين ابن حبّان وبين العلماء

الفصل الأوّل

بيئة الإمام ابن حبَّان في (بُسْت)

إنَّ الحديث عن مدينة (بُسْت) لا مندوحة عنه، لمن يريد دراسة حياة عَلَمٍ من أشهر أعلامها، إن لم يكن أشهرَ من أنجبتهم في تاريخها كلِّه.

وإذا كانت (بُسْت) اليوم تعدُّ في أواخر البلدان الأفغانية أهميةً، فلقد كانت في عصر ابن حبَّان ثانيَ مدن إقليم سجستان الكبير.

المبحث الأول

جغرافية مدينة بُسْت وعمارتها

لعلَّه يتعذَّر الحديث عن طبيعة مدينة (بُسْت) وجغرافيتها، ما لم نُشِرْ إشارة سريعة إلى الإقليم الذي تشكل (بُسْت) ثانية أكبر مدنه الرئيسة في القرن الرابع الهجري.

تقع (بُسْت) اليوم غربيَّ بلاد الأفغان، على مقربة من الحدود الأفغانية الإيرانية.

(وأفغانستان ـ اليوم ـ دولة حبيسة[١] في وسط آسيا، وتقدر مساحتها بستمائة واثنين وخمسين ألف كيلو مترٍ مربعاً، ومائتين وخمسة وعشرين كيلو مترٍ مربعاً (٦٥٢,٢٢٥) كم. وتمتد بين دائرتي العرض (٢٩,٣٠ ـ ٣٨,٣٠) شمالاً، وخطّي الطول (٦١ ـ ٧٥) شرقاً.

وشكل البلاد بيضوي، وغير منتظم، ولها حدود طويلة مع جاراتها جمهوريات[٢] تركمانستان، وأُزبكستان، وطاجكستان في الشمال، وكلها كانت داخلةً في نطاق الاتحاد السوفييتي السابق، كما أنّ لأفغانستان حدوداً طويلة مع جارتها باكستان في الجنوب والشرق.

---

(١) الدَّولة الحبيسة في اصطلاح الجغرافيين هي الدولة التي لا تطل على البحر.

(٢) وهذه الجمهوريات الإسلامية كلّها كانت إلى عهد قريب خاضعة للاستعمار الروسي الملحد. انظر بحثاً جيداً للتعرف على هذه البلاد، في كتاب البلدان الإسلامية والأقليات للدكتور السَّيد غلوب وزميليه (ص٣١٢ ـ ٣٦٢).

أما حدودها الغربية مع إيران ، فهي الأطول بعد حدودها مع باكستان ، وأما حدودها الشَّمالية الشَّرقية مع كشمير والصِّين ، فهي قصيرة نسبياً .

وسمّيت أفغانستان بهذا ، نسبة إلى قبائل الأفغان التي كانت تعيش في جزء منها ، ولم يطلق عليها هذا الاسم إلا منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري ـ الثامن عشر الميلادي ـ .

وكانت تعرف في الأزمنة القديمة باسم (إريانا) بينما عرفت في العصور الإسلامية (الوسطى) باسم خراسان نسبة إلى إقليم خراسان في شمال البلاد ، والذي تزيد مساحته على ثلث مساحة أفغانستان الحديثة)[١] .

وسجستان الإقليم الذي تنتسب إليه مدينة (بُسْت) إقليم واسع سُمِّيَ بهذا الاسم نسبة إلى سجستان بن فارس .

ويَحدُّها من الشرق مفازة بين (مكران)[٢] وأرض السِّند[٣] وشيء من عمل الملتان[٤] ومما يلي الغرب خراسان[٥] وشيء من عمل الهند ، ومما يلي الشمال أرض الهند[٦] ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان[٧] وفارس[٨] وكرمان[٩] .

---

(١) ما سبق (ص ٢٣١) .

(٢) مُكْران : بضم الميم وسكون الكاف . انظر أخبارها في معجم البلدان (٥ : ١٧٩) فما بعد .

(٣) السِّند : بكسر السين المشددة وسكون النون ، بلاد ما بين الهند وكرمان وسجستان . معجم البلدان (٣ : ٢٦٧) .

(٤) الملتان ، أو المولتان ، بلد من بلدان الهند . معجم البلدان (٥ : ٢٢٧) . وهي إحدى ولايات باكستان اليوم .

(٥) خراسان : تقدَّم التعريف بها في الباب الأول .

(٦) لم أجد تعريفاً عند ياقوت لأرض الهند ؛ لأنها أشهر من أن تعرَّف .

(٧) تقدم الحديث عنها ، وهذا الوصف كلّه لسجستان الإقليم ، لا لسجستان البلد .

(٨) انظر معجم البلدان (٤ : ٢٢٦) لتقف على معرفة حدودها وكثيرٍ من أخبارها .

(٩) سيأتي الحديث عنها في ترجمة ابن حبَّان .

ولها من المدن زرنج[١] وكش[٢] والطاق[٣] والقرنين[٤] وخواش[٥] وفره[٦] وجزه[٧] وبست[٨] وروذان[٩] وسروان[١٠] وصالقان[١١] ومدن أخرى كثيرة[١٢] .

ومدينة سجستان العظمى تسمى (زرنج) وأما مدينة (بُسْت) فليس في أعمال سجستان بعد زرنج أكبر منها . وقد كانت كذلك في القرن الرابع الهجري ، وكان بها متاجر إلى بلد الهند ، وبها نخيل وأعناب[١٣] .

وهي المنطقة التي اشتهرت في القرون الوسطى بخصوبتها العظيمة وببساتينها جيدة الري ، والتي تقع بين مجريين من مجاري الماء ، وأنَّها كانت محطة في الطريق الرئيسي بين خراسان وفارس وبين السِّند ، أي : بين بغداد والهند ، في الموضع المعهود الذي كان جسر القوارب يعبر فيه النهر عند نفس المكان الذي يصبح فيه هذا النَّهر صالحاً للملاحة تجاه (زرنج) .

---

(١) مضى وسيأتي مزيد تفصيل عنها .

(٢) معجم البلدان (٤ : ٤٦٢) .

(٣) مدينة بسجستان صغيرة بها أعناب كثيرة (٤ : ٦) .

(٤) قَرْنِين : بفتح القاف وسكون الراء وكسر النون ، من نواحي سجستان . معجم البلدان (٤ : ٣٣٣) .

(٥) خُواش : بضم الخاء مدينة بسجستان . معجم البلدان (٢ : ٣٩٨) .

(٦) فَرَه : بفتح أوله وثانيه ، والنسبة إليها فَرَوِيّ . معجم البلدان (٤ : ٢٥٩) .

(٧) جزَه : بكسر أوله وفتح ثانيه ، وأهلها يقولون : كزه وتكتب بالجيم ؛ مدينة بسجستان . معجم البلدان (٢ : ١٣٤) .

(٨) انظر معجم البلدان (١ : ٤١٤) فما بعد .

(٩) رُوذان : بضم الراء وسكون الواو ، بلد قرب بُسْت . معجم البلدان (٣ : ٧٧) .

(١٠) سَروان : بفتح السين وسكون الراء . مدينة بسجستان كثيرة الفواكه والنخل والأعناب . معجم البلدان (٣ : ٢١٦) .

(١١) صالقان : بفتح اللام . بُلَيدة على مرحلة من بُسْت . معجم البلدان (٣ : ٣٩٠) .

(١٢) انظر المسالك والممالك للإصطخري (ص٣٩) معجم البلدان مادة سجستان ، مراصد الاطِّلاع على الأمكنة والبقاع (١ : ١٩٦) معجم ما استعجم (١ : ٢٤٩) بلدان الخلافة الشرقية (ص٣٧٢ ـ ٣٩١) .

(١٣) المسالك والممالك (ص١٤١) بلدان الخلافة الشَّرقية (ص٣٨٣) .

وقد نقد جغرافيو العرب في القرون الأولى (بُسْت) لكثرة ماينتابها من أوبئة ، ونوّهوا في الوقت نفسه بنشاطها العقلي والتجاري ، وبمحاصيل أراضيها التي كانت تزرع الفاكهة والكروم والنَّخيل ، وتشهد الأبنية الموجودة في جوار بُسْت على ما كان لها من ازدهار عمراني ، وقد كانت دائماً موضعاً جليلاً ، كما كانت قبل الإسلام مركزاً من مراكز الحضارة الإيرانية القديمة[١] .

ولا ريب أنَّ موقع بُسْت على شاطئ نهر (هلمند)[٢] الكبير ، وفي البقعة التي يصلح[٣] فيها النهر للملاحة ، ووفرة أموالها ، كان من الأسباب الهامة في حضارتها وعمرانها ، إضافة إلى خصوبة أرضها .

وكانت (بُسْت) مشهورة بقلعتها المنيعة ، وفيها جامعٌ حسنٌ ، وأسواقٌ عامرة[٤] .

ولقد وُصفت بُسْت بأنَّها (حسنة كثيرة الأنهار والخضر)[٥] وسئل عنها بعض الفضلاء فقالوا : هي كتثنيتها . يعني بستان[٦] . كما ذكر أنها من البلاد الحارة ، كثيرة الأنهار والبساتين[٧] . حتى قال أحد الشُّعراء يمدح الشَّاعر أبا الفتح البستي :

إذا قيل : أي الأرض في النَّاس زينة؟ أجبنا وقلنا : أبهج الأرض بُسْتُها[٨] .

وقال النويري : (وأما بُسْت وما اختصت به ، فيقال : إنَّ هواءها كهواء العراق ، وماءها

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (بُسْت) . ولا تنافيَ بين وجود الأوبئة فيها وبين خصوبتها فالمستنقعات كثيرة العطاء مع ضررها .

(٢) يُسمَّى (هند مند) أيضاً . معجم البلدان (٥ : ٢١٨) .

(٣) ذكر الإصطخري أنَّ نهر هند مند يبقى نهراً واحداً من بُسْت حتى ينتهي إلى محلّه من سجستان ويتشعب منه مقاسم الماء ، ولا يخفى أنَّ النهر كلما كان أعظم كان أحسن للملاحة . (ص١٤١) .

(٤) المسالك والممالك (ص١٤٢) ، بلدان الخلافة (ص٣٨٣) .

(٥) اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (١ : ١٥١) .

(٦) الأنساب للسمعاني (٢ : ٢٢٥) مع الإشارة إلى أنَّ تثنية بُسْت لغة : بستيان ، أو بستوان .

(٧) مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (١ : ١٩٦) .

(٨) حاشية مراصد الاطّلاع (١ : ١٩٦) .

كماء الفرات ، ومن خصائصها (الإجّاص) الذي لا يوجد مثله في غيرها . وكان يقال : من مات بِبُست مغفوراً له ؛ فقد انتقل من جنَّة إلى جنَّة[(١)] .

وبقيت (بُسْت) تتمتع بمركزها السياسي والحضاري والعمراني وبلغت أوج عمرانها وعظمتها في العهد الغزنوي ، إلى أن اكتسح جهارسوز الغوري مملكة بهرام شاه ، وخرَّب عاصمتها (بُسْت) وقضى بذلك على ما كان لها من ازدهار ، غير أنَّ حسن موقعها وحاجة مخرّبيها إليها ؛ كان هو العاملَ على بقائها ، وإن كانت قد ظلت ضعيفة تتعثر خلال القرون ، ولذلك فإن ياقوت حين زارها قال : إنَّ الخراب فيها ظاهر . على أنَّ المدينة فقدت كل أمل في سبيل تقدمها بسبب غزوات تيمور لنك الذي أوقع بها وبما جاورها الخرابَ .

وظل حصن بُسْت يقاوم الأحداث بسبب موقعه الحربي ، الى أن خرَّبه نادر شاه عام (١٧٣٨م) .

ويمكن القول بأن صفحة مجد هذه المدينة الحضارية ، قد انطوت في نهاية القرن الثامن الهجري[(٢)] وأُجهز عليها بعد ثلاثة قرون نهائياً .

---

(١) نهاية الأرب في معرفة فنون العرب (١ : ٣٦٥) .

(٢) بلدان الخلافة الشّرقية (ص٣٨٣) فما بعدها .

المبحث الثاني

التاريخ السِّياسي لمدينة (بُسْت)

لقد كان مركز مدينة بُسْت الجغرافي ذا أثر هام في مكانتها السياسية ، ذلك أن (بُسْت) واقعة في البقعة التي يصبح فيها النّهر الكبير (هيلمند)[١] صالحاً للملاحة .

وتشهد الأبنية الموجودة في جوار بُسْت على ما كان لها من ازدهار ، فقد كانت مركزاً من مراكز الحضارة الإيرانية القديمة ، وكانت في بداية القرن السادس الميلادي في حوزة الهياطلة ، ثم استردَّها منهم خسرو الأول (كسرى أنو شروان)[٢] .

وقد اختلف المؤرخون المسلمون في زمن دخول (بُسْت) في حوزة المسلمين ، فذهب الإمام الطبري[٣] إلى أنَّ عاصم بن عمرو قد فتح سجستان كلَّها ، وصالَحَ أهل (زَرَنْج) قصبتِها[٤] وذلك عام ثلاثة وعشرين من الهجرة ، في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وذكر ياقوت[٥] أنَّ عاصم بن عدي التميمي افتتح سجستان في أيام عمر رضي الله عنه .

بينما يرى خليفة بن خيّاط[٦] أنَّ فتح سجستان كان سنة ثلاثين وما بعدها ، على يد الربيع بن زياد الحارثي ، ثم على يد عبد الرحمن بن سمرة سنة ثلاث وثلاثين ، حيث بقي الأخير في سجستان ، حتى اضطرب أمر عثمان رضي الله عنه .

وذلك هو رأي ابن حبَّان ، ابن هاتيك الدِّيار ، الذي أَلَّف كتاباً عن تاريخها . والذي يبدو لي أن ليس ثمة تعارض بين هذه النصوص ؛ لأنَّه لا يخفى على من قرأ تاريخ الفتح الإسلامي أنَّ استقرار المسلمين في تلك البلاد ، لم يكن أمراً هيِّناً ، فقد كان أهل

---

(١) هيلمند هو الاسم العصري لنهر (هند مند) فهما اسمان لمسمًى واحد .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (بُسْت) .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للإمام الطبري (٤ : ١٨٠) فما بعدها .

(٤) قصبة البلاد : عاصمتها ومدينتها الكبرى .

(٥) معجم البلدان (٣ : ١٣٨) .

(٦) تاريخ خليفة بن خيّاط (ص١٦٤ ، ١٦٧) الثِّقات (٤ : ٢٢٥) في ترجمة الربيع بن زياد .

هاتيك البلاد قوماً أشدّاء ، فإذا ما خسروا الجولة في الحرب أمام المسلمين ؛ صالحوهم وإذا علموا في المسلمين ضعفاً ؛ أخذوهم على غرة ، ودام الحال كذلك إلى زمن معاوية ابن أبي سفيان .

يفسِّر ما خلصت إليه ما ذكره الطبري[١] من أنّ سَلْم بن زياد ـ والي خراسان من قبل معاوية ـ قد صالحهم ، وفرح بصلحهم ، وذلك (أنّ شاه سجستان ، قد هرب من أخيه «رُتْبيل»[٢] إلى بلد فيها تدعى «آمل»[٣] ، ودانوا لسلم بن زياد ، ففرح بذلك ، وعقد لهم وأنزلهم بتلك البلاد ، وكتب إلى معاوية بذلك ، يرى أنَّه قد فُتِحَ عليه ، فقال معاوية : إنَّ ابن أخي ليفرح بأنّه ليحزنني ، وينبغي له أن يحزنه ، قالوا : ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال : لأنّ (آمل) بينها وبين (زَرَنْج)[٤] صعوبة وتضايق ، وهؤلاء قومٌ نُكْر غُدْر فيضطرب الحبل غداً ، فأهون ما يجيء منهم أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها ، وتمَّ لهم على عهد ابن زياد ، فلما وقعت الفتنة بعد وفاة معاوية ؛ كفر الشاه ، وغلب على (آمل) وخاف رُتْبيل الشاهَ فاعتصم منه ولم يُرْضِه ذلك حين تشاغل النَّاس عنه ، حتى طمع في زَرَنْج ، فغزاها فحصرهم حتى أتتهم الأمداد من البصرة ، فسار رُتْبيل والذين جاءوا معه ، فنزلوا تلك البلاد شجاً لم ينتزع إلى اليوم[٥] وقد كانت تلك البلاد مذلَّلة إلى أن مات معاوية)[٦] .

ومن خلال استقراء تاريخ المنطقة في القرنين الأوَّلين ، يبدو أنَّ الحياة السِّياسية كانت زاخرة بالقلق ، والتشنُّج ، والمطاحنات العسكريَّة ، كما أنَّ منطقة سجستان بالذات

---

(١) تاريخ الطبري (٤ : ١٨٠ ـ ١٨١) .

(٢) (رُتْبيل) : لقبُ كلِّ من يملك في هاتيك البلاد تحت إمرة الدولة السَّاسانية . انظر دائرة المعارف مادة (بُسْت) .

(٣) آمل : بضم الميم . أكبر مدينة بإقليم طبرستان . معجم البلدان (١ : ٥٧) .

(٤) زَرَنْج : بفتح أوله وثانيه وسكون النون هي أكبر مدينة بسجستان . معجم البلدان (٣ : ١٣٨) .

(٥) يقصد اليوم الذي يريده محمد وطلحة والمهلب وعمرو ، لأن الطبري قال : كتب إليّ السُّري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو . تاريخ الطبري (٤ : ١٨٠ ـ ١٨١) .

(٦) ما سبق الموضع نفسه .

لم تكن قد استقرت للمسلمين إلا مؤخراً ، وقد كان رُتْبيل ذا قوة لا يستهان بها ، لذلك فقد اضطر المسلمون إلى مصالحته سنة اثنتين وخمسين على ألف ألف درهم ، مقابل إقراره على ملك بلاده[١] .

غير أنَّ رُتْبيل هذا كان يتحيّن الفرص ، فتارة كان يؤدِّي الخراج ، وتارة لا يفعل[٢] فبعث الحجَّاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة والي سجستان ، أنْ : ناجِزْ عدوَّ الله رُتْبيل بمن معك من المسلمين ، ولا ترجع عنه حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه ، وتقتل مقاتلته وتسبي ذريته ؛ فخرج عبيد الله للقاء رُتْبيل ، فعمل رُتْبيل حيلة انهزم فيها أمام المسلمين حتى حصرهم في الشِّعاب ثم التفّ عليهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ولم ينج من بقي منهم إلا بعد أن دفع عبيد الله لرُتبيل سبعمائة ألف درهم[٣] .

فهال الحجّاجَ هذا الأمرُ ، وتوفي عبيد الله بن أبي بكرة ، فجهَّز الحجاج جيشاً كثيفاً وولّى عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وعقد له على ولاية سجستان وحرب رُتْبيل[٤] . فسار ابن الأشعث يتبع رُتْبيل موغلاً في بلاده المخيفة حتى وصل إلى مكان موغل مخيف ، وكان قد حاز غنائم كثيرة ، فخاف على من معه من المسلمين ، ورأى أن يكتفي في ذلك العام بهذه الحروب مع رُتْبيل ، على أن يعاود الكرة كل عام حتى يستأصل شأفته[٥] .

إلاَّ أنَّ الحجَّاج وبَّخه على ذلك ، واتَّهمه بالجبن ، وقال له : إذا لم تتابع السير وراء رُتْبيل ، فأخوك هو الأمير مكانك وتنحَّ . فأتى أخاه ، وقال له : والله لئن كلَّمت أحداً بهذا لأقتلنك . ثم أعلن العصيان على الحجَّاج ، إلا أنَّه لا يأمن رُتْبيل خلفه ، فصالحه على أنَّه إن ظَفِر على الحجَّاج فلا خراج عليه أبداً[٦] ودارت المعارك الطاحنة بين جيوش

(١) تاريخ خليفة (ص٢١٨) .

(٢) تاريخ الطبري (٦ : ٣٢٢) .

(٣) ما سبق (٦ : ٣٢٣) .

(٤) ما سبق (٦ : ٣٢٦) .

(٥) ما سبق (٦ : ٣٢٩) .

(٦) ما سبق (٦ : ٣٣٦) .

الحجّاج وابن الأشعث ، فَهُزم ابن الأشعث ، ورجع فالتجأ إلى بُسْت ، وكان أميرَها عياضُ بن هِمْيان البكريُّ ، فرحَّب بابن الأشعث وأكرمه ، حتى إذا غفل ، أسره وقيّده فعلم بذلك رُتْبيل فأحاط ببست ، وهدَّد البكريَّ ، فأخلى سبيل ابن الأشعث بعد أن أخذ أماناً لنفسه وللبلد من رُتْبيل ، فسار ابن الأشعث وأقام عند رُتْبيل[١] .

غير أنَّ الحجّاج أهمَّه أمر ابن الأشعث ، وهيهات أن يتركه حتى يراه جثة هامدة فصار يراسل رُتْبيل ؛ فتارة يمنّيه وتارة يخوّفه ، حتى قال له بعض من حوله : إنَّ الحجّاج لن يدعك ؛ فما لك ولهذا الأمر؟ فقرر الغدر بابن الأشعث ، وقيَّد ابن الأشعث ، وحُمل إلى الحجّاج فألقى نفسه وهو في الطريق فمات ![٢]

وفي سنة ثنتين وتسعين غزا قتيبة بن مسلم سجستان يريد رُتْبيل وقرَّر استئصاله فتلقَّته رسل رُتْبيل بالصُّلح ، فصالحه[٣] .

فواضح أنَّ القرن الأول انقضى ولا يزال رُتْبيل يحدث القلاقل في تلك البلاد ويحول دون استقرارها بأيدي المسلمين .

ويحدِّثنا التاريخ أنَّ خلفاء بني أمية وخلفاء بني العبّاس كانوا يرسلون الجيوش لإخماد الفتن التي كان يحدثها ملوك هذه البلاد المعاهَدين ، أو بعض فئات المسلمين كالخوارج وغيرهم .

ومما يذكره التاريخ : أنَّ معن بن زائدة اغتيل على أبواب مدينة بُسْت (١٥٦هـ) .

وأشرت في الباب الأول إلى أنَّ يعقوب بن الليث الصفار مدّ سلطانه إلى بُسْت بعد أن احتل (كابل) سنة (٢٥٧هـ) .

ولما حاول السَّامانيون بدورهم أن يثبتوا أقدامهم في هذه المنطقة كانت بُسْت إحدى أشهر مواقع الصِّراع ، حتى تمكن السَّامانيون من بسط نفوذهم على تلك البلاد ، بإنهاء الدَّولة الصفّارية .

---

(١) تاريخ الطبري (٦ : ٣٦٩ ـ ٣٧١) تاريخ خليفة (ص٢٨٤) .

(٢) ما سبق (٦ : ٣٩١) تاريخ خليفة (ص٢٨٨) .

(٣) ما سبق (٦ : ٤٦٨) ، تاريخ خليفة (ص٣٠٤) .

على أنَّ (بُسْت) إنَّما نَعِمَت قُرابة قرن من الزمان بأوج ازدهارها في عهد الغزنويين ؛ إذ استولى عليها سُبُكْتُكين سنة (٣٦٦هـ) ففصلها عن ولاية (زَرَنْج) وأصبحت بُسْت المقرَّ الثاني لحكام غزنة الذين أقاموا فيها معسكرهم الدائم (العسكر) .

كما وقفت (بُسْت) في وجه التقدُّم السَّلجوقي سنة (٤٤١هـ) وهزموهم عدة مرات وهم يحاولون الاستيلاء على هذا الإقليم .

على أنَّ انهزام غزنة ونهبها سنة (٥٤٤هـ) على يد علاء الدين الغوري ، أضعف موقف بُسْت .

ولم تلبث أن وقعت في يد علاء الدين الذي غزاها ونهبها وأحرق القلاع السُّلطانية وكان هذا إيذاناً ببدء اضمحلال بُسْت .

إلاّ أنَّ ولاة الغوريين من سكان هذا الإقليم ما لبثوا أن أصلحوا قصور الغزنويين في بُسْت ، ورمَّموا ما تهدَّم من قلاعها ، كما سكنها من بعدهم الخُوارزمشاهية .

أما التخريب الكبير فهو الذي أصاب المدينة من قِبَل المغول (٦١٨هـ) ثم قضى تيمور على كثير مما تبقى من معالمها في القرن الثامن الهجري ، مما أدى إلى هجر المدينة هجراناً تاماً ، وأصبحت أراضيها المزروعة فيافيَ وسهوباً ، ولم تبق إلاّ القلعة التي كان لها شأن في حروب أباطرة المغول مع بلاد فارس ، وظلّت القلعة عامرة حتى جردها نادر شاه من كل أسباب الدفاع ، ولا تزال أسوار حصن بُسْت قائمة على شاطئ نهر الهندمند ، كما أنَّ الأطلال التي تشغل مساحة كبيرة من الأرض تشهد على ما كان لعاصمة الغزنويين من عظمة وبهاء[1] غير أنَّ الحقيقة تلزمنا أن نقول بأن مدينة بُسْت ، بسبب موقعها الجغرافي ومكانتها في تلك الحقبة ؛ سادها شيء غير قليل من الاضطراب والفوضى وضعفت عند كثير من أهلها حوافزُ الخير . ومما يدل على أنَّ بُسْت في القرن الرابع الهجري لم تكن مستقرَّة هادئة ، قولُ أبي الفتح البُستي شاعرها الكبير :

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (بُسْت) (ص٢١٥ ـ ٢١٩) وانظر تاريخ أفغانستان لفاروق حامد بدر (ص٢٤ ـ ٢٧) .

حَرَّضــوني علــى وزارة بُسْتٍ ورأَوهــا من أرفعِ الدرجــاتِ
قلتُ : لا أشتهــي وزارة بُسْتٍ إنني لم أمَـلَّ ـ بعدُ ـ حياتي[١]

وهو يعيب على كُتّاب بُسْت ورجالاتها تناحرهم على منصب وزارة بُسْت ، ويراه أقل من أن يسعى إليه ، ويُخاصَم من أجله فيقول :

أكُتّــابَ بُسْتٍ كم تنــاحُرُكم على وزارة بُسْــت وهــي سَخْنــة عــين
وخُفّ حنين فــوق مــا تطلبــونه فكم بينكـم في ذاك حــربُ حنينِ[٢]

(١) أبو الفتح وشعره (ص٢٣٣) .

(٢) ما سبق (ص٣٢٠) .

المبحث الثّالث

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في (بُسْت)

مرَّ سابقاً أنَّ لبُسْتٍ موقعاً جغرافياً متميزاً ، ولذلك فهي محطَّة بين الطرق المؤدية إلى فارس وخراسان والهند ، وهذا يعني أنَّها ملتقىً تجاريٌّ تتنوَّع فيه المنتجات ، وتتعدَّد المحاصيل ، كما أنَّ موقعها كمرفأ عظيم للملاحة على نهر كبير ؛ أعطاها قيمة اقتصادية أخرى بالإضافة إلى خصوبة أراضيها ووفرة مياهها ، وكثرة أشجارها وثمارها ، حتى قيل إنَّها جنَّة .

وهذا يفسر لنا اهتمام الصفّاريين ، والسَّامانيين ، والغزنويين ، والغوريين ، والمغول ومن بعدهم بهذه المدينة ، وحرص كل دولة من هذه الدول على امتلاكها ، أو إهلاكها .

فهي مدينة خصبة ، وفيرة المياه ، كثيرة المزروعات والمنتجات ، واقعة في وسط تجاريّ مرموق ، وتتمتَّع بموقع حصين يمكِّن المقيمَ فيها من صدِّ غارات المعتدين .

وعلى هذا فإنَّه يمكننا القول بأنَّ الحياة الاقتصادية كانتِ جيدة ومنتعشة ، وأنَّ أهل بُسْت كانوا يعيشون في نعمة ورفاه .

ولقد عرف أهل سجستان عامة بعِظَم الخِلَق والجلادة ، فهم يمشون في أسواقهم وبأيديهم سيوف مشهورة ، ويعتمّون بثلاث عمائم ، أو أربع ، كل واحدة لون ، ما بين أحمر وأصفر وأخضر وأبيض ، وغير ذلك من الألوان ، على قلانس شبيهة بالمكّوك[1] ويلفُّونها لفَّاً يظهر ألوان كل واحدة منها ، وأكثر ما تكون هذه العمائم من الإبريسيم[2] وطولها ثلاثة أذرع أو أربعة . وليس بينهم من المذاهب غير الحنفية من الفقهاء إلا قليل نادر[3] .

وأهل هذه المنطقة ذوو غَيرة ، وأَنَفة وشرف ، شأن الأقوام الخَلَصاء الذين لم يستذلّهم

---

(١) المكّوك : في القاموس : المكُّوك كتنُّور : طاسٌ يُشرَب به . (٣ : ٣٢٠) .

(٢) الإبريسيم : هو الحرير . القاموس (٤ : ٧٩) .

(٣) يتكلم ياقوت على سجستان حين زارها في القرن السابع . أما في عصر ابن حبَّان فكان الغالب عليها مذهب الشَّافعي ، أو لعله يتكلم على مدينة سجستان بعينها ، قال ابن سلطان في شرح المشكاة : أما بلاد الأفغان فشافعيَّة . انْظر الفكر السَّامي (٢ : ٦٦ ـ ٦٧) .

الطغيان ، ولم تستهوهم الشهوات الرخيصة ، وقد زادهم الإسلام عزة وشرفاً ونخوة (فلا تخرج لهم امرأة من منزل أبداً ، وإن أرادت زيارة أهلها فبالليل) وكأنَّ هذا كان عرفاً عاماً في المجتمع الإسلامي كله ، إلى عهد قريب حتى استعمر الغرب بلاد المسلمين ، وانبهر المسلمون بمدنيتهم الزائفة . وأمام هذا الانبهار ، لم يستطع كثير من المسلمين رؤية شيء مما عند الغرب سوى فجورهم ومجونهم وسفور نسائهم فخدعوا أنفسهم بأنَّ الحضارة هي هذه المنكرات ؛ فانقادوا وراء شهواتهم ونزواتهم وابتعدوا عن تعاليم دينهم وعراقة أخلاقهم ونبلهم .

قال محمد بن بحر الرّهنيّ : (سجستان إحدى بلدان المشرق ، ولم تزل لقاحاً على الضيم ممتنعة من الهضم ، منفردة بمحاسن ، متوحِّدة بمآثر لم تُعرف لغيرها من البلاد ، وما في الدنيا سوقة أصحُّ معاملةً ، ولا أقلُّ منهم مُخاتلةً .

ومن شأن سوقة بلادهم أنَّهم إذا باعوا ، أو اشترى منهم العبد أو الأجير أو الصبيّ ؛ كان أحبَّ إليهم من أن يشتري منهم الصَّاحب المحتاط والبالغ العارف ، ثم إنَّ من أبرز أخلاقهم مسارعتَهم إلى إغاثة الملهوف ، ومداركة الضعيف ، ثم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، ولو كان فيه جَدْعُ الأنف .

وأجلُّ من هذا كلِّه أنَّه لُعِن عليٌّ بن أبى طالب رضي الله عنه ، على منابر الشرق والغرب ، ولم يُلعن على منابرهم إلاَّ مرة واحدة ، وامتنعوا على بني أمية ، حتى زادوا في عهدهم : وألا يُلعن على منبرهم أحد ، ولا يصطادوا في بلادهم قنفذاً[١] ولا سلحفاة[٢] .

وأي شرف أعظم من امتناعهم من لعن أخي رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم على منبرهم ، وهو يُلْعن على منابر الحرمين ، مكة والمدينة)[٣] .

---

(١) القنفذ : حيوان له شوك على ظهره بمثابة سلاح له . انْظر الكلام عليه في عجائب المخلوقات للقزويني (ص٤٨٦) .

(٢) السلحفاة : حيوان بري بحري انْظر الكلام عليه في عجائب المخلوقات (ص ٤٧٨) . وإنَّما شرطوا ذلك لأن بلادهم مليئة بالأفاعي ، والقنافذ تأكل الافاعي ، فما من بيت إلا وفيه قنفذ .

وأما السلحفاة فيزعم أهل المعرفة أنَّ لها فوائد جمة بالنسبة لعلاج الأمراض ووقاية المزروعات . انْظر عجائب المخلوقات للقزويني (ص٤٧٨) .

(٣) معجم البلدان (٣ : ١٩١)

كانت هذه هي الصِّفات العامة لأهل تلك البلاد ، إلاَّ أنَّ كثرة الحروب والمطاحنات السِّياسية ، قد شوهت وجه تلك البلاد ، وأظهرتها بغير ذلك المظهر النقي الأصيل .

(ففي هذه الرقعة من العالم الإسلامي ، التي كثرت فيها الدول والإمارات ، كثرةً يَحار المؤرخ في تتبُّعها واستقصائها ، ويضطر لكي لا يضل في متاهاتها ؛ أن يغفل بعضها ، لكي يحتفظ بالصورة العامة للأحداث في المنطقة .

هذه المنطقة ، كان السلام فيها أبعد الأشياء عن التحقيق ، فالحروب بين الدول الكبيرة فيها ، لا تنقطع لسبب أو لآخر ، وإذا انقطعت فلن نعدم على أي حال حرباً أو اثنتين بين الدول الصغيرة فيها ، أو شقاً للطاعة داخل هذه أو تلك من أقارب الوالي ، أو قُوّاده ، أو الطامعين في ملكه .

لهذا فقد كان عدم الاستقرار هو طابعَ العصر المميِّزَ ، ومنه نشأت الفتن والاضطرابات ، وانعدمت إلى حدٍّ كبير الروابط الاجتماعية بين النّاس ، وفقدت الثقة بينهم أيضاً ، نتيجة ضعف الوازع الدينيّ والأخلاقيّ في نفوس كثيرين منهم ، تلك النّفوس التي لم يبق فيها مكان لغير الانتهازية والجشع ، وكيف يبقى فيها الخير ، والملوك والأمراء يسلكون سُبُلاً غريبة من الوحشية ، للاحتفاظ بممتلكاتهم أو توسيعها على حساب الآخرين؟!

ولعل من أغرب الأمثلة على ذلك ، ما نقرؤه عن خلف بن أحمد الصفّار ملك سجستان الذى قتل ابنه بيده ، ثم غسّله وكفّنه وصلّى عليه ، وذلك لأنه فشل في تحقيق طمع والده في الاستيلاء على إحدى الإمارات .

ثم ما نراه من أمر عضد الدَّولة ، حين قتل ابن عمه بختيار بن معز الدَّولة[1] واستولى على ملكه في بغداد ، استشرافاً إلى العظمة بتولي الملك في حاضرة الخلافة .

وإذا كان هذا ديدن الملوك مع من تربطهم بهم صلة القرابة والدم ، فما بالك بطريقة معاملتهم بمن لا تربطهم به هذه الصّلة من حاشيتهم ومحكوميهم؟!

---

(١) تاريخ الإسلام السِّياسي (٣ : ١٠٥) .

وهكذا كانت العلاقة بين الحكّام ، وبين من يخدمونهم من رعاياهم قائمة على البطش والقهر والإيقاع بهم ، متراوحة بين القتل والضرب والمصادرة والعزل ، وهو أخفها .

وقد ترتّب على كثرة العزل والتولية ، أدواء خطيرة في المجتمع ، فاستشرى الفساد والرشوة في أرجائه ، وقد أصبحت هذه الأخيرة قانوناً مفروضاً ، وعرفاً سائداً لا مفر منه في قضاء الحاجات)[١] .

وإنَّ خير من يصوِّر لنا الحياة الاجتماعية في بُسْت أحدُ أكبر عظمائها وأعلامها ؛ وهو الإمام حَمْد بن محمد أبو سليمان الخطّابي البستيّ (ت : ٣٨٨هـ) .

قال رحمه الله مبيناً عدم استتباب الأمن في بُسْت ، وكثرة الوشاة والمغرضين فيها :

(وفي العزلة ؛ الأمانُ ببلد بُسْت خاصّة ، من دواهي الكُنُف[٢] الشارعة ، والمثاعب[٣] السائلة . ثم إنّ جنايتها عند أهلها ؛ جناية لا أَرْشَ لها ، ودماءُ قتلاها مطلولة ، لا عَقْلَ ولا قَوَد فيها ، فكلما قلَّ بروز الإنسان إليها ، وعبوره عليها ؛ كان أوفر لمروءته ، وأبقى لنظافته وأبعد له من أذاها وغائلتها ، وأسلم له من دائها وعاديتها)[٤] . والعزلة وإن كان للأقدمين فيها أخذٌ وردٌّ (فالاختيار في هذا الزمان اعتزال النَّاس ، ومفارقة عوامِّهم ، فإنّ السَّلامة في مجانبتهم ، والراحةَ في التباعد منهم)[٥] ؛ حيث إنَّ هذا الزمان قليلٌ خيره ، بكيء دَرُّه ، وبالله نستعيذ من شره وريبه[٦] والرسول صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم أنذر أمته في عدة أخبار أيام الهرج وحذَّرهم فتنه ، وذكر أنّ أمارة الهرج أن لا يأمن الرجل جليسه فتأملوا رحمكم الله ، فإن كنتم لا تأمنون جلساءكم في هذا الزمان ، ولا تسلمون من أكثر

(١) انْظر فيما سبق كله : أبو الفتح البستي للدكتور مرسي الخولي (ص١٩ ـ ٢٦)

(٢) الكُنُف : جمع كنيف وهو بيت الخلاء .

(٣) المثاعب : جمع ثعب بفتح الثاء وسكون العين هو مسيل الماء وغيره .

(٤) العزلة للخطَّابي (ص٣٣) .

(٥) العزلة للخطَّابي (ص٦) .

(٦) ما سبق (ص٨) .

من تصحبُون ؛ فاعلموا أن قد حلّت العزلة ، وطاب الهرب ، وحان الفرار منهم . . .[١] .

(وفي العزلة السَّلامة من المأثم في المنكر ، يراه الإنسان فلا يُغيّره ، والأمان من غوائل أهله وعاديتهم إذا غَيّره ، فقد أبى أكثر أهل هذا الزمان قبولَ النصائح ، ونصبوا العداوة لمن دعاهم إلى هدى ، أو نهاهم عن ردى ، فلو لم يكن في الوحدة والتباعد منهم إلا السَّلامة من إثم المداهنة وخطر المكافحة ، لكان في ذلك الربح الرابح ، والغنيمة الباردة . . .)[٢] .

ولعلَّ أهم من هذا كله أنَّ كثرة العامة توقع المرء فيما لا يد له فيه ، وما أكثر هذا في ذلك الزمان وفي بُسْت خاصَّة ! (ولو لم يربح الإنسان في العزلة والتخلّي عن النَّاس وعن مساوئهم ، والانقطاع عن محاورتهم إلا ما يُكفاه من مؤنة التحرز منهم ، وما يستفيده من الأمان أن يرفعوا عليه قولاً يسمعونه يتكلّم به في حال غفلة واسترسال ، أو يتأولوا عليه كلاماً لا تبلغ عقولهم كنهه ، فيوجهوه إلى غير جهته ، وينحلوه غير صفته ؛ لكان فيه كفاية ، وعصمة واقية)[٣] . (ثم اعلم يا أخي أنَّ عامة أهل هذا الزمان ، قد ساءت رغبتهم ، وقلّت آدابهم ، وغلظت محنتهم على من يغاشرهم ، لأنَّ موقفه بين أن يخونهم فيسالمهم ، وبين أن لا يصون نفسه فيناصحهم ، وقد كانوا والنَّاس ناس ، والزمان زمان ، يستبشعون الحق ، ولا يستمرؤون طعم النصح ، وينكرون على من يهدي إليهم عيوبهم ، ويصدقهم عن أنفسهم ، فما ظنك بهم الآن ، مع فساد هذا الزمان الكَلِب المنقلب؟ أتراهم يذعنون للحق ، ويصغون إلى النصح؟ كلا إنّك إلى أن تَفْسُد بهم يخوضون ، أقرب منهم إلى أن يصلحوا بك يستمعون . . فانظر رحمك الله وتأمل ، هل تجد اليوم أعواناً على المعروف ، ودعاة إلى الخير ، ونهاةً عن المنكر؟ فإن كنت لا تظفر بهم ، ولا تقدر عليهم فانجُ برأسك ولا تغرِّر بنفسك ، إنّ رضى النَّاس غاية لا تدرك ، قد أعيا الأولين داؤهم ، وانقطعت فيهم حيلهم ، فما حاجتك إلى عناء لا غنى له ، وتعب

---

(١) ما سبق (ص١١) .

(٢) ما سبق (ص٢٥) .

(٣) العزلة (ص٢٧ ـ ٢٨) .

لا نجاح فيه؟ وما أَرَبك بصحبة قوم لا تستفيد بلقيِّهم علماً ، ولا بمشهدهم جمالاً ، ولا بمعونتهم مالاً؟

إذا تأملتهم حقاً ؛ وجدتهم إخوان العلانية ، أعداء السريرة ، إذا لقوك ؛ تملَّقوك ، وإذا غبت عنهم ؛ سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقيباً ، ومن خرج قام بك خطيباً ، أهل نفاق وخديعة ، وأصحاب نقل ونميمة ، وإخوان بُهت وعظيمة ، ولا يَغُرَّنَّك ما ترى من احتشادهم عندك ، وازدحامهم عليك ، ولا تتوهمن بهم تعظيماً لعلمك ، أو تقديماً لحقّك) .

(إنَّ أعظم ما يقودهم إلى مجالس العلماء ـ اليوم ـ ويحشرهم إلى أبوابهم ، الرغبةُ في منال مآربهم ، وما يتخذونه سلَّماً إلى أوطارهم ، وحميراً لحاجاتهم .

فهم ـ أي العلماء ـ المساكين ، بين شرَّين منهم ومن تكاليفهم : إن أسعفوهم ببعضها ؛ احتجروهم بكثرة توابعها وآذوهم ، وإن امتنعوا عليهم فيها ؛ شَنَعوهم وعادَوْهم) وليس هذا فحسب ، بل هم يمنُّون على مشايخهم بذلك .

(ثم إنَّهم ـ على ذلك ـ يلزمونهم بِدالَّة المعرفة ، أن يهدفوا لهم أغراضهم ، فيخاصموا عنهم من خاصمهم ، ويعادوا من عاداهم ، وينازلوا من نازلهم ، فيصيرون من حيث يبدؤونهم فقهاء سفهاء ! ومن حيث ظنوا أنَّهم متبوعون رؤساء ، أتباعاً أخسَّاء !

فمَن أخسر صفقة ، وأشد بليَّة من هؤلاء معهم؟ أليس الفرار منهم حقاً واجباً والتخلُّصُ من بينهم غُنماً؟ بلى إنَّه كذلك ، وبحَقٍّ ما قيل : اعتزال العامة مروءة تامَّة !)[1] .

إنَّني ألمح من بين كلمات أبي سليمان الخطَّابي ـ رحمه الله ـ مرارة وأسى ، وحرقة ولوعة ، فالحياة في بُسْت لا أمان فيها ، والنَّاس لا ذمم لهم ، وجوُّها موبوء بالقذارة وعدمِ اهتمام المسؤولين ، وطلبةُ العلم لا أدب عندهم ، والعلماء ضعفاء مقهورون لا حيلة لهم .

وما أكثر الذين يسمعون منك الكلام فيؤوِّلونه على غير مرادك ، فيوقعون بك عند

---

(١) العزلة (ص٢٩ ـ ٣٠) .

الأمراء ، ولذلك تراه يكرِّر من مناقب العزلة أنَّها (تحسم عنك أوهام المتجنِّين ، وتقطع موادَّ شكايات المتَّجرين . . .)[١] . ويلمِّح الإمام الخطَّابي إلى سوء ظن الحكام برعيَّتهم ومراقبتهم لكلِّ حركة منهم ، بسبب (أنَّ سوء ضمائرهم يصوِّر لهم ، ويوحي إلى قلوبهم أنَّ اجتماع كل طائفة من النَّاس ، وتناجيَ كلِّ شرذمة منهم ، إنَّما هو في التنفير عنهم والبحث عن عيوبهم ، أو في تبييت رأي ، ودسيس غائلة عليهم ، ويغلب هذا الظن خصوصاً على من يُحِسُّ من نفسه بتهمة ، ويُعرف عند النَّاس بريبة ، وقد وصف الله عز وجل المنافقين بذلك فقال عز وجل : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون : ٤) . .) .

وهو يشنِّع على أعوان السَّلاطين الذين لا يتورعون عن رمي النَّاس بالباطل ، ويحذِّر من صحبة السُّلطان ، لأنَّ صحبته فتنة للإنسان عن دينه ، إذ (من الذي يدخل إليهم اليوم فلا يصدّقهم على كذبهم؟ ومن الذي يتكلَّم بالعدل إذا شهد مجالسهم؟ ومن الذي ينصح؟ ومن الذي ينتصح منهم؟ إنَّ الأسلم لك يا أخي والأحوط لدينك أن تُقلَّ مخالطتهم وغشيان أبوابهم ، ونسأل الله الغنى عنهم ، والتوفيق لهم)[٢] .

ثم يوجِّه الإمام الخطَّابي نصيحة ملؤها الأسى والحزن ، والشعور بالضعف في ذلك العصر الذي كثر فيه الشر ، وقلَّ فيه الخير ، فيقول : (سأفيدك فائدة يا أخي ، يَجِلُّ نفعها ، وتعظُم عائدتها ، وما أقولها لك إلاّ عن وُدٍّ لك ، وشفقة عليك ، فإنَّ البلوى في معاشرة أهل زمانك عظيمة ، فاستعِنْ بها على ما يلقاك من أذاهم ، فإنَّك لا تخلو من قليله ، وإن سلمت من كثيره . وذلك أنَّك قد ترى الواحد بعد الواحد منهم ، يتكالب على النَّاس ويتسفَّه على أعراضهم ، وينبح فيها نباح الكلب ، فيهمُّك من شأنه ما يهمُّك ، ويسوؤك منه ما يسوؤك أن لا يكون رجلاً فاضلاً ، يُرْجَى خيره ، ويُؤمَن شره فيطول في أمره فكرُك ، ويدوم به شغلُ قلبِك ، فأزِحْ هذا العارض عن نفسك ، بأن تعده على الحقيقة كلباً خِلْقَةً ، وزِدْ به في عدد الكلاب واحداً ، ولعلَّك قد مررت مرَّةً من

(١) العزلة (ص٣٠) .

(٢) العزلة (ص٨٦) .

المرات بكلب من الكلاب ينبح ويعوي ، وربما كان أيضاً يساور[١] ويعقر ، فلم تحدِّث نفسك في أمره ، بأن يعود إنساناً ينطق ويسبِّح . فلا تتأسف له ألاّ يكون دابة تركب ، أو شاة تحلب ! فاجعل ـ أيضاً ـ هذا المتكلِّب كلباً مثله ، واسترح من شغله ، واربح مؤونة الفكر فيه . وكذلك فلتكُنْ منزلةَ مَن جَهِلَ حقَّك ، وكَفَرَ معروفَك ، فاحسَبْه حماراً ، أو زد به في عدد العَانَة[٢] واحداً . . .)[٣] .

أوَ ليس في هذه الكلمات الفظيعة المفجعة أَوْكدُ الدّلالة على أنَّ الحياة الاجتماعية في مدينة بُسْت بلغت حداً من التردِّي يؤسَف له ، حتى إنّ مثل الإمام الخطّابي تلوكه الألسنة ، ويُتّهم ويمتحن ، كما امتُحن شيخه ابن حبان من قبله هناك؟ وسيأتي !

قال الرافعي في التدوين : قرأت بخطّ أحد الفضلاء ، قال : أنشدني الشيخ أبو القاسم البستي ، قال : أنشدني أبو بكر بن محمد السّجزيّ ، لما تكلّم بعض السُّقّاط هناك في الشيخ أبي سليمان الخطابي ببيتين :

شتمَتْ مَواكِبَهــا عبيدُ نزار   شِيَمُ العبيدِ شتيمةُ الأحــرار
والبَحْرُ يشتمُه الغريقُ وموجُه   من فوقه متلاّطمُ التيّــار[٤]

وحالنا اليوم شرّ من هذا الحال ، أصلح الله المسلمين ، وأصلحنا معهم بجوده وكرمه !

---

(١) المساورة : المواثبة والمهاجمة .

(٢) العانة : القطيع من حمر الوحش .

(٣) العزلة (ص٥٣) .

(٤) التدوين في أخبار قزوين (٢ : ٣٣٥) والمواكب : كناية عن سادتها . والبيت غير مفهوم لي تماماً ، وقد كتبته على نحو ما فهمت .

المبحث الرابع

الحياة العلميَّة في مدينة بُسْت

ذكرت سابقاً أنَّ القرن الرابع الهجري كان أزهى عصور الثقافة الإسلامية على الإطلاق .

وقد كانت النّهضة العلمية عميقةً وشاملة ، فلم تقتصر على عواصم الدُّول الإسلامية وحواضرها المتعددة ، التي كانت تزخر بالعديد من العلماء الأعلام ، بل وصلت كذلك إلى الإمارات البعيدة ، والولايات الصغيرة أيضاً !

فمدينة بُسْت ، كان فيها في ذلك العصر عدد من العلماء في فنون شتى ، ولا بدّ أنّ ابن حبّان قد أفاد من طبقة شيوخه ، وإن لم يروِ عنهم في صحيحه ، وسوف أرتّبهم على حسب القرون ، لنرصد درجة التطور العلمي في هذه المدينة من جهة ، ولنتعرف إلى الشيوخ الذي كان لهم أثر في نشأة ابن حبان ، ممن لم تذكرهم المصادر ، من جهة أخرى !

ـ محمد بن عكاشة بن صالح العَتَكي ، أبو صالح الأزدي من أهل بُسْت ، سمع سفيان بن عيينة وغيرَه ، وليَ القضاء ببُسْت ثلاثين سنة ، ومات قبل المائتين ، قال ابن حبّان : كان يأخذ رزقه في كل شهر ثلاثة آلاف درهم ، وهو أقدم شيخ كان عندنا ببُسْت من المحدثين ، روى عنه داود بن عبدة الأغر[1] .

ـ الفضل بن زياد البُسْتيّ ، يروي عن عبّاد بن عبّاد المهلّبيّ (ت : ١٧٩هـ)[2] .

ـ يحيى بن حسّان البُسْتيّ ، يروي عن يحيى بن حمزة (ت : ١٨٣هـ)[3] .

ـ أبو داود البُسْتيّ ، روى عن وكيع بن الجراح (ت : ١٩٧هـ) روى عنه عليّ بن الحسن الهرثميّ[4] .

---

(١) الثقات (٩ : ٧٥) .

(٢) المعجم الصغير للطبراني (١٢) .

(٣) تاريخ بغداد (٢ : ٣٦٢) .

(٤) الجرح والتعديل (١ : ٢٢٢) .

- أحمد بن محمد البُسْتيّ الخارزنجيّ اللغويّ (ت : ٢٤٨هـ)[١] .

- أحمد بن سيف بن هاشم أبو حامد البُسْتيّ ، قدم بغداد ، وحدّث بها عن عبد الغني بن رفاعة المصريّ (ت : ٢٥٥هـ)[٢] فهو من طبقة شيوخ ابن حبان البستيين .

- أحمد بن بُسْت أبو حامد البُسْتيّ ، قدم بغداد ، وحدَّث بها عن محمد بن عبيد الله القردواني ، وروى عنه جعفر بن محمد بن الحكم المؤدّب الواسطي[٣] .

- سعيد بن شاذان أبو عثمان البُسْتيّ ، يروي عن عبد الرحمن بن بشر العبدي (ت : ٢٦٠هـ)[٤] .

- محمد بن جعفر أبو بكر البُسْتيّ ، من أقران عثمان بن سعيد الدارمي ، روى عنه الحسن بن علي الطوسي الحافظ[٥] .

- محمد بن القاسم بن حسان البُسْتيّ ، روى عنه شيخ ابن حبان محمد بن عبدوس النيسابوري ، قال : قدم علينا نيسابور ، وحدَّثنا بها[٦] .

- أبو محمد البُسْتيّ شيخ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، روى مكاتبةً عنه ، عن أبي ثور صاحب الشافعيّ[٧] .

- يحيى بن الحسن أبو زكريا البُسْتيّ ، روى عن أحمد بن سنان وعباس الدُّوري

---

(١) اللسان (١ : ٢٦٨) .

(٢) تاريخ بغداد (٤ : ١٨٩) وتهذيب الكمال (٢٢٩) .

(٣) تاريخ بغداد (٤ : ٥٦) .

وأنا أخشى أن يكون هذا المترجَم هو الذي قبله ، والخطيب عقد لهما ترجمتين منفصلتين ، فيحرَّر !

(٤) تهذيب الكمال (١٦ : ٥٤٥) .

(٥) التقييد لابن نقطة (١ : ٢٣٢) واللسان (٢ : ٢٣٢) .

(٦) المجروحين (٣ : ١٢٧) .

(٧) الحلية لأبي نعيم (٩ : ١٢٤ ، ١٣٢) .

وغيرهما . قال السهميّ : حدَّثنا عنه أبو أحمد بن عَدِيٍّ الحافظُ بجرجان ، فهو من طبقة شيوخ ابن حبان البستيين[١] .

ـ إسحاق بن إبراهيم بن نصر البُسْتيّ القاضي ، يروي عن الوليد بن عمرو بن السُّكَيْن البلدي ، لكن نسبه في تهذيب الكمال هكذا بالسين وبالشين (البُشتي) وهو من طبقة شيوخ ابن حبان ، لكنني لم أقف على روايته عنه[٢] .

ـ إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الوادعي أبو محمد البُسْتيّ القاضي (شيخ ابن حبان) قال ابن حبان : أحد النبلاء من المحدّثين ، والعقلاء من المتَّقين ، وقد أكثر عنه ابن حبان في صحيحه وغيره من كتبه[٣] .

ـ محمد بن أحمد بن أبي عون الريّاني شيخ ابن حبان (ت : ٣١٣هـ) ويظهر أنه قَدِمَ بُسْت لنشر العلم فيها ؛ لأنّ ابن حبان قال : أخبرنا ببُسْت ، ولم يقل : البُسْتيّ ، أو من أهل بُسْت ، كما هي عادته[٤] .

ـ محمد بن عبد الله بن الجنيد من أهل بُسْت يروي عن عليّ بن حجر . قال ابن حبان : كتبنا عنه نسخاً حِسَاناً ، مات سنة أربع ، أو ثلاث وثلاثمائة ، وكان شيخاً صالحاً[٥] .

ـ محمّد بن عمرو بن عبّاد أبو عليّ البُسْتيّ شيخ ابن حبان ، وقد روى عنه في صحيحه[٦] .

ـ زكريا بن يحيى البُسْتيّ ، سمع منه ابن عديّ ببيت المقدس ، وروى عنه في

---

(١) تاريخ جرجان (١ : ٤٩٧) .

(٢) تهذيب الكمال (٣٠ : ٢٤٢) و(٣١ : ٦٣) .

(٣) الثقات (٨ : ١٢٢) وله روايات كثيرة في صحيح ابن حبان ، منها : (١٧ ، ١٤٠ ، ٢٥٢ ، ٣٨٤) وانظر تهذيب الكمال (١١ : ٤٣٨) .

(٤) الإحسان (١٣٢٩) .

(٥) الثقات (٩ : ١٥٥) .

(٦) الإحسان (٧٢٩٨) .

الكامل روايات كثيرة ، فهو من طبقة شيوخ ابن حبان البستيين[١] .

ـ أبو جعفر البُسْتيّ ، شيخ ابن وضّاح ، أورد الحافظ في التهذيب عن ابن وضّاح قال : سألت أبا جعفر البُسْتيّ عن إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسديّ ، فقال : بصريّ ثقة وهو أحفظ من الثقفيّ[٢] .

أقول : مدينة ليست بالكبيرة يوجد فيها كلّ هؤلاء العلماء في طبقة واحدة ؛ لا ريب أنها كانت على عناية كبيرة بالعلم ، وقد أفاد ابن حبان منها فوائد كبيرة قبل رحلته الطويلة التي سوف أعرض لها في الفصل الثاني من هذا الباب .

وبعد هذه الطبقة المتقدمة من شيوخ ابن حبان وشيوخهم ، تأتي طبقة ابن حبان وأقرانه ، ممّن أخرجَتْهم بُسْت من هذه الطبقة ، ممن وقفت على ذكره في كتب التراجم :

ـ الخليل بن أحمد بن محمد المهلبي أبو سعيد البُسْتيّ القاضي ، روى عن محمد ابن معاذ بن فهد الشعراني المتوفى (٣٣٤هـ) روى عنه البيهقيّ ، وصفه ابن الصلاح بالفضل[٣] .

ـ محمد بن عبد الله بن موسى البُسْتيّ أبو الحسن التاجر (ت : ٣٤٠هـ) روى عنه زكريا بن يحيى البُسْتيّ[٤] .

ـ أحمد بن يوسف بن هاشم البُسْتيّ (ت : ٣٦٩هـ) يروي عن عبد الله بن إبراهيم ابن أيوب البغدادي ، من أقران ابن حبان[٥] .

ـ الحسن بن يوسف بن يحيى أبو معاذ البُسْتيّ ، سكن بغداد وحدّث بها عن محمد

---

(١) الكامل لابن عديّ (٢ : ١٢٧ ، و ٤/ ١٨٨ و ٥ : ١٣٦ ، ٣٨١ ، و ٦ : ٣٩٠ ، ٤٤٧) وتهذيب الكمال (٢٩ : ٤٦٦) والتقييد لابن نقطة (١ : ١٦٠) .

(٢) تهذيب التهذيب (١ : ٢٤٢) .

(٣) اللسان (٥ : ٣٨٤) والسنن الكبير (٢ : ١٣٨) وعلوم الحديث (ص : ٣٥٨) وفي موضع من اللسان نسبه الخليل بن أحمد بن الخليل (٥ : ٣٨٤) وكناه أبا سعيد ، وهو هو ، والله أعلم .

(٤) اللسان (٥ : ٢٤٠) .

(٥) النبلاء (١٦ : ٢٥٢) .

ابن مخلّد ، والحسين بن يحيى بن عيّاش ، وروى عنه أبو بكرٍ البرقانيُّ الحافظ ، قال الخطيب : سمع الحديث على كبر سنّه ، وكان ثقةً (ت : ٣٧١هـ) فهو من طبقة ابن حبان[١] .

ـ أبو نصر البُسْتيّ ، روى عنه أبو الحسن علي بن فضلان بن سويد الجرجاني (ت : ٣٧٨هـ) بمكة المكرمة[٢] فيبدو أن أبا نصر هذا من أقران ابن حبان .

ـ محمد بن علي بن حسان أبو بكر البُسْتيّ ، شيخ الحافظ أبي منصور عبد الخالق ابن زاهر الشحّامي ، هو من أقران ابن حبان[٣] .

ـ جعفر بن محمد البُسْتيّ ، يروي عن الحسن بن سفيان ، فهو من أقران ابن حبان[٤] .

ـ يحيى بن عمروٍ البُسْتيّ ، روى عن محمد بن عبد الرحمن الدَّغُوليّ ، وروى عنه الحاكم النيسابوريّ ، هو من أقران ابن حبان[٥] .

ـ أحمد بن محمّد الأديب البُسْتيّ ، من كبار تلامذة ابن خزيمة ، فقد كان معه في الوفد الذين خرجوا إلى بخارى لزيارة أميرها إسماعيل بن أحمد السامانيّ ، وروى عنه الحاكم النيسابوري ، هو من أقران ابن حبان[٦] .

ـ محمد بن إبراهيم بن محمد بن جناح أبو أحمد البُسْتيّ ، ذكر أبو القاسم بن الثلاّج أنّه قدم بغداد حاجّاً سنة (٣٤٦هـ) وحدثهم بها عن إسحاق بن إبراهيم القاضي البُسْتيّ ، فهو من أقران ابن حبان وزملائه[٧] .

ـ أحمد بن عبد الله بن سهل بن خشنام أبو حاتم البُسْتيّ قدم بغداد حاجّاً ، وحدَّث

---

(١) تاريخ بغداد (٧ : ٤٥٦) .

(٢) رجال صحيح البخاري للكلاباذي (١ : ٣١٩) .

(٣) النبلاء (٢٠ : ٢٥٤) وذيل التقييد (٢ : ١٨٤) .

(٤) تذكرة الحفاظ (٢ : ٧٠٤) و(٣ : ٧٨٧) والنبلاء (١٤ : ١٥٨) .

(٥) النبلاء (١٤ : ٥٥٨ ، ٥٥٩) .

(٦) تاريخ بغداد (٤ : ١٨٧) وتهذيب الكمال (١ : ٣٢٣) .

(٧) تاريخ بغداد (١ : ٤١٢) .

بها عن إسحاق بن إبراهيم البُسْتيّ ، قال الخطيب : حدثنا عنه ابنُ رزقويه[(١)] .

ـ أحمد بن مطرّف أبو الحسن القاضي البُسْتيّ ، روى عن هشام بن علي السيرافي وجعفر بن محمد بن محمد بن سوار النيسابوري وغيرهما ، وروى عنه عليّ بن أحمد بن محمد السامريّ ، وسمع منه ببغداد سنة (٣٢٧) وحديثه في مسند الشهاب ، وهو من أقران ابن حبان[(٢)] .

ثمّ تأتي بعد طبقة ابن حبان طبقة تلامذته ، وممن وقفت على نسبتهم إلى بُسْت :

ـ حمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي أبو سليمان البُسْتيّ ، تلميذ ابن حبان ، قال الذهبيّ : الإمام العلامة المفيد المحدِّث الرحَّال (ت : ٣٨٨هـ)[(٣)] .

ـ علي بن محمد البُسْتيّ ، أبو الفتح الشاعر الأديب (ت : ٤٠١هـ) تلميذ ابن حبان[(٤)] .

ـ أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد أبو الفضل القاضي الهاشمي الرشيدي من ولد هارون الرشيد ، ولي القضاء بسجستان ، وقَدِمَ بغداد في سنة ست عشرة وأربعمائة وحدَّث بها . قال الخطيب : وكنت إذ ذاك بنيسابور إلا أني سمعت منه هناك قبل وروده بغداد . حدَّثني مسعود بن ناصر السجستاني في آخر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة أنه ترك الرشيديَّ حيّاً في ذلك الوقت ببُسْت[(٥)] .

ـ أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن محفوظ البُسْتيّ أبو الحسن الواعظ المعتزلي (ت : ٤٤١هـ)[(٦)] .

ـ حجّاج بن قاسم أبو محمد البُسْتيّ (ت : ٤٨١هـ) قال الذهبيّ : إمام فقيه ![(٧)]

---

(١) تاريخ بغداد (٤ : ٢٣٣) .

(٢) تاريخ بغداد (٥ : ١٧١) و(٣٢٧/١١) ومسند الشهاب (١ : ١٧٠) .

(٣) تذكرة الحفاظ (٣ : ١٠١٨) .

(٤) كشف الظنون (١ : ٧٧٢) و (٢ : ١٣٣٦) . وسوف يأتي الكلام عنه .

(٥) تاريخ بغداد (٥ : ٥٠) .

(٦) لسان الميزان (١ : ١٣٨) .

(٧) النبلاء (١٨ : ٥٢٥) .

ـ الخليل بن أحمد أبو سعيد البُسْتيّ الشافعي فاضل متصرّف في علومٍ ، دخل الأندلس وحدّث ، ولد سنة ستين وثلاثمائة ، روى عن أبي حامد الإسفرايني وغيره حدّث عنه أبو العباس العذري وغيره[١] .

المظفّر بن طاهر البُسْتيّ ، شيخ إسحاق بن الفرات ، وقد حكى ابن الفرات عنه أنّ وفاة الإمام أبي سليمان الخطابي كانت سنة (٣٨٨هـ)[٢] .

ثم تأتي بعد ذلك طبقة من محدِّثي القرن الخامس الهجري ، تحتاج تراجمهم إلى زيادة تحرير لمعرفة تواريخ وفياتهم على وجه التقريب ، منهم :

ـ أبو بكر البُستي ، يروي عن الحافظ ابن عقدة[٣] .

ـ الحسن بن علي البُسْتيّ ، يروي عن يحيى بن إبراهيم المزكي[٤] .

ـ الحسن بن أحمد القاضي أبو عليّ البُسْتيّ ، يروي عن أبي سليمان الخطابي ، فهو من رواة القرن الخامس هذا[٥] .

ـ إسماعيل بن أحمد بن محفوظ أبو القاسم البُسْتيّ ، قال الرافعي : فاضل كامل[٦] .

ـ عبد الله بن البُسْتيّ أبو عبد الرحمن ، روى عن أبي محمد الخواري بقزوين[٧] .

ـ الحسين بن الليث بن مدرك أبو علي البُسْتيّ الخَبريني ، توفي حاجّاً ! وخَبرين قرية من أعمال بُسْت[٨] .

ـ عبد الغفار بن فاخر بن شريف أبو سعد العميد البُسْتيّ ، كان شاعراً مدح عميد

---

(١) علوم الحديث (ص : ٣٥٨) .

(٢) التقييد لابن نقطة (١ : ٢٥٥) .

(٣) تاريخ بغداد (٥ : ٢١) والنبلاء (١٥ : ٣٥٣) .

(٤) النبلاء (١٥ : ٤٩٦) .

(٥) تاريخ بغداد (٣ : ١١٦) .

(٦) التدوين في أخبار قزوين (٢ : ٣٣٥) .

(٧) التدوين (٤ : ١٣) .

(٨) معجم البلدان (٢ : ٣٤٤) .

الرؤساء أبا طاهر محمد بن أيوب وزير القادر بالله[(١)] .

وهناك طائفة من علماء القرن السادس ، والسابع ، ممن أنجبتهم بُسْت ، منهم :

ـ إسماعيل بن محمد بن الفاضل البُسْتيّ ، قِوام السنّة أبو القاسم الأصفهاني الحافظ المتوفَّى (٥٣٥هـ) مصنف الجامع الكبير في معالم التفسير وغيره[(٢)] .

ـ علي بن زيد الأنصاري أبو الحسن البُسْتيّ ثمّ البيهقي ، قال الذهبي : الوزير العلاّمة ذو التصانيف (ت : ٥٦٥ هـ)[(٣)] .

ـ علي بن عبد الله البُسْتيّ السبتيّ ، أبوالحسن الأندلسي المالكي المتوفى سنة (٥٦٧هـ) صاحب كتاب اللباب في أصول الفقه وغيره[(٤)] .

ـ محمد بن إبراهيم أبو الطيب البُسْتيّ المالكي (ت :٦٩٥هـ) قال حاجي خليفة : قرأ على عبد الله بن أحمد بن أبي الربيع الأمويّ النحويّ شَرْحَه على كتاب الإيضاح في النحو ، واختصر كتابه هذا[(٥)] .

ومن هذه الطبقات من المتأخرين ، مَن لم يُسعفني الوقت بتحديد أعصارهم ، أذكرهم للفائدة ، عسى أن ييسر الله تعالى القيام ببحث خاصّ عن تاريخ مدينة بُسْت العلمي تكريماً لأبرز أعلامها ، الإمامِ الحافظ ابن حبان ، ومنهم :

ـ محمد بن علي بن المظفّر أبو بكر البُسْتيّ ، شيخ أسماء بنت أحمد بن القاسم النحوي المصريّ ، وشيخ ستّ الوزراء بنت محمد بن عبد الكريم الماردينيي الحنفي[(٦)] .

ـ محمد بن عليّ بن محمد البُسْتيّ أبو العزّ الصوفي ، قال الذهبي : إمام زاهد[(٧)] .

---

(١) معجم البلدان (٤ : ٢٧٤) .

(٢) كشف الظنون (١ : ٥٧١) وأظنه يحتاج إلى تحرير !

(٣) النبلاء (٢٠ : ٥٨٥) .

(٤) كشف الظنون (٢ : ١٥٤٢) .

(٥)كشف الظنون (١ : ٢١١) .

(٦) ذيل التقييد (٢ : ٣٥٧ ، ٣٧٦) .

(٧) النبلاء (٢٠ : ٢٨٣) وانظر منه (٢١ : ٣٦) .

ـ محمد بن نصر البُسْتيّ أبو سليمان المعروف بالمقدسي ، ذكر في كشف الظنون أنه أحد الحكماء الذين صنفوا رسائل إخوان الصفا ، فيما قيل ![١]

ـ ناصر بن الحسين بن مهنّا العلوي البُسْتيّ ، شارح مختصر القدوريّ[٢] .

ـ أبو حفص البُسْتيّ الفقيه ، نقل عنه ابن الأمير الصنعاني ، أنّ من شارك المشركين أفراحهم وبارك لهم وأهداهم ، فقد أشرك بالله العظيم ، ولم يرتَضِ ابنُ الأمير هذه الفتوى[٣] !

وقد كان العلماء يَفِدون إلى بُسْت ويحدِّثون بها ، ومن هؤلاء الإمام الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ، كما تجده في سند كتاب الضعفاء للبخاري ، فإنه حدّث به في بُسْت .

وقد وقفت على أسماء جملة من علماء بُسْت ، في معجم البلدان وغيره ، لكنني لم أتمكن من تحديد منازلهم العلميّة وتخصُّصاتهم ، ولا حرَّرت أسماءهم كما ينبغي ، فأذكرهم كما وجدتهم للفائدة أيضاً ، ومن هؤلاء :

ـ الإمام محمد بن حامد البُسْتيّ الفقيه الكبير والمحدِّث الثبت .

ـ القاضي أبو بكر بن محمد البُسْتيّ الذي تولى قضاء نيسابور ، وكان يسمى الكامل لعلمه وعقله .

ومن أخرجَتْهُم بُسْت من العلماء أحمد بن عبد الله بن سهل البُسْتيّ ، وإسماعيل ابن علي الزيدي البُسْتيّ ، وعبد العزيز بن إبراهيم النحوي البُسْتيّ ، وناصر بن أحمد البُسْتيّ الكيلاني ، ومحمد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد الله البُسْتيّ الصوفي ، والنضر ابن محمد البُسْتيّ ، وغيرهم .

وأعظم هؤلاء جميعاً وأشهرهم إمام عصره بلا مدافع محمد بن حبَّان البُسْتيّ صاحب ترجمتنا .

وقد حدَّثنا الإمام الخطَّابي عن وجود القراء ووصفهم لنا ، وبيَّن ما ينبغي عليهم من

---

(١) كشف الظنون (١ : ٩٠٢) .

(٢) كشف الظنون (٢ : ١٦٣١) .

(٣) سبل السلام (٢ : ٧٠) .

الخصال ، كما ذكر وجود طوائف من أهل الزهد والتصوُّف ، وأنَّهم جهّال لا يتعلَّمون[١] وذكر أنَّ هناك طلبة علم ، إنَّما يتعلمون ليتوصَّلوا بعلومهم إلى زخرف الدنيا[٢] كما أنَّه أشار إلى وجود طلبة علم مخلصين ، وأحدهم الذي ألَّف من أجله كتاب العزلة هذا .

ولا يخفى أنَّ نشاط البيئة العلمية ؛ يجعل علماء العصر يجوبون في الأرض فيفيدون ويستفيدون في رحلاتهم تلك ، فإلى جانب علماء بُسْت أنفسهم فقد كان يتوارد على بُسْت علماء من أقطار شتَّى ، خاصَّة في الفترات التي كان لبُسْت فيها حظوة سياسيَّة .

---

(١) العزلة (ص٨٤) .

(٢) سبق ذكر ذلك في وصف الحالة الاجتماعية في بُسْت .

الفصل الثّاني

ترجمة الإمام ابن حبّان

تمهيد : إنّ الإمام ابن حبّان شخصيّة علميّة متعددة الجوانب ، جمع بين علوم الشّريعة من حديث وعلومه ، وفقه وأصوله ، وتفسير وعلوم القرآن ، ولغة ونحو وأدب وتربية وزهد ، وفلسفة وكلام ، وطب وهندسة وفلك ورياضيات .

وشخصية هذا شأنها ، حريّ أن تكون مترجمة في مصادر متنوعة متعددة ، منها ما وصلنا ، ومنها ما لم يصل ، ومما وصل قسمٌ اطّلعنا عليه ، وقسمٌ لم يتيسّر لنا الاطّلاع عليه ، وقسم آخر لم يصل إلى علمي عنه شيء .

نظراً إلى هذا ، فإنني سأتناول ترجمة الإمام ابن حبّان في مباحث عدة :

المبحث الأول

مصادر ترجمة ابن حبّان

ليس بين أيدينا ـ فيما أعلم ـ كتابُ تراجمَ من القرن الرابع الهجري ذكر ابن حبان رحمه الله ، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ العلماء المعاصرين قلّما يذكرون معاصريهم في كتبهم ؛ إمّا لأنّ المعاصرة حجاب ، أو لمخالفتهم إيّاهم في الاتجاه ، أو نفاسةً ، أو لأنّ العلماء كانوا يترجمون طبقة مشايخهم فأعلى .

كتب مسلمة بن قاسم (ت : ٣٥٣هـ) كتاب «الصّلة» وهو ذيل على التاريخ الكبير للبخاري ـ كما يرى ابن حجر العسقلاني ـ ، أو هو ذيل على كتاب الزّاهر للمصنّف نفسه ؛ ولم يذكر فيه ابنَ حبّان . وألّف الإمام أبو سليمان محمّد بن عبد الله بن أحمد الرّبعي (ت : ٣٧٩هـ) كتابه (تاريخ مولد العلماء ووفياتهم)[1] وأغفل فيه ذكر ابن حبّان ، مع أنّه ذكر في وفيات سنة (٣٥٤هـ) وما بعدها مَن لا يكاد يُعرف[2] .

(١) حَقّقَ الكتابَ رسالةً علمية لنيل درجة الماجستير في الجامعة الإسلامية الطّالبُ عبد الله بن أحمد الحمد .

(٢) ذكر المؤلف ترجمة علي بن يعقوب الهمداني ، وأحمد بن إبراهيم الحداد في وفيات (٣٥٤هـ) وذكر في السّنة التي تليها أبا إسحاق بن شعبان ، وأبا الفضل الصيرفي . قال محقّق الكتاب : لم أجد لهما ترجمة .

وكذلك الإمام أبو الحسن الدَّارقطني (ت : ٣٨٥هـ) فإنّه ذيّل على المحمّدين خاصّة من تاريخ البخاري ، ولم يترجم لابن حبان ، مع أنه شيخه !

وأبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين الواعظ (ت : ٣٨٥هـ) كتب كتابه التّاريخ ، قال عنه الذهبي : إنه يقع في مائة وخمسين جزءاً[1] ، كما ألّف كتابه الثّقات .

أما الكتب الثّلاثة الأولى ، فلا أعرف عنها شيئاً ، ولم ينقل عن أصحابها شيء في ابن حبَّان ـ فيما أعلم ـ من مدح أو قدح ، وأما ثقات ابن شاهين ، فليس لابن حبّان ذِكرٌ فيه . وقد ذكرنا عن الرّبعي ما عنده .

وإذا تركنا القرن الرّابع الهجري ، فإنّنا نجد عدداً من المصنفات في الرجال والتاريخ .

وأقدم هذه المصنفات «تاريخ سمرقند» للحافظ أبي سعيد الإدريسي (ت : ٤٠٥هـ) وتاريخ نيسابور للحافظ أبي عبد الله بن البيّع (ت : ٤٠٥هـ) المشهور بالحاكم النيسابوري وتاريخ بخارى للحافظ محمد بن أحمد البخاري ، المعروف بغُنْجار (ت : ٤١٢هـ) تلميذ ابن حبّان . وهؤلاء الأئمة الثّلاثة تناولوا الإمام ابن حبّان ، وترجموه بتراجم مستفيضة وخصوصاً تلميذه الحاكم النَّيسابوري ، وهذه الكتب الثّلاثة مفقودة ، ولم يصل إلينا منها إلا مختصر تاريخ نيسابور[2] .

ثم جاء بعد هؤلاء الحافظ حمزة بن يوسف السَّهمي (ت : ٤٢٧هـ) وكتب «تاريخ جرجان» وأخذ على نفسه أن يذكر في كتابه «العلماء والفقهاء والرواة والمفسِّرين . . . ممن دخل جرجان وحدَّث بها ، ومات بها ، أو من أهل جرجان ، وانتقل منها إلى بلد آخر»[3] .

فلا أدري ، هل يريد كل من دخل جرجان من العلماء ، أو حدَّث بها أو مات بها ، أم يريد اجتماع هذه الأوصاف في الرّاوي حتى يترجمه في تاريخه؟

ظاهِرُ صنيعه في التّاريخ يدل على أنّ مراده مجرد دخول جرجان والتّحديث بها دون اشتراط الوفاة فيها .

---

(١) بحوث في تاريخ السّنة المشرّفة للدكتور أكرم ضياء العمري (ص١٠٥) .

(٢) هو مختصرٌ كتبَه صاحبه باللغة الفارسية ، وليس فيه سوى ذكر أسماء المترجمين في الكتاب .

(٣) تاريخ جرجان (ص٥٨) .

فقد ترجم لأبي الحسن علي بن الحسين بن عبد الرحيم النيسابوري وقال : أملى بجرجان ، مات بنيسابور ، سنة ثلاث وتسعين ومائتين[١] .

وترجم لأبي الحسن علي بن محمّد بن يحيى الخالدي المروزي ، وقال : روى بجرجان عن أبي حاتم الرازي ، حدثنا عنه أبو بكر الإسماعيلي[٢] .

وابن حبّان دخل جرجان ، وسمع من كبار شيوخها ـ كما سيأتي ـ ومعلوم أنّ المحدِّث يسمع ويحدِّث بما عنده ، ورحلة ابن حبّان إلى جرجان لم تكن قبل سنة ثلاثمائة ، وهذا يعني أنّه كان في سنّ تؤهِّله للإملاء ، فلا أدري سبب إهمال السّهميِّ ترجمَتَه !

وعصريُّ السّهميِّ الحافظُ أبو نعيم أحمدُ بن عبد الله الأصبهاني لم يذكر في كتابه «ذكر أخبار أصبهان» الإمام ابن حبَّان ، رغم أنّه على شرطه[٣] وهو من شيوخه الكبار .

وكتب الحافظ أبو يعلى الخليلي بن عبد الله الخليلي القزويني (ت : ٤٤٦هـ) كتاب «الإرشاد في معرفة علماء الحديث» ولا نعرف عن مخطوطة هذا الكتاب الأصل شيئاً .

والذّي وصلنا منه عشرة أجزاء من انتخاب الحافظ السِّلفي[٤] (٥٧٦هـ) .

ولم يترجم الحافظ السّلفي في منتخبه للإمام ابن حبّان ، كما لم ينقل أيّاً من أقواله في الجرح والتعديل ، كما أنّه حين ترجم لعدد من شيوخ ابن حبّان كان يذكر في تلامذتهم من هم دون ابن حبّان علماً وشهرة ، ويهمل ذكره ، وكذلك فعل حين ترجم بعضَ تلامذة ابن حبّان[٥] فذكر لهم شيوخاً دون ابن حبّان علماً وقدراً وعلوّاً .

---

(١) تاريخ جرجان (رقم ٥٠٩) .

(٢) ما سبق رقم (٥١٦) وانظر (٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠) وغيرها .

(٣) انظر ذكر أخبار أصبهان (ص١) .

(٤) ويسمَّى أيضاً (الإرشاد في معرفة علماء البلاد) وهو من المصادر المُهِمّة لتراجم علماء القرن الرابع وأوائل القرن الخامس . منه نسخة مصورة في المكتبة المركزية بجامعة أم القرى في مكة المكرمة وقد طبع منذ زمن ، وهو متداول .

(٥) انظر في الإرشاد على سبيل المثال تراجم : إبراهيم بن إسحاق السّراج الثقفي (ق١٦٨) والفضل بن الحباب الجمحي (ق٨٣) ومحمد ابن إسحاق بن خزيمة (ق١٦٨) وهؤلاء من شيوخ ابن حبان . وترجمة الحاكم أبي عبد الله النّيسابوري من تلامذته (ق١٧٤) .

فلا أدري أهذا الإعراض من الخليلي نفسه ، أم من تصرّف السّلفي؟

وجاء الخطيب أحمد بن علي بن ثابت (ت : ٤٦٣هـ) فصنَّف عدداً من المصنفات في التاريخ والرِّجال وعلم الحديث ، فأغفل أقوال ابن حبَّان في تاريخ بغداد ، وعُذْره في ذلك أنّه لم يقف على شيء[١] من كتبه ، على أنّي لا أجد له ترجمة في المطبوع من تاريخ بغداد ، وابن حبان على شرطه[٢] والواجب أن يترجم له .

وأغلب الظنّ أنّ ترجمة ابن حبّان سقطت من تاريخ بغداد ، كما سقط كثير من التراجم غيرها ، ومما يؤكد هذا الظنّ أنّ أبا نعيم الأصبهاني شيخ الخطيب ، ليس له في تاريخ بغداد ترجمة[٣] . غير أنّ الخطيب قد احتفظ لنا بثبت نادر اختاره من مصنَّفات ابن حبّان في كتابه الجامع[٤] .

وبعد هؤلاء ترجم[٥] الحافظ علي بن هبة الله المشهور بالأمير ابن ماكولا (ت : بين ٤٧٥ ـ ٤٨٧هـ) لابن حبّان ترجمة بليغة وجيزة .

فأنت ترى أنّ الذين ترجموا لابن حبّان في القرن الخامس هم : الإدريسي والحاكم وغُنْجار والخطيب وابن ماكولا ، وكل من جاء بعد هؤلاء فقد اعتمد على أقوالهم ، وإن

---

(١) نص على ذلك في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السَّامع (٢ : ٣٦١) .

(٢) لأن شرطه أن يذكر (خبر بنائها ، وذكر كبار نزّالها ، وذكر وارديها وتسمية علمائها) تاريخ بغداد (١ : ٣) .

(٣) ذكر الدكتور العمري في كتابه موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (ص٤٩٨) أنّ الخطيب قد ساق من طريق أبي نعيم (٧٤٢) نصاً إلا أنّه لم يشر ما إذا كان وقف على ترجمة لأبي نعيم من خلال ما عثر عليه من مخطوطات تاريخ بغداد .

(٤) الجامع للخطيب (٢ : ٣٦١ ـ ٣٦٣) ومما يرجّح سقوط ترجمة ابن حبّان من تاريخ بغداد ما قاله ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠ : ٥٠٣) : أنبأنا أبو القاسم علي بن إبراهيم : أنبأنا أبو بكر الخطيب ، قال : «محمد بن حبّان بن أحمد ، أبو حاتم البستي ، نزيل سجستان ، ولَيَ القضاء بسمرقند وكان قد سافر الكثير ، وسمع وصنّف كتباً واسعة ، وكان ثقة ثبتاً فاضلاً فَهِماً» ، فهذا النّص من طراز تراجم الخطيب في تاريخه . والله أعلم .

(٥) الإكمال لابن ماكولا (١ : ٤٣٢) .

كان ثمة إضافات جديدة عند بعضهم ، تتعلق بمناقشة ما اعتُرض به على ابن حبّان ، أو توجيه بعض النّقد إليه .

فإذا انتقلنا إلى القرن السَّادس ، نجد ممن ترجم لابن حبَّان الإمام أبا سعدٍ عبدَ الكريم ابن محمد السَّمعاني[١] (ت : ٥٦٢هـ) وأسهب الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر (ت : ٥٧١هـ) فجمع خلاصة[٢] أقوال من سبقه ، واحتفظ لنا بها .

أما الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت : ٥٩٧هـ) فقد أغفل ترجمته في «المنتظم» و «طبقات كبار الحفّاظ»[٣] ولا أدري سبب هذا الإغفال ، مع أنَّ ابن الجوزي يعتمد اعتماداً كبيراً على كتب ابن حبان حتى في المنتظم نفسه ، بل إنّ ابن الجوزي قد ترجم للمتنبي[٤] ترجمة طويلة . فلست أدري ، أسقطت هذه الترجمة مع ما ضاع من المنتظم ، أم أُسقطت عمداً من بعض الذين تناولوا كتبه من بعده ، أم أغفلها هو على عادته في إغفال بعض الأحداث المُهِمّة التي ليست في صالح الحنابلة[٥]؟

وإذا خطونا خطوة أخرى ، فوصلنا إلى القرن السَّابع رأينا الإمام أبا القاسم عبدالكريم ابن محمد الرافعي القزويني (ت : ٦٢٣هـ) قد أعرض عن ذكر ابن حبّان في كتابه «التدوين في أخبار قزوين»[٦] مع أنّه على شرطه في كتابه .

وأمّا ياقوت الحموي (ت : ٦٢٦هـ) فقد أفرد لابن حبّان ترجمة[٧] لا نظير لها فيما بين أيدينا من كتب التراجم مطبوعِها ، وما اطّلعت عليه من مخطوطها .

وبعدهما الإمام علي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بعز الدين ابن الجزري (٦٣٠هـ)

---

(١) في كتاب الأنساب (٢ : ٢٢٥) .

(٢) تاريخ مدينة دمشق (١٠ : ق ٥٠١ ـ ٥٠٢) .

(٣) منه نسخة مصورة في الجامعة الإسلامية برقم (١٧٠٨) .

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧ : ٢٤ ـ ٣٠) .

(٥) كما أغفل ذكر حوادث سنتي (٣١٧ ـ ٣٢٣) لأنّها من صنع الحنابلة . انظر المنتظم (٦ : ٢٢١ ـ ٢٢٥ ـ ٢٧٥ ـ ٢٧٧) .

(٦) منه نسخة مكروفيلم في المكتبة المركزية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

(٧) معجم البلدان (١ : ٤١٤) فما بعد .

فذكر له ترجمة وجيزة[١] في تاريخه ، كما ترجم له في (اللّباب في تهذيب الأنساب)[٢] .

وجاء ابن الصلاح (ت : ٦٤٣هـ) فترجم له في «طبقات الشافعية»[٣] ووجه إليه عدة انتقادات . وذكره علي بن يوسف القفطي (ت : ٦٤٦هـ) في كتابه «إنباه الرواة على طبقات النّحاة»[٤] .

أما سبط ابن الجوزي (ت : ٦٥٤هـ) صاحب مرآة الزمان فإنه لم يترجمه في كتابه فهل لهذا علاقة بالمنتظم[٥]؟

والإمام النّووي (ت : ٦٧٦هـ) ترجم له ترجمة جيدة في طبقات الشافعية وقال : «ربما أخطأ الخطأ الفاحش فيما رأيته له»[٦] .

أما المؤرخ أحمد بن محمد بن خلّكان (ت : ٦٨١هـ) فرغم أنّه نقل بعض أقوال[٧] ابن حبّان ، إلا أنّه لم يترجم له في كتابه وفيات الأعيان . ولم أتبيَّن سبب ذلك .

وممن ترجم له من علماء القرن الثامن فأطنب ، الإمامُ الحافظ شمس الدين محمّد ابن أحمد بن عثمان الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) فترجم له في عدد من مصنّفاته[٨] وأسهب في ترجمته في كتابيه سير أعلام النبلاء[٩] وميزان الاعتدال[١٠] .

(١) الكامل في التاريخ (٧ : ١٦) .

(٢) اللّباب (١ : ١٥١) .

(٣) طبقات الشافعية لابن الصلاح (ق٥) .

(٤) إنباه الرواة (٣ : ١٢٢) .

(٥) حيث إنّ منتظم ابن الجوزي لم يترجم لابن حبَّان ، وابن الجوزي حنبلي والسِّبط هذا حنفيٌّ متعصِّبٌ .

(٦) طبقات الشافعيّة للنّووي (ق ٢٠ ـ ٢٣) منه نسخة مصورة في مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى .

(٧) انظر وفيات الأعيان (٤ : ٣٥٢) و(٥ : ٢٠٩ ، ٢٥٧) .

(٨) في تذكرة الحفاظ (٢ : ٩٢٠) والعبر في أخبار من غبر (٢ : ٣٠٠) ومناقب الشافعي وطبقات أصحابه (ص٧٨) ومختصر دول الإسلام (١ : ١٧٢) .

(٩) سير أعلام النّبلاء (١٦ : ٩٢ ـ ١٠٤) .

(١٠) ميزان الاعتدال (٣ : ٥٠٦) فما بعد .

كما ترجم له ابن شاكر الكتبي (ت : ٧٦٤هـ) في عيون التواريخ[١] وترجم له صلاح الدين ابن أيبك الصفدي[٢] (ت : ٧٦٤هـ) وترجم له اليافعي[٣] (ت : ٧٦٨هـ) وأطنب في ترجمته ابن السُّبكي (ت : ٧٧١هـ) في طبقاته[٤] .

وقد ترجم له الإسنوي (ت : ٧٧٢هـ)[٥] والعماد ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) في طبقاته[٦] وتاريخه[٧] .

وممن ترجمه من أعلام القرن التاسع ابن قاضي شهبة (ت : ٨٥١هـ) في طبقات الشافعية[٨] والحافظ ابن حجر في لسان الميزان[٩] ودافع عنه ، والبدر العيني (ت : ٨٥٥هـ) في تاريخه[١٠] وابن تَغْري بَرْدي (ت : ٨٧٤هـ) في النّجوم الزاهرة[١١] .

ومن أعيان علماء القرن العاشر وقفت على ثلاثة ممن ترجموا لابن حبّان رحمه الله ؛ فابن عبد الهادي (ت : ٩٠٩هـ) قد ترجم[١٢] له بإيجاز ، ثم ترجم له السّيوطي في

---

(١) مصورة مكروفيلم في مكتبة مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى حوادث (٣٥٤) .

(٢) الوافي في الوفيات (٢ : ٣١٧) .

(٣) مرآة الجنان لليافعي (٢ : ٣٥٧) .

(٤) طبقات الشافعيّة الكبرى (٢ : ١٤١) وانظر منه (١ : ١٨٨) .

(٥) طبقات الشافعية لعبد الرحيم بن الحسن الإسنوي (١ : ٤١٨) فما بعد .

(٦) طبقات الشافعية لابن كثير (ق٨٢ ـ ٨٣أ) مصورة مكروفيلم في جامعة أم القرى ـ مركز البحث العلمي ـ .

(٧) البداية والنّهاية له (١١ : ٢٥٩) .

(٨) طبقات الشافعيّة (ق٣١أ) مصورة مكروفيلم في مركز البحث العلمي .

(٩) لسان الميزان لابن حجر (٥ : ١١٢) فما بعد .

(١٠) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، حوادث (٣٥٤) نسخة مصورة محفوظة في دار الكتب المصرية رقم (١٥٨٤) تأريخ .

(١١) النجوم الزاهرة لابن تغري بَرْدي (٣ : ٣٤٢) .

(١٢) مصورة مكروفيلم بعنوان كتاب في التراجم لابن عبد الهادي محفوظة في مكتبة مركز البحث العلمي (ق٣٤أ) . ومن الجدير بالذكر أنَّ لابن عبد الهادي كتابين في التراجم ؛ أحدهما بعنوان تذكرة الحفاظ وتبصرة الإيقاظ ، والثاني بعنوان معجم الشافعية . وكلاهما من مخطوطات دار الكتب الظاهرية رقم (٤٥٤٣ ، ٤٥٥١) .

طبقات الحفاظ[١] باختصار أيضاً ، وترجم له بعدهما أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كُبري زادة[٢] (ت : ٩٦٧هـ) وذكر بعض مصنَّفاته .

ووقفت على ترجمة وجيزة لابن حبّان في القرن الحادي عشر ، لابن العماد الحنبلي[٣] (١٠٨٩هـ) .

ووقفت على عدة تراجم لكتّاب معاصرين : إحداها للأستاذ خير الدين الزرَكْلي[٤] والأخرى للأستاذ عمر رضا كحّالة[٥] والثّالثة للأستاذ محمد كرد علي[٦] والرابعة للدكتور أحمد عيسى بك[٧] .

ومن خلال هذا الاستعراض التاريخي ، نجد ابن حبّان من أعلام الإسلام البارزين وممن كان له أثر في الحياة العلمية والفكرية في عصره ، ولولا ذلك لما ترجم له المعنيُّون بتراجم المحدِّثين والفقهاء واللغويين والمؤرخين والأطباء ، رحمه الله تعالى ، وأجزل مثوبته .

---

(١) طبقات الحفاظ (ص ٣٧٤) فما بعد .

(٢) مفتاح السعادة (٢ : ١٤٤ ، ٥٥٦) .

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣ : ١٦) .

(٤) الأعلام (٦ : ٣٠٦ ـ ٣٠٧) .

(٥) معجم المؤلفين (٩ : ١٧٣) .

(٦) كنوز الأجداد (ص١٥٤ ـ ١٥٨) وذكر لطائف في ترجمته .

(٧) معجم الأطباء (ص٨٤) إلا أنّه كناه أبا حامد ، فهو إما سهو منه ، أو خطأ من الطابع ، أو عدم تمكُّنه من قراءة المخطوطة كما ينبغي ، لأنه ذكر مصدراً واحداً مخطوطاً لترجمته ابنَ حبان هو تاريخ البدر العيني .

المبحث الثاني

عروبة ابن حبان وصلته ببُسْت

ذكرت في المبحث الثاني أنَّ ابن حبَّان عربيٌّ تميميٌّ صميم ، وإن كان أعْجميّ البلد غير أنّ المصادر تُجمع على أنّه ولد في «بُسْت» فما صلة بني تميم بذاك البلد الأعجمي البعيد؟

لقد وضعت معركة نهاوند (٢٠هـ) بين المسلمين والفرس حدّاً لسيطرة السَّاسانيين على العراق ، وانساح المسلمون في أراضي الدولة السَّاسانية[١] بعد ذلك .

ولقد وجَّه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه (ت ٤٢هـ) الأحنف بن قيس التميمي (ت : ٧١هـ) إلى قم[٢] وقاشان[٣] ففتحهما سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

ومن المعروف أنَّ تميم دخلت هذه المناطق في هذا الوقت مع الأحنف بن قيس واستطاعت أن تثبت أقدامها هناك .

وإلى هذا الاستيطان المتقدم ، ومعرفة أحوال تلك المنطقة يمكن أن يُعزى سرُّ قوة تميم ومشاكلها الكثيرة هناك[٤] .

أما إقليم سجستان فيرى خليفة بن خياط أنه فُتح سنة ثلاثين ؛ حيث وجَّه عبد الله ابن عامر (ت : ٥٩هـ) الربيعَ بن زياد الحارثي إلى سجستان ، فافتتح زالق ، وشرواذ ، وناشروذ وتوجَّه ابن عامر إلى خراسان ، وعلى مقدمته الأحنف بن قيس ، فلقي أهل هراة فهزمهم[٥] .

وفي سنة إحدى وثمانين ، كان عبد الرحمن بن الأشعث على سجستان ، فخلع

---

(١) القبائل العربية في المشرق للدكتور ناجي حسن (ص١٦٣) .

(٢) قم ـ بضم القاف وتشديد الميم ـ مدينة إسلامية مستحدثة لا أثر للأعاجم فيها . معجم البلدان (٤ : ٣٩٧) . وتُعَدُّ المدينة المقدَّسة في إيران ـ اليوم ـ لوجود قبر الإمام علي الرضا رضي الله عنه فيها .

(٣) قاشان : مدينة غرب أصبهان تذكر مع قم . معجم البلدان (٤ : ٢٩٦) .

(٤) القبائل العربية في المشرق (ص١٦٦) بتصرف يسير .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص٢٠٨) . وذكرت سابقاً أنَّ ابن حبَّان يرى ذلك أيضاً .

الحجّاج وحرّض النّاس على قتاله ، ولما أقبل يريد العراق أمَّر على بُسْت عياض بن هيمان البكري ، وعلى زَرَنج ، عبد الله بن عامر التميمي الدارمي)[١] .

فمن هذه النصوص يتبين أنَّ لتميم وجوداً في تلك المنطقة ذاتها ، وإن كانت قوتهم العظمى في خراسان[٢] .

وإذا كانت المصادر غنية وفيرة المادة عن مآثر بني تميم وآثارهم في تلك الديار ، فإنها تسكت سكوتاً مطبقاً عن الإشارة إلى أسرة ابن حبَّان ومكانتها الاجتماعية والعلمية كما أنَّني لم أجد ابن حبان ترجم لوالده أو أحد أجداده في كتابه الثِّقات ؛ مما جعلني أميل إلى القول بأنَّ أسرة ابن حبّان بعيدة عن التَّخصص العلمي ، والنُّبوغ فيه ، بل بعيدة عن حمله والمشاركة فيه .

وهذا لا يمنع أن تكون على جانب لا بأس به من الغنى والمكانة الاجتماعية العالية بسبب ما كان لتميم والفاتحين العرب ـ عموماً ـ من مكانة هناك .

بيد أنني وقفت على نص للخطيب البغدادي ، جعلني أتشكَّك فيما قلته آنفاً . قال الخطيب : (أنبأنا أحمد بن محمد الكاتب[٣] : أنبأنا محمد بن حميد[٤] : أخبرنا ابن حبَّان قال : وجدت في كتاب أبي بخطِّ يده : قال أبو زكريا[٥] : أراني حجَّاجٌ[٦] كتابه مُعلماً ، وقال : هذا علامات أبي خالد الأحمر ، كتبها عني أحمد)[٧] .

وهذا النَّص الذي أورده الخطيب في كتابه (الجامع) تحت عنوان (رَسْمُ الحافظِ العَلامةَ

---

(١) تاريخ الطبري (٦ : ٣٣٦) .

(٢) القبائل العربية في المشرق (ص١٨٧) .

(٣) تاريخ بغداد (٥ : ٤٩) وقال : كتبت عنه وكان صحيحَ السماع كثيرَه .

(٤) تاريخ بغداد (٢ : ٢٦٥) وقال عن الأزهري : كان ثقة ، وأخرى : كان ضعيفاً .

(٥) هو يحيى بن معين كما جاء مصرَّحاً به في موضع آخر . من رؤوس الطبقة العاشرة .

(٦) حجاج هو ابن إبراهيم الأزرق . وهو وابن معين من الطبقة العاشرة . قال الخطيب كان ثقة يسكن مصر . تاريخ بغداد (٨ : ٢٣٩) وفي التقريب (١ : ١٥٢) : ثقة فاضل من العاشرة .

(٧) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب ، تحقيق الدكتور محمود الطحان (٢ : ١٥٨) وتحقيق الدكتور محمد رأفت سعيد (٢ : ٢١٩) وما أسوأ حظنا مع هذا الكتاب الفريد ، فإنه لم يُخدم من كلا المحققين الفاضلين خدمة تستحق الثناء !

على ما ينتخبه) يبيِّن لنا أنَّ والد ابن حبَّان ، كان من أهل العلم ، وأنَّ ابن حبَّان كان يعرف خطه . ويشير إلى أنه كانت لهذا الوالد كتب يجمع فيها الحديث ويصنِّفه .

ومرَّ زمن وأنا مغتبط بهذه النتيجة ، ثم تبيَّن لي أنَّ ابن حبان هذا هو :

علي بن الحسين بن حبَّان . وقد تكرر اسمه عدة مرّات صريحاً[١] .

قال تحت عنوان (الدارة في آخرة كل حديث) رقم (٥٧٢) :

(أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الكاتب ، قال : أنبأنا محمد بن حميد بن سهيل المخرمي : أخبرنا علي بن الحسين بن حبَّان قال : وجدت في كتاب أبي بخط يده : قال أبو زكريا ـ يعني يحيى بن معين ـ . .) وذكر نصّاً يناسب الترجمة .

ولو أنَّ واحداً من محققي الكتاب عمل له فهارس علميّة ، واحداً منها للرواة ؛ لما وقعنا في هذا الإشكال الذي لم يُزِحْهُ إلاّ قراءة الكتاب كلِّه .

بقي أن نعرف من هو ابن حبَّان الذي أوهَمَنا المحقِّقان الفاضلان وجودَه في الجامع؟

قلنا : إنَّهما حقَّقا أنَّ اسمه علي بن الحسين بن حَبَّان . وبالرجوع إلى تاريخ بغداد[٢] وجدت أنُّه عليّ بن الحسين بن حَبّان بن عمَّار بن واقد أبو الحسن المروزي المتوفَّى سنة خمس وثلاثمائة . . . روى عنه محمد بن حميد المخرمي . . . قال الخطيب : كان ثقة .

ووالده هو الحسين بن حبَّان بن عمَّار بن الحكم بن عمَّار بن واقد أبو عليٍّ ، صاحب يحيى بن معين . قال الخطيب[٣] : كان من أهل الفضل والتقدُّم في العلم ، وله عن يحيى كتاب غزير الفائدة ، روى عنه ابنه علي بن الحسين ذلك الكتاب عن أبيه وجادةً والحسين بن حبَّان قديم الموت ، توفي فيما ذكر ابنه سنة اثنتين وثلاثين ومائتين قبل وفاة يحيى بن معين بسنة .

وبهذا نتيقَّن أنَّ ابن حبَّان هذا غير ابن حبّاننا ، وليت أحد المحقِّقَين أشار إلى شيء من مَهامّه في تحقيق هذا الكتاب النفيس !

---

(١) انظر الجامع (١ : ٢٧٢ ، ٣٠٥) و(٢ : ٦٣) ومواضع كلّها صرَّح فيها باسمه ونسبه .

(٢) تاريخ بغداد (١١ : ٣٩٥) .

(٣) ما سبق (٨ : ٣٦) .

المبحث الثَّالث

اسم ابن حبَّان وكنيته ونسبه

لما كانت المصادر الأصلية[1] التي ترجمت لابن حِبَّان مفقودة ، فإنه يتعين أن نستقي معلوماتنا من المصادر التي نقلت عن هذه الكتب واحتفظت لنا ببعض نصوصها .

ولقد رأيت الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق قد ساق نسب ابن حبّان بإسناده إلى الحافظ الإدريسيِّ في تاريخه . لذلك فإنّني سأعتمد على كتاب الحافظ ابن عساكر في سياق نسبه .

ومما يحسن التذكير به أنّه لم يختلف في أنّ اسم مترجمنا محمد ، وأنّ أباه «حبّان» ابن أحمد بن حبّان ، وأنّ كنيته أبو حاتم .

(۱) أسند الحافظ ابن عساكر إلى الحافظ أبي سعيد الإدريسي أنّه نسب أبا حاتم بن حبّان فقال : «محمد بن حبّان بن أحمد بن حبّان بن معاذ بن مُرّة بن هُدَيّة بن سعد ابن يزيد بن مُرّة بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان التميميُّ أبو حاتم البُسْتيّ» قال الإدريسي : حدثني بنسبه النّضرُ بن محمَّدٍ الخيّاطُ البُسْتيُّ ببُسْت .

(۲) وقال ابن عساكر : «ذكر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد البخاري المعروف بغُنْجار نسبه فقال : محمد بن حبّان بن أحمد بن حبّان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن سُهيد التميمي . ووافقه غيره على نسبه إلى معبد ، ثم قال : بن هُدَيّة بن مُرّة ابن سعيد بن يزيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان» .

ولا ريب أنّ ابن عساكر قد رجح رواية غنجار ، بدليل أنه صدَّر بها ترجمة ابن حبّان قبل أنّ يعزوها إلى أحد ، ثم ذكر بإسناده إلى الإدريسي الرواية الأخرى ، ونقل عن

(۱) عَنَيت بها تاريخ سمرقند ، وتاريخ بخارى ، وتاريخ نيسابور ، وتاريخ بغداد ، لقرب عهد مؤلِّفيها من الإمام ابن حبَّان ، بل إنّ الحاكم تلميذه والإدريسيَّ قرين تلميذه .

الإدريسي أنّ الذي حدَّثه بها رجل بُسْتيّ في بُسْت .

ولّما لم يكن بين أيدينا مرجِّح ؛ فإنّنا نترك الأمر كما هو لنناقش الحافظ ابن عساكر فيما اختاره !

فقد ذكر ابن حزم في جمهرته نسب عبد الله بن دارم[١] كما ذكر ذريته ، فلم يذكر له ولداً يسمى يزيد ، وإنّما ذكر من أولاده زيداً فقال :

زيد[٢] بن عبد الله بن دارم[٣] بن مالك[٤] بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم[٥] ابن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان .

فالاختلاف في نسب ابن حبَّان وقع في مَن دون عبد الله بن دارم ، بينما اتَّفقوا على نسب عبد الله بن دارم إلى عدنان . وصورة الخلاف :

(١) أنّ الإدريسي يجعل معاذاً ابنَ مُرّة بن هُدَيّة ، بينما هو عند غُنْجار : معاذ بن معبد بن سعيد بن سُهيد بن هُدَيّة . فيزيد غنجار ثلاثة جدود في النّسب ؛ هم معبد وسعيد وسهيد .

(٢) والإدريسي يجعل هُدَيّة بن سعد بن يزيد بن مُرّة بن زيد بن عبد الله بن دارم بينما يجعله غنجار هُدَيّة بن مُرّة بن سعيد بن يزيد بن مُرّة بن يزيد بن عبد الله بن دارم .

فزاد غنجار مُرّة الأول ، وجعل سعيداً بدل زيد ، وجعل يزيدَ بدلَ زيدٍ .

وبعد تتبُّع جمهرة ابن حزم وجدت عبد الله بن دارم ولد زيداً وأمية ، ومعاوية وقتة ووهباً ، وعبداً ، بَني عبد الله بن دارم ، ولم يكن لعبد الله بن دارم ولد يُسمَّى يزيد فيرجح أنّ ابن حبّان من ذرية زيد بن عبد الله بن دارم[٦] .

(١) جمهرة أنساب العرب (ص٢٣٠) .

(٢) ما سبق (٢٣١) .

(٣) ما سبق (ص٢٢٩) .

(٤) ما سبق (ص٢٢٨) .

(٥) ما سبق (ص٢٢٢) وانظر بقية النّسب في الصفحات (٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ١٠،١٩٨) مرتّبةً هكذا .

(٦) جمهرة أنساب العرب (ص٢٣١) .

ووجدت زيد بن عبد الله بن دارم قد وَلَدَ : عُدُسَ ، وحُقّ ، وحارثةَ ، وجَناباً ، وعبد الله ومالكاً ، ومرة ، فصحَّ أنّ مُرّة بنُ زيد بن عبد الله ، وليس ابن يزيد . واحتمل أن يكون زيد قد تصحّف إلى يزيد(١) .

ورغم هذا كلِّه بقيت ثغرات عديدة تحتاج إلى ملء ، غير أن فقدان المصادر القريبة سبب ذلك(٢) .

وتبقى الرواية التي اختارها ابن عساكر هي الأرجح في نظري ، لأنّ الحافظ ابن عساكر قد ارتضاها ، وصدّر ترجمة ابن حبّان بها ، ثم نقلها عن غنجار مَرّةً ثانية . وغنجار تلميذ ابن حبّان ، فكأن ابن عساكر ارتضى روايته لهذا المعنى ، والله أعلم .

(١) جمهرة أنساب العرب (ص٢٣٢) .

(٢) لقد جهدت وأنا أدرس كتب ابن حبّان ، أن أجد ترجمة لأحد أجداده ولكن دون جدوى .

المبحث الرابع

مولد ابن حبان ووفاته

تُجمع المصادر التي وقفتُ عليها على أنَّ وفاة ابن حبَّان كانت في شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، لا أعلم في ذلك خلافاً بينهم .

فقد أسند الحافظ ابن عساكر إلى محمد بن أبي بكر الحافظ ببخارى قال : مات أبو حاتم بن حبَّان بسجستان في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة .

كما أسند إلى الفقيه أحمد بن محمد بن علي الطيبي قوله : توفِّي الشيخ أبو حاتم ابن حبّان ليلة الجمعة لثمان بقين من شوّال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة «بُسْت» .

وأسند إلى الحاكم النَّيسابوري ـ تلميذ ابن حبَّان ـ نحو ذلك ، وزاد : «ودُفن بقرب داره التي تلي ـ اليوم ـ مدرسته لأصحابه ، ومسكن الغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقِّهة منهم ، ولهم جِرايات يستنفقونها»[1] ، ولا ريب أنَّ الحاكم من أدرى النَّاس بأحوال شيخه .

أما ما قاله غنجار ، من أنه تُوُفّي بسجستان ، فليس من وجهة نظري معارضاً لما سبق إذ يمكن أن يقال : إنَّ الذي قال : توفي بسجستان عنَى الإقليم ، و «بُسْت» مدينة فيه . وقول من قال : بأنَّه توفِّي في سجستان (المدينة) ثم نقل إلى بُسْت ودفن فيها ، بعيد لسببين :

(١) الأول : أنَّ عامة المصادر تقول بأنَّه رجع في أواخر أيامه إلى بلده «بُسْت» وإليه صارتَ الرحلةُ لقراءة مصنَّفاته وكتبه ، وكانت عودته في حدود سنة (٣٤٠هـ) .

ولم تذكر المصادر أنه غادر «بُسْت» وإنَّما ذكرت أنَّ الرحلة كانت إليه في بلاد خراسان .

(٢) والثاني : أنَّ ابن حبَّان خرج طريداً من سجستان ؛ لأنه أنكر الحدَّ لله تعالى .

(١) تاريخ دمشق (٥٢ : ٢٥٤ ـ ٢٥٥) .

وكأن علماء سجستان الذين كانوا ينكرون أيَّ تأويل للصّفات ، أجمعوا أمرهم وكتبوا فيه كتاباً إلى الخليفة ، شهدوا فيه على زندقته ، فكتب الخليفة بقتله ، فمات ابن حبَّان قُبيل وصول الكتاب ـ كما قال ابن شاكر الكتبي ـ .

قال ياقوت بعد أن نقل كلام الحاكم عن وفاة ابن حبَّان : «وقبره ببُسْت معروف يُزار إلى الآن ، فإن لم يكن نقل من سجستان بعد وفاته ، وإلاّ فالصواب أنه مات ببُسْت»[١] .

وقال في مرآة الجنان : «وَلِيَ قضاء سمرقند ، ثم قضاء نَسا ، وغاب دهراً عن وطنه ، ثم رُدَّ إلى بُسْت وتوفِّي بها»[٢] رحمه الله تعالى .

وأما عن مكان ولادته ، فالمصادر تجمع على أنه بُستيُّ المولد والنشأة ، إلاَّ أنَّ كتب التاريخ والتراجم كلَّها تسكت عن تعيين سنة ولادته .

وكلُّ الذي رأيته من تحديد يشبه قول الذهبيِّ[٣] : «مات أبو حاتم بن حبَّان في شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهو في عشر الثمانين» ، وقولَه الآخر[٤] وهو يتحدَّث عمَّن توفِّي في هذه السَّنة : «وفيها مات عالمُ وقتِه أبو حاتم محمَّدُ بن حبَّان التميميُّ البستيُّ الحافظ صاحب التصانيف ، وقد قارب الثمانين» ، وقولَه الثالث : «ولد سنة بضع وسبعين»[٥] .

فإذا كان قد قارب الثمانين سنة (٣٥٤هـ) فهو قد ولد بين سنة (٢٧٥ ـ ٢٧٩) لأنَّ من قارب الثمانين لا بد أن يكون قد زاد على الخامسة والسَّبعين ، وآخر هذه الزيادة أن تكون ولادته سنة (٢٧٥هـ) وأول هذه الزيادة أن تكون دون الثمانين .

أمّا ما نقل بعضهم عن النُّجوم الزاهرة من أنَّ ولادته كانت سنة (٢٦٠) فهذا خطأ محض ! فالذي في النُّجوم الزاهرة ذِكْرُ وفاته ، أما سنة (٢٦٠) فهي تاريخ ولادة أبي بكر محمد بن عبد الله الشَّافعي الذي توفِّي في عام وفاة ابن حبَّان ، فتداخل الأمر على

(١) معجم البلدان (١ : ٤١٦ ـ ٤١٧) .
(٢) مرآة الجنان (٢ : ٣٥٧) .
(٣) تذكرة الحفّاظ (ص٩٢٢) .
(٤) مختصر دول الإسلام (١ : ١٧٢) .
(٥) أعلام النبلاء (١٠ : ٣ : ٣٣١)

الناقل فوَهِمَ . ومثل ذلك من حَدّد ولادته بسنة (٢٧٠) كسزكين وبروكلمان . فهو محض اجتهاد من غير دليل .

وكنت قد استشرفت أن تكون ولادة ابن حبّان سنة سبع وسبعين ، في السَّنة التي توفِّي بها أبو حاتم الرازيُّ ، تيمُّناً وتفاؤلاً بأنَّ يكون أبو حاتم البستيُّ حَلّ محلَّ أبي حاتم الرازيِّ ، إلا أنني رأيت ابن حبّان معرضاً إعراضاً كبيراً عن أبي حاتم ، ومهملاً إياه إلاَّ في النَّادر .

بقي أن أقول : لعلَّ والد ابن حبّان ـ وهو عصريُّ أبي حاتم الرازي ـ رأى هذا الرأيَ فسمَّى ابنه (محمداً) وكناه أبا حاتم .

ثم خطر لي خاطر آخر ؛ وهو أنَّ لبعض الأسماء كنًى لازمةً لها في عُرف بعض البلدان ؛ ففي مصر مثلاً يقال لكلِّ إبراهيمَ : «أبو خليل» ، ولكلِّ عليٍّ : «أبو حسن» ولكلِّ حسنٍ : أبو محمّد ، ولكلّ حُسين : «أبو علي» .

وفي دمشق خاصَّة ، والشَّام عامة يقال لكل محمد : «أبو قاسم» ويحرفونها في بعض المناطق فيعطشون القاف لتصبح قريبة من الكاف على لهجة بعض قبائل العرب ويتأثَّمون في بعض المناطق من الجمع بين اسم النبيّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم وكنيته للرجل الواحد ، فيقولون : (أبو جاسم) بالجيم الخالصة .

قلت : فلعلَّ كنية (أبو حاتم) كانت ملازمة لاسم محمد في تلك البلاد ، أو كانت شائعة ؛ خاصة وأن وزن (حاتم) هو وزن جاسم ، وقاسم ، والمعطشة بينهما .

ومما يؤيّد هذا الخاطر ـ بعض التأييد ـ أنَّ أبا حاتم الرازيَّ محمد بن إدريس كُنِيَ به وليس له ولد بهذا الاسم .

نَعَم ؛ مثل هذه الدعوى تحتاج إلى أدلة مقنعة ، كما يحتاج الباحث فيها إلى دراسة للعادات التي كانت سائدة في بلاد المشرق الإسلامي في ذلك العصر ، ومراجعة كتب الرجال للوقوف على مَن اسمه (محمد) وكنيته أبو حاتم !

كانَ هذا الخاطر قد كَتَبْتُه في عام (١٤٠٣هـ) وحين أنعمَ اللهُ علينا وعلى الناس بالحاسوب الآلي ؛ رأيتُ مؤيِّدات كثيرةً لهذا الخاطر ، بل إنّ النادر ما جاء خلافَ ذلك .

ومن الموافقة الغريبة أنّ أبا حاتمٍ السجستاني اسمه سهل بن محمد ـ وهذا من النادر كما أسلفت ـ يروي عن شيخه أبي حاتمٍ محمد بن عبد الملك في معجم الطبراني الصغير (٨٦٥) .

ومن هذه الأسماء الكريمة ممّن كنيته أبو حاتم :

- أبو حاتم محمد بن سيرين ، السنن لابن ماجه (١١١) .
- أبو حاتم محمد بن يزيد الرهاوي ، ما سبق (٢٤١) .
- أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي الرازي ، صحيح ابن خزيمة (١٠٢ ، ٢٦٥٥) ومصادر كثيرة .
- أبو حاتم محمد بن عيسى الوسقندي ، شعب الإيمان للبيهقي (٣٦٨٠) .
- أبو حاتم محمد بن ساروبه الكِندي ، شعب الإيمان (٩٩٠٣) .
- أبو حاتم محمد بن عيسى الرازي ، السنن الكبير للبيهقي (١٠٨٢٠) .
- أبو حاتم محمد بن يعقوب بن إسحاق الهروي ، ما سبق (١١٠٩٦) .
- أبو حاتم محمد بن عمر المعدّل ، مسند الشهاب (٣٢) .
- أبو حاتم محمد بن عبد الواحد الخزاعي ، تاريخ بغداد (٢ : ٣٦٠) .
- أبو حاتم محمد بن المنذر الباشاني ، ما سبق (٩ : ٣٣٩) .

أقول : هؤلاء الأعلام بعض مَن سُمّي محمّداً ، وكُني أبا حاتم ، فشيوع هذه الكنية لاسم محمّد ؛ ينبغي أن يكون موضعَ تسليم ، والله تعالى أعلم .

الفصل الثَّالث

رحلات ابن حبَّان العلميَّة

تمهيد : مرَّ معنا سابقاً أنَّ القرنين الثالث والرابع بلغَتُ الحياة العلمية فيهما ذروتها وصار العلم شغل النَّاس الشَّاغل ، وغدا اقتناء الكتب ، والتنافس في نسخها ؛ مفخرةَ ذوي الوجاهة واليسار . وأغلب الظن أنَّ ابن حبَّان ورث عن أسرته اللغة العربية الخالصة وورث عنهم شيئاً من المال ، وقيّض الله له مَن أخذ بيده إلى الكتَّاب ، فقرأ القرآن الكريم وربما حَفِظَه ، لأنه كان أوّلَ ما يتعلَّمه الناشئة في تلك العصور .

ثم انتقل بعد ذلك إلى حلقات الفقه والحديث واللغة والأدب ، وصار يحضر على علماء بُسْت ، ومَنْ يَفِدُ إليها من العلماء ، حتى اكتمل شبابه ونضج فكره ، وجمع ما لدى علماء بُسْت من الحديث والفقه وغيرهما من العلوم الشَّرعية ، وتخرَّج بأكبر علمائها والمقيمين بها في ذلك العصر ، وأبرزهم : إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي[١] ومحمد بن عبد الله[٢] بن الجنيد التُّستري ، وعبد الله بن محمد بن هند[٣] وأبو علي محمد بن عمرو بن عبَّاد ، وغيرهم ممن سبق ذكرهم في العلماء الذين أنجبتهم مدينة بُسْت[٤] .

وكانت العادة لدى طلبة العلم أنَّهم يحصّلون علوم بلدهم ، ويأخذون ما لدى مشايخهم حتى إذا تم لهم ذلك ؛ ارتحلوا في طلب العلم ، وجابوا أقطار الأرض للازدياد والتحصيل[٥] .

---

(١) انظر ترجمته في الإكمال لابن ماكولا (١ : ٤٣١) وتذكرة الحفاظ (ص٧٠٢) وشذرات الذهب (٢ : ٢٤٢) وتهذيب تاريخ ابن عساكر (٢ : ٤٠٩) وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٤ : ١٤٠) توفي (٣٠٧هـ) .

(٢) انظر معجم البلدان (١ : ٤١٥) وانظر صحيح ابن حبَّان رقم (٣٩ ، ٢٢٤ ، ٢١٥٢) وغير ما موضع .

(٣) انظر صحيح ابن حبَّان (٦ : ٢٦٧أ) .

(٤) انظر صحيح ابن حبَّان رقم (١٤٧٦ ، ٢٢٩٩) و(٩ : ٢٠٥ب) .

(٥) مقدمة ابن الصَّلاح (ص٢٢٢) .

قال ابن الصلاح : (وإذا أخذ فيه ـ أي في سماع الحديث ـ فليشمِّر عن ساق جهده واجتهاده ، ويبدأ بالسَّماع من أسند شيوخ مصره ، ومن الأولى فالأولى ، من حيث العلم أو الشهرة ، أو الشَّرف . أو غير ذلك .

وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمّات التي ببلده ، فليرحَلْ إلى غيره .

رُوِّينا عن يحيى بن معين أنه قال : أربعة لا تؤنس منهم رشداً : حارس الدرب ومنادي القاضي ، وابن المحدِّث ، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث)[1] .

---

(١) مقدمة ابن الصَّلاح (ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣) والرحلة في طلب الحديث (ص٨٩) .

المبحث الأوَّل

أهميَّة الرِّحلة عند المحدِّثين

لقد كانت الرحلة في طلب الحديث سُنَّةً لأهله ، وهي عندهم سنة شرعيّة ، وليست مجرّد طريقة علمية . فقد رحل موسى عليه السَّلام ليتعلَّم ممن هو أكثر منه علماً[١] . ورحل عدد من الصَّحابة[٢] في طلب الحديث والعلم ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «ما أُنزلَتْ آية إلاَّ وأنا أعلم فيمَ أنزلت ، ولو أني أعلم أحداً أعلمَ بكتاب الله منِّي تبلغه الإبل والمطايا لأتيته»[٣] .

وقد كان الصَّحابة من غير أهل المدينة رضوان الله عليهم يرحلون إلى النبي صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم يتحيّنون المواسم لِلُقِيِّه والأخذ عنه[٤] .

ولقد رحل سعيد بن المسيِّب الأيام والليالي في الحديث الواحد[٥] ورحل عبيد الله ابن عَدِيٍّ إلى عليٍّ رضي الله عنه لسماع خطبة منه[٦] ورحل أبو عثمان النَّهدي إلى أبي هريرة[٧] في سماع حديث ، ورحل سعيد بن جبير إلى ابن عبَّاس ليسأله عن آية تخليد القاتل متعمّداً في النَّار[٨] وسئل الشَّعبي عن حديث ، فأجاب ، ثم قال للسَّائل : «خُذْها

---

(١) الرحلة في طلب الحديث (ص٩٧) وهذا ثابت في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

(٢) الرحلة (ص١٠٩) فما بعدها .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب القرّاء من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم رقم (١٧١٦) ومسلم في الفضائل ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمّه رقم (٢٤٦٢ ـ ٢٤٦٣) وغيرُهما . وانظر الرحلة في طلب الحديث (ص٩٥) واللفظ للخطيب .

(٤) الرحلة في طلب الحديث (ص١٨٧) .

(٥) الرحلة في طلب الحديث (ص١٢٧) .

(٦) ما سبق (ص ١٢٩) .

(٧) ما سبق (ص١٣٢) .

(٨) ما سبق (ص ١٣٨) .

بغير شيء ، فلقد كان الرجل يرحل في أَدنى منها إلى المدينة»[١] .

فإذا ترك الباحثُ عصرَ التابعين ، وجد الرحلة عند أتباع التابعين على قدم وساق حتى لقد كان الرجل القانع بما عند أهل بلده من علم ؛ لا يُؤْبَهُ له ، ولا يُلْتَفَتُ إليه غالباً .

قال ابن حبَّان : «فرسان هذا العلم ، الذين حفظوا على المسلمين الدين ، وهَدُوهم إلى الصراط المستقيم ، الذين آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعُّم في الديار والأوطان ، في طلب السُّنن من الأمصار ، وجمعها بالرحيل والأسفار ، والدوران في جميع الأقطار ، حتى إنَّ أحدهم ليرحل في الحديث الواحد الفراسخَ البعيدةَ ، وفي الكلمة الواحدة الأيامَ الكثيرةَ ؛ حتى لا يُدخِلُ مضلّ في السُّنن شيئاً يضلّ الناس به ، وإن فعل ؛ فهم الذَّابُّون عن رسول الله صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم ذلك الكذب ، والقائمون بنصرة الدين»[٢] .

وذكر عدداً من الآثار تفيد أهمية الرحلة واعتمادها عند المحدثين .

ولقد كان للرحلة عندهم أهداف جليلة ، من أهمِّها : جمع الحديث وتحصيله استكمالاً لما حصَّله الرجل في بلده ، والتثبُّت من صحَّة الحديث ، والوقوف على طرقه وطلب علوّ الإسناد ، لتقلَّ الوسائط بين المحدِّث وبين النبيِّ صلّى الله عليهِ وآلِه وسلَّم وبذلك يقلّ احتمال وقوع الخطأ ، ويسهل حفظ الحديث بسنده ؛ لقلَّة عدد رجال السَّند . ومن هذه الأهداف : البحث عن أحوال رواة الحديث ، ومعرفة الثقات من غيرهم ومذاكرة العلماء الأفذاذ في نقد الأحاديث وعللها[٣] .

وهذه الأهداف جميعاً أشار إليها ابن حبَّان بقوله : (حتى لا يدخل مُضلٌّ في السُّنن شيئاً يضلّ به ، وإن فعل ؛ فهُم الذَّابونَ ذلك الكذب) والرحلة سبيل ذلك كلِّه .

وإلى جانب هذه الأهداف الكبيرة ، فقد كان للرحلة فوائد عديدة مُهمّة ؛ منها : اتّساع ثقافة المحدِّث العامّةِ ، وتنمية الفضائل والكمالات في نفسه ، والتمكن من الجوانب

---

(١) ما سبق (ص١٤٠) .

(٢) المجروحين لابن حبَّان (١ : ٢٧) فما بعد .

(٣) انظر بحثاً جيّداً لأستاذنا الدكتور نور الدين عتر في مقدمة الرحلة في طلب الحديث للخطيب (ص١٦ ـ ٢٣) .

العلميّة التي يعوزها ، حيث إنَّ كل بلد يحتوي على لون ، أو عدة ألوان من الثَّقافة ، ولا بدَّ أنه يشتهر بعدد من العلوم ، وجمهرةٍ مخصوصةٍ من العلماء ، ومحالٌ أن يجتمع في المصر الواحد جميع علماء الأمَّة ، وشتى أنواع العلوم والمعارف فيها ، حتى ولو كان العاصمةَ ذاتَها .

ومن هنا كانت الرحلة مهمّة ، ولولا الرحلة لَمَا نبغ حافظ ، ولما عَرَفَ طرقَ الحديث وعللَه محدِّثٌ في تلك العصور[1] .

ولقد كان أبو حاتم بن حبَّان من أكثر العلماء ارتحالاً ، ومن أطولهم رحلة ، كما كان ـ رحمه الله ـ حريصاً على الفائدة ، يخاف أن تضيع منه لحظة واحدة دون أن يستفيد فيها جديداً يدوِّنه ويحتفظ به .

قال أبو حامد أحمد بن محمد بن سعيد النَّيسابوري : «كنا مع أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في بعض الطَّريق من نيسابور ، وكان معنا أبو حاتم البستي ، وكان يسأله ويؤذيه ـ يعني : يثقل عليه بكثرة أسئلته ـ فقال له ابن خزيمة : يا بارد ! تَنحَّ عنّي لا تؤذني ، أو كلمة نحوها ! فكتب أبو حاتم مقالته ، فقيل له : تكتب هذا؟ فقال : نعم ! أَكْتُب كلَّ شيء يقوله»[2] .

(١) مقدمة الرحلة في طلب الحديث للخطيب (ص٢٤ ـ ٢٨) .

(٢) معجم البلدان (١ : ٤١٩) .

المبحث الثَّاني

تاريخ رحلات ابن حبَّان العلميّة

قال الذهبي في ترجمة ابن حبَّان : «كان من أئمة زمانه ، طلب العلم على رأس الثلاثمائة[١]» ، ونقل عن الحاكم قوله : «ثم انصرف إلينا سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وبنى الخانقاه ، وقرئ عليه جملة مصنَّفاته ، ثم خرج إلى وطنه بُسْت عام أربعين ، وكانت الرحلة إليه لسماع كتبه»[٢] .

هذان النَّصَّان يحدّدان لنا بداية رحلات ابن حبَّان ونهايتها ، أما طلبه العلم على رأس الثلاثمائة ، فلا يفهم منه غير الرحلة في طلب العلم بعد أن حصّل علوم بلده ، إذ من المستبعَد أن يرحل الإنسان في طلب العلم ، والعلم بين يديه لم ينهل منه شيئاً بعد .

يدلّ على ذلك دلالةً ظاهرةً عددُ الشيوخ الذين روى عنهم ببست ، والذين توفوا فيها في غيابه عنها في أثناء رحلته الطويلة ، كما تقدم .

وكأنّي بالإمام ابن حبَّان قد ارتحل بعد أن تَلْمَذَ لأكبَر علماء بُسْت[٣] وأخذ ما عندهم من فنون العلم .

وإذا نحن قدَّرنا ولادة ابن حبَّان سنة خمس وسبعين أو سبع وسبعين ، فيكون عمره يوم رحل بين الثالثة والعشرين ، والخامسة والعشرين ، ومحال أن يكون ابن حبَّان بقي هذه المدة كلّها لم يتعلَّم شيئاً ، وإنَّما طلب العلم على رأس الثلاثمائة .

وإذا كان الإمام ابن حبَّان قد أدرك الإمام النَّسائيَّ قبل عام اثنتين وثلاثمائة[٤] في مصر ، فلا ريب أنَّ من يرحل للقاء النَّسائي وأمثاله ، لا بد أن يكون قد حصَّل جانباً

---

(١) ميزان الاعتدال (٣ : ٥٠٦) .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠ : ٥٠٢) أعلام النبلاء (١٠ : ٣ :٣٠٣) تذكرة الحفاظ (ص٩٢١) .

(٣) أعني القاضي إسحاق بن إبراهيم البُسْتي المتوفى سنة (٣٠٧هـ) كما في شذرات الذهب (٢ : ٢٤٢) .

(٤) أعلام النبلاء (١٤ : ١٣٣) .

كبيراً من المعرفة تمكِّنه من معرفة الرّجال الذين يرحل إليهم ، والإفادة منهم .

وليس بين أيدينا من النُّصوص ما يعيننا على تحديد أزمنة رحلات ابن حبَّان إلى العراق والشام والجزيرة ومصر ، وتنقُّله ما بين نيسابور والإسكندرية ! غير أن الذي فهمته من حياة ابن حبَّان ، وصِلَتِه بشيوخه ، أنه كان كثير التجوال والتنقل ، فبينا تراه قد أدرك الإمامَ النَّسائيَّ قبل خروجه من مصر عام (٣٠٢هـ) إذا بك تراه في (نسا) يشهد جنازة شيخه الحسن بن سفيان الشَّيباني ، ويحضر دفنه[1] عام (٣٠٣هـ) وهذا يدل على همَّة ونشاط بالغَين .

على أنه كان في «حران» قبل رمضان سنة (٣٠١هـ) ؛ لأنَّ شيخه الحافظ ابن ناجية توفِّي في رمضان من هذه السنة[2] وهذا الشيخ أقدم شيوخه وفاة ـ رَحِمَهم الله تعالى ـ ورحل إلى مرو وطوس وسرخس وبخارى ومرو الرّوذ ونيسابور قبل عام (٣٠٣هـ) وكان في كلٍّ من جرجان والبصرة قبل عام (٣٠٥هـ) ورحل إلى عبّادان وعسكر مكرم وَمنبج ودمشق وحلب قبل عام (٣٠٦هـ) وتلقّى على علماء مكَّةَ قبل عام (٣٠٨هـ) كما عاد إليها حاجّاً عام (٣١٤هـ) وزار البيت المقدَّس قبل عام (٣١٠هـ) وكذلك عسقلان وبلاد فلسطين .

والذي يتبيَّن من استعراض وَفَيات شيوخ ابن حبَّان أنَّه رحل عدة رحلات بين إسبيجاب والإسكندرية ، وليست رحلة واحدة فحسب ، ودليل هذا أنَّ المصادر تقول بأنَّه صحب ابن خزيمة وتفقَّه به ، وتخرَّج على يديه ، وأطال المكث عنده ، وتأخّرت وفاة ابن خزيمة[3] حتى عام (٣١١هـ) وقد رأينا أنَّ رحلات ابن حبَّان إلى مصر والشام وفلسطين والجزيرة والمشرق والعراق كانت قبل هذه السَّنة .

وأغلب الظنِّ أنَّ ابن حبّان سمع من ابن خزيمة في نيسابور ، ثم تابع طريقه يلقى العلماء سريعاً ، حتى حطَّ رحاله في حرّان ولـمَّا يمضِ على رحلته عام واحد ، وتابع طريقه

---

(١) أعلام النبلاء (١٤ : ١٦٠) .

(٢) ما سبق (١٤ : ١٦٥) .

(٣) اعتمدت في توقيت هذه الرحلات على وَفَيات شيوخه المنسوبين والمتوفَّين في هذه البلاد .

إلى منبج وحلب وأنطاكية ودمشق والقدس وعسقلان ، حتى وصل إلى مصر فلقي الإمام النَّسائي وغيره من الأئمة ، حتى إذا سافر الإمام النَّسائي لقي غيره من العلماء ، ثم سافر إلى الإسكندرية ، فلقي أشهر علمائها ، ثم عاد أدراجه ، ليلحق بقيَةَ عمر الحسن ابن سفيان في نسا ، حتى إذا تُوفّى الحسن بن سفيان (٣٠٣هـ) وشيَّع جنازته ، تابع طريقه فلقي ابن خزيمة ، ومكث عنده ، ثم عاد أدراجه إلى العراق ، وطال مكثه في البصرة وبغداد وواسط والموصل ، بدليل كثرة مشايخه فيها ، ثم عاد إلى ابن خزيمة ، ولزمه حتى وفاته ـ رحمه الله ـ ثم تابع رحلته ليلتقي بعَلَم آخر من الأعلام .

ويبدو أنَّ ابن حبَّان ظلَّ يصحب كبار العلماء ، ويتلقَّى على أيديهم ، حتى ودَّع آخر شيخين[1] من كبار شيوخه عام (٣٢٥هـ) ثم ذهب إلى سمرقند فتولّى قضاءها ، وفقّه النَّاس وعلَّمهم ، ثم غادرها وذهب إلى نيسابور فعلَّم بها سنة (٣٣٤هـ) قليلاً ، ثم غادرها إلى نسا حتى سنة سبع وثلاثين حيث تولَّى قضاءها هذه المدة ، ثم عاد إلى نيسابور فبنى فيها مدرسة ، وقرأ النَّاس عليه جملة من مصنَّفاته .

وفي عام (٣٤٠هـ) عاوده الحنين الشَّديد إلى الوطن ، فوصل إلى مدينة سجستان عاصمة إقليم سجستان الذي تعدّ مدينة بُست إحدى حواضره الكبرى ، فعلَّم بها وناظر علماءها فلم يقبلوا بعض آرائه في العقيدة ، فأُخرج منها في تلك السَّنة ذاتها إلى مدينة بُسْت ، بعد رحلة امتدت أربعين[2] سنة من عمره ، فحطَّ رحاله فيها ، وبنى داراً ومدرسة وذاع صيته ، وصارت الرحلة إليه لسماع مصنَّفاته ، والإفادة من علومه ، حتى وافاه أجله عام أربعة وخمسين وثلاثمائة رحمه الله تعالى ، وأجزل ثوابه .

---

(١) هما الحافظان محمد بن عبد الرحمن الدغولي ، وأبو حامد أحمد بن محمد ابن الشرقي .

(٢) ولا أدري سبباً لاعتبار الشيخ الأرناؤوط مدة هذه الرحلة نيّفاً وثلاثين عاماً ، كما ذكر في مقدمته للإحسان (١ : ١٢) .

المبحث الثّالِث

مواطن رحلات ابن حبَّان

يصعب علينا الجزم بأنَّ ابن حبَّان لم يترك بلداً إسلامياً يقطن فيه علماء ومحدِّثون إلا زاره ؛ لأنّنا لا نلمح أيَّ ذكر لليمن في مجموعة البلدان التي زارها ، غير أنَّ فقدان أكثر كتب ابن حبان يجعلنا نتنبّأ بكثرة البلدان التي زارها ابن حبَّان تبعاً لكثرة الشُّيوخ الذين يروي عنهم في كتبه المفقودة ، والذين يمكن أن يكونوا من ديار أخرى غير ديار الذين حدَّث عنهم في كتبه الموجودة بين أيدينا .

وقد بلغت مجموعة البلدان التي نصَّ على زيارتها ـ فيما بين أيدينا من كتبه ـ خمسةً وثمانين بلداً ، حدَّث فيها عن خمسمائة شيخ وبضعة عشر شيخاً .

ويمكننا القول بأنه لم يترك حاضرة من حواضر العلم المعروفة في القرن الرابع الهجري إلا حدَّث عن شيخ أو شيوخ من علمائها أو روّادها .

إلا أنَّ قيمة هذه البلدان تختلف بالنِّسبة لموضوعنا ، فالبلدان التي لم يحدِّث فيها ابن حبَّان إلا عن شيخ واحد ، لا يمكننا مساواتها مع البلدان التي حدَّث فيها عن عشرة شيوخ أو عشرين ، أو ثلاثين شيخاً ، مع لفت النَّظر إلى وجود حفَّاظ كبار في البلدان التي قلَّ ذكر شيوخه فيها .

وإذا بدأنا ببلدة بست التي كانت ثانية المدن الجليلة في سجستان في ذلك العصر والتي خرج منها عدد غير يسير من رجالات العلم والأدب ، نجده قد حدَّث عن عدد منهم ، وخرّج عن أربعة منهم في صحيحه ، كما يعلم من مبحث العلماء الذين أنجبتهم بست أو استوطنوها في تلك الحقبة من الزمان .

وحدَّث عن سبعة من علماء (تُسْتَر) منهم الحافظ أحمد بن محمد بن يحيى بن زهير التُّستري ، الذي أكثر في سائر مصنفاته عنه ، ومنهم محمد بن أحمد الرقّام وأحمد بن الخطاب بن مهران ، وحدَّث عن ستة شيوخ من (جرجان) أبرزهم الحافظ عبد الملك بن محمد بن عَدِيٍّ الجرجانيُّ ، ومن (الرَّيِّ) حدَّث عن سبعة من علمائها :

من أبرزهم عبدالرحمن بن محمد بن حماد الطِهرانيُّ ، وعليُّ بن الحسن بن مسلم الأصبهانيُّ ، ومهران بن هارون .

وحدَّث عن ستة من علماء (سمرقند) منهم : إبراهيم بن نصر العنبريُّ ، وأحمد بن خلف بن عبد الله السمرقنديُّ .

وحدَّث عن أحدَ عشر شيخاً ممن لقيهم في (مرو) منهم : عبد الله بن محمود بن سليمان السعديُّ المرْوَزِيُّ ، وأحمد بن محمد بن بشر الشَّافعيُّ .

وحدَّث عن أحدَ عشر شيخاً من شيوخ (نسا) منهم : شيخه الحافظ الحسن بن سفيان الشَّيبانيُّ الذي أكثر عنه ابن حبَّان ، ومحمد بن أحمد بن أبي عون الريّاني .

أما نيسابور فقد كانت حاضرة خراسان العلميّة ، إلا أنَّ ابن حبَّان لم يحدِّث إلا عن تسعة من علمائها : أبرزهم الإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة ، والحافظ محمد ابن إسحاق بن إبراهيم الثقفيُّ السَّرَّاج ، وإبراهيم بن إسحاق الأنماطي الزاهد . كما حدَّث عن خمسة من علماء (هراة) منهم : محمد بن هاجك الهروي ، ومحمد بن عثمان بن سعيد الدَّارمي .

فإذا تركنا أهم المراكز العلمية في المشرق الإسلامي ، وقصدنا الحجاز ؛ وجدناه يحدِّث عن اثني عشر شيخاً من أبرز علمائها يومئذ ، منهم : الإمام العلم الحافظ محمد بن إبراهيم بن المنذر النَّيسابوري نزيل مكَّةَ المكرمة ، والإمام المفضل بن محمد بن إبراهيم الجَنَدي ، وأحمد بن محمد بن زياد ابن الأعرابي ، ولم يخرِّج في الصَّحيح عن شيخه محمد بن أحمد بن حماد الدّولابي .

أما بلاد العراق ، فقد كانت حواضرُ العلم الكبرى فيها آنئذ : بغداد ، والبصرة والموصل ، وواسط . وقد حدَّث ابن حبَّان عن سبعة عشر شيخاً لقيهم في بغداد ؛ من أبرزهم : حامد بن محمد بن شعيب الكَجِّيُّ البلخيُّ ، وعبد الله بن سليمان أبي داود السجستاني ، والهيثم بن خلف الدّوريُّ ، وهذا يعني أنه أقام ببغداد طويلاً ، حتى اطّلع على ما عند هؤلاء الشُّيوخ من روايات ، ووازن بينها ، ثم اختارهم للرواية عنهم ، كما صرّح بذلك في مقدّمة صحيحه .

وبلغ عدد الذين حدَّث عنهم من شيوخ (البصرة) أربعةً وثلاثين شيخاً ، كان أبرزَهم : العلَمُ الحافظ أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحيُّ ، وهو من الذين أكثر عنهم ابن حبَّان في سائر كتبه ، والحافظ زكريا بن يحيى السَّاجي ، ومحمد بن الحسين بن مكرم البزّار .

وحدَّث عن ثمانية من علماء الموصل ، أشهرهم : أبو يعلى أحمد بن عليٍّ بن المثنَّى الحافظ ، وإبراهيم بن علي بن عبد العزيز العمريُّ ، وروح بن عبد المجيد أبو صالح المَوصليُّ .

وتأتي (واسط) في الدرجة الثانية بعد البصرة في كثرة من حدَّث عنه من علمائها إذ بلغوا ثلاثة وعشرين شيخاً ، منهم : أحمد بن عيسى بن السُّكَيْن البلدي ، وجعفر بن أحمد بن سنان القطّان .

وإذا تركنا العراق إلى بلاد الجزيرة من الشَّام ؛ نجد أبرز مراكز العلم فيها حرّانَ والرقّةَ وطرسوسَ والمِصيصةَ .

أما حرّان فقد حدَّث عن تسعة من علمائها ، أبرزهم الحافظان : أبو عَروبةَ الحسين بن محمد بن مودود الحرانيُّ ، وعبد الله بن محمد بن ناجية .

وحدَّث عن ستّة من علماء الرقة ، أبرزهم الحافظان : أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصُّوفي ، والحسين بن عبد الله بن يزيد القطّان .

وحدَّث عن أحدَ عشر شيخاً من طرسوس ، منهم : إبراهيم بن أبي أميَّة الطّرسوسيُّ ومحمد بن يزيد الرقّيُّ .

وأما علماء المِصيصة فحدَّث ابن حبَّان عن سبعة ، منهم : أبرزهم محمد بن أحمد ابن أبي الخصيب ، وأحمد بن مجاهد بن قولان .

أما بقية بلاد الشام ، فقد كانت مراكز العلم فيها كثيرة ، أبرزها أنطاكية وحلب وحمص ودمشق وعسقلان .

وقد حدَّث ابن حبَّان عن سبعة من علماء أنطاكية ، أبرزهم الحافظ وصيف بن عبدالله العطّار الأُشْرُوسَنيُّ ، وأحمد بن إبراهيم بن فيل البالِسِيُّ .

ومن حلب حدَّث عن عليٍّ بن أحمد بن عمران الجرجانيِّ ، وعليٍّ بن عبد الحميد

الغضائريّ ، وحدَّث عن ستّة من علماء حمص ، أبرزهم : العبَّاس بن خليل الطائيُّ ومحمد بن عبيد الله بن الفضل الكُلاعيّ .

أمّا دمشق فقد حدَّث عن ستة عشر عالماً من أعلامها ، أبرزهم الحافظان : أحمد بن عمير بن يوسف بن جَوْصاء ، وحاجب بن محمد بن أرّكين الفرغانيُّ .

ومن علماء عسقلان حدَّث عن ثلاثة مشايخ ، أبرزهم : الحافظ محمد بن الحسن ابن قتيبة اللَّخْميُّ .

أمّا مصر فقد كانت غنية بمراكز العلم في ذلك العصر ، إلا أنني لم أجد لابن حبان شيوخاً إلا في القاهرة ، التي كان يذكرها باسم الفسطاط ، أو مصر . . . وقد حدَّث عن عشرة من علمائها ، منهم : أحمد بن الحسن بن أبي الصّغير المدائني ، ومحمد بن زياد التُجَيْبِي .

وهناك مراكز أخرى كثيرة شاركت في النهضة العلمية لذلك العصر تجدها في ثَبَت رحلات ابن حبَّان في آخر هذا البحث ، إلا أنَّ أهمّيتها ـ كما أسلفت ـ تأتي في الدَّرجة الثانية . فبيروت مثلاً ، حدَّث عن أوحد علمائها الحافظ محمد بن عبد الله بن عبدالسَّلام البيروتيّ «مكحول» وحدَّث عن شيخ بيت المقدس عبد الله بن محمد بن سَلْم المقدسي ، وحدَّث عن الحافظ إبراهيم بن خُزَيم من أعلام «خرشكت» .

وبمطالعة معجم رحلات ابن حبَّان ، ومعجم شيوخه ؛ اللذَين أودعْتُهما في نهاية الكتاب ؛ يتبيَّن مدى العناء والجهد الذي بذله الحافظ ابن حبَّان في خدمة السُّنَّة ، جزاه الله تعالى خيراً ، وأحسن مثوبته .

الفصل الرَّابع

شيوخ ابن حبَّان وتلامذته

تمهيد : إن الحديث عن شيوخ ابن حبَّان يحتاج إلى بحث علميٍّ يخصُّه ؛ لأنهم من الكثرة بحيث يشكِّلون عملاً علميّاً ضخماً يخدم علم رجال الحديث ـ في فترة حرجة من الزمن ـ خدمةً جليلة ؛ حيث إنَّ كثيراً من التواريخ قد فُقِد ، مثل تاريخ نيسابور وتاريخ بخارى ، وتاريخ سمرقند ، وتاريخ مصر ، وغيرها من التواريخ التي تحدَّثت عن علماء كل بلد من البلدان التي نبغ فيها علماء وأدباء ومفكّرون .

وقد أعددت معجماً لشيوخ ابن حبان ألحقْتُه في بداية ملاحق الكتاب .

أما الآن فإنَّني سأذكر أشهر العلماء الذين تلقّى العلم عنهم ، ثم أترجم لأهمّ هؤلاء تراجمَ موجزةً تعطي فكرة عن كلٍّ واحد منهم ، وأثره في عقليَّة ابن حبَّان وعلمه .

المبحث الأول

أشهر شيوخ ابن حبَّان الذين اعتمد روايتهم في كتبه

روى الإمام ابن حبَّان عن الشيخ المحدِّث الثقة المعمَّر أحمد بن الحسن بن عبدالجبار ابن راشد البغدادي الصوفي الكبير[1] (ت : ٣٠٦هـ) ببغداد ، وعن الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى[2] (ت : ٣٠٧هـ) بالموصل ، وعن الحافظ أحمد بن محمد بن يحيى بن زهير[3] (ت : ٣١٠هـ) بتُسْتَر ، وعن الشيخ الثقة المحدِّث إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل البستي[4]

(١) تاريخ بغداد (٤ : ٨٢) طبقات الحنابلة (١ : ٣٦) الميزان (١ : ٩١) شذرات الذهب (٢ : ٢٤٧) النبلاء (١٤ : ١٥٢) .

(٢) التذكرة (ص ٧٠٧) البداية والنهاية (١١ : ١٣٠) طبقات الحفاظ (ص٣٠٦) النبلاء (١٤ : ٧٤) .

(٣) التذكرة (ص٧٥٧) شذرات الذهب (٢ : ٢٥٨) النبلاء (١٤ : ٣٦٢) .

(٤) الإكمال لابن ماكولا (البستي) (١ : ٤٣١) تهذيب ابن عساكر (٢ : ٤٠٩) شذرات الذهب (٢ : ٢٤٢) النبلاء (١٤ : ١٤٠) .

(ت : ٣٠٧هـ) ببست ، وعن الحافظ إبراهيم بن إسحاق الأنماطي الزاهد (ت : ٣٠٣هـ) بنيسابور[(١)] وعن الحافظ إبراهيم بن خزيم بن قمير[(٢)] (ت : ٣١٨هـ) ببلدة «خرشكت» وعن المحدِّث إبراهيم بن عبد الواحد العبسي[(٣)] (ت : ٣١١هـ) بدمشق ، وعن المحدِّث إبراهيم بن علي بن إبراهيم العمري[(٤)] (ت : ٣٠٦هـ) ببغداد ، وعن الحافظ حاجب بن أرّكين الفرغاني[(٥)] (ت : ٣٠٦هـ) بدمشق ، وعن الإمام الجبل الحسن بن سفيان الشَّيباني[(٦)] (ت : ٣٠٣هـ) بنسا وصَحِبَه حتى توفِّي وحضر دفنه ، وعن الحافظ الحسين بن عبد الله بن يزيد القطان[(٧)] (ت : ٣١٠هـ) بالرقَّة ، والحافظ الحسين بن محمد بن مصعب المروزيِّ السِّنجيِّ (ت : ٣١٦هـ) ببلدة (سنج) و(مرو)[(٨)] والحافظ العَلَم أبي عَروبة الحسين بن مودود الحرانيِّ (ت : ٣١٨هـ) ببلدة حرّان[(٩)] والحافظ زكريا بن يحيى السَّاجي[(١٠)] (ت : ٣٠٧هـ) بالبصرة ، والمحدِّث الثقة عبدالله ابن محمد بن سلم (ت : بعد ٣١٠هـ) ببيت المقدس[(١١)] والحافظ عبد الله بن محمد بن ناجية الحرَّانيِّ[(١٢)] (ت : ٣٠١هـ) بحَرَّانَ ، والحافظ «عبدان» عبد الله بن أحمد الأهوازي الجواليقي صاحب المصنَّفات (ت : ٣٠٦هـ) بعسكر مكرم[(١٣)] والإمام القدوة العابد المجاهد عمر بن

---

(١) التذكرة (ص ٧٠١) طبقات المفسِّرين للداودي (١ : ٥) النبلاء (١٤ : ١٩٣) الشذرات (٢ : ٢٤٢) .
(٢) الإكمال لابن ماكولا (١ : ١٣٤) المشتبه للذهبي (١ : ٢٦٣) النبلاء (١٤ : ٤٨٦) .
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٢ : ٢٣١) .
(٤) تاريخ بغداد (٦ : ١٣٢) غاية النهاية (١ : ٢٠) النبلاء (١٤ : ٢٢٩) .
(٥) تاريخ بغداد (٨ : ٧١) تهذيب ابن عساكر (٣ : ٤٢٩) الشذرات (٢ : ٢٤٩) النبلاء (١٤ : ٢٥٨) .
(٦) التذكرة (ص٧٠٣) الميزان (١ : ٤٩٢) شذرات الذهب (٢ : ٢٤١) النبلاء (١٤ : ١٥٧) .
(٧) تهذيب ابن عساكر (٤ : ٣٠٥) النبلاء (١٤ : ٢٨٦) .
(٨) الإكمال (٤ : ٥٣) التذكرة (ص٨٠١) طبقات الحفّاظ للسيوطي (ص٣٣٤) النبلاء (١٤ : ٤١٣) .
(٩) التذكرة (ص٧٧٤) شذرات الذهب (٢ : ٢٧٩) النبلاء (١٤ : ٥١٠) .
(١٠) التذكرة (ص٧٠٩) شذرات الذهب (٢ : ٢٥٠) الميزان (٢ : ٧٩) النبلاء (١٤ : ١٩٧) .
(١١) اللباب في تهذيب الأنساب (٣ : ٢٤٦) سير النبلاء (١٤ : ٣٠٦) .
(١٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٠٤) التذكرة (ص٦٩٦) شذرات الذهب (٢ : ٢٣٥) النبلاء (١٤ : ١٦٤) .
(١٣) تاريخ بغداد (٩ : ٣٧٨) التذكرة (ص٦٨٨) تهذيب ابن عساكر (٧ : ٢٨٧) البلدان (٥ : ٢٠٧) اللباب (٣ : ٢٥٩) النبلاء (١٤ : ١٦٨) .

سعيد بن أحمد بن سعد بن سنان المنبجيِّ الطائيِّ[١] (كان حياً سنة ٣٠٦) بمنبج والحافظ الكبير عمر بن محمد بن بجير الهمداني السمرقندي صاحب التفسير والصَّحيح (ت : ٣١١هـ) ببخارى[٢] والحافظ عمران بن موسى بن مجاشع السختياني[٣] (ت : ٣٠٥هـ) بِجُرجان ، والإمام العلَم أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحي[٤] (ت : ٣٠٥هـ) وهو أكبر شيوخه ، سمع منه بالبصرة ، والإمام الفقيه المحدّث العلَم محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت : ٣١٨هـ) سمعه بمكّة المكرمة[٥] وإمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري[٦] (ت : ٣١١هـ) بنيسابور وغيرها ، والحافظ محمد بن الحسن بن قتيبة اللخمي العسقلاني مسنِد فلسطين (ت : ٣١٠هـ) بعسقلان[٧] والحافظ محمد بن أحمد بن أبي عون[٨] الريّاني (ت : ٣١٣هـ) بنسا وبُست ، والإمام الحافظ محمد بن عبد الله بن عبد السَّلام «مكحول»[٩] البيروتي (ت : ٣٢١هـ) ببيروت ، والإمام الحافظ المتقن محمد بن المنذر بن سعيد الهروي[١٠] (شَكّر) (ت : ٣٠٣هـ) بعدّة أماكن ، والمحدّث الثقة المفضل بن محمد الجَنَديِّ[١١] (ت : ٣٠٨هـ) بمكّة المكرّمة ، والحافظ المتقن أبي عوانة[١٢] يعقوب بن

---

(١) معجم البلدان (٥ : ٢٠٧) اللباب (٣ : ٢٥٩) النبلاء (١٤ : ٢٩٠) .

(٢) التذكرة (ص٧١٩) البداية والنهاية (١١ : ١٤٩) طبقات الداودي (٢ : ٧) النبلاء (١٤ : ٤٠٢) .

(٣) التذكرة (ص٧٦٢) البداية والنهاية (١١ : ١٢٨) تاريخ جرجان للسهمي (ص٣٢٢) طبقات الحفاظ (ص٣٢٠) النبلاء (١٤ : ١٣٦) .

(٤) ذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم (٢ : ١٥١) طبقات الحنابلة (١ : ٢٤٩) التذكرة (ص٦٧٠) الميزان (٣ : ٣٥٠) النبلاء (١٤ : ٠٧) .

(٥) التذكرة (ص٧٨٢) الميزان (٣ : ٤٥٠) شذرات الذهب (٢ : ٢٨٠) النبلاء (١٤ : ٤٩٠) .

(٦) التذكرة (ص٧٢٠) تاريخ جرجان (ص٤١٣) البداية والنهاية (١١ : ١٤٩) طبقات القراء (٢ : ٩٧) النبلاء (١٤ : ٣٦٥) .

(٧) التذكرة (ص٧٦٤) شذرات الذهب (٢ : ٢٦٠) العبر (٢ : ١٤٧) النبلاء (١٤ : ٢٩٢) .

(٨) تاريخ بغداد (١ : ٣١١) تاريخ جرجان (ص٣٧٢) العبر (٢ : ١٥٧) النبلاء (١٤ : ٤٣٣) .

(٩) معجم البلدان (١ : ٥٢٥) التذكرة (ص٨١٤) الأنساب (٢ : ٣٦١) النبلاء (١٥ : ٣٣) .

(١٠) التذكرة (ص٧٤٨) شذرات الذهب (٢ : ٢٤٢) العبر (٢ : ١٢٦) النبلاء (١٤ : ٢٢١) .

(١١) معجم البلدان (٢ : ١٧٠) شذرات الذهب (٢ : ٢٥٣) البداية والنهاية (١١ : ١٣١) طبقات القرّاء (٢ : ٣٠٧) النبلاء (١٤ : ٢٥٧) .

(١٢) تاريخ جرجان (ص٤٤٨) وفيات الأعيان (٦ : ٣٩٣) التذكرة (ص٧٧٩) النبلاء (١٤ : ٤١٧) .

إبراهيم الإسفرايني صاحب الصحيح المخرَّج على صحيح مسلم (ت : ٣١٦هـ) والحافظ محمد بن عبد الرحمن الدَّغُوليّ[١] السَّرخسي شيخ خراسان (ت : ٢٥٣هـ) والحافظ أحمد بن محمد ابن الشَّرقي[٢] صاحب الصحيح ، وتلميذ الإمام مسلم (ت : ٣٢٥هـ) والإمام الحافظ محمد بن الحسين بن مكرم[٣] البغدادي نزيل البصرة (ت : ٣٠٩هـ) والإمام الحافظ المقدّم محمد بن إسحاق الثقفي السَّرّاج (ت : ٣١٣هـ) بنيسابور[٤] .

وقد أخذ عن الإمام أحمد بن شعيب النسائيِّ (ت : ٣٠٣هـ) بمصر ، والإمام محمد ابن أحمد بن حمَّاد الدولابيِّ (ت : ٣١٠هـ) بمكَّة المكرّمة ، إلا أنَّه لم يحدِّث عنهما فيما بين أيدينا من كتبه .

---

(١) التذكرة (ص٨٢٣) العبر (٢ : ٢٠٥) الشذرات (٢ : ٣٠٧) النبلاء (١٤ : ٥٥٧) .

(٢) تاريخ بغداد (٤ : ٢٤٦) الأنساب (٧ : ٣١٩) التذكرة (٨٢١) الميزان (١ : ١٥٦) النبلاء (١٥ : ٣٧) .

(٣) تاريخ بغداد (٢ : ٢٣٣) التذكرة (ص٧٣٥) الشذرات (٢ : ٢٥٨) النبلاء (١٤ : ٢٨٦) .

(٤) تاريخ بغداد (١ : ٢٤٨) التذكرة (ص٧٣١) شذرات الذهب (٢ : ٢٦٨) النبلاء (١٤ : ٣٨٨) .

المبحث الثَّاني

شيوخ ابن حبَّان الكبار

لا ريب في أنَّ هؤلاء الحفاظ وغيرَهم ممن لم نذكرهم في المبحث السابق ؛ كان لهم الأثر الكبير في شخصيّة ابن حبان العلميّة ، والتربويّة ، وكثرة هؤلاء الأعلام الحفاظ واختلاف مشاربهم ، وتعدُّد تخصُّصاتهم ، مكّن ابن حبّان من اتِّساع الأفق ، وتنوُّع المعارف والعلوم .

ولقد تردَّدتُ كثيراً فيمن أنتخب من شيوخ ابن حبَّان للتَّعريف بهم ، وجلُّهم أئمة حفّاظ ! ثم هُديتُ إلى اختيار عددٍ من الذين كان لهم أثر بالغ في حياة ابن حبَّان العلميّة من فقهاء ولغويّين ومحدِّثين ، وممّن أكثر الرواية عنهم في كتبه ، ورتَّبتهم على حروف الهجاء ، فكلُّهم كبار عظماء رحمهم الله تعالى .

- الشيخ الأول: أبو يعلى الموصلي

هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو يعلى أحمد بن عليٍّ بن المثنَّى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميميٍّ محدِّث الموصل ، وصاحب المسند والمعجم .

ولد في ثالث شوّال سنة عشر ومائتين (٢١٠هـ) ، فهو أكبر من النسائيِّ بخمس سنين ، وأعلى إسناداً منه[١] .

وقال الخليليُّ : (ثقة متَّفق عليه ، صاحب المسند والمعجم ، رَضِيَه الحفاظ وأخرجوه في صحاحهم : أبو بكر الإسماعيليُّ ، وأبو علي النيسابوريُّ ، وابن عَدِيٍّ ، وأبو منصور القزوينيُّ وابن المقري الأصبهانيُّ[٢] . سمع يحيى بن معين وشيوخ بغداد وغيرها . . .)[٣] .

---

(١) أعلام النبلاء (١٤ : ١٧٤) .

(٢) ولم يذكر الخليلي ابن حبّان مع أنَّه أعلى منـزلة من كل مَن ذكرهم ، وصحيحه أحسن هذه الصِّحاح .

(٣) الإرشاد في معرفة علماء البلاد للخليلي (ق ١٠٤/أ) .

لَقيَ الكبار، وارتحل في حداثته إلى الأمصار... وسمع من أحمد بن حاتم الطويل وأحمد بن جميل، وأحمد بن عيسى التُّستَريِّ... وأبي خيثمة زهير بن حرب وخليفة بن خيَّاط، وخلائق كثيرين سوى هؤلاء، مذكورين في معجمه.

قال أبو موسى المدينيُّ: أخبرنا هبة الله الأبرقوهي عمَّن ذكره أنَّ والد أبي عبد الله ابن منده رحل إلى أبي يعلى، وقال له: إنَّما رحلت إليك لإجماع أهل العصر على ثقتك وإتقانك، وقال السُّلميُّ: سألت الدارقطني عن أبي يعلى؛ فقال: ثقة مأمون.

حدَّث عنه الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي في «الكنى» والحافظ يزيد بن محمد الأزدي، وأبو حاتم بن حبَّان، وأبو الفتح الأزديُّ، وحمزة بن محمد الكنانيُّ، والطبرانيُّ وأبو بكرٍ الإسماعيليُّ، وأبو أحمد عبد الله بن عَدِيٍّ، وابن السّنّي... وخلق كثير.

قال يزيد بن محمد الأزديُّ في «تاريخ الموصل»: كان من أهل الصدق والأمانة والدين والحِلْم، قال ابن عدي: ما سمعت مسنداً على الوجه إلا مسند أبي يعلى؛ لأنه كان يحدّث لله عز وجل. وقال الحافظ عبد الغنيِّ الأزديِّ: أبو يعلى أحد الثّقات الأثبات.

وقال ابن عديّ في ترجمة محمد الطُّفاوي من كامله: سمعت أبا يعلى يقول: عندي عن أبي خيثمة المسند والتفسير والموقوفات، حديثُه كلُّه[1].

وقال ابن حبَّان في ترجمة أبي يعلى: «من المتقنين في الروايات، والمواظبين على رعاية الدين وأسباب الطاعات، أدخلناه في هذه الطبقة ـ الرابعة ـ لأنَّ بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أنفس في اللقاء»[2].

قال الذهبيُّ: إليه انتهى علوُّ الإسناد، وازدحم عليه أصحاب الحديث، وعاش سبعاً وتسعين سنة، وقال أبو سعد السمعانيُّ: سمعت إسماعيل بن محمد بن الفضل التيميَّ يقول: قرأت المسانيد كمسند العدنيِّ، ومسند أحمد بن منيع، وهي كالأنهار ومسند أبي يعلى يكون مجتمع الأنهار. قال الذهبي: صَدَقَ! ولا سيما مسنده الذي

---

(١) أعلام النبلاء (١٤ : ١٧٧ ـ ١٧٩) مقتطفات.

(٢) الثّقات لابن حبَّان (٨ : ٥٥).

عند أهل أصبهان من طريق ابن المقرئ عنه ، فإنه كبير جداً ، وأرَّخ ابن حبَّان والذهبيُّ وغيرهما وفاته في سنة سبع وثلاثمائة[١] .

وقد أكثر عنه الإمام ابن حِبَّان في صحيحه ، فروى عنه (١١٧٣) حديثاً[٢] وما ذلك إلا لعلوِّ إسناده وثقته ورِفعة شأنه .

وقد أكثرَ عنه أيَّما إكثار في كتاب الثقات ، وحدَّث عنه ومن طريقه بأكثر من مائة موضع في كتاب المجروحين ، وأكثر عنه في كتاب روضة العقلاء كذلك .

- الشَّيخ الثاني: الحسن بن سفيان الشَّيباني النسائيّ

هو الإمام الحافظ الثبت أبو العباس الحسن بن سفيان بن عامر بن عزيز بن النعمان ابن عطاء الشَّيبانيُّ الخراسانيُّ النسويُّ ، صاحب المسند .

ولد سنة بضع ومائتين[٣] وهو أسنُّ من بلديِّه الإمام أبي عبد الرحمن النسائي ، وماتا معاً في عام واحد . ارتحل إلى الآفاق ، وروى عن أحمد بن حنبل ، وإبراهيم بن يوسف البلخيّ ، وقتيبة بن سعيد ، ويَحيى بن مَعين ، وشيبانَ بن فَرُّوخ . . . وخلق كثير . وهو من أقران أبي يعلى ، ولكنَّ أبا يعلى أعلى إسناداً منه ، وأقدم لقاءً ، فإنه سمع من علي ابن الجعد ، وقد سمع الحسن تصانيفَ الإمام أبي بكر ابن أبي شيبة منه ، وسمع السنن من أبي ثور الفقيه ، وتفقَّه به ، ولازمه وبرع ، وكان يفتي بمذهبه .

حدَّث عنه إمام الأئمة ابن خزيمة ـ وهو من أقرانه ـ ويحيى بن منصور القاضي ، وأبو عليٍّ الحافظ النيسابوريُّ ، وأبو بكرٍ الإسماعيليُّ ، وأبو حاتم ابن حبَّان .

---

(١) الثقات (٨ :٥٥) وأعلام النبلاء (١٤ : ١٨٠) .

(٢) انظر فهرس الإحسان (٤٣/١٨ ـ ٤٨) لتقف على مئات الروايات التي رواها ابن حبان من طريقه .

(٣) في النبلاء (١٤ : ١٥٧) : ولد سنة بضع وثمانين ومائتين . وهو غلط فاحش من الطبع أو التحقيق ، ولم ينتبه إليه ، وغالب الظن أنَّها سنة ثمان ومائتين ، لأنَّ الذهبي يقول في ترجمة ابن حبَّان : وأكبر شيخ لقيه الفضل بن الحباب . وقد ولد الفضل سنة ستٍّ ومائتين كما سيأتي .

قال الحاكم : كان الحسن بن سفيان محدِّث خراسان في عصره ، مقدّماً في الثبت والكثرة والفهم والفقه والأدب . وقال ابن حِبّان[١] : كان الحسن ممن رحل وصنَّف وحدَّث على تيقُّظ ، مع صحة الدِّيانة والصَّلابة في السنَّة . وقال ابن أبي حاتم : الحسن ابن سفيان ، سمع حبَّان بن موسى ، وقتيبة بن سعيد ، وابن أبي شيبة ، كتب إليّ ، وهو صدوق . وقال الحافظ أحمد بن علي الرازي : ليس للحسن في الدنيا نظير . وقال أبو الوليد حسان بن محمد : كان الحسن بن سفيان فقيهاً أديباً ، أخذ الأدب عن أصحاب النضر بن شُمَيل ، والفقه عن أبي ثور ، وكان يفتي بمذهبه ، صنَّف المسند الكبير ، والجامع والمعجم وغير ذلك . وقال ابن حبَّان : حضرتُ دفنَه في شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثمائة ، مات بقريته (بالوز) رحمه الله تعالى[٢] .

وقد صَحِبَه الإمام ابن حبَّان ـ رحمهما الله ـ حتى وفاته ، وتَلْمَذَ له ، وأكثرَ عنه في صحيحه وفي سائر كتبه ، فقد حدَّث بـ (٨١٤) حديثاً[٣] وذكره في الثقات كثيراً جداً كما نقل عنه وحدَّث من طريقه في أكثر من مائة وخمسين موضعاً في كتاب المجروحين ، وقد أكثر عنه كثيراً في روضة العقلاء أيضاً ، رحمهما الله تعالى .

ـ الشَّيخ الثَّالث: أبو عَروبة الحرّانيُّ

هو الإمام الحافظ المعمَّر الصادق أبو عَروبة الحسين بن محمد بن أبي معشر مودود بن حمّادٍ السُّلميُّ الجزريُّ الحرَّانيُّ ، صاحب التصانيف ، له كتاب الطبقات وتاريخ الجزيرة .

ولد بعد العشرين ومائتين ، وأوَّلُ سماعه في سنة ستٍّ وثلاثين ومائتين ، ومات سنة ثماني عشرة وثلاثمائة .

سمع مخلد بن مالك السّلمسينيَّ[٤] ، ومحمد بن الحارث الرافقيَّ ، وإسماعيل بن

---

(١) لم أجد للحسن ترجمة في الطبقة الرابعة ، فلعلَّه في الطبقة الخامسة (طبقة شيوخ ابن حبَّان) .

(٢) أعلام النبلاء (١٤ : ١٥٧) وتهذيب ابن عساكر (٤ : ١٨١) وطبقات الحفاظ (ص٣٠٥) وتذكرة الحفاظ (ص٧٠٣) والبداية والنهاية (١١ : ١٢٤) وطبقات الشافعية لابن السبكي (٢ : ٢١٠) .

(٣) انظر فهرس الإحسان (١٨ : ٥١ ـ ٥٤) .

(٤) سَلْمَسين : قرية قُرب حرّان ، من قرى جزيرة ابن عمر على الحدود بين تركيا والشام . «معجم البلدان» (٣ : ٢٤٠) .

موسى الفزاريّ ، وعبد الجبار بن العلاء ، ومحمد بن سعيد بن حمّادٍ الأنصاريّ ، ومحمد ابن بشار ، وعبد الوهّاب بن الضحّاك ، وخلقاً سواهم .

قال ابن عَدِيٍّ : كان عارفاً بالرجال وبالحديث ، وكان مع ذلك مفتي أهل حَرَّانَ شفاني حين سألته عن قوم من المحدِّثين .

وقال أبو أحمد الحاكم في (الكنى) : أبو عروبة الحسين بن محمد بن مودود بن حمّاد السُّلميُّ ، كان من أثبت من أدركناه ، وأحسنهم حفظاً ، يَرْجعُ إلى حُسن المعرفة بالحديث والفقه والكلام[١] .

وقد وثَّقه ابن حبَّان ، فخرَّج له في صحيحه أكثر من مائة وخمسين حديثاً[٢] أما في الثقات ، فقد روى عنه في مواضع كثيرة ، وروى عنه في المجروحين في بضعة عشر موضعاً .

- الشَّيخ الرّابعُ: ابن سنان الطَّائيُّ

هو الإمام عمر بن سعيد بن أحمد بن سعد بن سنان الطائيُّ أبو بكر المنبجيُّ المحدِّث القدوة العابد .

سمع أبا مصعب الزهريَّ ، وهشام بن عمّار ، ودُحَيماً ، وأحمد بن أبي شعيب الحرّانيَّ ، ومحمد بن قدامة ، وطبقتهم .

حدَّث عنه الطبرانيُّ ، وابن حبَّان ، وعبدان بن حميد المنبجيُّ ، وأبو أحمد بن عديّ وآخرون . قال ابن حبَّان : كان قد صام النّهار ، وقام الليل ثمانين سنة ، غازياً مرابطاً رحمه الله ، وقال الذهبيُّ : لم أظفر له بوفاة ، ولكنَّه كان حياً سنة ستٍّ وثلاثمائة[٣] .

وقد روى عنه ابن حبَّان في صحيحه (٢٩٠) حديثاً[٤] ، وأكثرَ عنه في الثقات ، وروى

---

(١) النبلاء (١٤ : ٥١٠) .

(٢) انظر : فهرس الإحسان (١٨ : ٥٦) .

(٣) معجم البلدان (٥ : ٢٠٧) وأعلام النبلاء (١٤ : ٢٩٠) .

(٤) انظر : فهرس الإحسان (١٨ : ٦٢ : ٦٣) .

في المجروحين من طريقه بضعة عشر روايةً ، وفي عدة مواضع من الروضة .

- الشَّيخ الخامس: عمر بن محمد البُجيريُّ

هو الإمام الحافظ الثبت الجوَّال ، مصنِّف المسند ، محدِّث ما وراء النهر ، ومصنِّف التفسير ، والصحيح ، أبو حفص عمر بن محمد بن بُجير الهمدانيُّ السمرقنديُّ . . كان من أوعية العلم ، ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وكان أبوه صاحب حديث ، ومن أصحاب «عارم» وطبقته ، فرحل بابنه عمر إلى الأقاليم ، وتوفِّي المترجَم (٣١١هـ) .

حدَّث عن : عيسى بن حمّادٍ ، وزغبة ، وبشر بن معاذ العَقَديِّ ، وعمرو بن عليٍّ الفلاّس ، وأحمدَ بن عبدةَ الضبيّ ، وبُندار ، وطبقتهم .

حدَّث عنه : محمد بن محمد بن صابر ، ومحمد بن بكرٍ الدِّهْقان ، ومحمد بن أحمد بن عمران الشَّاسيُّ ، وعيسى بن موسى الكسائيُّ ، وأبو حاتم بن حبَّان ، وآخرون .

قال الإدريسيُّ : كان فاضلاً خيّراً ثبتاً في الحديث ، له الغاية في طلب الآثار والرحلة[١] وقد أكثر عنه ابن حبَّان في كلِّ كتبه الموجودة ، فروى عنه في صحيحه (٣٧٧) حديثاً[٢] وأكثر عنه في الثقات وروضة العقلاء . أما في المجروحين فقد روى عنه في مائة موضع تقريباً ، وهذا يدلّ على رِفعة شأنه عند ابن حبَّان ، وعلوّ كعبه في العلم .

- الشَّيخ السَّادس: عمرانُ السّختِيانيُّ

هو الإمام المحدِّث الحجَّة الحافظ أبو إسحاق عمران بن موسى بن مُجاشع الجرجانيُّ السختيانيُّ . وُلد سنة بضع عشرة ومائتين ، ومات بجرجانَ سنة خمسٍ وثلاثمائة .

سمع من هُدَبَة بن خالد ، وشيبانَ بن فَرُّوخ ، وإبراهيم بن المنذر الحزاميِّ ، وأبي الربيع الزهرانيِّ ، وسُوَيد بن سعيد ، وطبقتهم .

---

(١) تذكرة الحفّاظ (ص٧١٩) والبداية والنهاية (١١ : ١٤٩) وأعلام النبلاء (١٤ : ٤٠٢) .

(٢) انظر فهرس الإحسان (١٨ : ٦٣ ـ ٦٥) .

حدَّث عنه أبو عبد الله بن الأخرم ، والحافظ أبو عليٍّ النيسابوريُّ ، وأبو عمرو بن نُجيد ، وأبو بكرٍ الإسماعيليُّ ، وأبو أحمد الغِطْريفيُّ ، وخلق كثير .

قال الحاكم : هو محدِّث ثبت مقبول ، كثير التصنيف والرحلة ، وقال حمزة السهميُّ كان قد صنَّف المسند ، حدَّثنا جماعة عنه . سمعت أبا بكر الإسماعيليَّ يقول : عمران ابن موسى السختيانيُّ صدوق ، محدِّث جرجانَ في زمانه[١] .

أما ابن حبَّان فقد روى عنه في صحيحه (٢٣٥) حديثاً[٢] وقد أكثر عنه في الثقات . وروى عنه بعض الروايات في الروضة ، أما في المجروحين فلم يروِ من طريقه إلا في اثني عشر موضعاً .

- الشَّيخ السَّابع: أبو خليفة الجُمَحِيُّ

هو الإمام العلاَّمة ، المحدِّث الأديب الأخباريُّ ، شيخ الوقت : أبو خليفة الفضل بن الحباب ـ واسم الحباب عمرو ـ بن محمد بن شعيب الجمحيُّ البصريُّ الأعمى .

وُلد في سنة ستٍّ ومائتين ، وعُني بهذا الشأن وهو مراهق ، فسمع سنة عشرين ومائتين ، ولَقِيَ الأعلام ، وكتب علماً جمّاً ، وكان حسن المعرفة ، صاحب فنون .

سمع القَعْنبيَّ ، ومسلم بن إبراهيم ، وسليمانَ بن حرب ، ومحمد بن كثير ، وأبا الوليد الطيالسيَّ ، ومسدّد بن مُسَرْهد ، ومحمد بن سلاَّم الجمحِيَّ ، وأخاه عبد الرحمن بن سلاَم ، وعليَّ بن المديني ، ولقد كتب حتى روى عن تلميذه أبي القاسم الطبرانيِّ .

وكان ثقة مأموناً ، صادقاً ، أديباً ، فصيحاً ، رُحل إليه من الآفاق ، وعاش مائة عام سوى أشهُر . حدَّث عنه أبو عوانة في صحيحه ، وأبو بكرٍ الصوليُّ ، وأبو حاتم بن حبَّان وأبو عليٍّ النيسابوريُّ ، وأبو القاسم الطبرانيُّ ، وابن عديّ ، والإسماعيليُّ ، وأبو بكر الجعابيّ وغيرهم . قال أبو الحسين ابن المُحامِليِّ : أخبرنا علي بن أحمد بن أبي خليفة سمعت أبي يقول : حضرنا يوماً عند خليلٍ أمير البصرة ، فجرى بينه وبين أبي خليفة

(١) تاريخ جرجان للسَّهميّ (ص٣٢٢) وتذكرة الحفّاظ (ص٧٦٢) وأعلام النبلاء (١٤ : ١٣٦) .

(٢) انظر فهرس الإحسان (١٨/٦٥ ـ ٦٦) .

كلام، فقال له: من أنت أيها المتكلِّم؟ فقال: أيها الأمير؛ ما مثلك مَن جَهِلَ مثلي! أنا أبو خليفة الفضل بن الحباب، أفهل يخفى القمر؟ فاعتذر إليه، وقضى حاجته، ولما خرج سألوه، فقال: ما كان إلا خيراً)[1] . توفِّي سنة خمسٍ وثلاثمائة .

وقد تأثَّر ابن حبَّان بشيخه أبي خليفة الجمحي، واهتمَّ به أيَّما اهتمام؛ لما مَرّ سابقاً، ولأنه أكبر شيخ لقيَه ابن حبَّان وأعلاهم إسناداً، وقد روى من طريقه في صحيحه (٧٣٩) حديثاً[2] وأكثرَ عنه أيَّما إكثار في ثقاته، خاصة في تعداد شيوخ أبي خليفة، فكان كثيراً ما يقول عن الشيخ: حدثنا عنه أبو خليفة بالبصرة. أما في المجروحين فلم يروِ من طريقه إلاّ في خمسة عشر موضعاً، وحيث إنَّ أبا خليفة أديبٌ، فإنّ أبا حاتم بن حبَّان أكثر عنه في كتابه «روضة العقلاء» ونقل من طريقه نصوصاً كثيرة في شعر الحكمة والزهد والأدب .

- الشَّيخ الثَّامن: ابن المنذر النَّيسابوريُّ

هو الإمام الحافظ العلاّمة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النَّيسابوريُّ الفقيه نزيل مكَّة، وصاحب التصانيف، ككتاب «الإشراف في اختلاف العلماء» وكتاب «الإجماع» وكتاب «المبسوط» وغير ذلك .

وُلد في حدود وفاة أحمد ابن حنبل. وأرَّخ الإمام أبو الحسن ابن القطَّان الفاسيُّ وفاته في سنة ثماني عشرة وثلاثمائة .

روى عن الربيع بن سليمان، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ومحمد بن إسماعيل بن الصائغ، ومحمد بن ميمون، وعليِّ بن عبد العزيز، وخلق كثير مذكورين في كتبه .

حدَّث عنه أبو بكر ابن المقرئ، ومحمد بن يحيى بن عمّار الدِّمياطيُّ، والحسن والحسين ابنا عليِّ بن شعبان، ونسيَه الحاكم، فلم يذكره في تاريخ نيسابور، ولا هو في تاريخ بغداد، ولا تاريخ دمشق؛ فإنَّه ما دخلها .

---

(١) أعلام النبلاء (١٤ : ٧ - ٩) وتذكرة الحفّاظ (ص٦٧٠) فما بعدها .

(٢) انظر فهرس الإحسان (١٨ : ٦٦ - ٦٩) .

قال الشَّيخ النَّواويُّ : له من التحقيق في كتبه ما لا يقاربه فيه أحد ، وهو في النهاية من التمكُّن من معرفة الحديث ، وله اختيار فلا يتقيَّد في الاختيار بمذهبٍ بعينه ، بل يدور مع ظهور الدليل(١) .

ولم يروِ عنه ابن حبَّان في صحيحه إلا حديثَين (١٤٩ ، ١١٢١) وروى عنه في الثقات رواياتٍ عديدة ، أما في المجروحين فلم يروِ عنه إلا في موضع واحد ، وكذلك في روضة العقلاء .

ولا ريب أنَّ ابن حبَّان قد تَلْمَذَ له في الفقه ، وأخذ عنه علم الاستنباط ، وإنَّما قلَّت روايته عنه ؛ لأنَّه متأخِّر الولادة ، وعلى هذا فأسانيده نازلة ، وعلوُّ الإسناد مهمٌّ عند علماء الحديث ، وإنَّما روى عنه بضعة أحاديث في كتبه إشعاراً بفضله ، وعلمه ، وأثره . والله أعلم .

- الشَّيخ التَّاسع: ابن السَّرَّاج النَّيسابوريُّ

(هو الإمام الحافظ الثقة ، شيخ الإسلام ، محدِّث خراسان أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران الثقفيُّ ـ مولاهم ـ الخراسانيُّ النيسابوريُّ ، صاحب المسند الكبير على الأبواب ، والتاريخ وغير ذلك .

مولده في سنة ستَّ عشرة ومائتين ، ووفاته سنة ثلاثَ عشرة وثلاثمائة بنيسابور . وقيل : بل ولادته سنة ثمان عشرة ومائتين ، فقد عاش خمساً وتسعين ، أو سبعاً وتسعين سنة .

وقد كان السَّرَّاج على جانب عظيم من التُّقى والورع ، والحبِّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم ، حتى إنّه حدَّث عن نفسه ؛ فقال : ختمتُ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم اثنتي عشرةَ ألفَ ختمة ، وضحّيتُ عنه اثنتي عشرة ألفَ أضحية .

كما كان على جانب عظيم من العلم ، وكان بارزاً فيه منذ زمن مُبكّر ، قال : نظر محمد ابن إسماعيل ـ البخاري ـ في كتاب «التاريخ» لي ، وكتب منه بخطِّه أطباقاً ، وقرأتها عليه . ورُوي عنه أنّه أشار إلى كتبٍ له فقال : هذه سبعون ألف مسألة لمالك ، ما نفضت عنها الغبار مذ كتبتها)(٢) وهذا دليل كثرة أخذه عنه العلماء ، وعظمة جَمْعه .

---

(١) تذكرة الحفّاظ (ص٧٨٢) وميزان الاعتدال (٣ : ٤٥٠) وأعلام النبلاء (١٤ : ٤٩٠) .

(٢) أعلام النبلاء (١٤ : ٣٨٨) .

قال الخليليُّ في الإرشاد : السَّرّاج ثقة متَّفق عليه من شرط الصحيح ، سمع قتيبة ومحمد بن أبان البلخي ، وإسحاق بن راهويه ، وأبا قدامة السَّرخسيَّ ، وعبد الأعلى بن حمَّادٍ ، وبشر بن الوليد الكِنْدِيَّ ، وأحمد بن منيع ، وهنَّاد بن السّريِّ ، ومحمد بن الصبّاح الجرجرائيَّ ، وداود بن رشيد ، وأبا كُرَيبٍ ، وأبا مصعب ، وابن أبي عمر العدنيَّ ، وأقرانهم ومن بعدهم ، وكان يكتب عن الأقران ، ومن هو أصغر منه سنّاً ؛ لعلمه وتبحُّره . . . قال : كتبت عن ألف وخمسمائة شيخ ، بل زدت عليه ! روى عنه الكبار بالعراق ونيسابور ، سمع منه محمد بن إسماعيل الترمذيُّ أحاديثَ سنة نيِّفٍ وسبعين)[١] .

قال الذهبيُّ : حدَّث عنه البخاريُّ ومسلم بشيء يسير خارج الصحيحين ، وأبو حاتم الرّازيُّ أحد شيوخه ، وأبو بكر بن أبي الدنيا ، وعثمان بن السّمّاك ، والحافظ أبو عليٍّ النيسابوري ، وأبو حاتم بن حبَّان البستيُّ ، وأبو أحمدَ بن عَدِيٍّ ، وأبو أحمد الحاكم وحسينك بن عليٍّ التميميُّ)[٢] . قال الخطيب : كان من الثقات الأثبات ، عُني بالحديث وصنَّف كتباً كثيرة وهي معروفة[٣] .

وقد روى عنه ابن حبَّان في صحيحه (١٧٩) حديثاً[٤] إلا أنَّه أكثر عنه في الثقات أيّما إكثار ، وخاصة في الطبقة الرابعة من ثقاته ، أما في المجروحين فقد حَدَّث من طريقه في نحو سبعين موضعاً ، وحدَّث عنه في مواضع من روضة العقلاء .

- الشَّيخ العاشر: أبو بكر ابن خُزيمة النَّيسابوريّ

هو الحافظ الحجَّة الفقيه ، شيخ الإسلام ، إمام الأئمة ، أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السُّلميُّ النَّيسابوريُّ الشافعي صاحب التصانيف .

وُلد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وعُني في حداثته بالحديث والفقه حتى صار يضرب به المثل في سَعة العلم والإتقان .

(١) المنتخب من كتاب الإرشاد للخليلي (٣ : ٨٢٩) (ق١٦٧ب) .

(٢) النبلاء (١٤ : ٣٨٩) فما بعد .

(٣) تاريخ بغداد (١ : ٢٤٨) .

(٤) انظر فهرس الإحسان (١٨ : ٧٠ ـ ٧١) .

سمع من إسحاق ابن راهويه ، ومحمد بن حميد ، ولم يحدِّث عنهما ؛ لأنه كتب عنهما في صغره ، وقبل فهمه وتبصُّره ، وسمع من محمود بن غيلان ، وعتبة بن عبدالله المروزيِّ وعليّ بن حُجر ، وأحمد بن منيع ، ومحمد بن بشّار ، ومحمد بن المثنَّى ومحمد بن عبد الأعلى ، ويونس بن عبد الأعلى ، ومحمد بن يحيى القطيعيِّ . . . وأُممٍ سواهم .

حدَّث عنه البخاريُّ ومسلم في غير الصحيحين ، ومحمد بن عبد الله بن الحكم ـ أحد شيوخه ـ وأبو حامد ابن الشرقيِّ ، وأبو العبَّاس الدَّغُوليُّ ، وأبو عليٍّ النيسابوريُّ ، وأبو حاتم بن حبَّان ، وابن عديّ ، وأبو أحمد الكرابيسيُّ الحاكم . . . وخلقٌ كثير .

كان ابن خزيمة كريماً سخيّاً لا يدّخر شيئاً ، بل يُنفق ما يأتيه على طلبة العلم ، قال حفيده محمد بن الفضل بن محمد : كان لا يعرف سَنْجَة الوزن[1] ، ولا يميّز بين العشرة والعشرين ، وربما أخذنا منه العشرة فيتوهّم أنها خمسة .

وكان إماماً كبيراً ، قال الربيع بن سليمان : هل تعرفون ابن خزيمة؟ قلنا : نعم ، قال : استفدنا منه أكثر ممّا استفاد منا . . . وقال أبو عليٍّ الحافظ : كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيّات من حديثه كما يحفظ القارئ السُّورة .

وقال الدارقطنيُّ : كان ابن خزيمة إماماً ثبتاً ، معدوم النظير ! وقال ابن سريج في ابن خزيمة : يستخرج النكت من حديث رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بالمنقاش .

وقد كان هذا الإمام جهبذاً بصيراً بالرجال ، فقال ـ فيما رواه عنه محمد بن جعفر شيخ الحاكم ـ : لست أحتجُّ بشهر بن حَوشَبٍ ، ولا بحريز بن عثمان ؛ لمذهبه ـ وكان ناصبيّاً ـ ولا بعبدالله بن عمر ـ العمري ـ ، ولا ببقية بن الوليد ، ولا بمقاتل بن حيان ، ولا بأشعث بن سوار ، ولا بعليّ بن جدعان ؛ لسوء حفظه ، ولا بعاصم بن عبيد الله ، ولا بابن عقيل ، ولا بيزيد بن أبي زياد . وذكر أقواماً دون هؤلاء في العدالة ، فإنّ المذكورين احتجّ بهم غير واحد من أهل العلم .

قال الحاكم : فضائل إمام الأئمّة ابن خزيمة عندي مجموعة في أوراق كثيرة

(١) سنجة الميزان : ما يوزن به كالرطل والأوقية . «المعجم الوسيط» (سنج) .

ومصنَّفاته تزيد على مائة وأربعين كتاباً ، سوى المسائل ، والمسائل المصنَّفة أكثر من مائة جزء . وله فقه حديث بريرة في ثلاثة أجزاء[١] .

أمام هذا وأضعافه من مناقب هذا الإمام الجليل ومآثره ، فإن ابن حبان لازمه ، وكان يكتب كلَّ كلمة يقولها ، كما كان يسأله ، ويضايقه بكثرة أسئلته حرصاً منه على زيادة الفائدة ، وقد كان ابن حبان يقدّر شيخه ابن خزيمة قَدْره ، ويعرف له حقَّه ، لذلك فقد أثنى عليه بما لم يُثنِ بمثله على سواه ، قال في الجنس الرابع من الثقات الذين لا يحتج بأخبارهم : (الثقة الحافظ إذا حدّث من حفظه وليس بفقيه ، لا يجوز عندي الاحتجاج بخبره لأن الحفاظ الذين رأيناهم أكثرهم كانوا يحفظون الطرق والأسانيد ، دون المتون ، ولقد كنا نجالسهم برهةً من دهرنا على المذاكرة ، ولا أراهم يذكرون من متن الخبر إلا كلمة واحدة يشيرون إليها .

وما رأيت على أديم الأرض من كان يُحسن صناعة السُّنن ، ويحفظ الصّحاح بألفاظها ويقوم بزيادة كل لفظة تزاد في الخبر ، ثقةً ، حتى كأنَّ السُّنن كُلّها نَصْبَ عينيه إلا محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ رحمةُ الله عليه ـ فقط)[٢] .

وقد تلمذ ابن حبّان لشيخه بُرهةً من الدَّهْر ، وانتخب عليه من كتابه الكبير ، وعرضه على شيخه ، وروى من هذا الانتخاب في صحيحه[٣] .

وقد أكثر عنه في صحيحه ، فحدَّث من طريقه بـ (٣١٢) حديثاً[٤] إلا أنَّه أكثر عنه جداً في كتابه الثقات ، وروى من طريقه المرات الكثيرة ، كما ذكر كثيراً من الشيوخ الذين روى عنهم ابن خزيمة وحدَّث من طريقهم . إلا أنه لم يروِ من طريقه في المجروحين سوى خمس وعشرين روايةً .

---

(١) أعلام النبلاء (١٤ : ٣٦٥ ـ ٣٨٢) وتذكرة الحفّاظ (ص٧٢) فما بعد .

(٢) المجروحين لابن حبَّان (١ : ٩٣) .

(٣) انظر الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبَّان (٥ : ١١٢ب) .

(٤) انظر جملة رواياته في فهرس الإحسان (١٨/٧١ ـ ٧٢) .

- الشَّيخ الحادي عشر: ابن قتيبة اللَّخْمِيُّ

هو الإمام الثقة ، المحدِّث الكبير أبو العبَّاس محمد بن الحسن بن قتيبة بن زيادة اللّخميُّ العسقلانيُّ . كان مسند أهل فلسطين ، ذا معرفة وصدق . قال الذهبي : أحسَبه توفِّي سنة عشر وثلاثمائة أو نحوها .

سمع صفوان بن صالح ، وهشام بن عمّار ، وإبراهيم بن هشام الغسّانيَّ ، ويزيد بن عبد الله الرمليَّ ، وحرملةَ بن يحيى ، وعدَّةً . حدَّث عنه أبو حاتم بن حبَّان ، وأبو أحمد ابن عديّ ، وأبو عليٍّ النيسابوريُّ ، وأبو بكر ابن المقرئ وأكثر عنه[١] .

وقد أكثر عنه الإمام ابن حبان ، واعتمده ، فروى من طريقه (٤٥٥) حديثاً[٢] في صحيحه ، وأكثرَ عنه في الثقات ، وروى عنه في المجروحين قرابة ستين موضعاً كما روى عنه في مواضع كثيرة من روضة العقلاء .

- الشَّيخ الثَّاني عشر: مكحولٌ البيروتيُّ

هو الحافظ الإمام المحدِّث الرحَّال أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن عبد السَّلام ابن أبي أيوب البيروتيُّ ، ولقبه «مكحول» توفِّي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، أو قبلها بسنة . سمع أبا عمير عيسى بن محمد النحّاس ، وأحمد بن سليمان الرُهاويَّ ، وأحمد ابن حرب الطائيَّ ، ومحمد بن إسماعيل ابن عُليَّة ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وسليمان بن سيف الحرانيَّ ، وطبقتهم . وروى عنه أبو حاتم بن حبَّان ، وأبو بكر الربعيُّ ، وأبو أحمد الحاكم وآخرون[٣] .

قلت : روى ابن حبَّان من طريقه (٢٤) حديثاً[٤] في صحيحه ، وأكثرَ عنه في الثقات ، وخاصة في الطبقة الرابعة ، وقد حدّث عنه في ستِّين موضعاً من كتاب المجروحين تقريباً ، كما حدث عنه في روضة العقلاء أيضاً .

---

(١) تذكرة الحفّاظ (ص٧٦٤) والنبلاء (١٤ : ٢٩٢) .

(٢) انظر فهرس الإحسان (٧٢ ـ ٧٤) .

(٣) تذكرة الحفّاظ (ص٨١٤) فما بعدها ، أعلام النبلاء (١٥ : ٣٣) ومعجم البلدان (١ : ٥٢٦) .

(٤) فهرس الإحسان (١٨ : ٧٦) .

- الشَّيخ الثَّالث عشر: أبو عوانةَ الإسْفَرايِنيُّ

(هو الإمام الحافظ الكبير الجوَّال، أبو عوانة، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد النيسابوريُّ الأصل، الإسفرايِنيُّ، صاحب المسند الصحيح الذي خرَّجه على صحيح مسلم، وزاد أحاديث قليلة في أواخر الأبواب. مولده بعد الثلاثين ومائتين، ووفاته سنة عشرة وثلاثمائة. سمع بالحرمين والشَّام ومصر واليمن والثغور والعراق والجزيرة وخراسان وفارس وأصبهان، وأكثرَ الترحال، وبرع في هذا الشأن، وبزَّ الأقران.

سمع يونس بن عبد الأعلى، وعليَّ بن حرب الطائيَّ، ومحمد بن يحيى الذهليَّ وعمر بن شبَّة، وأحمد بن سعيد الدارميَّ، وأحمد بن ملاعب، وأحمد بن عبد الجبار العُطارِديَّ، والربيع المراديَّ، وخلقاً كثيراً.

حدَّث عنه: أحمد بن عليٍّ الرازيُّ الحافظ، وأبو عليٍّ الحافظ، ويحيى بن منصور وسليمان بن أحمد الطبرانيُّ، وأبو أحمد بن عديٍّ، وأبو بكرٍ الإسماعيليُّ، وأبو حاتم بن حبَّان، وولده أبو مصعب محمد بن أبي عوانة.

قال الحاكم: أبو عوانة من علماء الحديث وأثباتهم، وأبو عوانة أوَّل من أدخل مذهب الشافعيِّ وكتبَه إلى إسْفرايِنَ، حمَلها عن الربيع المراديِّ والمزنيِّ)[1].

ولم أقف على رواية له في صحيح ابن حبان[2]، وروى عنه في الثقات، والمجروحين مرات قليلة، وشهرته في فقه الشافعية، هي سبب عدّه في كبار شيوخ ابن حبّان.

---

(١) النبلاء (١٤ : ٤١٧).

(٢) انظر فهرس الإحسان (١٨ : ٧٨).

المبحث الثّالِث

تلامذة الإمام ابن حبَّان

إنّ كثرة تجوال أبي حاتم ابن حِبّان في البلاد، وتولِّيَهُ قضاء سمرقند مدة طويلة، ثم انتقاله إلى (نسا) وتولِّيَهُ قضاءها وتفقيه النَّاس فيها، ثم إقامته في (نيسابور) ثلاث سنوات، واستقراره بعد ذلك أربع عشرة سنة في (بست) حيث صارت الرحلة إليه لقراءة مصنَّفاته عليه، وأخْذ العلم على يديه، كلّ هذا يوحي بكثرة الآخذين عنه والمتتلمذين عليه، كما دلَّ على كثرة شيوخه الذين جاوزوا الألفَين ـ كما سبق ـ.

بَيد أن ضياع تواريخ نيسابور، وسمرقند، وبخارى، التي عُنِيَت بعلماء تلك المناطق خاصّة، وأسهبت في تراجمهم، جعلنا نجهل الكثير عن بعض كبار[1] علمائها، لأنه لم يتسنَّ لهم الرحلة إلى بغداد ودمشق وغيرهما من البلدان التي ما زالت تواريخها موجودة.

وابن حبَّان الذي أصابه إغفال شديد من معاصريه ومن بعدهم؛ قد احتفظ لنا هو برُبع أسماء مشايخه الذين أخذ عليهم، وضاع ثلاثة الأرباعِ الأُخر، وحتى الذين بقيت أسماؤهم، لم نحصل على معلومات وافية عن أكثر من عُشرهم.

أما تلامذته والآخذون عنه، فقد احتفظ لنا ياقوت الحمَويُّ وابن عساكر والذهبيُّ بأسماء عدد منهم، لا يتجاوز ثلاثة عشر تلميذاً، لم أعثر لبعضهم على ترجمة، كما أنَّ بعضهم لا تشير المصادر كثيراً إليه، ولا تعطي معلوماتٍ كافيةً عنه.

إلا أنَّ الذي يلفت النَّظر هو أنَّك تجد في كتب التراجم من يقول في ترجمة راوٍ من الرواة: حدَّث عن الطبراني وابن عديٍّ... وطبقتهم. وابن حبَّان من كبار هذه الطَّبقة وأعلامها، ومع ذلك لا يذكرون الرواة عنه.

والذي استرعى انتباهي عَدَمُ ذِكْر تلمذة الإمام الخطَّابي على الإمام ابن حبّان مع أنه بلديُّه، ومن طبقة كبار تلامذته.

---

(١) كما ترجم إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، ومحمد بن عبد الله بن الجنيد، وأحمد بن عمرو ابن هند البستيِّين، وغيرهم ممن لم أستطع معرفة حالهم، أو لم أعرف مدى كفاءتهم العلمية وأثرهم.

كما استكثر أصحاب كتب التراجم أن يقولوا بأنَّ الدَّارقطنيَّ تَلْمَذَ لابن حبَّان وأخذ عنه .

ويحسن أن أسرد أسماء تلامذته والرواة عنه ، ثمَّ أخصَّ النابهين المعروفين منهم بتراجم وافية .

المطلب الأول: صلة الدَّارقطنيَّ بابن حبَّان

مما لا ينكَر أنَّ أبا الحسن الدَّارقطني جبل من جبال العلم ، وعلَم من أكبر علماء القرن الرابع الهجري في الحديث والفقه والقراءات والأدب . وفيما خلَّفه من تراث أعظمُ الدلالة على ما ذكرت بعضه .

وُلد أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهديٍّ الدَّار قطنيُّ البغداديُّ سنة ستٍّ وثلاثمائة ، وسمع البغويَّ ، وابن أبي داود ، وابن صاعد ، وخلائق لا يحصَون كثرة . وسمع منه خلائق ، وتوفّي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة .

ولا يخفى أنَّ البغوي وابن أبي داود من شيوخ ابن حبَّان ، غير أن البغوي توفّي سنة سبعَ عشرة وثلاثمائة ، والدَّارقطني ابن إحدى عشرة سنة ، وهذا يعني أنه كان صغيراً حين سمع منه ، ولأنه أكبر شيوخه فقد حرص على كثرة الرواية عنه لعلوِّ إسناده ، غير أنه لم يسمع منه كلَّ ما عنده ، لصغر سنِّه ، ولهذا قال ابن طاهر : للدَّارقطني مذهب خفيٌّ في التدليس ، يقول فيما لم يسمعه من البغويِّ ، قرئ على أبي القاسم البغويِّ : حَدّثكم فلان[1] .

ولم يرو الدَّارقطنيُّ في كتبه شيئاً عن ابن حبَّان ، والذي يبدو لي أنه كانت بينهما معرفة وصلة ؛ فكتاب المجروحين يرويه الدَّارقطني عن ابن حبّان بالإجازة . فقد جاء في الورقة الأولى من كتاب المجروحين : الجزء الأول من كتاب المجروحين من المحدِّثين تصنيف أبي حاتم محمد بن حبّان بن أحمد التميمي رحمة الله عليه .

رواية أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدَّارقطني الحافظ إجازة عنه . وقد تكرر هذا في أجزاء الكتاب جميعها . إلى جانب وجود تعليقات كثيرة للدَّارقطني على المجروحين .

وقد روى ابن الجوزيِّ في كتابه العلل المتناهية تسعة وتسعين حديثاً من كتاب المجروحين ، فقال في سبعة وتسعين موضعاً منها :

---

(١) انظر تذكرة الحفّاظ (ص ٩٩١ ـ ٩٩٥) والنُّبلاء (١٦ : ٤٥١) .

أنبأنا ابن خَيرون ـ أو محمد بن عبد الملك ـ قال : أنبأنا الجوهريُّ ، عن الدّارقطني عن ابن حبَّان[١] .

وقال في أحد الموضعين الآخرين : أنبأنا محمد بن عبد الملك ، قال : أنبأنا أبو محمد الجوهري ، قال : أنبأنا الدَّارقطنيُّ ، عن ابن حبَّان البستيِّ[٢] .

وقال في الآخر : أنبأنا محمد بن أبي طاهر البزار ، قال : أنبأنا الحسن بن علي ، قال : أنبأنا علي بن عمر ـ الدَّارقطني ـ عن أبي حاتم البستي .

فهل صيغة (عن) التي تفيد التدليس عند من عُرف به ، تَسوغ لمن يروي بالإجازة؟

وهل هذا من تصرُّف ابن الجوزيِّ ، أو الدَّارقطنيِّ ، أو ممَّن بينهما؟

والذي يعنينا أن ثمَّة صلةً كانت بين الدَّارقطني وبين ابن حبَّان ، وقد أجاز الثَّاني للدَّارقطني رواية كتابه المجروحين ، وإلا فكيف يروي الكتاب من طريقه؟

ثم وقفت على كلام صريح يؤكد أنَّ الدَّارقطني قد اتَّصل بابن حبَّان وقرأ عليه بعض كتابه المجروحين ، وربما غيره ، ثم أجازه .

ففي ترجمة أحمد بن محمد بن غالب الباهلي المعروف بغلام خليل ، قال أبو بكر الخطيب : «حُدّثت عن أبي الحسن الدارقطني قال : أخبرنا أبو حاتم محمد بن حِبّان البُستي إجازةً . . .»[٣] .

وفي ترجمة صالح بشير القارئ ، قال الخطيب : «أخبرني الأزهري عن أبي الحسن الدارقطني قال : أخبرنا أبو حاتم محمد بن حِبّان إجازةً . . .»[٤] .

وفي ميزان الاعتدال للذَّهبيِّ[٥] : قال أبو الحسن الدَّارقطني : أخبرنا ابن حبَّان في

---

(١) انظر على سبيل المثال الأرقام : (١ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ١١٦٦ ، ١١٨٦ ، ١٥٥٢) .

(٢) انظر رقم (٨٥٢) ورقم (١١٢٦) من العلل المتناهية .

(٣) تاريخ بغداد (٥ : ٧٨ ـ ٧٩) .

(٤) ما سبق (٩ : ٣٠٥) .

(٥) ميزان الاعتدال (٣ : ١٥٨) . ومن المحتمل أن يكون إبراهيم بن أحمد ابن شاقلا من تلامذته ، فإنَّ له على المجروحين تعليقات .

كتابه ، قال : عليُّ بن موسى الرضا يُروى عنه عجائب ، يَهِم ويخطئ .

وهذه النّصوص تجعلني أجزم بتلمذة الدَّارقطني لابن حبَّان ، كجزمي بتلمذة ابن حبَّان للنَّسائي ، ولو لم نجد نصّاً واحداً في كتب ابن حبَّان يرويه عن النَّسائي .

المطلب الثاني: صلة الإمام الخطَّابي بابن حبَّان

لم تذكر المصادر أيَّة صلة بين هذين العلَمَين البستيَّين ، كما لم يذكر أحد من أصحاب كتب التراجم ـ فيما اطّلعت عليه ـ تلمذة الخطَّابي لابن حبَّان .

وقد تتبَّعت كتابَي غريب الحديث والعزلة للخطّابيّ ، فلم أقف على رواية صريحة واحدة من طريق ابن حبَّان .

غير أنّني لمست ما يمكن الاعتماد عليه في إثبات تلمذة الخطَّابي لابن حبَّان ، أوجزه فيما يأتي :

(أ) لقد ولد الإمام الخطَّابي[1] حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم البستيُّ سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، وأكبر شيخ لقيَه أحمد بن محمد بن زياد بن الأعرابيِّ شيخ الحرم ، وهو من شيوخ ابن حبَّان أيضاً . وقد كان ابن حبَّان في تلك الفترة قد انتهى ـ تقريباً ـ من تأليف مصنَّفاته . وكتابه (المجروحين) انتهى تأليفه قبل سنة (٣٢٤) وقد ألَّفه بعد كتاب الثِّقات كما سيأتي . وهذا يعني أنَّ ابن حبان كان في غاية نضجه ، والإمام الخطَّابيُّ يافع بعد .

ومعلوم أنَّ الخطَّابي قد انتقل إلى بخارى وسمرقند ونيسابور ، وقد كان ابن حبَّان من أبرز علماء تلك الدِّيار ، فما الذي يمنعه من الأخذ عنه؟

(ب) لقد أشار الخطَّابي إلى محنة ابن حبَّان في كتابه العزلة قال :

(وفي العزلة الأمانُ ببلد بست خاصَّة من دواهي الكنف الشَّرعة ، والمثاعب السَّائلة فإنَّ جنايتها عند أهلها جناية لا أَرْشَ لها ، ودماء قتلاها مطلولة ، لا عقل ولا قَوَدَ فيها فكلَّما قلّ بروز الإنسان إليها وعبوره عليها كان أوفر لمروءته)[2] . وقال :

---

(١) انظر ترجمته في تذكرة الحفّاظ (ص١٠١٨) ومقدّمة غريب الحديث (١ : ٨ ـ ٢٢) .

(٢) العزلة (ص٣٣) وانظر (ص١١ ، ٢٥ ، ٢٩ ـ ٣٠) .

(ولو لم يربح الإنسان في العزلة والتخلِّي عن النَّاس ، وعن مساويهم ، والانقطاع عن محاورتهم إلا ما يُكفاه من فضل مؤنة التَّحرُّز منهم ، وما يستفيده من الأمان : أن يرفعوا عليه قولاً يسمعونه يتكلَّم به في حال غفلة واسترسال ، أو يتأوَّلوا عليه كلاماً لا تبلغ عقولهم كنهه فيوجِّهوه إلى غير جهته ، وينحلوه غير صفته ، لكان فيه كفاية كافية . . . .)[1] .

وقد ذكرت سابقاً أنَّ ابن حبَّان اتُّهم بالزندقة ، ورُفع فيه كتاب إلى الخليفة ، فجاء أمر الخليفة بقتله .

ومن ذا الذي يستطيع أن يحدِّث عن رجل ، جاء أمر الخليفة بقتله وهو متَّهم بالزندقة والإلحاد؟

فلعلّ مثل هذا ، هو الذي منع الخطَّابيَّ من التصريح باسم ابن حبَّان ، بل لعلَّه ألّف كتاب العزلة تأثُّراً بما حدث لذلك العلَم الشامخ ، الذي ربما سمعوا منه قولاً في حال غفلة واسترسال ، أو تأوَّلوا عليه كلاماً لم تبلغه عقولهم فوجهوه إلى غير وجهته .

(جـ) ولقد أكثر الإمام الخطَّابي في كتابيه غريب الحديث والعزلة من إغفال اسم شيخه من الإسناد ، ومثل هذا لا يُقرّه أصحاب الحديث ـ كما هو معلوم ـ ، فلو لم يكن لهذا الشَّيخ قصة ؛ ما كان من مبرّر لإغفال اسمه ، حتى ولو كان ضعيفاً ، لأنَّه تهمة للمحدِّث في حديثه أحياناً .

وسأضرب بعض الأمثلة على ذلك علَّها تساعد في تقوية ما أذهب إليه .

(١) قال في العزلة : حدَّثونا عن الخلاديِّ قال : حدثنا عبد الله بن صقر . .

وقال ابن حبَّان في الروضة : أنبأنا محمد بن أبي عليٍّ الخلاديِّ : حدثنا عبد الله بن الصَّقر السكريّ[2] . وقد ذكر عدة روايات في العزلة عن الخلادي يغفل فيها شيخه ، وابن حبَّان تلميذ الخلاّدي ، ويرجح عندي أنَّه هو المُغْفَل .

(٢) وقال في العزلة : أخبرني بعض أصحابنا ، قال : حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال : حدثنا أحمد بن أبي الحواري .

---

(١) العزلة (ص٢٧) .

(٢) انظر العزلة (ص٧٠) وقارن بروضة العقلاء (ص١٠٠) وانظر العزلة (ص٣٨ ، ٣٩ ، ٧٠) .

وسعيد بن عبد العزيز شيخ ابن حبَّان ، حدَّث عنه في الثِّقات والمجروحين والصَّحيح[١] .

(٣) صرح الخطَّابي باسم محدِّثه عن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل البستي[٢] وعن محمد بن عمرو بن عبَّاد[٣] وعن محمد بن عبد الله بن الجنيد[٤] في مواضع عديدة . وهؤلاء الثَّلاثة من شيوخ ابن حبَّان في «بست» .

إلا أنه أغفل اسم محدِّثه عن محمد بن عبد الله بن الجنيد في كثير من المواضع كما أغفل غيره أيضاً .

(٤) قال في غريب الحديث : (وبلغني عن سفيان بن عيينة ، أنَّه قال لوكيع بن الجراح وهو يذاكره : ما معنى قول النَّبي ﷺ : «الحسب المال»؟ فقال وكيع : أراد أنَّ الرجل إذا كان ذا مال ؛ عظَّمه النَّاس ، فقال سفيان : ليس كذلك ؛ إنَّما هو قول أهل المدينة : إذا لم يجد نفقة زوجته فُرِّق بينهما .

حدَّثنيه بعض أصحابنا : نا محمد بن عبد الله بن الجنيد : نا سويد : أنا علي بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، أنَّ رسول الله ﷺ قال :

«أحساب أهل الدُّنيا المال»[٥] .

وهذا الحديث أخرجه ابن حبَّان فقال : حدَّثنا محمد بن عبد الله بن الجنيد «ببست» : حدَّثنا سويد بن نصر بن سويد المروزي : حدَّثنا علي بن حسين بن واقد عن أبيه . . . فذكر نحوه .

---

(١) انظر ترتيب صحيح ابن حبَّان (٤ : ٨٢ب) و(٧ : ٢١٤ب) والثِّقات (٨ : ١٠٢ أ) والمجروحين (١ : ٣٤٥) وفهرس الإحسان (١٨ : ٥٧) .

(٢) غريب الحديث (١ : ٢٠٨) .

(٣) ما سبق (١ : ١٨٦) .

(٤) ما سبق (١ : ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨١ ، ٢٠٥ ، ٢١٨) .

(٥) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٦٩٩) وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٥ : ٣٥٣ ، ٣٦١) والنَّسائي في النِّكاح باب الحسب (٦ : ٥٣) كلهم من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه مرفوعاً . وقد أخطأ محقق كتاب غريب الحديث فقال : عن سمرة (١ : ٩٩) .

(٥) وقال أيضاً : (وقد روى محمود بن خالد الدمشقيُّ ، عن الوليد ، عن الأوزاعيِّ أنه قال في هذا الحديث : سِرُّه آخِرُه .

هكذا حدَّثَناه أصحابنا ، عن إسحاق ، عن إبراهيم بن إسماعيل : أنبأنا محمود بن خالد) .

وإسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل البستي من شيوخ ابن حبَّان الذين أكثر عنهم في سائر كتبه ، وقد صرح الخطَّابيّ بمحدِّثه عنه ـ كما سبق ـ فلِمَ أغفَله هنا؟

(٦) وروى الخطَّابي حديث : (هل صُمتَ من سَرَر[1] شعبانَ شيئاً؟ فقال : لا . قال : فإذا أفطرت ـ يعني من رمضان ـ فصُمْ يومين)[2] ثم قال الخطَّابي : (كان بعض أهل العلم يقول في هذا : إنَّ سؤاله سؤال زجر وإنكار ؛ لأنَّه قد نهى أن يستقبل الشهر بيوم ، أو يومين) .

وقد روى ابن حبَّان هذا الحديث في صحيحه ثم قال :

(قوله ﷺ : «أصمتَ من سَرَر هذا الشهر» لفظة استخبار عن فعلٍ مرادُها الإعلام بنفي جواز استعمال ذلك الفعل المستخبَر عنه ، كالمنكر عليه لو فعله)[3] .

وكان ابن حبَّان قد روى حديث (لا تَقَدَّموا صيام شهر رمضان بصيام يوم أو يومين ، إلا رجل كان يصوم صياماً فليصُمْه)[4] . فقد نقل عن ابن حبَّان فحوى كلامه ـ كما ترى ـ .

كل هذه إشارات وقرائن يمكن الركون إليها ، في إثبات صلة بين الخطَّابي وبين شيخ بلاده يومئذ ، والله تعالى أعلم .

المطلب الثَّالث: الحاكم أبو عبد الله النَّيسابوريُّ

هو الحافظ الكبير إمام المحدِّثين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم الضَّبي الطَّهماني النَّيسابوري ، المعروف بابن البَيِّع ، صاحب التصانيف ، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وطلب الحديث من الصِّغر باعتناء أبيه وخاله ، فسمع سنة ثلاثين ، ورحل إلى العراق وهو ابن عشرين ، وحجّ ، ثم جال في

(١) سَرَر الشهر : آخر ليلة فيه . «المعجم الوسيط» مادة (سرر) .

(٢) غريب الحديث (١ : ١٣٢) .

(٣) صحيح ابن حبَّان (٥ : ٢١٥أ) والمطبوع (٣٥٨٨) .

(٤) الإحسان (٣٥٨٦) .

خراسان وما وراء النَّهر ، وسمع بالبلاد من ألفَي شيخ ، أو نحو ذلك[١] .

وحين قَدِمَ ابنُ حبَّان نيسابور سنة أربع وثلاثين استملى عليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة[٢] .

روى عن أبيه ، ومحمد بن عليٍّ بن عمر المذكّر ، وأبي العبَّاس الأصمِّ ، وأبي عليٍّ الحافظ ؛ وانتفع بصحبته ، وما زال يسمع ، حتى سمع من أصحابه ، وكان يناظر الجعابي والدَّارقطني ونحوهما ، وقد سمع منه من شيوخه أحمد بن أبي عثمان الحيريّ ، وأبو إسحاق المزكِّي .

وحدَّث عنه الدَّارقطني ، وأبو الفتح ابن أبي الفوارس ، وأبو العلاء الواسطي ، وأبو يعلى الخليلي ، وأبو بكر البيهقي ، وأبو القاسم القشيري . . . وخلائق .

وقد قرأ القراءات على ابن الإمام ، ومحمد بن أبي منصور الصرّام ، وأبي علي ابن النَّقار الكوفي .

وقرأ المذهب على أبي علي ابن أبي هريرة ، وأبي سهل الصّعلوكي ، وأبي بكر حسَّان ابن محمد .

قال الخطيب البغدادي : أبو عبد الله الحاكم ، كان ثقة ، يميل إلى التشيُّع .

قال ابن طاهر : سألت أبا إسماعيل الأنصاريَّ عن الحاكم ، فقال : ثقة في الحديث رافضيٌّ خبيث . ثم قال ابن طاهر : كان شديد التَّعصُّب للشيعة في الباطن ، وكان يظهر التَّسنُّن في التَّقديم والخلافة ، وكان منحرفاً عن معاوية وآله ، متظاهراً بذلك ولا يعتذر منه .

قال الذهبيُّ : أما انحرافه عن خصوم عليٍّ فظاهر ، وأما أمر الشَّيخين فمعظِّم لهما بكل حال ، فهو شيعيٌّ لا رافضيٌّ . . . توفِّي الحاكم في صفر سنة خمس وأربع مئة رحمه الله تعالى[٣] .

---

(١) تذكرة الحفّاظ (ص١٠٣٩) .

(٢) أعلام النبلاء (١١ : ١ : ٧٠) .

(٣) انظر ترجمة الحاكم في التذكرة (ص١٠٣٩ ـ ١٠٤٥) وأعلام النبلاء (١٧ : ١٦٢) فما بعد ، تاريخ بغداد (٥ : ٤٧٣) وشذرات الذهب (٣ : ١٧٦) وطبقات القراء لابن الجزري (٢ : ١٨٤) ووفيات الأعيان (١ : ٤٨٤) وتبيين كذب المفتري (ص٢٢٧) والبداية والنِّهاية (١١ : ٣٥٥) وغيرها .

قلت : وأبو إسماعيل الأنصاريّ الهرويّ هو نفسه الذي نقل اتِّهام ابن حبَّان بما اتُّهم به ، كما سيأتي .

وأما الحاكم فليس برافضيّ قطعاً ؛ والتشيّع بمعنى حبّ آل البيت وتقديمهم على غيرهم في الحبّ والولاء والنصرة كلّه مشروع . والدفاع عن شنائع معاوية وظلَمة بني أميّة ؛ ليس من منهج أهل السنة ، وإنما هو مذهب النواصب الذي تسلّل إلى فكر أهل السنة .

ولقد صنَّف الحاكم من الكتب ما يقارب ألف جزء حديثي من تخريج الصَّحيحين والعلل ، والتراجم ، والأبواب ، والشُّيوخ ، ثم المجموعات ، مثل معرفة علوم الحديث والمستدرك على الصَّحيحين ، وتاريخ نيسابور ، وكتاب مزكّى الأخبار ، والمدخل إلى معرفة الصحيحين ، وكتاب الإكليل ، وفضائل الشافعي ، وغير ذلك[1] .

وقد وصل إلينا من مصنّفاته المستدرك على الصَّحيحين ، والمدخل إلى معرفة كتاب الإكليل ، ويسمى المدخل إلى الإكليل ، ومعرفة علوم الحديث ، والمدخل إلى معرفة الصَّحيحين ، وثلاثون ورقة من كتابه تسمية من أخرج لهم الشَّيخان ، وبعض سؤالاته وفوائده وحديثه[2] .

وقد طُبع من كتبه ـ فيما أعلم ـ المستدرك ، ومعرفة علوم الحديث ، والمدخل إلى الإكليل . ولديَّ نسخة من كتاب «المدخل إلى معرفة الصحيحين» في أربع وسبعين ورقة مخطوطة . وهو غاية في الأهمية بالنِّسبة للصحيحين . وقد نوقش هذا الكتاب رسالةَ ماجستير في جامعة محمد بن سعود[3] .

المطلب الرابع: الحافظ غُنْجار

الحافظ العالم محدِّث ما وراء النّهر أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن كامل البخاريّ ، صاحب تاريخ بخارى .

---

(١) تذكرة الحفاظ (ص١٠٤٣) .

(٢) موارد الخطيب البغدادي (ص٢٦٨) وتاريخ التراث العربي لسزكين (١ : ٥٤٦) . وقد جعل الدكتور العمري الكتابين كتاباً واحداً أعطاه اسمين هما لمسمًى واحد ، فتنبّه .

(٣) وقد صدر الكتاب بتحقيق الدكتور ربيع بن هادي .

قال الذهبيّ : حدَّث عن خلف بن محمد الخيّام ، وسهل بن عثمان السُّلميّ ، وأبي عبيد أحمد بن عروة الكرمينيّ ، ومحمد بن حفص بن أسلم . . . وخلق كثير ، ولم يرحل .

حدَّث عنه أبو المظفَّر هنَّادُ بن إبراهيم النَّسفيُّ . قال : ولم أظفر له بترجمة كما ينبغي .

ومات سنة اثنتي عشرة وأربعمائة[١] . وذكر ياقوت من تلاميذه أبا زكريا عبد الرحيم ابن أحمد البخاري الحافظ[٢] .

قال ابن ناصر الدِّين : كان حافظاً ثقة مصنّفاً[٣] .

وكتابه «تاريخ بخارى» من أهم الكتب التي عنيت بتراجم علماء بلاد ما وراء النَّهر ، ولذلك فقد اعتمد عليه في تراجم علماء هاتيك البلاد : الخطيبُ ، وابن ماكولا والسَّمعاني ، والذَّهبي ، والسُّبكي ، وياقوت ، وابن كثير ، وابن حجر ، وغيرهم .

وقد بلغت النُّصوص التي نقلها الخطيب البغدادي في تاريخه من كتاب غنجار مائة موضع وخمسة عشر موضعاً . وكلها تتناول تراجم رجال الحديث من أهل بخارى والواردين عليها ، وهو يذكر تواريخ وفياتهم ، وأحياناً مواليدهم ، وأحياناً مكانتهم وجرحهم ، وبعض الأحاديث النَّبوية التي يرويها من طريقهم[٤] .

المطلب الخامس: الحافظ ابن منده

الإمام الحافظ الجوَّال محدِّث العصر أبو عبد الله محمد ابن الشَّيخ أبي يعقوب إسحاق ابن الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا يحيى بن منده الأصبهانيّ العبديّ .

وُلد الحافظ أبو عبد الله سنة عشر وثلاثمائة ، وقيل : في التي تليها . وتوفِّي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . كان فارسيَّ النَّسب ، وكانت أمُّ جدِّه من بني عبد ياليل فقيل : العبديّ ، فنسب إلى أخواله .

---

(١) انظر ترجمته في تذكرة الحفّاظ (ص١٠٥٢) وطبقات الحفاظ (ص٤١٢) والعبر في أخبار من غبر للذهبي (٣ : ١٠٨) والإشارة إلى وفيات الأعيان للذهبي (ق١٠٤) وأرّخ وفاته هناك (٤١١هـ) وشذرات الذهب (٣ : ١٩٦) .

(٢) معجم البلدان (١ : ٣٥٥) .

(٣) الشذرات (٣ : ١٩٦) .

(٤) موارد الخطيب البغدادي (ص٢٧٧) فما بعدها .

قال الذهبي : أول ما رأيت أنه سمع سنة ثمان عشرة وثلاثمائة ، وأول ارتحاله قبل الثلاثين أو فيها إلى نيسابور .

قال أبو عليٍّ الحافظ : بنو منده أعلام الحفَّاظ في الدنيا قديماً وحديثاً ، ألا ترون إلى قريحة أبي عبد الله ! وقيل : إنَّ أبا نعيم ذُكِرَ له ابن منده ، فقال : كان جبلاً من الجبال[١] .

وقال أبو نعيم : حافظ من أولاد المحدِّثين ، كتب بالشَّام ومصر وخراسان ، واختلط في آخر عمره ، فحدَّث عن أبي أسيد ، وابن أخي أبي زرعة ، وابن الجارود ، بعد أن سُمع منه أنَّ له عنهم إجازة ، وتخبَّط أيضاً في أماليه ، ونسب إلى جماعة أقوالاً في المعتقدات لم يُعرفوا بها ، نسأل الله جميل السَّتر والصِّيانة برحمته[٢] .

قال الذهبي : لا يُعبأ بقولك في خصمك ؛ للعداوة المشهورة بينكما ، كما لا يُعبأ بقوله فيك . فقد رأيت لابن منده مقالاً في الحطِّ على أبي نعيم من أجل العقيدة ، أقذع فيه ، وكلٌّ منهما صدوق غير متَّهم في الحديث[٣] .

وقد ذكرت المصادر لابن منده ثمانية كتب ، فذكر له الكتَّاني كتاباً[٤] في السُّنَّة (التوحيد) وكتاب (معجم الصَّحابة) وقال : هو كتاب جليل حافل . قال ابن عساكر : وله فيه أوهام كثيرة ، وتاريخ أصبهان ، وعوالي سفيان بن عيينة ، والأمالي ، والأسماء والكنى .

(وقد بقي من مصنَّفاته : الجزءان السَّابع والثَّلاثون ، والثَّاني والأربعون من كتابه في معرفة الصَّحابة ، وبعض أماليه ، وكتاب الإيمان على رسم الاتفاق والتَّفرق ، وكتاب التَّوحيد ومعرفة أسماء الله تعالى ، وورقتان في نقد أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ)[٥] .

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (ص١٠٣١ ـ ١٠٣٦) وانظر طبقات الحفّاظ (ص٤٠٨) وشذرات الذهب (٣ : ١٤٦) .

(٢) ذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم (٢ : ٣٠٦) .

(٣) التذكرة (ص١٠٣٤) .

(٤) الرسالة المستطرفة للكتاني (ص٥٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١١٩ ، ١٢٣) .

(٥) موارد الخطيب البغدادي (ص٤٠٠) وانظر بحوث في تاريخ السُّنة المشرَّفة للعمري (ص٦٨ ـ ٦٩) .

هؤلاء أبرز تلاميذ ابن حبَّان وأشهرهم في العلم والفضل ، وقد ذكَرت المصادر من تلامذته : أبو عبدالله أحمد بن محمد بن عبدالله الشروطي البستي[(١)] وجعفر بن شعيب بن محمد السمرقندي[(٢)] والحسن بن محمد بن سهل الفارسي[(٣)] وأبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البُستي[(٤)] وأبو بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن سلمة الحنبلي[(٥)] وأبو معاذ عبدالرحمن بن محمد بن رزق الله السجستاني[(٦)] وأبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الزرقي[(٧)] وعلي بن أحمد بن محمد الزوزني[(٨)] وأبو الحسن علي بن عمر الدارقطني[(٩)] وأبو الفتح علي بن محمد ـ ويقال أحمد ـ بن الحسين البستي الشاعر[(١٠)] وأبو الحسن علي بن منصور بن عبدالله الإسفيجابي[(١١)] ومحمد بن أحمد بن عبدالله بن خشنام الشروطي[(١٢)] وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن

(١) تاريخ دمشق (١٧ : ٣٩) و(٥٤ : ٦١) و(٥٦ : ٤٦٣) ومواضع .

(٢) معجم البلدان (١ : ٤١٦) وطبقات المفسرين للسيوطي (ص : ٣٦ ـ ٣٧) وأدب الإملاء للسمعاني (١ : ١٢٦ ، ١٣٢) .

(٣) معجم البلدان (١ : ٤١٦) .

(٤) ستأتي ترجمته مفردة .

(٥) تاريخ دمشق (١٠ : ٥٠١) .

(٦) تاريخ بغداد (١٠ : ٣٠٤) .

(٧) جاء اسمه على أشكال : حمزة علي بن أحمد الزرفي ـ بالفاء ـ وأخرى : علي بن أحمد بن محمد ، وثالثة : علي بن محمد بن أحمد بن محمد الزرقي ـ بالقاف ـ .

انظر : تاريخ دمشق (١٠ : ٥٢١) و (٢١ : ٣٢٢) و (٢٩ : ٣٢٨) و (٣١ : ٣١٢) و (٥٦ : ١٣) و(٦٧ : ١٩٤) .

(٨) تاريخ دمشق (١٠ : ٥٢١) و(٦٧ : ١٩٤) .

(٩) ستأتي له ترجمة مفردة .

(١٠) أخباره مشهورة ، وقد كُتبت فيه رسائل علمية ، وانظر : فقه اللغة للثعالبي (١ : ٥ ، ٥٤٨) ومعجم البلدان (١ : ٤١٥) .

(١١) معجم البلدان (١ : ٤١٦) وتاريخ دمشق (٧ : ١٩٥) وتاريخ الإسلام (١ : ٣٤٢) وقد ذكر في بعض المواضع باسم الحسن بن منصور .

(١٢) معجم البلدان (١ : ٤١٧) .

سليمان البخاري المعروف بـ«غُنجار»[١] وأبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن منصور المنصوري النوقاني[٢] وأبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن هارون الزوزني[٣] راوي كتاب الأنواع والتقاسيم عنه، وأبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي البخاري الحنفي[٤] وأبو عبدالله محمد بن إسحاق ابن مَنْدَهْ الأصبهاني[٥] ومحمد بن حميد[٦] وأبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري[٧] صاحب المستدرك، وأبو مَسلمة محمد بن محمد بن داود الشافعي[٨]، ومحمد بن محمد بن صالح[٩]، وأبو علي منصور بن عبدالله بن خالد الذهلي الهروي[١٠].

قال ياقوت: وجماعة كثيرة لا تُحصى.

---

(١) معجم البلدان (١ : ٤١٦).

(٢) معجم البلدان (١ : ٤١٦) وشعب الإيمان للبيهقي (٥ : ٢٧٥) و(٧ : ٥٣٥) والأربعون الصغرى له (١ : ١٧٢) وتذكرة الحفاظ (٣ : ٩٢٢).

(٣) معجم البلدان (١ : ٤١٧) وتاريخ دمشق (١ : ١٩٦) و(٨ : ١٠٣) و(١٠ : ٥٢١) و(٢١ : ٣٢٢) و(٢٢ : ٣١٢) و(٥٣ : ٢٩٩).

(٤) شرح معاني الآثار للكلاباذي، تحقيق الأخوين: عصام وهشام ابنا حاتم الموصلي (رسالتا ماجستير) من جامعة أم القرى (١ : ٣٢٣) و(٢ : ٣١٣).

(٥) معجم البلدان (١ : ٤١٦).

(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السَّامع للخطيب (٢ : ٢١٩).

(٧) معجم البلدان (١ : ٤١٦).

(٨) معجم البلدان (١ : ٤١٦) وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٠ : ٥٠١ ـ ٥٠٢) وأعلام النبلاء (١٠ : ٣ : ٣٣١) فما بعد. وانظر تاريخ بغداد (١٣ :٨٤) في ترجمة منصور الخالدي.

(٩) معجم البلدان (١ : ٤١٦).

(١٠) معجم البلدان (١ : ٤١٦).

الفَصل الخامس

عقيدة ابن حبَّان

تمهيد : عند الكلام على الجهود والدراسات التي خدمَت كتب ابن حِبّان ؛ نوّهتُ إلى أنّ أخوين فاضلين من الباحثين كتبا رسالتين لنيل درجة الماجستير ، عن عقيدة الإمام ابن حِبّان ، إحداهما في جامعة أمّ القرى بمكّة المكرمة ، والثانية بجامعة الملك سعود بالرياض . وحيث إنّ هاتين الرسالتين متخصّصتان ، فقد كان من الأفضل علميّاً أن أحذفَ فصل (عقيدة ابن حِبّان) من هذا الكتاب .

بيد أنّ الرسالتين لم تُطبعا في حدود علمي ، حتى تاريخ طباعة كتابي هذا ، وليس من تمام الكتاب خلوّه عن كلمات عامّة عن عقيدة ابن حِبّان وفقهه وسلوكه .

وقد جهدتُ في الحصول على ما يعرّف بجهود كُلّ من الباحثين ، حتى يسّر الله تعالى لي ما يعرّف بواحدة منهما تعريفاً عامّاً من (المقدمة والخاتمة وثبت مباحث الكتاب) .

وسوف أثبت منها ما أراه مفيداً في نهاية هذا الفصل ، إن شاء الله تعالى .

لقد كان لابن حبَّان رأيه المتميز في كثير من أحكام الشَّريعة الإسلامية ، فله منهجه المستقل في الجرح والتعديل ، وله مذهبه الخاص في الفقه ، وله نظرته الخاصَّة إلى مشكل الحديث ، كما كان صحيحه منفرداً بأسلوبه البديع ، فلم يسبقه بمثله أحد ، ولا تَبِعَهُ على منواله مُصنِّف .

وابن حبَّان من الذين تعاطوا علم الكلام[1] وعرفوا مزالقه ، وقرأ الفلسفة والطب وعرف علم الفلك والهندسة ، ناهيك عن العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية .

لكلِّ هذا كانت لابن حبَّان نظرته الخاصَّة في مسألة صفات الباري تبارك وتعالى فرأى لكثير من الأحاديث التي تُسمّى أحاديث الصفات الخبرية محاملَ لغويةً صحيحة

(١) وإن كان ابن تيمية رحمه الله يشكك في معرفة ابن حبَّان بعلم الكلام كما مر سابقاً .

عنده ، فلم يَجْمَد على النصوص ، ولا وقفَ أمامها كأنَّها شبح رهيب لا يجوز مساسه ! وما هي بالطلاسم ولا المتشابهات ، اللَّهمَّ إلاَّ ما كان متعلقاً بكيفيات الصِّفات ، فهذا مما لا يجوز تخطّيه بحال في نظره .

وابن حبَّان محدِّث من أعظم محدّثي عصره ، ويعتز بنسبته إلى أهل الحديث ، وكان يتألّم من جمود بعض المحدِّثين على ظواهر النصوص ، ويتحرَّق على ما يُرمى به أهلُ الحديث من نعوتٍ لا تليق بحملةِ سنة رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

قال رحمه الله تعالى : (زعموا أن أصحاب الحديث حشوية ، يروون ما يدفعه العِيان والحسّ ، ويصحّحونه . فإن سئلوا عن وصف ذلك ؛ قالوا : نؤمن به ، ولا نُفسّره .

ولسنا ـ بحمد الله ومَنِّه ـ مما رُمينا به في شيء ، بل نقول : إنَّ المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلَّم ما خاطب أمته قطُّ بشيء لم يُعْقَل عنه ، ولا في سننه شيء لا يُعلم معناه . ومن زعم أنَّ السنن إذا صحّت ، ما يجب أن تُروى ، ويؤمن بها من غير أن تُفسَّر ويُعقَلَ معناها ؛ فقد قدح في الرسالة .

اللهم إلا أن تكون السُّنن من الأخبار التي فيها صفات الله ـ جل وعلا ـ التي لا يقع فيها التكييف ، بل على النَّاس الإيمان بها)[١] .

وقد تناول ابن حبَّان في صحيحه كثيراً من أحاديث الاعتقادات والصِّفات ، وعلَّق عليها حسب منهجه ، فكان تارة يثبت الصِّفة ويسكت عليها ، وتارة يؤولها بما تقتضيه من معنى لغوي .

ولقد جمعتُ المواضع التي تكلّم فيها على صفات الباري تعالى ، وعرضتها على ما في معالم السنن للخطَّابي ، وما نقله البيهقي عنه ، فوجدتُ المنهج واحداً ، وكأن الخطَّابي قد اعتمد منهج ابن حبَّان في الصِّفات ، وأوضحه بشيء من الشرح ، أو لعلَّ لابن حبَّان كتاباً في العقيدة ، اعتمد عليه الخطَّابي في كتبه .

وهناك بعض المواضع التي خالف فيها الخطَّابيُّ شيخَه ابنَ حبَّان ، فجنح فيها نحو

---

(١) الإحسان (١٥ : ٤٧ ـ ٤٨) .

التأويل أكثر منه ، وإن كانا ـ ومن معهما من أهل الحديث ـ يتّفقان على أنَّ كلَّ صفة إذا وجدت في المخلوقين ، كان لهم بها النقص ؛ غير جائز إضافة مثلها إلى الباري ـ جلّ وعلا ـ بل يجب إثبات ما يليق به من صفات الكمال[1] .

وسوف أعرِضُ بعضَ مسائل الإيمان والقرآن ورؤية الله تعالى في الآخرة وبعض الصفات ، تاركاً استيعاب منهجه في مسائل الاعتقادات إلى من تخصَّص بذلك واستوفاه .

(١) انظر : الإحسان (١ : ٥٠١) . وانظر كلام الخطابي في الأسماء والصفات للبيهقي (ص٣٥١ ـ ٣٥٣) .

المبحث الأول

مذهب ابن حبَّان فى الإيمان

(١) مفهوم الإيمان:

يذهب ابن حبَّان في الإيمان مذهب أهل الحديث ، فالإيمان عنده قول باللّسان ، وعملٌ بالأركان ، وتصديقٌ بالقلب[١] ، وهو يَزيدُ بالطاعات ويَنْقصُ بالمعاصي ، وله شُعبٌ وأجزاء : منها ما هو فرض ، ومنها ما هو نفل ، وهذا من أعظم الأدلة على أنَّ الإيمان يزيد وينقص .

وقد أخرج حديث أبي هريرة مرفوعاً[٢] : (الإيمان بضع وستون شعبة ـ أو بضع وسبعون شعبة ـ فأرفعها لا إله إلا الله ، وأدناها إِماطَةُ الأذى عن الطريق) وقال :

(أشار النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في هذا الخبر إلى الشيء الذي هو فرضٌ على المخاطَبين في جميع الأحوال ، فجعله أعلى الإيمان ، ثم أشار إلى الشيء الذي هو نفلٌ للمخاطَبين في كلِّ الأوقات ، فجعله أدنى الإيمان ، فدلَّ ذلك على أنّ كلَّ شيء فُرِضَ على المخاطبين في كلّ الأحوال ، وكل شيء فُرِضَ على بعض المخاطبين في بعض الأحوال ، وكل شيء هو نَفْل للمخاطبين في كلّ الأحوال كلّه من الإيمان)[٣] .

فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والصدقات ، والبر ، والإحسان والعفو ؛ كُلّه من الإيمان .

وقال : (وأما قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : «الحياء شعبة من الإيمان» فهو لفظة أُطلقت على شيء بكناية سببه ، وذلك أنَّ الحياء جبلَّة في الإنسان ، فمن النَّاس من يَكْثُر ذلك فيه ، ومنهم من يَقِلُّ ذلك فيه ، وهذا دليل صحيح على زيادة الإيمان

---

(١) الإحسان (١ : ٤٤٠ ـ ٤٤٢) .

(٢) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه رقم (١٦٦) . وأخرجه البخاري في الإيمان باب أمور الإيمان رقم (٩) ومسلم في الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان رقم (٣٥) وغيرهم .

(٣) الإحسان (١ : ٣٨٥) .

ونقصانه ؛ لأنَّ النَّاس ليسوا كلُّهم على مرتبة واحدة في الحياء .

فلما استحال استواؤهم على مرتبة واحدة فيه ؛ صَحّ أنَّ من وُجد فيه أكثر ؛ كان إيمانه أزيد ، ومن وجد فيه منه أقل ، كان إيمانه أنقص .

والحياءُ في نفسه : هو الشَّيء الحائل بين المرء ، وبين ما يباعده عن ربه من المحظورات فكأنَّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم جعل ترك المحظورات شعبةً من الإيمان بإطلاق اسم الحياء عليه)[1] . ا . هـ

(٢) عَدَدُ شُعَب الإيمان:

قال رحمه الله : (والخَبَرُ في بضع وسبعين ، خَبَرٌ متقصّىً صحيح ، لا ارتياب في ثبوته ، وخَبَرُ سليمان بن بلال ، خبر مختصر غيرُ متقصّىً . وأما الشَّك في أحد العَدَدين فهو من سهيل ابن أبي صالح في الخبر ، كذلك قاله معمر عن سهيل . وأما البِضْعُ : فهو اسم يقع على أحد أجزاء الأعداد ، لأنَّ الحساب بناؤه على ثلاثة أشياء : على الأعداد والفصول ، والتركيب .

فالأعداد : من الواحد إلى التسعة ، والفصول هي العشرات ، والمئون ، والألوف . والتركيب ما عدا ما ذكرنا . وقد تتبعت معنى الخبر مدة ؛ وذلك أنَّ مذهبنا ؛ أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، لم يتكلَّم قطّ إلا بفائدة ، ولا من سُنَنه شيء لا يُعْلَم معناه ؛ فجعلت أَعدّ الطاعاتِ من الإيمان ، فإذا هي تزيد على هذا العدد شيئاً كثيراً ، فرجعت إلى السُّنن فعددت كلَّ طاعة عدَّها رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من الإيمان ؛ فإذا هي تنقص من البضع والسبعين ، فرجعت إلى ما بين الدّفتين من كلام ربنا ، وتلوته آيةً آيةً بالتَّدبر وعددت كُلَّ طاعة عدَّها الله جَلّ وعلا من الإيمان ، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين .

فضمَمْتُ الكتاب إلى السُّنن ، وأسقطت المُعاد منها ، فإذا كلّ شيء عدَّه الله جل وعلا من الإيمان في كتابه ، وكلُّ طاعة جعلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الإيمان في سننه ، تسع وسبعون شعبة ، لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيء ، فعلمت أن

---

(١) الإحسان (١ : ٣٨٩) .

مراد النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان في الخبر ؛ أنَّ الإيمان بضع وسبعون شعبة في الكتاب والسُّنن .

فذكرت هذه المسألة بكمالها بذكرها شُعبةً شُعبةً في كتاب «وصف الإيمان وشُعَبه» بما أرجو أنّ فيها الغُنْية للمتأمّل)(١) .

(٣) اسم الإيمان ومسمَّاه:

حين يقول ابن حبَّان بأنَّ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فإنَّه يفرّق بين الاسم والمسمَّى ، فالاسم يدل على مسمّىً له شُعبٌ كثيرة فإذا أَخَلّ المرء بشيء منها ؛ فإنه يُسْلَب اسمَ الإيمان ، لا الإيمان كلّه(٢) .

(٤) تفاوت الجزاء في الآخرة مترتِّب على تفاوت الإيمان:

يرى ابن حبَّان أنَّ الجنَّة جِنانٌ كثيرة (فمن أتى بالإقرار الذي هو أعلى شعب الإيمان ، ولم يدرك العمل ، ثم مات ؛ أُدْخل الجنة .

ومن أتى ـ بعد الإقرار ـ من الأعمال ـ قلَّ أو كثر ـ أدخل الجنة ، جنةً فوق تلك الجنة لأنَّ مَنْ كَثُرَ عَمَلُه ؛ عَلَتْ درجاته ، وارتفعت جَنَّته ، لا أَنَّ الكلَّ من المسلمين يدخلون جَنّة واحدة ، وإن تفاوتت أعمالهم وتباينت ؛ لأنَّها جنان كثيرة ، لا جنة واحدة)(٣) .

وقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في حديث أبي ذر رضي الله عنه : «من مات لا يشرك بالله شيئاً ؛ دخل الجنة»(٤) : يريد به : إلاَّ أن يرتكب شيئاً أوعد عليه دخول النار .

---

(١) الإحسان (١ : ٣٨٧ ـ ٣٨٨) وازن بفتح الباري (١ : ٥١ ـ ٥٢) . قال الحافظ : ولم يَتَّفِق من عَدّ هذه الشُّعَب على نمط واحد ، وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبَّان . لكن لم نقف على بيانها من كلامه ، قال : ولقد لخّصت مما أوردوه ما أذكره . . . ثم أثبت رأيه واضحاً مبسوطاً .

(٢) الإحسان (٧ : ٧٤أ) والمطبوع (١١ : ١٩٦) .

(٣) الإحسان (١ : ٤٣٠) ، وانظر (١٠ : ٥٢٠) و(١٦ : ٤٠٣) .

(٤) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (١ : ٢٥٤) (٥ : ١٢١أ) والمطبوع رقم (٢٠٠) وأخرجه البخاري في الجنائز رقم (١١٨٠) ومسلم في الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً رقم (٩٤) .

(وله معنى آخر : وهو أنَّ من لم يشرك بالله شيئاً ومات ؛ دخل الجنة لا محالة ، وإن عُذِّب قبل دخوله إياها مدة معلومة)[١] .

أو يقال : (أُضْمِر في هذا الخبر شرطان :

أحدهما : أنَّ من مات لا يشرك بالله شيئاً ؛ دخل الجنة إنْ تفضَّلَ الله جل وعلا عليه بالعفو عن جناياته التي له في دار الدنيا ؛ لأنَّ المرء لا يخلو من ارتكاب بعض ما حُظِر عليه في الدنيا . . .

والشرط الثاني : (من مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة) يريد : بعد تعذيبه إياه في النار ـ نعوذ بالله منها ـ إن لم يتفضَّلْ عليه بالعفو قبل ذلك ؛ لئلا يبقى في النار مع من أشرك به في الدنيا .

فهذان الشرطان مُضْمَرَان في هذا الخبر ، لا أنَّ كلّ من مات ولا يشرك بالله شيئاً ؛ دخل الجنة لا محالة)[٢] .

(٥) الكبائر لا تُخْرِج صاحبها من الإيمان:

والكبائر لا تُخرج مرتكبها من الإيمان ، وإن سلبَتْه اسمَه .

روى ابن حبَّان حديث[٣] المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، وفيه أن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال : (لا تقتله ، فإنْ قتَلْته ، فإنَّه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال) . ثم قال ابن حبَّان[٤] :

(يريد به أنَّك تُقتل قَوَداً ، لأنَّه كان قبل أن أَسْلَمَ ؛ حلالَ الدم ، وإذا قتَلْته بعد إسلامه ؛ صِرْتَ بحالة تُقتل مثله قَوَداً به ، لا أنَّ قتل المسلم يوجب كفراً يُخْرِج من الملة .

(١) الإحسان (١ : ٤٤٦) .

(٢) الإحسان (٥ : ١٢١ب) والمطبوع (٨ : ١١٩) .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم(١٦٤) ، وأخرجه البخاري في الديات ، في أوله رقم (٦٤٧٢) ومسلم في الايمان ، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا اله الا الله رقم (٩٥) وغيرهم .

(٤) الإحسان (١ : ٣٨٢) .

إذ الله قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القَصَاصُ فِي القَتْلَى﴾ (البقرة : ١٧٨)) .

(٦) الاستثناء في الإيمان:

حدَّدَ ابن حبّان معنى الاستثناء ، فقال : (الاستثناء يستحيل في الشيء الماضي وإنَّما يجوز الاستثناء في المستقبل من الأشياء .

وحال الإنسان في الاستثناء على ضربين ، إذا استثنى في إيمانه : فضربٌ منه يُطلق ؛ مباح له ذلك ، وضرب آخر ، إذا استثنى فيه الإنسان ؛ كَفَرَ .

(١) وأما الضرب الذي لا يجوز ذلك فيه ، فهو أن يقال للرجل : أنت مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والجنة والنار ، والبعث والميزان ، وما يشبه هذه الحالة؟ فالواجب عليه أن يقول : أنا مؤمن بالله حقاً ، ومؤمن بهذه الأشياء حقاً ، فمتى ما استثنى في هذا ؛ كفر .

(٢) والضرب الثاني : إذا سئل الرجل : إنَّك من المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم فيها خاشعون ، وعن اللغو معرضون؟ فيقول : أرجو أن أكون منهم إن شاء الله .

أو يقال له : أنت من أهل الجنة؟ فيستثني أن يكون منهم . . . على أنَّ اللغة تسوّغ إباحة الاستثناء في الشيء المستقبل ، وان لم يَشُكَّ في كونه ، لقوله عزّ وجل : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ (الفتح : ٢٧))[١] ا . هـ .

(٧) الوسوسة ليست صريح الإيمان:

أخرج ابن حبّان[٢] حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (أنَّهم قالوا : يا رسول الله ، إنّا لنجد في أنفسنا شيئاً ، لأن يكون أحَدُنا حُمَمَةً ؛ أَحبُّ إليه من أن يتكلّم به؟ قال : ذاك محض الإيمان) .

---

(١) الإحسان (٣ : ٣٢٢) .

(٢) أخرجه ابن حبّان في صحيحه رقم (١٤٦) وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الوسوسة رقم (١٣٢) .

وقال تعقيباً عليه : (إذا وجد المسلم في قلبه ، أو خطر بباله من الأشياء التي لا يحلُّ له النطقُ بها ؛ من كيفية الباري ـ جل وعلا ـ أو ما يشبه هذه ، فَرَدّ ذلك على قلبه بالإيمان الصريح ، وترك العزم على شيء منها ، كان رَدُّه إياها من الإيمان ، بل هو من صريح الإيمان ، لا أنَّ خطراتِ مثلها من الإيمان)[١] .

(٨) الفطرة عند ابن حبَّان:

أخرج ابن حبَّان حديث أبي هريرة[٢] رضي الله عنه مرفوعاً : (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه) .

وقال تعقيباً عليه : (أراد به على الفطرة التي فطره الله عليها ـ جل وعلا ـ يوم أخرجهم من صلب آدم ، لقوله جل وعلا : ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم : ٣٠) .

يقول : لا تبديل لتلك الخلقة التي خلقهم لها ، إما لجنة ، وإما لنار ، حيث أخرجهم من صلب آدم ، فقال : هؤلاء للجنة ، وهؤلاء للنار . ألا ترى أنَّ غلام الخضر ، قال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : «طَبَعَهُ اللهُ يومَ طَبَعَهُ كافراً» وهو بين أبوين مؤمنين ، فأعلمَ اللهُ ذلك عبدَه الخضر ، ولم يُعْلِم ذلك كَليمَه موسى صلَّى الله عليه وسلَّم»[٣]ا . هـ

أو يقال عن التهويد والتنصير والتمجيس : (إنَّ العرب تضيف الفعل إلى الآمر ، كما تضيفه إلى الفاعل ، فأطلق صلَّى الله عليه وآله وسلَّم اسم التهوّد والتنصُّر والتمجّس على مَن أمَرَ ولده بشيء منها بلفظ الفعل ، لا أنَّ المشركين هم الذين يهوّدون أولادهم ، أو ينصِّرونهم ، أو يمجِّسونهم دون قضاء الله عزّ وجل في سابق علمه في عبيده . . . . .)[٤] .

---

(١) الإحسان (١ : ٣٦٠) .

(٢) أخرجه ابن حبّان في صحيحه رقم (١٢٩) وأخرجه البخاري في الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي رقم (١٢٩٢) ومسلم في القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم (٢٦٥٨) .

(٣) الإحسان (١ : ٣٣٧ ـ ٣٣٨) .

(٤) الإحسان (١ : ٣٣٩) وانظر الموضوع بتمامه فيه (١ : ٣٣٧ ـ ٣٤١) .

المبحث الثَّاني

مذهبه في القرآن

لم يختلف موقف ابن حبَّان في مسألة «خلق القرآن» عن موقف أكثر المحدّثين تشدداً فالقرآن عنده كلام الله تعالى، ليس بمجعول ولا مربوب ولا مخلوق، وقائل ذلك كافر.

أخرج حديث جابر[١] رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: (القرآن شافع مشفَّع، وماحِلٌ مصدَّق، مَن جَعَله إمامَه، قاده إلى الجنة، ومَن جعله خلف ظهره، ساقه إلى النار).

وعقَّب عليه فقال[٢]: (هذا خبرٌ يوهم لفظُه مَن جهلَ صناعة العلم أنَّ القرآنَ مجعول مربوب، وليس كذلك، لكن لفظه مما نقول في كتبنا: إنَّ العرب في لغتها تطلق اسم الشيء على سببه، كما تطلق اسم السَّبب على الشيء، فلمّا كان العمل بالقرآن قاد صاحبه إلى الجنة؛ أطلق اسم ذلك الشيء الذي هو العمل بالقرآن على سببه الذي هو القرآن، لا أنَّ القرآن يكون مخلوقاً). ا. هـ

وقال في ترجمة[٣] الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: (كان حافظاً متقناً، ورعاً فقيهاً، لازماً للورع الخفي، مواظباً على العبادة الدائمة، به أعان الله عَزَّ وجَلَّ أمَّةَ مُحمّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ وذلك أنَّه ثبت في المحنة، وبذل نفسه لله عز وجل، حتى ضُرِب بالسياط للقتل، فعصمه الله عن الكفر، وجعله عَلَماً يقتدى به). ا. هـ

كما يرى ابن حبَّان أنَّ القرآن كلَّه بمنزلة واحدة في الفضل، فقد أخرج[٤] حديث أنس: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم قال لرجل من أصحابه: (ألا أخبرك بأفضل

---

(١) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه رقم (١٢٤) والبزّار في مسنده المعلّل، كما في الكشف (١٢٢) وله شواهد عديدة. انظر تخريجه في الإحسان (١ : ٣٣٢).

(٢) الإحسان (١ : ٣٣٢).

(٣) الثقات (٨ : ٤أ) والمطبوع (٨ : ١٨).

(٤) أخرجه ابن حبَّان من حديث أنس بن مالك (٣ : ٧٧٤) والحاكم في المستدرك (١ : ٧٤٧) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرّجاه. وقد روى الترمذي (٥ : ١٥٦) حديث أبي هريرة بنحوه ثم قال: وفي الباب عن أنس وفيه عن أبي سعيد ابن المعلى. وأخرجه النسائي في الكبرى (٥ : ١١) و(٦ : ١٨١) وللحديث شواهد كثيرة منها الحديث الآتي، وانظر تفسير ابن كثير (١ : ١١).

القرآن؟ قال : فتلا عليه ﴿الحمد لله رب العالمين﴾) .

ثمَّ عقَّب عليه ابنُ حبَّان قائلاً : (قوله صلّى الله عليه وآله وسلَّم : «ألا أخبرك بأفضل القرآن» أراد به : بأفضل القرآن لك ، لا أنَّ بعض القرآن يكون أفضل من بعض ، لأنَّ كلام الله يستحيل أن يكون فيه تفاوت التفاضل)[١] .

وأخرج قولَه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم[٢] : (ألا أعلّمك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ فقلت بلى . فقال : الحمد لله رب العالمين ، هي السَّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) .

ثمَّ عقَّب عليه بقوله : (قوله ﷺ : «هي أعظم سورة» أراد به : في الأجر ، لا أنَّ بعض القرآن أفضل من بعض)[٣] .

---

(١) الإحسان (٣ : ٥٢) .

(٢) أخرجه ابنُ حبَّان في صحيحه (٣ : ٧٧٧) والبخاري في تفسير سورة الفاتحة رقم (٤٢٠٤) وغير موضع ، وأبو داود في الصلاة باب فاتحة الكتاب رقم (١٤٥٨) وغيرهم . وهو شاهد صحيح لحديث أنس .

(٣) الإحسان (٣ : ٥٧) .

المبحث الثّالث

رؤية الله تعالى في الآخرة

ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أنّ الأحاديث تواترت في رؤية الله تعالى بالعين في الآخرة ، وابن حبَّان يشنِّع على من ينكرها ، أو يشكُّ في دلالاتها ؛ فيقول :

(الأخبار في الرؤية يدفعها مَن ليس العلمُ صناعتَه ، وغير مستحيل أنَّ الله ـ جل وعلا ـ يمكّن المؤمنين المختارين من عباده ، من النّظر إليه ـ جعلنا الله منهم بفضله ـ حتى يكون ذلك فرقاً بين الكفار والمؤمنين .

والكتاب ينطق بمثل السنن التي ذكرناها سواء .

كقوله ـ جل وعلا ـ : ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (المطفّفين : ١٥) . فلما أثبت الحجاب عنه للكفار ، دلَّ ذلك على أنَّ غير الكفار ؛ لا يُحجبون عنه .

أما في هذه الدنيا ، فإنَّ الله جَلّ وعَلا خَلَقَ الخَلْقَ فيها للفناء ، فمستحيل أن يُرى بالعين الفانية الشيءُ الباقي .

فإذا أنشأ الله الخلق ، وبعثهم من قبورهم للبقاء في إحدى الدارين ؛ فغير مستحيل أن يُرى حينئذٍ بالعين التي خُلقت للبقاء في الدار الباقية الشيءُ الباقي .

لا يُنْكر هذا الأمرَ إلاَّ من جهل صناعة العلم ، وقَنَعَ بالرأي المنكوس ، والقياس المعكوس)[١] .

أما الرؤية في الدنيا ، فهي مستحيلة على البشر ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يَرَ ربه بعيني رأسه ، وإنَّما رآه بقلبه في الموضع الذي لم يصعده أحد من البشر ، ارتفاعاً في الشَّرف ، ولا يدركه أحد في الدنيا (في النَّوم ولا في اليقظة[٢] ، وقوله تعالى : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فإنَّما معناه : يُرى في القيامة ولا تدركه الأبصار إذا رأته ، لأنَّ الإدراك هو الإحاطة ، والرؤية هي النَّظَر ، والله يُرى ، ولا يُدْرَكُ كُنْهُه ، لأنَّ الإدراك يقع على

(١) الإحسان (١٦ : ٤٧٧ ـ ٤٧٨) .

(٢) يريد ابن حِبّان موضعَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في معراجه .

المخلوقين والنَّظر يكون من العبد ربّه)[١] .

أقول : للعلماء كلامٌ طويل في مسألة رؤية الله في الدنيا بالعين ، وبالقلب وبالمنام[٢] .

واختلافهم في رؤيته تعالى في الآخرة بالعين ، أو بالقلب ؛ لا يجهله طلبةُ العلم .

والمراد من رؤية الله تعالى في الآخرة سرور المؤمن بمشاهدة جمال وجلال ربّه تعالى وقد آمن به على الغيب ، وأخلص في طاعته ، وأفرده بالعبودية .

وسواء تحقّق هذا برؤيةٍ قلبيّة كاشفةٍ صادقة ، أم تحقّق بالعين الباصرة كما يشاء الله تعالى ، الذي لا يعجزه شيء .

وإنْ كانت الأحاديث قد بلغت درجة التواتر حقّاً ، فلماذا نستبعد القريب ونستصعب اليسير على الله تعالى؟

نسأل الله تعالى أن يثلجَ صدورَنا ببرد اليقين ، وأن يكرمنا بالحسنى وزيادة ، وألا يحجبنا بذنوبنا عن وجهه الكريم ، إنه منتهى رجائنا ، وهو أرحم الراحمين .

(١) الإحسان (١ : ٢٥٩) وانظر فوائد عن المسألة عنده (٨ : ٤٤) و(١٦ : ٣٧٣ ، ٤٧٦) .

(٢) انظر الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية لأسامة الريّس (ص : ١٤٣) فما بعد .

المبحث الرَّابع

مذهب ابن حبّان في صفات الباري تعالى

ذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى أنّ ابن حبّان «سَلَفيّ العقيدة، كيف لا وهو تلميذ الإمام أبي بكر ابن خزيمة، صاحب كتاب التوحيد».

وساق الباحث مثالاً على ذلك، ثم دافع عنه فيما نُسب إليه من تُهَم عَقَدية بكلام وجيز، وختم هذا المبحث بقوله: «هذا.. ولا يفوتني أن أذكّر بأنّ الرَّجل وإن وُصف بأنّه سلفيّ الاعتقاد، إلا أنّه قد وقع منه تأويل لبعض آيات وأحاديث الصفات» وساق مثالين على ذلك[1].

أقول: والذي ينبغي قوله هنا: إنّ مذهب ابن حبّان في قضايا الاعتقاد، هو من جملة منهجه الاجتهادي العام، فابن حبّان علَمٌ أكبر من كثيرين من علماء السّلف الذين اختلفوا في عدد غير يسير من مسائل الاعتقاد، والفقه.

ولا يضير ابنَ حبّان أن يخالف مَن سبقه في ذلك، أو بعضه، ما دام غيرَ مجمعٍ عليه.

بيدَ أنّ ثمّة اعتباراتٍ في بعض بلاد المسلمين قادَتْهُم إلى وجوب نصرة ما يرونه هم مَذهبَ السّلف، دون ما يراه غيرهم.

والذي أحبّ أن أُذكِّرَ به هنا؛ هو أنَّ مفسِّري القرآن العظيم وشُرَّاح الحديث الشريف بعضهم من أساطين اللُّغة والبيان، وبعضهم قليل المعرفة بذلك، وبما أنَّ التقليد هو السائد، فإنَّ المتأخِّر يتابع المتقدِّم، من غير أن يسألَ نفسَه ما إذا كان قولُ المتقدِّم صحيحاً، أم يحتاج إلى معاودة نظر؛ لاحتمال مجانبة كلامه الصواب؟

فاليدُ والعين والساق والرِّجل والقَدَم والوجه... إلخ، هل يمكن أن يكون معناها في أيٍّ لغة من لغات البشر الصفات؟ فلليد معناها ووظائفها، وللعين معناها ووظائفها، وللوجه معناه ووظائفه، وهو أبعاض في الكائنات الحيّة كلّها، وليس صفاتٍ لها. فنحن ـ العربَ ـ نقول: زيد شجاع، كريم حليم. لكنَّ أحداً من العرب لا يقول: زيد يدويّ، عينيّ، ساقيّ.

---

(١) محمد بن حبّان البستي فيلسوف الجرح والتعديل، لمحمد أبو صعيليك (ص٣٧، ٣٩).

فالجملة الأولى تصلح لوصف زيد بها . أما التركيب الثاني ، فهذرٌ من الكلام وجهل !

والذي خلصتُ إليه أن يُقال فيما صحَّ من الروايات الخبرية : إنها إضافات أضافها الله تعالى إلى ذاته العليَّة تتضمَّن معاني صحيحة يليق بالله اتّصافه بها .

(١) صفة النَّفس

لقد جاءت عدة آيات في القرآن الكريم تشير إلى صفة النَّفس لله عز وجل ، منها قوله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾ (آل عمران : ٢٨) . وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السَّلام : ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ (المائدة : ١١٦) . وقوله تعالى مخاطباً موسى عليه السَّلام : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه : ٤١) .

وقد جاءت أحاديث تشير إلى إضافة النَّفس لله عز وجل . سأقتصر منها على الحديث الذي علَّق عليه ابن حبان . وهو حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (قال الله تبارك وتعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، إنْ ذَكَرني في نفسه ، ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب منِّي شبراً ، تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرب منِّي ذراعاً ، تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة)[1] .

قال البيهقي : (ومعنى قول من قال : الله سبحانه وتعالى نفس ، أنَّه موجود ثابت غير مُنْتَفٍ ولا معدوم ، وكل موجود نفس ، وكل معدوم ليس بنفس ، والنَّفس في كلام العرب على وجوه :

(١) فمنها نفس منفوسة مجسّمة مُروَّحة .

(٢) ومنها : مجسَّمةٌ غير مُروَّحة . تعالى الله عن هذين علواً كبيراً .

---

(١) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه . انظر الإحسان (٣ : ٨١١) والبخاري في التوحيد باب (ويحذِّركم الله نفسه) وغير موضع (١٣ : ٣٨٤) ومسلم في الذكر والدعاء ، باب الحثِّ على ذكر الله تعالى رقم (٢٦٧٥) ، والترمذي في الدعوات ، باب حسن الظن بالله رقم (٣٦٠٣) وقال حديث حسن صحيح . وانظر الأحاديث التي تثبت النفس للباري تعالى في فتح الباري (١٣ : ٣٨٣) فما بعد ، والأسماء والصِّفات للبيهقي (ص٢٨٣) فما بعد ، فقد وفّيا .

(٣) ومنها : نفس بمعنى إثبات الذات ، كما تقول في الكلام : هذا نفس الأمر ، تريد إثبات الأمر ، لا أنَّ له نفساً منفوسة ، أو جسماً مُرَوَّحاً ، فعلى هذا المعنى يقال في الله سبحانه : إنَّه نفس)[١] .

وابن حبَّان يرى أنَّ الذكر أهم من كونه تمجيد الله باللسان ، فهو يرى أنَّ الذكر معناه المعرفة والمراقبة ، ومعنى (ذكره الله في نفسه) أي : ذكره في ملكوته . قال ـ رحمه الله ـ :

(قوله ـ جل وعلا ـ : «إن ذكرني في نفسه ؛ ذكرته في نفسي» يريد به : إن ذكرني في نفسه بالدَّوام على المعرفة التي وَهَبْتُها له ، وجعلته أهلاً لها ، ذكرته في نفسي ، يريد به : في ملكوتي ، بقبول تلك المعرفة منه ، مع غفران ما تَقَدَّمه من الذنوب .

ثم قال : (وإن ذكرني في ملأ) يريد به : (وإن ذكرني بلسانه ، يريد به الإقرار الذي هو علامة تلك المعرفة ، في ملأ من النَّاس ليعلموا إسلامه (ذكرته في ملأ خير منه) يريد به : ذكرته في ملأ خير منه ، من النَّبيين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين في الجنة ، بما أتى من الإحسان في الدنيا ، الذي هو الإيمان ، إلى أن استوجب به التمكُّنَ من الجنان)[٢] .

فظاهرٌ أنَّ ابن حبَّان قال : (ذكرته في نفسي) يريد : في ملكوتي ، والملكوت : هو الملك . والتاء للمبالغة كالرغبوت من الرغبة ، والرهبوت : من الرهبة[٣] .

وكأن ابن حبَّان ترك التعبير بالملزوم ، وعبر باللاَّزم ، وهو إعلام الله تعالى خواصَّ خلقه بذلك . . زيادة في تنزيه الله تعالى ، ولأنه رأى أنَّ المقصود هو الإثابة على هذه المعرفة وذاك الذكر ، ولا فائدة من كتم ذلك وإسراره .

إلا أنّني أرى أنه أبعدَ النّجعة ، وأسرفَ في التأويل ، ولو أنّه حمل هذه اللفظة (نفسي) على المقابلة التوضيحية ، أو على المماثلة في الجزاء ، كما يقال : الجزاء من جنس العمل ؛ لكان أقلّ تكلّفاً مما ذهب إليه .

---

(١) الأسماء والصِّفات (ص٢٨٦) .

(٢) الإحسان (٣ : ٩٥) .

(٣) التفسير الكبير للرازي (١٣ : ٤٢) .

والذي أذهب إليه أنّنا نثبت لله تعالى ما أثبته لذاته العليّة ، من غير سرفٍ في التأويل ولا تكلّفٍ في التفسير ، وهو ـ سبحانه ـ أعلم بما يجوز أن يوصَف به من جميع خلقه .

(٢) السَّمع والبصر

لقد وردت آيات كثيرة تصف الله تعالى بأنَّه ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ؛ منها قوله تعالى : ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (غافر : ٥٦) وقال : ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان : ٢٨ وغيرها) وقال : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه : ٤٦) وقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الشورى : ١١) .

وقد وردت عدة أحاديث تُثْبِتُ أنَّ الله سميع بصير ، أقتصر منها على حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (كنَّا مع النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فكنا إذا علونا ؛ كبَّرنا . فقال : اربعوا على أنفسكم ؛ فإنَّكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً تدعون سميعاً بصيراً قريباً)[١] .

وأخرج ابن حبَّان حديث أبي هريرة أنَّه قال في هذه الآية : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ إلى قوله : إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعَاً بَصِيرَاً) : (رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضع إبهامه على أذنه ، وأُصْبَعَهُ الدَّعّاءَ على عينه)[٢] .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : (أراد صلى الله عليه وآله وسلم بوضعه أصبعه على أذنه وعينه تعريفَ النَّاس أن الله جل وعلا ، لا يسمع بالأذن التي لها سماخ والْتِواء ، ولا يبصر بالعين التي لها أشفار وحدق وبياض ـ جل ربنا وتعالى عن أن يُشَبَّهَ بخلقه في شيء من الأشياء ـ بل يسمع ويبصر بلا آلة ، كيف يشاء)[٣] .

فقد أثبت ابن حبَّان صفة السمع والبصر ، ونفى الكيفية المعهودة في البشر .

قال الخطَّابي : (معناه إثبات السَّمع والبصر لله سبحانه ، لا إثباتَ الأذن والعين

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب (وكان الله سميعاً بصيراً) (١٣ : ٣٧٢) ومسلم في الذكر والدعاء رقم (٢٧٠٤) .

(٢) أخرجه ابن حبَّان في الإحسان (١ : ٢٦٥) . وأخرجه أبو داود في السنة باب في الجهمية رقم (٤٧٢٨) وقال ابن حجر في الفتح (١٣ : ٣٧٣) : سنده قوي على شرط مسلم .

(٣) الإحسان (١ : ٤٩٨ ـ ٤٩٩) .

لأنَّهما جارحتان ، والله سبحانه موصوف بصفاته ، منفيّ عنه ما لا يليق به من صفات الآدميين ونعوتهم . . .)[١] .

وقال البيهقي : (والمراد بالإشارة المروية في هذا الخبر تحقيق الوصف لله عز وجل بالسَّمع والبصر ، فأشار إلى محلَّي السَّمع والبصر منّا ؛ لإثبات صفة السَّمع والبصر لله تعالى . . . وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير ، له سمع وبصر ، لا على معنى أنَّه عليم ، إذ لو كان بمعنى العلم ؛ لأشار في تحقيقه إلى القلب ؛ لأنَّه محل العلوم منَّا)[٢] .

ولا يخفى أنَّ كلام البيهقي أقرب من كلام ابن حبَّان .

(٣) صفة اليد

ذكر ابن حبَّان عدة أحاديث فيها ذكر «اليد» لله تعالى . منها حديث أبي هريرة : (يمين الله مَلأى لا يُغيضُها نفقة ؛ سَحَّاءُ بالليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يمينه ، واليد الأخرى : القبض ، يرفع ويخفض . وعرشه على الماء)[٣] . وفي لفظ للبخاري : (يد الله ملأى . . . . وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع) .

قال ابن حبَّان : (هذه أخبار أُطلقَتْ من هذا النَّوع ، تُوهمُ مَن لم يُحْكِمْ صناعة العلم أنَّ أصحاب الحديث مشبِّهة ، عائذ بالله أن يخطر ذلك ببال أحد من أصحاب الحديث ولكن أطلق هذه الأخبار بألفاظ التمثيل لصفاته ، على حسب ما يتعارفه النَّاس فيما بينهم ، دون تكييف صفات الله ـ جل ربنا عن أن يُشَبَّهَ بشيء من المخلوقين ، أو يُكَيَّفَ بشيء من صفاته ـ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾)[٤] .

---

(١) معالم السنن (٤ : ٣٣٠) . ونفي الخطَّابي صفة العين غريب ، فقد قال البيهقي : والذي يدلّ عليه ظاهر الكتاب والسنة إثبات العين له صفة ، لا من حيث الحدقة أولى . والله أعلم . الأسماء والصّفات (ص٣١٣) .

(٢) الأسماء والصّفات للبيهقي (ص١٧٩ ـ ١٨٠) .

(٣) أخرجه ابن حبَّان . الإحسان (٢ : ٧٢٥) ، وانظر المخطوط من الإحسان (٥ : ١١٨ب) ، (٧ : ٢ب) فالكلام في جميعها متقارب . وأخرج الحديث البخاريُّ في التوحيد باب قول الله تعالى (لما خلقت بيدي) (١٢ : ٣٩٢) . وانظر هناك عدة أحاديث في إثبات اليد .

(٤) الإحسان (٢ : ٥٠٤ ـ ٥٠٥) .

فهذه الأخبار عند ابن حبَّان وما يشبهها أطلقت (حسب ما يتعارفه النَّاس فيما بينهم ، لا على الحقيقة لعدم وقوفهم على المراد منها ، إلاَّ بهذا الخطاب المذكور)[١] .

وههنا أتوقف مع ابن حبَّان لأتفرَّس عباراته السابقة ، وأرى : هل يريد ابن حبَّان إثبات صفات لله تعالى ـ بالجملة ـ ، أمّا أفراد هذه الصفات فلا يريدها؟

أم أنَّه يريد إثبات أفراد هذه الصِّفات ، وإنَّما يحاول الهروب من كل لفظ يُشْتمّ منه رائحة التجسيم ، وإن لم يكن في حقيقته يدُلّ على التجسيم .

يترجَّح لديَّ أنَّ ابن حبَّان يريد إثبات الصِّفات للباري ـ جل وعلا ـ بعيداً عن الخوض في كلّ صفة منها ، حتى لا يتوارد على الخاطر مظانُّ الجسمية .

قال ابن بطال في قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص : ٧٥) : «في هذه الآية إثبات يَدَيْنِ لله تعالى ، وهما صفتان من صفات ذاته ، وليستا بجارحتين خلافاً للمشبِّهة من المثبتة ، وللجهمية من المعطلة[٢] .

وعلى أي حال (ليس معنى اليد عندنا الجارحة ، وإنَّما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نُكَيِّفها ، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار المأثورة الصحيحة ، وهو مذهب أهل السُّنة والجماعة)[٣] .

(٤) صفة القَدَم والرِّجل

جاءت عدة أحاديث تشير إلى ذِكر القَدَم . منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم : (تحاجَّت الجنة والنَّار ، فقالت النار : أُوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء النَّاس وسَقَطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي . وقال للنَّار : إنَّما

---

(١) الإحسان (٧ : ٢ب) والمطبوع (١٠ : ٣٣٧) .

(٢) فتح الباري (١٣ : ٣٩٣) وقد نقل الحافظ كلام ابن بطّال بالمعنى ، انظر شرح ابن بطال (١٠ : ٤٣٦) وقارن .

(٣) الأسماء والصِّفات للبيهقي (ص ٣٣٢) نقلا عن الخطَّابي .

أنتِ عذابٌ أُعذّب بكِ مَن أشاء مِن عبادي ، ولكلٍّ واحدة منها ملؤها .

فأمَّا النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله ، فتقول : قط ، قط ، قط . فهنالك تمتلئ ، ويزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله عزّ وجل من خلقه أحداً . وأما الجنة فإنَّ الله عز وجل ينشئ لها خلقاً آخر) .

وفي رواية أخرى للبخاري فيضع الجبار تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول : قط ، قط .

وعند البخاري من حديث أنس مرفوعاً : (يلقى في النار وتقول هل من مزيد ، حتى يضع قدمه ، فتقول قط قط)[١] .

قال في القاموس[٢] : القدم محركة : السَّابقة في الأمر . . . وفي الحديث : (حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه) أي : الذين قدَّمهم من الأشرار فهم قدم الله للنَّار ، كما أنَّ الأخيار قدمه إلى الجنة .

قال ابن حبَّان : (هذا الخبر من الأخبار التي أُطلقت بتمثيل المجاورة ، وذلك أنَّ يوم القيامة ، يُلقى في النَّار من الأمم والأمكنة التي عُصِيَ اللهُ عليها ، فلا تزال تستزيد حتى يضع الرب جل وعلا موضعاً من الكفار والأمكنة في النَّار ، فتمتلئ ، فتقول : قط ، قط تريد : حسبي ، حسبي ؛ لأنَّ العرب تطلق في لغتها اسم القدم على الموضع . قال الله جل وعلا : ﴿لَهُمْ قَدَمُ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس : ٢) . يريد : موضعَ صدق ، لا أنَّ الله جل وعلا يضع قدمه في النار . جلَّ ربنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه)[٤] .

وقال في موضع آخر : (القدم : مواضع الكفار التي عبدوا فيها دون الله تعالى)[٥] .

وهذا الحديث قد رُوي بألفاظ متعددة ، فَرُوي مرّةً (حتى يضع الجبَّار فيها قدمه) .

---

(١) هذه الآثار أخرجها البخاري في التفسير ، باب ﴿وتقول هل من مزيد﴾ (سورة ق) (٨ : ٥٩٤) فما بعد . ومسلم في كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون ، الارقام (٢٨٤٦ ـ ٢٨٤٨) وأخرجها ابن حبَّان ، انظر الإحسان (١ : ٥٠١) ، (٩ : ٢٦١ أ ، ب) والمطبوع (١٦ : ٤٨٢) .

(٢) القاموس المحيط مادة (قدم) (٤ : ١٦١) .

(٤) الإحسان (١ : ٥٠٢) .

(٥) ما سبق (٩ : ٢٦١ب) والمطبوع (١٦ : ٤٨٢) .

ومرة (حتى يضع الجبَّار عليها قدمه) ومرّةً (حتى يضع الجبَّار قدمه) ومرة (حتى يضع الجبَّار فيها قدماً) وهذه الأخيرة أحال عليها مسلم إحالة ، ولم يذكر لفظها .

قال أبو سليمان الخطَّابي رحمه الله تعالى : (فيُشْبه أن يكون من ذَكَر القدم والرجل وترك الإضافة ؛ إنَّما تركها تَهَيُّباً لها ، وطلباً للسَّلامة من خطأ التأويل فيها وكان أبو عبيد ، وهو أحد أئمة أهل العلم يقول : نحن نروي هذه الأحاديث ، ولا نزيغ لها المعاني) .

قال الخطَّابي : (ونحن أحرى بأن لا نتقدم فيما تأخّر عنه من هو أكثر علماً ، وأقدم زمناً وسنّاً ، ولكن الزمان الذي نحن فيه ، قد صار أهله حزبين :

- منكِرٌ لما يُروى من نوع هذه الأحاديث رأساً ، ومكذِّب به أصلاً ، وفي ذلك تكذيب العلماء الذين رووا هذه الأحاديث ، وهم أئمة الدِّين ، ونَقَلَة السنن ، والواسطة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

- والطائفة الأخرى مسلِّمة للرواية فيها ، ذاهبة في تحقيق الظاهر منها مذهباً يكاد يُفضي بهم إلى القول بالتشبيه ، ونحن نرغب عن الأمرين معاً ، ولا نرضى بواحد منهما مذهباً . وذِكْرُ القَدَم ههنا يحتمل :

(١) أن يكون المراد به : مَن قدَّمهم الله للنَّار من أهلها ، فيقع بهم استيفاء عدد أهل النار . وكل شيء قدمته فهو قدم . . . وقد رُوي معنى هذا عن الحسن .

(٢) وعن النّضر بن شُمَيل أنَّ معنى قول : (حتى يضع الجبَّار فيها قدمه) أي : مَن سبق في علمه أنَّه من أهل النار .

(٣) وفيه وجه آخر ، وهو أنَّ هذه الأسماء أمثال ، يراد بها إثبات معان لا حظَّ لظاهر الأسماء فيها من طريق الحقيقة ، وإنَّما أريد بوضع الرجل عليها نوع من الزجر لها والتسكين من غَربها .

فإن قيل : فهلاّ تأوَّلت اليد والوجه على هذا النَّوع من التأويل وجعلت الأسماء فيها أمثالاً كذلك؟

قيل : إنَّ هذه الصفات مذكورة في كتاب الله عز وجل بأسمائها ، وهي صفات مدح والأصل أنَّ كل صفة جاء بها الكتاب ، أو صحَّت بأخبار التواتر ، أو رويت من طريق الآحاد ، وكان لها أصل في الكتاب ، أو خرجت على بعض معانيه ؛ فإنَّا نقول بها ونجريها على ظاهرها ، من غير تكييف ، وما لم يكن له في الكتاب ذكر ، ولا في التواتر أصل ولا له بمعاني الكتاب تعلق ، وكان مجيؤه من طريق الآحاد ، وأفضى بنا القول إذا أجريناه على ظاهره إلى التشبيه ؛ فإنَّا نتأوله على معنى يحتمله الكلام ، ويزول معه معنى التشبيه وهذا هو الفرق بين ما جاء من ذِكر القَدَم والرِّجل والسَّاق ، وبين الوجه واليد والعين وبالله العصمة ، ونسأله التوفيق لصواب القول . . .)[1] .

أقول : هذا المنهج الذي ذكره الخطّابي من التفرقة في إثبات العقائد بين ما جاء في خبرٍ متواتر ، وآخر صحيح ، وثالث مُعَلٍّ ؛ هو الذي عليه أكثر فِرَق المسلمين : من الأشاعرة ، والماتريدية ، والإباضية ، والزيديّة . أما الحنابلة والإمامية ؛ فإنّهم يثبتون العقائد بخبر الواحد[2] .

(٥) النزول

روى ابن حبَّان حديث أبي هريرة مرفوعاً : (ينزل ربنا ـ جل وعلا ـ كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : مَن يدعوني ؛ فأستجيبَ له ، من يسألني ؛ فأعْطِيَه ، من يستغفرني ، فأغفر له؟)[3] .

وعقَّب عليه بقوله : (صفات الله جل وعلا لا تُكَيَّف ولا تُقاس إلى صفات المخلوقين

---

(١) الأسماء والصِّفات للبيهقي (ص٣٥١ ـ ٣٥٣) .

(٢) وقد كتب تلميذنا الفاضل الدكتور صهيب بن محمود السقّار رسالته العلمية لدرجة «الماجستير» تحت عنوان (الاحتجاج بخبر الآحاد في العقائد) فتُنظر ، ففيها تفصيل ذلك بواقع الإنصاف .

(٣) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه . انظر الإحسان (٣ : ٩٢٠) . وأخرجه البخاري في التوحيد باب يريدون أن يبدِّلوا كلام الله (١٣ : ٤٦٤) ومسلم في صلاة المسافر باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل رقم (٧٥٨) .

فكما أنَّ الله جلَّ وعلا متكلِّم من غير آلة بأسنان ولهوات ولسان وشفة كالمخلوقين ـ جلَّ ربنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه ـ ولم يَجُزْ أن يقاس كلامُه إلى كلامنا ، لأنَّ كلام المخلوقين لا يوجد إلاّ بآلات ، والله جل وعلا يتكلم كما شاء بلا آلة ؛ كذلك ينزل بلا آلة ولا تحرّك ولا انتقال من مكان إلى مكان .

وكذلك السَّمع والبصر ، فكما لم يَجُزْ أن يقال : الله يبصر كبصرنا بالأشفار والحدق والبياض ، بل يبصر كيف يشاء بلا آلة ، ويسمع من غير أذنين وسماخين والتواء وغضاريف فيها ، بل يسمع كيف يشاء بلا آلة .

وكذلك ينزل كيف يشاء بلا آلة ، من غير أن يقاس نزوله إلى نزول المخلوقين ، كما يُكَيَّف نزولهم ، جلَّ ربنا وتقدَّس من أن تشبَّه صفاته بشيء من صفات المخلوقين)[١] .

(٦) الضَّحك

روى ابن حبَّان حديث أبي هريرة (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدُهما الآخَرَ وكلاهما يدخلُ الجنَّة ، يقاتل في سبيل الله فيُقتل ، ثم يتوب الله على القاتل ، فيُقاتل في سبيل الله ؛ فيُسْتَشْهَد)[٢] .

ثم قال : (هذا الخبر مما نقول في كتبنا : بأنَّ العرب تضيف الفعل إلى الآمر كما تضيفه إلى الفاعل ، وكذلك تضيف الشيء الذي هو من حركات المخلوقين ، إلى البارئ ـ جل وعلا ـ كما تضيف ذلك الشيء إليهم سواء .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (ضحكَ اللهُ من رجلين) يريد : ضَحَّكَ الله ملائكته وعَجّبهم من الكافر القاتلِ المسلمَ ، ثم توفيق اللهِ الكافرَ وهدايته إياه إلى الإسلام ، وتفضُّله عليه بالشهادة بعد ذلك ؛ حتى يدخلا الجنة جميعاً .

---

(١) الإحسان (٣ : ٢٠١) .

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه . انظر الاحسان (٧ : ٣٠ أ) والمطبوع (١ : ٢١٥ ، ١٠ : ٤٦٦٦) . وأخرجه البخاري في الجهاد ، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم (٦ : ٣٩) ومسلم في الإمارة باب الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة رقم (١٨٩١) .

فيُعَجِّبُ اللهُ ملائكتَه ويُضحكهم من موجود ما قضى وقدَّر .

فنسبَ الضَّحكَ الذي كان من الملائكة إلى الله جل وعلا على سبيل الأمر والإرادة . . .)[١] .

وهذا الذي قاله ابن حبَّان بعيد غريب . وقد تأول البخاري الضَّحك بمعنى الرحمة[٢] .

قال ابن حجر : ولم أر ذلك في النسخ التي وقعت لنا من البخاري[٣] .

قال الخطَّابي : (قد تأول البخاريُّ الضَّحك في موضع آخر على معنى الرحمة ، وهو قريب ، وتأويله على معنى الرضا أقرب ، فإنَّ الضَّحك يدلُّ على الرضا والقبول . . . وقد يكون معنى ذلك أن يُعَجِّبَ الله ملائكتَه ويُضَحِّكَهُم من صنيعهما ، وهذا يتخرَّج على المجاز ، ومثله في الكلام كثير)[٤] . ا . هـ

وقال ابن الجوزي : (أكثرُ السَّلف يمتنعون من تأويل مثل هذا ويُمرُّونه كما جاء وينبغي أن يراعى في مثل هذا الإمرار ، اعتقادُ أنَّه لا تشبه صفاتُ الله صفاتِ الخلق . ومعنى الإمرار : عدم العلم مع اعتقاد التنزيه)[٥] .

ويُشْكِلُ قولُ ابن الجوزي : (عدم العلم ، مع اعتقاد التنزيه) . هل يريد به التفويض في العلم والكيفية؟ أو إثبات صفة الضَّحك مع اعتقاد التنزيه وتفويض الكيفية إلى الله؟ أو يرجع في معرفة مذهب ابن الجوزي إلى الكتب التي تخصَّصت في بيان عقيدته .

---

(١) الإحسان (٧ : ٣٠أ) والمطبوع (١٠ : ٥٢٢) .

(٢) فتح الباري (٨ : ٦٣٢) .

(٣) فتح الباري (٦ : ٤٠) .

(٤) وهذا الذي قاله الخطَّابي هو مذهب شيخه ابن حبَّان ، وما أكثر ما ينقل آراءه دون ذكر اسمه وقد بينت ما يمكن أن يكون لذلك سبباً .

(٥) فتح الباري (٦ : ٤٠) وانظر في هذا المبحث الأسماء والصِّفات للبيهقي (ص٤٦٩) .

(٧) العَجَب

روى ابن حبَّان حديث أبي هريرة مرفوعاً : (عَجِبَ ربُّنا من أقوام يُقادون إلى الجنة في السَّلاسل)[1] . ثم قال :

(قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «عجب ربنا» من ألفاظ التعارف التي لا يتهيأ علم المخاطب بما يخاطب به في القصد ، إلا بهذه الألفاظ التي استعملها النَّاس فيما بينهم .

والقصد في هذا الخبر : الذين يسبيهم المسلمون من دار الشِّرك مُكَتَّفين بالسَّلاسل يقادون بها إلى دار الإسلام حتى يُسلموا ؛ فيدخلوا الجنة . . .)[2] .

قال البيهقي : (قد يكون العجب بمعنى الرضا ، وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عظيماً ، فيكون معنى قوله : ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ أي : بل عَظُمَ فِعْلهم عندي)[3] .

هذه بعضُ مسائل الصّفات الخبرية التي تناولها ابنُ حبّان كما تناول غيرَها ، وقد رأينا مواقفه المتعدّدة حيال بعضها ، وبعضِها الآخر ، مما يؤكد اجتهاده في هذه المسائل .

* * *

ولتمام الفائدة في هذا المبحث الجلَل ؛ رأيتُ أن أنقلَ إلى القارئ الكريم ثَبَتَ مباحثِ إحدى الرسالتين العلميّتين المكتوبتين في العربية السعودية ، كما وعدتُ في صَدْر هذا الكتاب ، فأقول : كَتَبَ الباحثُ عبد العزيز المبدل رسالةً نال بها درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية من جامعة الملك سعود بالرياض .

وكانت بعنوان (آراء ابن حبّان في العقيدة ، ومنهجه في عرضها) .

---

(١) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه . الاحسان (١ : ١٣٤) . وأخرجه البخاري في الجهاد باب الأسارى في السَّلاسل (٦ : ١٤٥) . وأبو داود في الجهاد ، باب الأسير يوثق رقم (٢٦٧٧) . وأخرج البخاري حديث الضيافة في التفسير باب ومن سورة الحشر . قوله ويؤثرون على أنفسهم (٨ : ٦٣٢) وفيه (أن الله عجب من صنيعكما) وأخرج أبو داود بإسناد حسن حديث ابن مسعود : وعجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غزا في سبيل الله فانهزم أصحابه فعليهم ما عليه فرجع حتى أهريق دمه . . . . الحديث . أخرجه في الجهاد ، باب في الرجل الذي يشري نفسه رقم (٢٥٣٦) .

(٢) الإحسان (١ : ٣٤٣ ـ ٣٤٤) .

(٣) الأسماء والصِّفات (ص ٤٧٦) .

وكانت رسالةً ضخمة زادت صفحاتها على (٦٠٠) ست مئة صفحة . استطعت الوقوف على مقدّمتها وخاتمتها ، وثبت مباحثها[1] .

وقد جاءت هذه الرسالة في فصل تمهيديّ ، وأربعة أبواب رئيسة ، وخاتمة .

ورأيت من المناسب عَرْضَ ثَبَتِ مباحث هذه الرسالة ، عسى أن يطّلع عليه مَن يُسْهم من الموسرين ، أو أصحاب دور النشر في طباعتها ، فنحن بحاجة إلى طباعة بحثٍ علميٍّ جادّ ، ولسنا بحاجة إلى أكثر ما يصدر عن المطابع التجارية في هذه الأيام .

---

(١) تفضّلَت الأخت الدكتورة أمل بنت فهد الشلهوب ـ وهي تلميذة شيخنا العلاّمة الدكتور محمود أحمد ميرة ، عافاه الله ـ بتصوير هذه الصفحات وإرسالها إليّ في عمّان ، فلها منّي كلّ التقدير والعرفان جزاهما الله تعالى خير الجزاء .

حكم سبّ الصحابة رضي الله عنهم (ص٥٥٠) .

الخاتمة (ص٥٥٣) . وجاء فيها :

«الحمد لله الذي تتمّ بنعمته الصالحات ، فإن من نِعَم الله تعالى عليَّ أن أعانني على إتمام هذا البحث المتواضع الذي لقارئه صفوه ، وعليَّ كَدَرُه ، وكان مما توصّلت إليه في هذا البحث النتائج الآتية :

ـ عِظَم صبر ابن حبّان رحمه الله على طلب العلم وشدائد التحصيل ، وذلك بكثرة البلدان التي رحل إليها ، والمشايخ الذين روى عنهم ؛ وهم قريباً من ألفي شيخ ؛ كما صرّح بذلك .

ـ ضياع كثير من تراث ابن حبّان العلميّ بسبب الجهل بمجمل العلم وفضله ، وغلبة الهوى والعصبية المذهبية .

ـ موافقة ابن حبّان رحمه الله لأهل السنة والجماعة[١] في أصول الاستدلال على مسائل الاعتقاد ، وذلك باستدلاله بالكتاب والسنّة والإجماع .

ـ قرّر ابن حبّان رحمه الله الاحتجاج بخبر الآحاد ـ كما هو المذهب الحقّ ـ في مسائل الاعتقاد والأحكام الشرعية على حدٍّ سواء ، مخالفاً بذلك سائر المبتدعة الذين لا يحتجّون بخبر الآحاد على مسائل الاعتقاد .

---

(١) قال عداب : «أهل السنّة والجماعة» مصطلح يعني في بداية ظهوره الكفّ عمّا جرى بين الصحابة رضوان الله عليهم ، والرضا بإمرة معاوية ابن أبي سفيان ، بعد تنازل الحسن بن عليّ له عن الخلافة ، فلُقِّب ذلك العام (عام الجماعة) ثم غدا عَلَماً على منهج فكري سياسيّ يتولّى منهج الراشدين ، ويساير السلطان المتغلّب ، ويصوّب ولايته وأحكامه .

ويدخل تحت هذا المصطلح : أهل الحديث ، والظاهرية ، والأشاعرة ، والماتريدية ، والحنابلة ، في مقابلة الشيعة والخوارج . والسلفيّون المعاصرون ـ وهم حنابلة بالتأكيد ـ يعدّون أنفسهم ـ وحدهم ـ أهل السنة والجماعة ، والباحث عبد العزيز المبدل من هؤلاء !

فحين يقول : وافق ابنُ حبّان أهلَ السنّة والجماعة ، أو خالفهم ، فيعني أنّه وافق السلفية المعاصرين أو خالفهم فقط ! وإلاّ فابن حبّان أعلم بمذهب أهل السنّة والجماعة من جميع السلفيين المعاصرين وغيرهم ، وهو من كبار أعلام أهل السنّة رحمه الله تعالى .

ـ مخالفة ابن حبّان رحمه الله لأهل السنّة والجماعة في بعض مسائل توحيد الألوهية ، إذ أجاز شدّ الرحال لغير المساجد الثلاثة ، كما أجاز التبرّك بالصالحين ، وكلّ هذا مخالفٌ للنصوص الصحيحة الصريحة في تحريم مثل هذه الأمور .

ـ سلك ابن حبّان في إثبات الصّفات مذهب ابن كُلاب ، فقد أوّل صفات الفعل في كثير من الأحيان ، وأوّل بعض الصّفات الذّاتية في أحيان أخَر .

ـ أبطل رحمه الله تعالى قول المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى في الآخرة ، وأنّ القرآن مخلوق .

ـ اتفقت آراء ابن حبّان رحمه الله في القضاء والقدَر مع أهل السنّة والجماعة ، فقد قرّر رحمه الله مراتب القدر كلّها ، وأبطل الاحتجاج بالقدر عند فعل المعاصي ، ومنع التكليف بما لا يُطاق .

ـ بطلان ما اتُّهم به ابن حبّان من القول باكتساب النبوّة ، تلك التّهمة التي كاد أن يُقتل بسببها ، إلا أنّ الله تعالى نجّاه منها[1] ، والحقّ أنّه ممّن يرى أنّ النبوّة اصطفاء واجتباء من الله تعالى وحده لا شريك له .

ـ وافق ابن حبّان رحمه الله تعالى أهل السنّة والجماعة في القول بعصمة الأنبياء في التبليغ ، والعصمة من الوقوع في الكبائر ، إلا أنّه خالفهم في مسألة عصمة الأنبياء في الصغائر ، فذهب إلى عصمتهم منها كذلك ، وهذا خلاف ما دلَّتْ عليه نصوص الكتاب والسنّة[2] .

ـ اتّفقت آراء ابن حبّان في السمعيات مع ما قرّره أهل السنّة والجماعة ؛ من الإيمان

---

(١) قال عداب : نجا ابن حبّان من القتل ، بصَلاته لله تعالى في جوف الليل أن يقبضه إليه وألا يفضحه ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وتوفّي في ليلة التنفيذ ذاتها ، وقبّح الله العصبية الطائفية الوقحة !

(٢) قال عداب : أهل السلوك إلى الله تعالى كلّهم يقولون بعصمة الأنبياء من الوقوع في الصغائر وهم لا يخالفون بذلك الكتاب والسنّة ، وإنّما يحملون النصوص الواردة فيهما على محامل تليق بالأنبياء ، وتتناسب مع عبوديتهم لله عزّ وجلّ .

بعذاب القبر ، ونعيمه ، والحوض ، والشفاعة ، والصراط ، دون تأويل لها ، أو صرف لها عن ظاهرها .

ـ سلك ابن حبّان رحمه الله في مسائل الإيمان مسلك أهل السنّة والجماعة ، فقد قرّر زيادة الإيمان ونقصانه ، وأدخل العمل في مسمّى الإيمان ، وأجاز الاستثناء في الإيمان على التفصيل المذكور فيه ، وأهل الكبائر ، مؤمنون ناقصو الإيمان ، وهم تحت المشيئة ، إن شاء الله تعالى عفا عنهم ، وإن شاء عذّبهم .

والكفر المُخْرِج من الملّة عند ابن حبّان هو ما كان عن تكذيب وجحود ، وهذا خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة .

ـ يرى ابن حبّان وجوب طاعة الأئمة وإن جاروا ، والطاعة لهم في المعروف وحسب طاقة الإنسان ، كما قرّر حرمة الخروج عليهم لما في الخروج عليهم من الفتن العظيمة التي لا طاقة للمسلمين بها[1] .

ـ سلك ابن حبّان رحمه الله في أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، رضي الله عنهم ، مسلك أهل السنّة والجماعة ، فأفضلُهم أبو بكر رضي الله عنه ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم عليّ ، ثم بقيّة العشرة رضي الله عنهم ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، وهم رضي الله عنهم عنده جميعاً من الثّقات العدول ، تُقبل أخبارهم من غير بحثٍ في أحوالهم .

ـ تشدّد ابن حبّان رحمه الله في مسألة سبّ أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقد قرّر حرمتها وامتنع عن قبول مرويات من وقع فيها ؛ لعظيم جرمه ، وسوء معتقده .

ختام هذا البحث المتواضع ، أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ؛ أن يجعله مباركاً على كاتبه وقارئه ، وأن يتجاوز ما كان فيه من زلاّت ، ويقيل ما وجد فيه

(١) تناولتُ هذه المسألة بالتفصيل في كتابي «ظاهرة العنف في السلوك الإسلامي المعاصر» وهو مخطوط .

من قصور ، فإن كلّ بني آدم خطاء ، وخير الخطّائين التوّابون ، وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه وسلّم» اهـ .

أقول : جزى الله تعالى كاتب هذا البحث خير الجزاء ، ونفع الله بعلمه ، وأعانه على المزيد من البحث والتحقيق والتحرير .

الفَصل السَّادس

فقه الإمام ابن حبَّان

تمهيد : إنّ الذي ينظر في كتاب الأنواع والتقاسيم لابن حبَّان ، يجد الرجل فقيهاً أصولياً ، عميق الغور في سبر سنَّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، بارعاً في استنباط الأحكام من النُّصوص .

ولا أدلَّ على ذلك من اختراعه العجيب ، وتصنيفه الفريد للسُّنن الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقد رأى ابن حبَّان أنَّ الغاية من معرفة السنن وحفظها ، الفقه في الدِّين ، واتباع سيد المرسلين في أحكام الشَّريعة ، فأطال التفكير في أقسام السنن ، فرآها تدور على خمسة أقسام :

- الأول : الأوامر التي أمر الله عباده بها .
- والثاني : النَّواهي التي نهى الله عباده عنها .
- والثَّالث : الأخبار التي يحتاج المسلم إلى معرفتها ، وحكم كل نوع منها .
- والرابع : الإباحات التي بيَّنها رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .
- والخامس : الأفعال التي انفرد النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بفعلها[١] .

وتدبَّر الأوامر الواردة عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فوجدها تدور على مئة نوع وعشرة أنواع[٢] ، وكذلك كانت أنواع النَّواهي[٣] مئة نوع وعشرة أنواع . أما الأخبار فكانت ثمانين نوعاً[٤] ، والإباحات تدور على خمسين نوعاً[٥] ، وكذلك كانت أفعال النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسين[٦] نوعاً . فالسُّنة كلُّها تنقسم على خمسة

(١) صحيح ابن حبَّان (١ : ١٠٣) الإحسان .
(٢) ما سبق (١ : ١٠٥) .
(٣) ما سبق (١ : ١١٩) .
(٤) ما سبق (١ : ١٣١) .
(٥) ما سبق (١ : ١٤٠) .
(٦) ما سبق (١ : ١٤٥) .

أقسام ، وتتنوع إلى أربع مئة[١] نوع .

ولا ريب أنَّ تصنيف صحيح السُّنة على هذه الأقسام ، وتنويعها في هذه الأنواع الأربع مئة ؛ دليل فقه عظيم ، وفهم دقيق ، وحاسَّة أصولية بارعة .

بيدَ أنَّ المصادر التي بين أيدينا تشير إلى كون ابن حبّان شافعياً ، وهذا قد يُفسَّرُ بأنّه صنف تقاسيمه وأنواعه حسب المذهب الشَّافعي وخدمة له ، وبذلك يقلل من قيمة صحيحه ، ويجعله مذهبياً يلوي الأدلة لتوافق مذهبه ، شأن كثير من المصنفين في فقه المذاهب .

إلا أنَّ دراسة صحيح ابن حبَّان تعطي صورة أخرى عن الرجل ، وتدلّ على أنه كان يدور مع الدَّليل ، وإن خالف مذهب إمامه الشَّافعي ـ رحمهما الله تعالى ـ .

ويحسن قبل أن أخوض في عرض أمثلة من فقه ابن حبَّان ، وأبيِّنَ منهجه في الاستدلال ، أن أحدِّد مذهبه الفقهي ؛ لئلا تلتبس علينا الأمور ، أمام زحمة الاختلافات الفقهية في المسائل المعروضة فيما بعد .

---

(١) صحيح ابن حبَّان (١ : ١٤٩) .

المبحث الأول

مذهب ابن حبَّان الفقهيُّ

ابن حبَّان من حيث المبدأ شافعي المذهب ، ويعتز بانتسابه إلى الإمام الشَّافعي ويرى أنَّ للشافعي من المآثر ما لم يسبقه أحد من العلماء إليها ، ولم يلحقه أحد ؛ إلاّ كان عالة عليه .

قال رحمه الله تعالى : (للشَّافعي رحمه الله ثلاث كلمات ، ما تكلَّم بها أحد في الإسلام قبله ، ولا تفوَّه بها أحد بعده ، إلا والمأخذ فيها كان عنه :

إحداها : أنّي سمعت ابن خزيمة يقول : سمعت المزني يقول : سمعت الشَّافعي يقول : إذا صح لكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فخذوا به ودَعُوا قولي .

والثَّانية : أخبرني محمد بن المنذر بن سعيد ، عن الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح الزعفراني قال : سمعت الشافعي يقول : ما ناظرتُ أحداً قطُّ فأحببت أن يخطئ .

والثَّالثة : سمعت موسى بن محمد الدَّيلمي بأنطاكية يقول : سمعت الربيع بن سليمان يقول : سمعت الشَّافعي يقول : وَدِدْتُ أنَّ النَّاس تعلَّموا هذه الكتب ، ولم ينسبوها إليَّ)[1] .

والذي يعنينا في فقه ابن حبَّان رحمه الله الخصلة الأولى (إذا صح الحديث فخذوا به ودعوا قولي) . فقد تمسَّك بها ابن حبَّان أيّما تمسُّك ، ورأى أنّ من تمام الانتساب إلى مدرسة الإمام الشَّافعي ، التزام هذه القاعدة ، فضلاً عن كونها أصلاً شرعياً لكل عالم قادر على الاجتهاد .

قال تعقيباً على حديث بُسْرة بنت صفوان : (من مسَّ ذَكَرَهُ فليتوضّأ)[2] :

---

(١) انظر : صحيح ابن حبَّان (٥ : ٤٩٧ ـ ٤٩٩) .

(٢) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٣ : ١١١٢) وما بعده ، ومالك في الموطأ في كتاب الطهارة باب الوضوء من مسِّ الفرج (١ : ٤٢) وأبو داود في الطهارة باب الوضوء من مسِّ الذكر رقم (١٨١) والترمذي في الطهارة الباب نفسه رقم (٨٢ ـ ٨٤) والنسائي في الطهارة الباب نفسه (١ : ٨٣ ـ ٨٤) وقال =

(عائذٌ بالله أن نحتجَّ بخبر رواه مروان بن الحكم وذووه في شيء من كُتُبنا ؛ لأنّا لا نستحلُّ الاحتجاج بغير الصَّحيح من سائر الأخبار ، وإن وافق ذلك مذهبَنا ، ولا نعتمد إلاَّ على المنتزَع من الآثار ، وإن خالف ذلك قول أئمتنا .

وأما خبر بُسرة الذي ذكرناه ، فإنّ عروة بن الزبير سمعه من مروان بن الحكم عن بسرة فلم يُقْنِعْهُ ذلك ، حتى بعث مروان شرطياً له إلى بسرة فسألها ، ثم أتاهم فأخبرهم بمثل ما قالت بسرة ، فسمعه عروة ثانية عن الشُّرطي عن بسرة ، ثم لم يقنعه ذلك حتى ذهب إلى بسرة فسمع منها .

فالخبر عن عروة عن بسرة متصل ليس بمنقطع ، وصار مروان والشرطي كأنهما عاريتان يُسقَطان من الإسناد)[1] ا . هـ .

ووجهُ الاستدلال : أنّ ابن حبّان يصرّح بأنّه لا يستحلّ الاحتجاج بغير الصحيح من الحديث ، سواء وافق المذهب أم خالفه . والمذهبيّون المقلّدون ليسوا كذلك بالتأكيد .

وقال عَقِبَ مسألةٍ خالفَ فيها الشافعيَّ : (ولا يتوهَّمنَّ متوهِّم أنَّ الجمع بين الأخبار على حسب ما جمعنا منها في هذا النَّوع من أنواع السُّنن ؛ يضادُّ قول الشَّافعي ـ رحمة الله ورضوانه عليه ـ وذلك أنّ كلَّ أصل تكلَّمنا عليه في كتبنا ، أو فرع استنبطناه في مصنفاتنا هي كلُّها قول الشَّافعي ـ رحمه الله ـ وهو راجع عمّا في كتبه ، وإن كان ذلك المشهور من قوله ، وذلك أنّي سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : سمعت المزني يقول ، سمعت الشَّافعي يقول : «إذا صحَّ لكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخذوا به ، ودعوا قولي» . والشَّافعي ـ رحمة الله عليه ـ في كثرة عنايته بالسُّنن ، وجمعه لها ، وتفقُّهه فيها ، وذبّه عن حريمها ، وقمعه من خالفها ، زعم أنَّ الخبر

= الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن أم حبيبة ، وأبي أيوب ، وأبي هريرة ، وأروى ابنة أنيس ، وعائشة ، وجابر ، وزيد بن خالد ، وعبد الله بن عمرو . قال : وهو قول غير واحد من أصحاب النَّبي ﷺ . وبه يقول الأوزاعي والشّافعي وأحمد وإسحاق . وانظر تمام تخريجه والكلام عليه للعلامة أحمد شاكر في جامع الترمذي (١ : ١٢٦ ـ ١٣٠) .

(١) صحيح ابن حبَّان (٢ : ٣٩٧) .

إذا صَحّ ؛ فهو قائل به ، راجع عما تقدَّم من قوله في كتبه ، وهذا مما ذكرناه في كتاب «المدبَّر»)[١] .

فابن حبَّان ـ رحمه الله ـ من مدرسة الإمام الشَّافعي ، وأتباعه في أصول النَّظر والاستدلال ، إذ الشافعي واضع ذلك العلم ، ومؤسس علم أصول الفقه . إلا أنَّ أبا حاتم ابن حبَّان إمام مجتهد له انفراداته الخاصَّة التي خالف فيها الإمام الشَّافعي رحمه الله تعالى ، كمسألة الوضوء من لحم الجزور ، ومسألة صلاة المأموم قاعداً إذا صلَّى إمامه قاعداً ، وغير ذلك من المسائل التي سأعرض لبعضها في فقهه .

---

(١) الإحسان (٥ : ٤٩٧ ـ ٤٩٨) وقد وقع في مخطوطة الأنواع والتقاسيم (١ : ل٣٢٩) : (المبين) بينما وقع في مخطوطة الإحسان : (الميزان) ويظهر أنَّ الأصوب «كتاب المُدَبَّر» لأنَّ مسألة بيع العبد المدبَّر شغلَتْ حيِّزاً من اهتمامات الشافعية . وانظر مناظرة الشافعي مع شيخه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ـ رحمهم الله تعالى ـ في طبقات الشافعية الكبرى (٢ : ١٣٧) .

المبحث الثَّاني

أصول الاستدلال عند ابن حبَّان

تمهيد :

يعتمد ابن حبَّان في استنباطاته الفقهية على أصول ، وقواعد ، ترى كثيراً منها مبثوثاً في ثنايا كتبه الموجودة بين أيدينا ، وجميع أصول الاستدلال وقواعده موجودة في كتاب ألَّفه لهذا الغرض ، سماه «شرائط الأخبار» ؛ قد فُقد مع ما فقد من كتبه الكثيرة .

وقد ذكر ابن حبَّان في كتبه الموجودة بين أيدينا ألفاظاً أصولية كالعامِّ والخاصِّ والمجمل والمبيَّن والمفسّر ، والنَّاسخ والمنسوخ ، وكيفية الجمع بين الأخبار المتضادة في الظاهر ، والاحتجاج بخبر الواحد ، وغير ذلك من الألفاظ الأصولية الكثيرة ، التي سأذكر بعضها فيما بعد .

ولا يسعني في بحث عن «الجرح والتعديل» أن أفيضَ في مثل هذه المسائل ؛ لذا فإنَّني سأشير إشارات سريعة إلى منهجه في الاستدلال ، تاركاً الإسهاب لمن يريد الكتابة في «فقه ابن حبَّان» مثلاً .

وتنحصر أصول الاستدلال عند ابن حبَّان في : الكتاب ، والسُّنة ، والإجماع ، والقياس واضح العلَّة . أما المقايسات المعكوسة ، والآراء المنكوسة ـ على حَدّ تعبيره ـ فلا يقيم لها وزناً ، بل يستعيذ بالله تعالى منها ، ومن الركون إلى أصحابها وأدعيائها .

وإنني في عرضي لأصول الاستدلال عند ابن حبَّان ، سأقتصر على ذكر هذه الأدلة ، وإثبات اعتماده عليها ، دون التمثيل لذلك ، ومن غير موازنة آرائه بآراء غيره من العلماء ؛ لأنَّ مثل هذا يَتطلّب وقتاً وجهداً ودراسة خارجة عن قصدنا وموضوعنا .

(١) الأصل الأول: الكتاب الكريم.

الكتاب : هو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله

وسلم ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبَّد بتلاوته ، المعجز بأقصر سورة منه ، المجموع بين دفتي المصحف ؛ من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة النَّاس .

والله قد أرسل بهذا الكتاب رسوله ، وجعله إلى جنانه هادياً ، فبلّغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسالاته ، وبيّن المراد من آياته[١] . . .

(فمن تنازع بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شيء ؛ وَجَبَ رَدّ أمره إلى قضاء الله ، ثم إلى قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . .)[٢] .

(وفي العنود عن اتباعه معصية ؛ إذ لا حَكَم بين الله وبين خلقه إلا الذي وضعه الله ـ جل وعلا ـ موضع الإبانة لخلقه عنه . . .)[٣] .

و(خطاب الكتاب قد يستقلُّ بنفسه في حالة دون حالة ، حتى يستعمل على عموم ما ورد الخطاب فيه ، وقد لا يستقلُّ في بعض الأحوال ، حتى يُستعمل على كيفية اللفظ المجمل الذي هو مطلق الخطاب في الكتاب ، دون أن تبيِّنها السنن)[٤] .

(٢) الأصل الثَّاني: السُّنة المطهَّرة.

السُّنة المطهَّرة هي المصدر الثَّاني من مصادر التشريع ، فمن (تنازع بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شيء ، وجب رد أمره إلى قضاء الله ـ الكتاب ـ ثم إلى قضاء رسوله ـ السُّنة ـ)[٥] .

(وكل ما بيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما ليس لله فيه حكم ، فبحكم الله سَنَّه ، ووجب علينا اتِّباعه)[٦] .

---

(١) انظر : الإحسان (١ : ١٠٢) .

(٢) الثقات (١ : ٥) .

(٣) الثقات (١ : ٦) .

(٤) الإحسان (٥ : ٩٢) .

(٥) الثقات (١ : ٥) .

(٦) ما سبق (١ : ٧) .

(وسنن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كلُّها مستقلة بنفسها ، لا حاجة بها[١] إلى الكتاب ، لأنها المبيِّنة لمجمل الكتاب والمفسِّرة لمبهمه .

قال الله ـ جل وعلا ـ : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل : ٤٤) فأخبر ـ جل وعلا ـ أنّ المفسر لقوله : ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة : ٤٣) وما أشبهها من مجمل الألفاظ في الكتاب ، رسولُه صلى الله عليه وآله وسلم .

ومُحالٌ أن يكون الشيءُ المفسِّرُ ؛ له الحاجةُ إلى الشيء المجمَل ، وإنما الحاجة تكون للمجمل إلى المفسِّر ، ضد قول من زعم أنّ السنن يجب عرضها على الكتاب ، فأتى بما لا يوافقه الخبر ، ويدفع صحَّتَه النظر)[٢] .

والسُّنة التي يحتج بها ابن حبَّان ـ رحمه الله ـ هي السُّنة الصحيحة الثابتة . قال :

(ولسنا نستجيز أن نحتجّ بخبر لا يصحّ من جهة النَّقل في شيء من كتبنا ، ولأنَّ فيما يصح من الأخبار ـ بحمد الله ومنِّه ـ يغني عنَّا عن الاحتجاج في الدين بما لا يصح منها)[٣] .

(وليس بين أخبار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تضاد ولا تهاتر ، ولا يكذب بعضها بعضاً ، ولا ينسخ بشيء منها القرآن ، بل يُفَسِّر عن مجمل الكتاب ومبهمه ويُبَيِّن عن مختصره ومشكله)[٤] .

والسُّنة كالكتاب فيها المجمل والمبين ، والمبهم والواضح ، والعام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، فيجب ألا يحكم الناظر فيها من خلال حديث وَرَدَ في مسألة ما ، ما لم يَجمع الأحاديث الواردة كلّها ، وينظر في أقوال العلماء فيها ، ويرى هل أجمعوا على شيء أو اختلفوا؟ فإذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نص كقوله : (صلُّوا

---

(١) يريد ابن حبّان أنه إذا صَحّ الحديث ؛ فلا حاجة إلى عرضه على القرآن ، إذ إنّ السنّة هي الموضحة له . ومذهب ابن حبّان في هذه المسألة ؛ مخالف لمذهب إمامه الشّافعي في «خبر الخاصّة» .

(٢) الإحسان (٥ : ٩١) .

(٣) المجروحين (١ :٢٥) .

(٤) الإحسان (٥ : ٤٩٥ ـ ٤٩٦) .

كما رأيتموني أصلي)[١] مثلاً ، نُظر في مفاد هذا الأمر من خلال استقراء النصوص . إذ كلمة (صلُّوا) (لفظة أمر تشتمل على كل شيء كان يستعمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلاته .

فما كان من تلك الأشياء خصَّه الإجماع ، أو الخبر بالنفل ، فهو لا حرج على تاركه في صلاته ، وما لم يخصَّه الإجماع أو الخبر بالنفل ، فهو أمر حَتْم على المخاطبين كافة ، لا يجوز تركه بحال)[٢] .

و(قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (شرِّقوا أو غرِّبوا)[٣] لفظةُ أمرٍ تستعمل على عمومه في بعض الأعمال ، وقد يخصُّه خبر ابن عمر[٤] ، بأنَّ هذا الأمر قصد به الصَّحارى دون الكُنُف والمواضع المستورة . والتخصيص الثاني هو من الإجماع : أنَّ من كانت قِبلته في المشرق أو في المغرب ، عليه أن لا يستقبلها ولا يستدبرها بغائط أو بول ، لأنَّها قبلته وإنَّما أُمِرَ أن يستقبل ، أو يستدبر ضد القبلة عند الحاجة)[٥] .

وقد تأتي سنن تُحسب من المجمل والمفسر ، وليست منه في شيء ، وإنما هي سنن متعدّدة لعمل واحد يجوز للمسلم أن يختار أيَّها شاء .

---

(١) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٤ : ١٦٥٨) . وأخرجه البخاري في الأذان ، باب الأذان للمسافر ، رقم (٦٠٣) . ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، باب من أحق بالإمامة رقم (٦٧٤) كلهم من حديث مالك بن الحويرث مرفوعاً .

(٢) الإحسان (٥ : ٥٠٤) .

(٣) يقصد حديث أبي أيوب : (إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ، ولكن شرِّقوا أو غرِّبوا) . أخرجهُ ابن حبَّان في صحيحه (٤ : ١٤١٦ ، ١٤١٧) والبخاري في الوضوء باب لا تُستقبل القبلة ببول ولا غائط رقم (١٤٤) ومسلم في الطهارة ، باب الاستطابة رقم (٢٦٤) وغيرهم ، كما جاء هذا الحديث عن عدد من الصحابة . انظر جامع الأصول (٧ : ١٢٠ ـ ١٢٤) .

(٤) خبر ابن عمر قال : (ارتقيت فوق بيت حفصة لبعض حاجتي ، فرأيت النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقضي حاجته ، مستقبل الشَّام ، مستدبر القبلة) . أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٤ : ١٤١٨) وأخرجه البخاري في الوضوء ، باب من تبرَّز على لبنتين رقم (١٤٥) وغير موضع . ومسلم في الطهارة ، باب الاستطابة رقم (٢٦٦) .

(٥) الإحسان (٢ : ٤٩٦) .

مثال ذلك حديث عمرو بن أمية الضَّمْري أنه (رأى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم توضّأ ومسح على العِمامة والخفّين)[١] .

وحديث المغيرة بن شعبة (أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توضّأ ومسح بناصيته وفوق العِمامة)[٢] .

قال أبو حاتم ابن حبّان : (وهذه اللفظة «ومسح بناصيته وفوق العِمامة» قد تُوهِمُ مَن لم يُحكِمْ صناعةَ العلم أنَّ المسح على العمامة دون النَّاصية غيرُ جائز ، ويجعل خبر عمرو بن أمية مجملاً ، وخبر مغيرة الذي ذكرناه مفسِّراً له أنَّ مسح النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم على العمامة ، كان ذلك مع النَّاصية فوق المسح على النَّاصية دون العمامة ، إذ النَّاصية من الرأس .

وليس بحمد الله ومنِّه كذلك ، بل مسحَ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم على رأسه في وضوئه ، ومسح على عمامته دون النَّاصية ، ومسح على ناصيته وعمامته ثلاث مرات في ثلاثة مواضع مختلفة . فكلٌّ سنةٌ تُستعمل ، من غير أن يكون استعمال إحداها حتماً ، واستعمال الآخر مكروهاً)[٣] .

(٣) الأصل الثالث: الإجماع

(الإجماع : اتفاق علماء العصر على حكم الحادثة)[٤] الواقعة . وقد يكون هذا الإجماع في آخر الزمان ، كما قد يكون في عصر الصَّحابة ، أو التابعين أو مَنْ بعدهم .

---

(١) أخرجه ابن حبّان في صحيحه (٤ : ١٣٤٣) ، وأخرجه البخاري في الوضوء ، باب المسح على الخفين رقم (٢٠٠ ، ٢٠١) . وهما عنده حديثان عن عمرو بن أمية . وليس عند النَّسائي في الطهارة باب المسح على الخفين إلا المسح على الخفين (١ : ٦٩) .

(٢) أخرجه ابن حبّان في صحيحه (٤ : ١٣٤٦) واللفظ له ، والبخاري في الوضوء ، باب الرجل يوضِّئ صاحبه رقم (١٨٠) ومواضع أخرى . ومسلم في الطهارة ، باب المسح على الخفين رقم (٢٧٤) . وقد ورد بألفاظ عديدة انظرها مجموعة في جامع الأصول (٧ : ٢٢٨ ـ ٢٣٣) . وعند مسلم رقم (٢٧٤) . ولم يخرِّج البخاري لفظ «الناصية» . وقد أخرج مسلم أحد عشر طريقاً ورواية لحديث المغيرة .

(٣) الإحسان (٤ : ١٧٧) .

(٤) الحدود في الأصول للباجي (ص٦٣ ـ ٦٤) .

وقد تكررت كلمة (الإجماع) على لسان ابن حبَّان في عدد من كتبه ، وخاصَّة كتابه «التقاسيم والأنواع»[١] .

فمثال إجماع الصَّحابة ما ذكره ابن حبَّان من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه : أنَّ رجلاً من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل المسجد وعمر يخطب يوم الجمعة ، فناداه عمر : أيُّ ساعة هذه؟ فقال : إنِّي شُغلت اليوم فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت النِّداء ، فلم أزد على أن توضَّأت ، قال عمر : والوضوء أيضاً ؛ وقد علمتَ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بالغسل؟[٢] .

قال أبو حاتم ابن حبَّان رحمه الله : (في هذا الخبر دليل صحيح على نفي إيجاب الغسل للجمعة على من يشهدها ، لأنَّ عمر بن الخطاب كان يخطب ، إذ دخل المسجد عثمان بن عفان ، فأخبره أنه ما زاد على أن توضَّأ ثم أتى المسجد ، فلم يأمره عمر ولا أحد من الصَّحابة بالرجوع والاغتسال للجمعة ، ثم العَود إليها .

ففي إجماعهم على ما وصفنا أبينُ البيان ؛ بأنَّ الأمر من المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بالاغتسال للجمعة أمرَ ندب لا حتم)[٣] .

ومثال إجماع التابعين المبنيّ على إجماع الصحابة : صلاة المأموم قاعداً ، إذا صلَّى إمامه قاعداً . قال ابن حبَّان : (وقد أفتى به من التابعين : جابر بن زيد أبو الشعثاء ، ولم يُروَ عن أحد من التابعين أصلاً خلافه ، لا بإسناد صحيح ولا واهٍ ، فكأن التابعين أجمعوا على إجازته)[٤] .

---

(١) انظر على سبيل المثال (١ : ١٠٥ ، ١٤١) و(٤ : ٥٧ ، ٢٦٥ ، ٥٤١) و(٥ : ٩٢ ، ٤٧١ ، ٥٠٣) و(١١ : ٤٨٨) و(١٤ : ١٢٤) .

(٢) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٤ : ١٢٣٠) . وأخرجه البخاري في الجمعة باب فضل الجمعة رقمي (٨٣٨ ، ٨٤٢) ومسلم في فاتحة الجمعة رقم (٨٤٥) . كلّهم من حديث ابن عمر وأبي هريرة عن عمر رضي الله عنهم .

(٣) الإحسان (٤ : ٣٢) .

(٤) الإحسان (٥ : ٤٧٢) .

ومثال إجماع المتأخرين المبنيّ على إجماع من سبقهم من الصَّحابة والتابعين الإجماعُ على عدم تشبيك اليدين حين الركوع في الصَّلاة .

قال ابن حبَّان : (وأجمع المسلمون قاطبة من لدن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا على أنَّ هذا الفعل كان في أول الإسلام ، ثم نسخه الأمر بوضع اليدين للمصلِّي في ركوعه)[١] .

ولعلك تلاحظ معي أنَّ ابن حبَّان يحاول أن يردَّ كل إجماع حدث إلى عصر الصَّحابة ، فهو مع اعترافه بإمكان حدوث الإجماع ، وصحته لو حدث ، إلا أنَّه كان يرى أن الإجماع الواقع هو إجماع الصَّحابة رضوان الله عليهم .

قال : (والإجماع عندنا إجماع الصَّحابة الذين شهدوا هبوط الوحي والتنزيل ، وأعيذوا من التحريف والتبديل ، حتى حفظ الله بهم الدين على المسلمين ، وصانه عن ثلب القادحين . . .)[٢] .

وقد مَرَّ آنفاً أنَّ الإجماع يخصُّ عموم الكتاب والسُّنة عند ابن حبّان .

(٤) الأصل الرابع: القياس.

القياس هو : (حملُ أحدِ المعلومَين على الآخر في إثبات حُكمٍ أو إسقاطِه بأمرٍ يجمعُ بينهما)[٣] .

وأبو حاتم ابن حبَّان العلَم المطَّلع على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتبحِّر فيها ؛ يرى أنَّ القياس لا يُلجأ إليه عند ورود النَّص ، ولا يُذهب إليه إلاّ عند الضرورة ، أو التفريع على النُّصوص ، ومن خلال تتبُّعي لأقواله تبيَّن لي أنه لا يقول إلا بالقياس الواضح العِلَّة .

قال في مقدمة كتابه : «النوع التسعون : الأوامر المعلّلة التي قُرنت بشرائط يجوز

(١) الإحسان (٥ : ١٩٤) .
(٢) الإحسان (٥ : ٤٧١ ـ ٤٧٢) .
(٣) الحدود للباجي (ص٦٩) وإرشاد الفحول (ص١٩٨) .

القياس عليها»[١] فبعد روايته حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : (مثل الجليس الصَّالح ، ومثل جليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير)[٢] ؛ قال : (في هذا الخبر دليل على إباحة المقايسات في الدين)[٣] .

وقال في معرض الرد على من قال بأنَّ من أخَّر صلاة العصر عن وقتها إلى أن خرج الوقت عمداً يكفر : (لما جاز تقديم صلاة العصر عن وقتها ، ولم يستحق فاعله أن يكون كافراً ، كان من أخَّر الصَّلاة عن وقتها ، ثم أداها بعد وقتها ، أولى أن لا يكون كافراً)[٤] . وهذا قياس ولا ريب .

هذه هي الأصول التي اعتمدها ابن حبَّان في تفريعاته الفقهية على النصوص ، ولم أره لجأ إلى أصولٍ أخرى ، وإنْ كان ذكر في ترجمة «أبو زيد» الراوي عن ابن مسعود أنه «روى خبراً واحداً خالفَ فيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس والنظر والرأي»[٥] ومصادر الاستدلال عند ابن حبّان تحتاج إلى دراسة خاصّة واسعة .

شروط النظر والاستدلال (صفة المفتي)

يرى الإمام ابن حبَّان أنه لا يجوز لكل أحدٍ أن يتصدَّى للاستنباط وادعاء العلم والفُتيا : (فمن لم يحفظ سنن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يحسن تمييز صحيحها من سقيمها ، ولا عرف الثِّقات من المحدِّثين ولا الضُّعفاء والمتروكين ، ومن يجب قبول انفراد خبره ، ممن لا يجب قبول زيادة ألفاظٍ في روايته ، ومن لم يحسن معاني الأخبار ، والجمع بين تضادّها في الظواهر ، ولا عرف المفسّر من المجمل ، ولا المختصر من المتقصَّى ، ولا النَّاسخ من المنسوخ ، ولا اللفظ الخاصَّ الذي يراد به العامُّ ، ولا

(١) الإحسان (١ : ١١٦) وأشار إلى قياس الأَوْلى في صحيحه أيضاً (١ : ٥٠٠) .

(٢) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٢ : ٥٦١) وأخرجه أبو داود في الأدب باب من يؤمر أن يجالس رقم (٤٨٢٩) بإسناد صحيح .

(٣) الإحسان (٢ : ٣٢١) وانظر (٩ : ٣٠٤ ، ٤٧٥) .

(٤) الإحسان (٤ : ٣١٣) .

(٥) المجروحين (٣ : ١٥٨) .

اللفظ العامَّ الذي يراد به الخاصُّ، ولا الأمر الذي هو فريضة وإيجاب، ولا الأمر الذي هو فضيلة وإرشاد، ولا النَّهي الذي هو حتم لا يجوز ارتكابه، من النَّهي الذي هو ندب مباح استعماله مع سائر السُّنن، وأنواع أسباب الأخبار، على حسب ما ذكرناها في كتاب «فصول السنن»؛ كيف يستحلّ أن يفتي؟ أو كيف يسوّغُ لنفسه تحريم الحلال أو تحليل الحرام، تقليداً منه لمن يخطئ ويصيب، رافضاً قول من لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

أقول: واضح من كلام ابن حبّان أن الذي يحقّ له الاجتهاد في الدين يجب أن يجمع علوماً عديدة؛ أبرزها:

- حفظ السنة النبويّة على النحو الذي صنّف هو كتابه عليه!
- معرفة علم الجرح والتعديل.
- معرفة علم علل الأحاديث.
- معرفة صحيح الحديث من سقيمه اجتهاداً.

وقد قدّم هذه العلوم على غيرها؛ لأنّ أهمّ ما ينقص الفقهاء؛ هو هذه العلوم.

(١) المجروحين (١ : ١٣).

المبحث الثّالث
مسائل من فقه ابن حبّان

ذكرت فيما سبق أنّ الإمام ابن حبَّان شافعيُّ المذهب ، وهذا يعني أنه يذهب مذهب الإمام الشَّافعي في الأحكام ، إلاّ أنني ألمحت إلى أنَّ الرَّجل لا يلتزم المذهب الشَّافعيَّ التزام المقلِّد ، وإنما يتبع الدليل حيث وجده . وسأذكر عدة مسائل خالف فيها الإمام الشَّافعيَّ ـ رحمه الله ـ اتباعاً للأثر الذي صحَّ عنده ، ثم أعرض لبعض المسائل الفقهية دون دراسة ؛ لتتوضح صورة ابن حبَّان الفقهية أمام من يطالع هذا الفصل .

(١) الوضوء من أكل لحم الجزور

ذهب جمهور العلماء إلى عدم وجوب الوضوء من أكل لحم الإبل ، منهم الخلفاء الأربعة ، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة والشَّافعي وأصحابهم[١] وحجَّتهم في ذلك حديث جابر بن عبد الله : (كان آخر الأمرين من رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ترك الوضوء مما مست النَّار)[٢] .

وذهب الإمام أحمد ، وابن راهويه ، وابن المنذر ، وابن خزيمة ، وابن حبَّان ، وابن حزم والشافعي في القديم ، واختاره البيهقي ، وَحُكِيَ عن أصحاب الحديث مطلقاً ، وحُكِيَ عن جماعة من الصحابة[٣] وجوب الوضوء من أكل لحم الإبل ، وأنَّ أكله ناقضٌ للوضوء .

قال الإمامان أحمد وإسحاق ابن راهويه : صحَّ عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في الوضوء ـ من أكل لحم الإبل ـ حديثان : حديث جابر ، وحديث البراء[٤] .

---

(١) المجموع للنووي (٢ : ٥٨) .

(٢) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٣ : ١١٣٤) وأخرجه أبو داود في الطهارة ، باب ترك الوضوء مما مست النار ، رقم (١٩٢) والنسائي في الطهارة ، باب ترك الوضوء مما غيرت النَّار (١ : ٩٠) وصحَّحه الإمام النووي في المجموع (٢ : ٥٧) وابن حزم في المحلَّى (١ : ٢٤٣) . وانظر كلام البيهقي في السنن الكبرى (١ : ١٥٣) فما بعد .

(٣) انظر مذاهبهم وحججهم في المغني لابن قدامة (١ : ١٨٧) المحلَّى (١ : ٢٤١) المجموع (٢ : ٥٨) فما بعد . وانظر : صحيح ابن حبَّان (٣ : ٤٠٦ ـ ٤٣٣) وصحيح ابن خزيمة (١ : ٢١ ـ ٢٢) وسنن البيهقي (١ : ١٥٨ ـ ١٥٩) .

(٤) المجموع للنووي (٢ : ٦٠) .

(١) حديث جابر بن سمرة أنَّ رجلاً سأل رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: أأتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: (إن شئت فتوضأ، وإن شئت فلا تتوضأ). قال: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: (نعم، فتوضأ من لحوم الإبل).

قال: أصلِّي في مرابض الغنم؟ قال: (نعم). قال: أصلِّي في مبارك الإبل؟ قال: (لا)[١].

(٢) حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم سُئل عن الوضوء من لحوم الإبل، فقال: (توضؤوا منها).

وسئل عن الصلاة في مبارك الإبل فقال: (لا تصلُّوا فيها، فإنها من الشياطين) وسئل عن الصلاة في مرابض الغنم، فقال: (صلُّوا فيها؛ فإنها بركة)[٢]. وروى البيهقي عن أحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهويه تصحيح هذين الحديثين، وقال ابن خزيمة عن حديث البراء هذا: لم نر خلافاً بين علماء أهل الحديث أنَّ هذا الخبر صحيح من جهة النقل؛ لعدالة ناقليه[٣].

والذين قالوا بعدم النَّقض من أكل لحم الإبل، أجابوا عن هذين الحديثين بثلاثة أجوبة:

الأول: أنّ حديث جابر بن عبد الله ناسخ لهما[٤].

الثَّاني: حمل الأمر بالوضوء على الاستحباب[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٣: ١١٢٤ ـ ١١٢٨، ١١٥٤، ١١٥٦، ١١٥٧) وأخرجه الإمام مسلم في الحيض باب الوضوء من لحم الإبل رقم (٣٦٠) وانظر البيهقي (١: ١٥٩).

(٢) أخرجه ابن حبَّان (٣: ١١٢٨) مختصراً، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤: ٢٨٨) (٤: ٣٠٣) وابن الجارود في المنتقى (ص٢٢) وأبو داود في الطهارة باب الوضوء من لحوم الإبل رقم (١٨٤) والترمذي في الطهارة باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل رقم (٨١) وأخرجه ابن خزيمة (١: ٢١) وابن حزم في المحلى (١: ٢٤١) وصححه. وانظر كلام العلامة أحمد شاكر على الحديث في الترمذي (١: ١٢٢ ـ ١٢٥) كما صححه الإمام النَّووي في المجموع (٢: ٦٠) والبيهقي في الكبرى (١: ١٥٩).

(٣) السُّنن الكبرى للبيهقي (١: ١٥٩) صحيح ابن خزيمة (١: ٢١، ٢٢).

(٤) المجموع للنَّووي (٢: ٦٠)، المغني (١: ١٨٨).

(٥) المغني (١: ١٨٩).

الثَّالث : حمل الوضوء في هذين الحديثين على غسل اليدين ؛ لأن في لحوم الإبل من الحرارة والزهومة ما ليس في غيرها من اللحوم[١] .

وقد أجاب النَّووي على ذلك فقال :

(أما حمل الوضوء على معناه اللغوي فضعيف ، لأنَّ الحمل على الوضوء الشَّرعي مقدَّم على اللغوي ، كما هو معروف في كتب الأصول .

وأما النسخ فضعيف أو باطل ؛ لأنَّ حديث ترك الوضوء مما مست النَّار عامّ ، وحديث الوضوء من لحم الإبل خاصّ ، والخاصّ يقدَّم على العامّ ، سواء وقع قبله ، أو بعده)[٢] .

وأجاب ابن قدامة[٣] عن دعوى الاستحباب فقال :

(هذا مخالف للظَّاهر من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنَّ مقتضى الأمر الوجوبُ .

الثَّاني : أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم سئل عن حكم هذا اللحم ، فأجاب بالأمر بالوضوء منه ، فلا يجوزُ حمله على غير الوجوب ؛ لأنَّه يكون تلبيساً على السَّائل لا جواباً .

الثَّالث : أنَّه عليه السَّلام قرنه بالنَّهي عن الوضوء من لحوم الغنم ، والمراد بالنهي هنا نفي الإيجاب ، لا التَّحريم ، فيتعين حمل الأمر على الإيجاب ، ليحصل الفرق) ا . هـ .

قال النَّووي عند عرضه مذهبَ الشَّافعيَّة : (وفي لحم الجَزور ـ بفتح الجيم ؛ وهو لحم الإبل ـ قولان : الجديد المشهور : لا ينتقض . وهو الصَّحيح عند الأصحاب .

والقديم أنَّه ينتقض ، وهو ضعيف عند الأصحاب ، ولكنه هو القويُّ ، أو الصَّحيح من حيث الدَّليل ، وهذا الذي أعتقد رجحانه)[٤] .

(١) المجموع (٢ : ٦٠) .

(٢) المجموع (٢ : ٦٠) .

(٣) المغني (١ : ١٨٩) .

(٤) المجموع (٢ : ٥٨)

وقال البيهقي بعد أن ذكر آثاراً عن بعض الصَّحابة كابن مسعود ؛ أنه كان يأكل من ألوان الطعام ثم لا يتوضأ منه : (وبمثل هذا لا يترك ما ثبت عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)[١] .

ولولا النّقل عن الخلفاء الراشدين لجزم النَّووي بوجوب الوضوء مِنْ أكل لحم الإبل . قال : (وأقرب ما يُستروح إليه ، قول الخلفاء الراشدين وجماهير الصَّحابة ، والله أعلم)[٢] .

والذي يبدو لي أن في المسألة التباساً ، فالوضوء مما مسَّت النار عموماً شيء ، والوضوء من أكل لحوم الإبل شيء آخر ، والمنقول عن الراشدين هو الأول ، ولذلك فقد ذكر البيهقي[٣] الآثار الدَّالة على ذلك تحت باب (ترك الوضوء مما مسَّت النَّار) وكذلك الحازمي في الاعتبار[٤] وابن الجوزي في الناسخ والمنسوخ[٥] .

وهذا هو ما فهمه ابن حبَّان رحمه الله . فبعد ترجمة (ذكر الخبر الدَّال على أنَّ الأمر بالوضوء من أكل لحوم الإبل ، إنما هو الوضوء المفروض للصَّلاة دون غسل اليدين) أخرج حديث البراء بن عازب ثم قال : (في سؤال السَّائل عن الوضوء من لحوم الإبل ، وعن الصَّلاة في أعطانها ، وتفريق النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بين الجوابين ، أبين البيان أنَّه أراد الوضوء المفروض للصَّلاة دون غسل اليدين ، ولو كان ذلك غسل اليدين من الغَمْر لاستوى فيه لحوم الإبل والغنم جميعاً . وقد كان الوضوء مما مسَّته النَّار ، وبقي المسلمون عليه مدة ، ثم نسخ ذلك ، وبقي لحوم الإبل مستثنىً من جملة ما أبيح بعد الحظر الذي تقدم ذكرنا له)[٦] .

وروى حديث جابر (كان آخر الأمرين من رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ترك

---

(١) السُّنن الكبرى (١ : ١٥٩) .

(٢) المجموع (٢ : ٦٠) .

(٣) السُّنن الكبرى (١ : ١٥٣) .

(٤) الاعتبار (ص٤٨) فما بعد .

(٥) إعلام العالم بعد رسوخه بناسخ الحديث ومنسوخه للأخ الفاضل الدكتور أحمد عبد الله العمّاري الزهراني (ص : ١٠٤ ـ ١١٤) .

(٦) الإحسان (٣ : ٤١٠ ـ ٤١١) .

الوضوء مما مسَّت النار) ثم قال : (هذا خبر مختصر من حديث طويل ، اختصره شعيب بن أبي حمزة متوهّماً لنسخ إيجاب الوضوء مما مسَّت النَّار مطلقاً ، وإنَّما هو نسخ لإيجاب الوضوء مما مسَّت النَّار خلا لحم الجزور فقط)(١) . وذكر أنَّ هذا إنَّما كان من أكل لحم شاة لا لحم جزور .

ونقل عن أبي بكر وعمر رضي الله عنه مثل ذلك . وليس في شيء مما نقله أنَّهم أكلوا لحم إبل(٢) .

وبذلك يتبيَّن دقة فهمه رحمه الله ، وترجيحه وجوب الوضوء من أكل لحوم الإبل .

(٢) جواز التطهُّر بالماء المستعمل

وهذه المسألة أيضاً مما خالف فيه ابنُ حبَّان إمامَه الشَّافعي رحمهما الله تعالى .

قال الشَّافعي ـ في رواية المزني ـ : (وإن توضَّأ رجلٌ ، ثم جمعَ وضوءه في إناء نظيف ثم توضَّأ به ، أو غيرُه ، لم يُجْزِه ؛ لأنَّه أدى به الوضوء الفرض مرة ، وليس ينجس ؛ لأن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم توضأ ، ولا شك أنَّ مِن بَلَلِ الوضوء ما يصيب ثيابه ، ولا نعلمه غسله ، ولا أحداً من المسلمين فعله ، ولا يتوضأ به)(٣) . فالماء المستعمل عند الإمام الشَّافعي طاهر غير مطهر لغيره ، إلا أنَّه أنكر إنكاراً شديداً على من زعم نجاسته(٤) .

أما عن كون الماء طاهراً بعد الاستعمال ـ ما لم يُلاقِ نجاسة ـ فهو مذهب مالك والشَّافعي وأحمد وأصح الأقوال عن أبي حنيفة ، وذهب أبو يوسف ـ وهو رواية عن أبي حنيفة ـ إلى نجاسته(٥) . وقد ردَّ عليه الشَّافعي في اختلاف الحديث وأطال .

---

(١) الإحسان (٣ : ٤١٧) .

(٢) انظر الإحسان (٣ : ١١٣٥ ـ ١١٤١) . وانظر هذا البحث في مسند البراء بن عازب ، تحقيق الزميل الشيخ حسين عبد الحميد النَّقيب (ص٥٥ ـ ٦٧) فإنَّه نفيس ماتع .

(٣) مختصر المزني على حاشية الأم (١ : ٣٩ ـ ٤٠) .

(٤) انظر تفصيل ذلك في اختلاف الحديث له (ص٩٥ ـ ١٠٤) رسالة ماجستير ، تحقيق الطالب إبراهيم محمد الصبيعي .

(٥) المجموع للنَّووي (١ : ١٩٩) .

وأما عن كون الماء المستعمل يُتطهَّر به ثانية أو لا يُتطهَّر ، فقد (ذهب الشَّافعي وأحمد ، وأبو حنيفة ، ومالك ـ في رواية ابن المنذر ـ إلى أنَّه غير مطهِّر .

وذهب طوائف إلى أنَّه مطهِّر ، وهو قول الزُّهري ، ومالك والأوزاعي ـ في أشهر الروايتين عنهما ـ وأبي ثور ، وداود .

قال ابن المنذر : وروي عن علي وابن عمر وأبي أمامة وعطاء والحسن ومكحول والنَّخعي ؛ أنَّهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه ، فوجد في لحيته بللاً : يكفيه مسحه بذلك البلل . قال ابن المنذر : وهذا يدل على أنَّهم يرون المستعمل مطهِّراً ، وبه أقول)[1] .

وأقوى حجج القائلين بأنَّ الماء المستعمل غير مطهِّر ـ كما يقول النَّووي[2] رحمه الله ـ : (أن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وأصحابه رضي الله عنهم ، احتاجوا في مواطن من أسفارهم الكثيرة إلى الماء ، ولم يجمعوا المستعمل لاستعماله مرة أخرى .

فإن قيل : تركوا الجمع ؛ لأنه لا يتجمع منه شيء ، فالجواب أنَّ هذا لا يسلَّم ، وإن سلِّم في الوضوء ؛ لا يسلَّم في الغُسْل .

فإن قيل : لا يلزم من عدم جمعه منع الطَّهارة به ، ولهذا لم يجمعوه للشُّرب والطَّبخ والعجن والتبرد ونحوها مع جوازها به بالاتفاق؟

فالجواب : أنَّ ترك جمعه للشرب ونحوه للاستقذار ، فإنَّ النفوس تعافه في العادة وإن كان طاهراً ، كما استقذر النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الضبَّ وتركه ، فقيل : أحرام هو؟ قال : (لا ، ولكنَّي أعافه) وأما الطَّهارة به ثانية ، فليس فيها استقذار ، فتركه يدل على امتناعه . ا . هـ .

وذكر أدلة القائلين بجواز التطهير بالماء المستعمل ، وفنَّدها ، فلا نشتغل بالإطالة بذكرها[3] .

---

(١) المجموع (١ : ١٩٩) .

(٢) المجموع (١ : ٢٠٠) .

(٣) انظرها في المجموع (١ : ١٩٩-٢٠٢) .

أما ابن حبَّان فقد أخرج حديث جابر بن عبد الله (جاءني النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يعودني وأنا مريض لا أعقل ، فتوضَّأ ، وصبَّ من وضوئه عليَّ فعقلت . . .)[١] الحديث . تحت عنوان (ذكر الخبر الدَّال على أنَّ الماء المستعمل المؤدّى به الفرض مرة طاهرٌ جائز أن يؤدَّى به الفرض مرة أخرى) وعلَّق عليه قائلاً :

(في صبِّ المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وضوءه على جابر بيان واضح بأنَّ الماء المتوضَّأ به طاهر ليس له أن يتيمَّم بوجوده ؛ لأنَّه واجد الماء الطاهر ، وإنما أباح الله ـ عز وجل ـ التيمُّم عند عدم الماء الطَّاهر ، وكيف التيمُّم لواجد الماء الطاهر؟)[٢] .

فالله سبحانه وتعالى طالب المسلمين بالوضوء من ماء طاهر ، وهذا طاهر ـ كما تقولون ـ فمن أين لكم أن تفرقوا بين الطَّاهر فتجعلون منه مطهِّراً وغير مطهِّر؟

والذي يؤكِّد صحة ما قلناه حديث عبد الرحمن بن أبزى قال : (سأل رجل عمر فقال : إني أجنبت فلم أجد الماء ، فقال : لا تصلِّ . فقال عمَّار : أما تذكر إذ كنت أنا وأنت في سَرِيَّة على عهد رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، فذُكر ذلك له ، فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : «إنَّما كان يكفيك» وضرب بيده الأرض ضربة ، فنفخ في كفَّيه ، ومسح وجهه وكفَّيه؟)[٣] .

قال ابن حبَّان معقِّباً : (في تعليم المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم التيمم والاكتفاء فيه بضربة واحدة للوجه والكفين ، أبين البيان أنَّ المؤدَّى به الفرضُ مرة ، جائز أن يؤدَّى به الفرضُ ثانياً وذلك أن المتيمم عليه الفرض إن تيمم وجهه وكفيه جميعاً فلمَّا أجاز صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أداء الفرض في التيمم لكفيه ، بفضل ما أدى به

(١) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه . الإحسان (٤ : ١٢٦٦) . وأخرجه البخاري في الوضوء ، باب صب النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلم وضوءه على المغمى عليه ، ومواضع أخرى ، انظر الحديث وأطرافه في الفتح (١ : ٣٠١) . وأخرجه مسلم في الفرائض باب ميراث الكلالة رقم (١٦١٦) .

(٢) الإحسان (٤ : ٧٩) .

(٣) الإحسان (٤ : ٧٩ ـ ٨٠) . وأخرجه البخاري في الوضوء ، باب المتيمم ، هل ينفخ فيهما . رقم (٣٣٨) وغير موضع . ومسلم في الحيض ، باب التيمم رقم (٣٦٨) .

فرض وجهه ، صحّ أنَّ التّراب المؤدّى به الفرض بعضو واحد جائز أن يؤدى به فرض العضو الثَّاني به مرة أخرى ، ولما صحّ ذلك في التيمم ؛ صحَّ ذلك في الوضوء سواء)[١] .
ومذهب ابن حبَّان هذا ، هو الذي رجَّحه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الاختيارات[٢] .

والذي يبدو لي أنَّ في هذا الاستدلال نظراً ؛ لأنَّ التيمم بدل اضطراري من الوضوء إذ هو طهارة حكمية ، وليس طهارة حقيقيَّة . لذا فإنَّ أحكامه تخصّه هو ، ولا يقاس عليه .

ومن جهة أخرى فإنَّ الوضوء أصل ، والتيمُّمَ فرع ، والفرع يصح أن يقاس على الأصل ، أما قياس الأصل على الفرع فممتنع ؛ لأن الفرع لا يشارك أصله في كل الصِّفات . والله أعلم .

(٣) صلاة الإمام والمأموم

ذهب الإمام الشَّافعي في (اختلاف الحديث) وغيره ، إلى أنَّ الإمام إذا صلَّى جالساً لعذر ، فليس للمأموم أن يصلِّي خلفه جالساً ، إلاّ إذا كان صاحب عذر مثله .

قال رحمه الله : (إذا لم يقدر الإمام على القيام ، فصلَّى بالنَّاس جالساً ، صلى الناس وراءه إذا قدروا على القيام قياماً ، كما يصلي هو قائماً ، ويصلي من خلفه إذا لم يقدروا على القيام جلوساً ؛ فيصلي كلٌّ فرضه ، وقد رُوي عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فيما قلت : ناسخ ومنسوخ .

. . . أخبرنا مالك عن ابن شهاب الزهري ، عن أنس بن مالك ؛ أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ركب فرساً فصُرِع ، فَجُحِش شِقّه الأيمن ، فصلّى صلاة من الصَّلوات وهو قاعد ، فصلّينا وراءه قعوداً ، فلما انصرف قال : «إنما جعل الإمام ليؤتمَّ به ، فإذا صلَّى قائماً ، فصلّوا قياماً ، وإذا صلّى جالساً ، فصلّوا جلوساً أجمعون»[٣] .

---

(١) الإحسان (٤ : ٨١) .

(٢) الاختيارات الفقهية (ص٣) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٥ : ٢١٠٣) وأخرجه البخاري في كتاب الأذان باب إنَّما جعل الإمام ليؤتم به (٢ : ١٧٣) وانظر أطرافه هناك . ومسلم في الصلاة باب إئتمام المأموم بالإمام رقم (٤١١) .

قال الشافعي : وهذا ثابت عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منسوخ بسنته وذلك أنَّ أنساً روى أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم صلّى جالساً من سقطة من فرس في مرضه ، وعائشة تروي ذلك ، وأبو هريرة يوافق روايتها ، وأمر من خلفه في هذه العلة بالجلوس ، إذا صلَّى جالساً .

ثم تروي عائشة[1] رضي الله عنها أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم صلَّى في مرضه الذي مات فيه جالساً وصلَّى النَّاس خلفه قياماً ، وهي آخر صلاة صلاَّها بالنَّاس ، حتى لقي الله تعالى . وهذا لا يكون إلا ناسخاً . . . فنحن لم نخالف الأحاديث الأولى إلا بما يجب علينا من أن نصير إلى النَّاسخ . الأولى كانت حقاً في وقتها ، ثم نسخت فكان الحقُّ فيما نسخها . وهكذا كل منسوخ يكون الحقَّ ما لم ينسخ ، فإذا نسخ ، كان الحقُّ في ناسخه)[2] . ا . هـ .

فالشَّافعي يقرر أنَّ حديث القعود للمأموم خلف الإمام القاعد منسوخ بحديث عائشة .

وروى ابن حبَّان حديث عائشة[3] الموافق لحديث أنس الأول ، ثم قال :

(هذه السُّنة رواها عن المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : أنس بن مالك ، وعائشة وأبو هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأبو أمامة الباهلي ، وهو قول أسيد بن حضير ، وقيس بن قَهْد ، وجابر بن عبد الله ، وأبي هريرة رضي الله عنهم . وبه قال جابر بن زيد ، والأوزاعي ، ومالك بن أنس ، وأحمد ابن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، وأبو أيوب سليمان بن داود الهاشمي ، وأبو خيثمة ـ زهير بن حرب ـ وابن أبي شيبة ، ومحمد بن إسماعيل ، ومن تبعهم من أصحاب الحديث ، مثل : محمد بن نصر ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة)[4] .

وقال الإمام النَّووي يعرض مذاهب العلماء في هذه المسألة :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥ : ٢١١٨) وأخرجه البخاري في الأذان ، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٢ : ١٧٢) ومسلم في الصَّلاة ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر رقم (٤١٨) ، ومذهب مسلم مذهب الشَّافعي في هذا .

(٢) اختلاف الحديث للإمام الشَّافعي (ص٨٧ ـ ٩٠) .

(٣) الإحسان (٥ : ٢١٠٤) .

(٤) الإحسان (٥ : ٤٦٢ ـ ٤٦٣) .

(ذكرنا أنَّ مذهبنا جواز صلاة القائم خلف القاعد ، وأنَّه لا تجوز صلاتهم خلفه قعوداً . وبهذا قال الثوري ، وأبو حنيفة ، وأبو ثور ، والحميدي ، وبعض المالكية .

وقال الأوزاعي وأحمد وإسحاق وابن المنذر : تجوز صلاتهم وراءه قعوداً ولا تجوز قياماً ، وقال مالك في رواية ، وبعض أصحابه : لا تصح الصلاة وراءه قاعداً مطلقاً ـ يعني في حالة قعود الإمام ـ واحتُجَّ لمن قال : لا تصح الصَّلاة مطلقاً بحديث رواه الدارقطني والبيهقي وغيرهما عن جابر الجعفي ، عن الشَّعبي ، عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم (لا يَؤُمَّنَّ أحد بعدي جالساً)[١] .

واحتجّ الأوزاعي وأحمد بحديث أنس . . . رواه البخاري ومسلم ، وفي الصحيحين عن عائشة وأبي هريرة مثله)[٢] .

ويرى ابن حجر أنَّ النسخ إنَّما كان للوجوب ، فإذا نسخ الوجوب بقي الجواز ، والجواز لا ينافي الاستحباب ، فيجعل أمره الأخير بأن يصلوا قعوداً على الاستحباب ، لأنَّ الوجوب قد رفع بتقريره لهم وتركِ أمرهم بالإعادة ، هذا مقتضى الجمع بين الأدلة ، وبالله التوفيق ، والله أعلم)[٣] .

إلا أنَّ ابن حبان روى حديث أبي هريرة (. . . فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بالأمر فأتوا منه ما استطعتم)[٤] تحت عنوان (ذكر الخبر الدال على أنَّ هذا الأمر من المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أمر فريضة وإيجاب ، لا أمر فضيلة وإرشاد) ثم قال :

(في هذا الخبر بيان واضح أنَّ النَّواهي عن المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كلها على الحتم والإيجاب[٥] ، حتى تقوم الدّلالة على ندبيتها[٦] ، وأنَّ أوامره صلَّى الله عليه

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن (١ : ٣٩٨) وقال : لم يروه غير جابر الجعفي عن الشعبي ، وهو متروك الحديث ، والحديث مرسل ، لا تقوم به حجة ، والبيهقي في السنن الكبير (٣ : ٨٠) ونقل كلام الدارقطني .

(٢) المجموع للنَّووي (٤ : ١٤٥) .

(٣) فتح الباري (٢ : ١٧٣) .

(٤) الإحسان (٥ : ٢١٠٥ ، ٢١٠٦) .

(٥) أي : إيجاب اجتنابها .

(٦) أي : استحباب اجتنابها .

وآله وسلّم بحسب الطاقة والوسع على الإيجاب ، حتى تقوم الدّلالة على ندبيتها .

قال الله جل وعلا : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ، ثم نفى الإيمان عن من لم يحكّم رسوله فيما شجر بينهم ، من حيث لا يجدون في أنفسهم مما قضى وحكم حرجاً ، ويسلّموا لله ولرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم تسليماً بترك الآراء المعكوسة ، والمقايسات المنكوسة)[١] .

ثم روى حديث أبي هريرة تحت عنوان (خبر ثالث يدل على أن هذا الأمر هو أمر حتم لا ندب) : (إنّما جعل الإمام ليؤتمّ به ، فلا تختلفوا عليه ؛ فإذا كبّر فكبّروا ، وإذا ركع فاركعوا ، وإذا قال : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهمّ ربنا لك الحمد ، وإذا صلّى قاعداً فصلُّوا قعوداً أجمعون)[٢] .

ثم قال : (قد زجر المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذا الخبر المأمومين عن الاختلاف على إمامهم إذا صلّى قاعداً ، وهو من الضّرب الذي ذكرت في غير موضع من كتبنا أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قد يزجر عن الشّيء بلفظ العموم ، ثم يستثني بعض ذلك الشّيء المزجور عنه ؛ فيبيحه لعلّة معلومة ، كما نهى صلّى الله عليه وآله وسلّم عن (المزابنة)[٣] بلفظ مطلق ، ثم استثنى بعضها ، وهو العريّة ، فأباحها بشرط معلوم لعلّة معلومة .

وكذلك يأمر المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم الأمر بلفظ العموم ، ثم يستثني بعض ذلك العموم ؛ فيحظره لعلّة معلومة ، كما أمر صلّى الله عليه وآله وسلّم المأمومين والأئمة جميعاً أن يصلُّوا قياماً إلا عند العجز عنه ، ثم استثنى بعض هذا العموم ، وهو إذا صلّى إمامهم قاعداً ، فزجرهم عن استعماله مستثنىً من جملة الأمر المطلق)[٤] .

وروى حديث أنس وابن عمر ثم قال :

(في هذا الخبر - يعني حديث ابن عمر - بيان واضح أن صلاة المأمومين قعوداً ، إذا

---

(١) الإحسان (٥ : ٤٦٦) .

(٢) الإحسان (٥ : ٢١٠٧) وأخرجه البخاري في الأذان ، باب إقامة الصف (٧٢٢) ومسلم (٤١٤) .

(٣) المزابنة : بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر كيلاً . المغرب (ص٢٠٦) .

(٤) الإحسان (٥ : ٤٦٨ - ٤٦٩) .

صلَّى بهم إمامهم قاعداً ، من طاعة الله جل وعلا التي أمر بها عباده ، وهو عندي ضرب من الإجماع[١] الذي أجمعوا على إجازته ، لأن من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أربعة أفتَوا به : جابر بن عبد الله ، وأبو هريرة ، وأسيد بن حضير ، وقيس بن قَهْد والإجماع عندنا : إجماع الصَّحابة الذين شهدوا هبوط الوحي والتنزيل ، وأعيذوا من التحريف والتبديل ، حتى حفظ الله بهم الدِّين على المسلمين ، وصانه عن ثلب القادحين ولم يُرْوَ عن أحد من الصَّحابة خلاف لهؤلاء الأربعة لا بإسناد متصل ولا منقطع . فكأنَّ الصَّحابة أجمعوا على أنَّ الإمام إذا صلَّى قاعداً كان على المأمومين أن يصلُّوا قعوداً .

وقد أفتى به من التَّابعين جابر بن زيد ـ أبو الشَّعثاء ـ ولم يُرْوَ عن أحد من التَّابعين أصلاً بخلافه لا بإسناد صحيح ولا واهٍ ، فكأن التَّابعين أجمعوا على إجازته .

وأول من أبطل في هذه الأمة صلاة المأموم قاعداً إذا صلَّى إمامه جالساً ، المغيرة بن مِقْسَم ، صاحب النَّخعي ، فأخذ عنه حمّاد بن أبي سليمان ، ثم أخذ عن حماد أبو حنيفة وتبعه عليه مَنْ بَعْده مِنْ أصحابه .

وأعلى شيء احتجوا به فيه شيءٌ ، رواه جابر الجعفي عن الشعبي قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : (لا يؤمَّنَّ أحد بعدي جالساً) . وهذا لو صح إسناده لكان مرسلاً والمرسل من الخبر وما لم يُرْوَ سيّان في الحكم عندنا .

لأنَّا لو قبلنا إرسال تابعي ـ وإن كان ثقة فاضلاً على حسن الظنّ ـ لزمَنا قَبولُ مثله عن أتباع التابعين ، ومتى قبلنا ذلك ، لزمنا قبول مثله عن تَبَع الأتباع ، ومتى قبلنا ذلك لزمنا قبول مثل ذلك عن تُبّاع التَّبَع ، ومتى قبلنا ذلك ، لزمنا أن نقبل من كلّ انسان إذا قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وفي هذا نقض الشريعة . . .)[٢] .

وتحت عنوان (ذكر خبر أوهم بعض أئمتنا أنه ناسخ لأمر النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم المأمومين قعوداً ، إذا صلَّى إمامهم جالساً) روى حديث عائشة من طريق زائدة ، عن

---

(١) قال ابن حجر : وقد ادعى ابن حبان الإجماع على العمل به ، وكأنه أراد الإجماع السُّكوتي . فتح الباري (٢ : ١٧٧) .

(٢) الإحسان (٥ : ٤٧١ ـ ٤٧٤) .

موسى بن أبي عائشة ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وفيه : (. . . فخرج رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلِّي بالنَّاس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومى إليه أن لا يتأخر ، وقال لهما : «أجلساني إلى جنبه» ، فأجلساه إلى جنب أبي بكر ، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر ، والنبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قاعد)[١] .

وذكر خبراً يعارض به الخبر الذي تقدم ذكرنا له في الظاهر ، وهو حديث عائشة من طريق شعبة عن موسى بن أبي عائشة ، وفيه : (أنَّ أبا بكر صلَّى بالنَّاس ، ورسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في الصف خَلْفَه)[٢] ثم قال :

(خالف شعبة بن الحجاج زائدة بن قدامة في متن هذا الخبر عن موسى بن أبي عائشة ، فجعل شعبةُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مأموماً حيث صلّى قاعداً والقوم قيام ، وجعل زائدةُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إماماً حيث صلّى قاعداً والقوم قيام وهما متقنان حافظان .

فكيف يجوز أن تُجعل إحدى الروايتين اللتين تضادتا في الظَّاهر في فعل واحد ناسخاً لأمر مطلق متقدِّم؟

فمَن جعل أحد الخبرين ناسخاً لما تقدم من أمر النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وترك الآخر من غير دليل يثبت له على صحته ، سَوَّغَ لخصمه أخذ ما ترك من الخبرين وترك ما أخذ منهما .

ونظير هذا النَّوع من السُّنن خبر ابن عباس : (أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نكح ميمونة وهو محرم)[٣] وخبر أبي رافع : (أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نكحها وهما حلالان)[٤] فتضادَّ الخبران في فعل واحد في الظَّاهر من غير أن يكون بينهما تضادٌ عندنا .

فجعل جماعة من أصحاب الحديث الخبرين اللذين رُويا في نكاح ميمونة

---

(١) الإحسان (٥ : ٤٨١) .
(٢) الإحسان (٥ : ٤٨٣) .
(٣) الإحسان (٩ : ٤٣٧) .
(٤) الإحسان (٩ : ٤٣٨) .

متعارضين ، وذهبوا إلى حديث عثمان بن عفان عن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال : (لا يَنكح المحرِمُ ولا يُنكح)[١] فأخذوا به ، إذ هو يوافق إحدى الروايتين اللتين رُويتا في نكاح ميمونة ، وتركوا خبر ابن عبَّاس أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نكحها وهو محرم .

فمن فعل هذا ، لزمه أن يقول : تضادَّ الخبران في صلاة النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في علّته على حسب ما ذكرناه قبل ، فيجب أن نجيء إلى الخبر الذي فيه الأمر بصلاة المأمومين قعوداً إذا صلَّى إمامهم قاعداً فنأخذ به ، إذ هو يوافق إحدى الروايتين اللتين رُويتا في صلاة النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في علته ، ونترك الخبر المنفرد عنهما ، كما فعل ذلك في نكاح ميمونة .

وليس عندنا بين هذه الأخبار تضادٌّ ولا تهاتر ، ولا ناسخ ولا منسوخ ، بل منها مختصر ومتقصَّى ، ومجمل ومفسّر ، إذا ضُمّ بَعْضُها إلى بعض ؛ بطلَ التّضاد بينهما ، واستعمل كل خبر في موضعه)[٢] .

وروى حديث عائشة من طريق عاصم بن أبي النَّجود ، عن شقيق ، عن مسروق وفيه : (أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان إماماً وأبو بكر مأموماً ، وأنَّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم خرج بين بريرة ونُوبة)[٣] .

ثم رواه من طريق نعيم بن أبي هند ، عن أبي وائل ، عن مسروق ، عن عائشة ، وفيه : (أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان مأموماً ، وكان أبو بكر إماماً)[٤] ثم قال :

(خالف نُعيم بن أبي هند ، عاصمَ بن أبي النَّجود في متن هذا الخبر ، فجعل عاصمٌ أبا بكر مأموماً ، وجعل نعيمُ بن أبي هند أبا بكر إماماً ، وهما ثقتان حافظان متقنان ، فكيف يجوز أن يُجعل خبر أحدهما ناسخاً لأمر متقدم ، وقد عارضه في الظاهر مثلُه؟

ونحن نقول بمشيئة الله وتوفيقه : إنَّ هذه الأخبار كلّها صحاح وليس شيء منها

(١) الإحسان (٩ : ٤١٢٣ ـ ٤١٢٨) .
(٢) الإحسان (٥ : ٤٨٣ ـ ٤٨٥) .
(٣) الإحسان (٥ : ٢١١٨) .
(٤) الإحسان (٥ : ٢١١٩) .

يعارض الآخر ، ولكن النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم صلَّى في علَّته صلاتين في المسجد جماعة ، لا صلاة واحدة ، في إحداهما كان مأموماً ، وفي الأخرى كان إماماً .

والدَّليل على أنهما كانتا صلاتين ، لا صلاة واحدة ، أنَّ في خبر عبيد الله بن عبدالله عن عائشة (أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم خرج بين رجلين) تريد : أحدهما العبَّاس والآخر عليٌّ ، وفي خبر مسروق عن عائشة (أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم خرج بين بريرة ونُوبة) فهذا يدلُّك على أنها كانت صلاتين ، لا صلاة واحدة))[١] .

ويرى ابن حبَّان أنَّ خبر عائشة (مختصر مجمل ، فأما اختصاره ، فليس فيه ذكر الموضع الذي جلس فيه رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، أعلى يمين أبي بكر ، أم عن يساره؟)[٢] .

ثم ذكر الخبر المتقَصِّي للَّفظة المختصرة من حديث عائشة نفسِها ؛ أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم جلس عن يسار أبي بكر ، وكان النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يصلي بالنَّاس قاعداً ، وأبو بكر قائماً[٣] .

وأما الإجمال ؛ فعائشة حَكَتْ صلاة النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلى هذا الموضع .

ثمَّ ذكر ابنُ حبَّان الخبر المفسِّر للألفاظ المجملة من حديث جابر رضي الله عنه الذي جاء فيه : (اشتكى رسول الله ﷺ ، فصلَّينا وراءه ، وهو قاعد ، وأبو بكر يُسمع النَّاس تكبيره . قال فالتفت إلينا فرآنا قياماً ، فأشار إلينا ، فقعدنا ، فصلينا بصلاته قعوداً ، فلمَّا سلَّم قال : كدتم أن تفعلوا فعل فارس والروم ؛ يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، ائتموا بإمامكم ، إنْ صلَّى قائماً ؛ فصلُّوا قياماً ، وإن صلَّى قاعداً ؛ فصلُّوا قعوداً)[٤] .

وعقَّب عليه بقوله : (في هذا الخبر المفسِّر بيان واضح أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، لما قعد عن يسار أبي بكر ، وتحوَّل أبو بكر مأموماً يقتدي بصلاته ، ويكبِّر ، ويُسمع

---

(١) الإحسان (٥ : ٤٨٧ ـ ٤٨٨) .

(٢) الإحسان (٥ : ٤٩٠) .

(٣) الإحسان (٥ : ٢١٢١) .

(٤) الإحسان (٥ : ٢١٢٢) .

النَّاس التكبير ليقتدوا بصلاته ، أمرهم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حينئذ بالقعود ، حين رآهم قياماً . ولما فرغ من صلاته أمرهم أيضاً بالقعود إذا صلَّى إمامهم قاعداً .

وقد شهد جابر بن عبد الله صلاته صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حيث سقط عن فرسه فجُحِشَ شِقُّه الأيمن وكان سقوطه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن الفرس في شهر ذي الحجة ، آخر سنة خمس من الهجرة ، وشهد هذه الصَّلاة في علَّته صلَّى الله عليه وآله وسلَّم . فأدَّى كلٌّ خبر بلفظه ، ألا تراه يذكر في هذه الصلاة رَفْعَ أبي بكر صوته بالتكبير ليقتدي النَّاس به؟ وتلك الصَّلاة التي صلاّها رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في بيته عند سقوطه عن فرسه ، لم يَحْتَجْ أبو بكر إلى أن يرفع صوته بالتكبير ليسمع النَّاس تكبيره ، على صغر حجرة عائشة ، وإنَّما كان رفعه الصَّوت بالتكبير في المسجد الأعظم الذي صلَّى فيه رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في علَّته ، فلما صحَّ ما وصفنا ، لم يَجُزْ أن يجعل بعض هذه الأخبار ناسخاً لما تقدم ، على حسب ما وصفناه)[1] .

فقد صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في المسجد الأعظم مرتين ؛ الأولى كان فيها إماماً ، والثَّانية كان فيها مأموماً ، والتي كان فيها إماماً خرج بين العباس وعلي وأمر النَّاس بالقعود . والثانية كان فيها مأموماً صلَّى بحذاء أبي بكر في الصَّف ، وقد خرج فيها بين بريرة ونُوبة . وليس بين شيء من هذا تعارض أو نسخ[2] .

وروى حديث أنس بن مالك (آخر صلاة صلاّها رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم مع القوم في ثوب واحد متوشّحاً به)[3] يريد قاعداً خلف أبي بكر ، ثم قال :

(هذا الخبر ينفي الارتياب عن القلوب ، أنَّ شيئاً من هذه الأخبار يضادُّ ما عارضها في الظَّاهر .

ولا يتوهَّمنَّ متوهِّم أنَّ الجمع بين الأخبار على حسب ما جمعنا منها في هذا النوع من أنواع السنن يضاد قول الشَّافعي رحمة الله ورضوانه عليه .

---

(١) الإحسان (٥ : ٤٩٢ ـ ٤٩٣) .

(٢) الإحسان (٥ : ٤٩٥ ـ ٤٩٦) . وقد نقل البخاري في كتاب المرضى عن الحميدي ؛ أن هذا الحديث منسوخ . ولم يعقب . انظر فتح الباري (١٠/١٢٠) .

(٣) الإحسان (٥ : ٢١٢٥) .

وذلك أنَّ كل أصل تكلمنا عليه في كتبنا ، أو فرع استنبطناه من السّنن في مصنفاتنا هي كلّها قول الشافعي ، وهو راجع عمّا في كتبه ، وإن كان ذلك المشهور من قوله ، وذاك أنِّي سمعت ابن خزيمة يقول : سمعت المزني يقول : سمعت الشَّافعي يقول : (إذا صح لكم الحديث عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فخذوا به ، ودعوا قولي))[١] .

بعد هذه الرحلة الطويلة مع ابن حبَّان في استدلالاته ، والتي كان الأجدر أن ننقلها بتمامها دون اختصار ، قد يتساءل بعضهم فيقول : إنَّ هذا الاحتجاج يصح لو أنَّ الشَّافعي غفل عن هذه السُّنة ولم يعرفها ، أما وقد ذكر في بداية حديثه الأحاديث المتعارضة وأشار إلى باقيها ، فمن أين يسوغ لابن حبَّان أن يقول ما قال؟

قلت : إنَّ الشَّافعي رحمه الله لم يَغِبْ عنه حديث جابر بن عبد الله ، إلا أنَّه لم يعتمده ، وعدَّ اعتماده غلطاً فقال :

(وقد رُوي في هذا الصنف شيء يغلط فيه بعض من يذهب إلى الحديث ، وذلك أنَّ عبد الوهّاب أخبرنا ، عن يحيى بن سعيد ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، أنَّهم خرجوا يشيعونه وهو مريض ، فصلَّى جالساً ، وصلَّوا خلفه جلوساً[٢] .

أخبرنا عبد الوهّاب عن يحيى بن سعيد ؛ أن أسيد بن حضير فعل ذلك[٣] .

قال الشَّافعي : وفي هذا ما يدلّ على أنَّ الرجل يعلم الشيء عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، لا يعلم خِلافَه عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، فيقول بما علم ثم لا يكون في قوله بما علم وروى حجّةٌ على أحد علم أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال قولاً ، أو عمل عملاً ينسخ العمل الذي قال به غيره وعَلِمَه .

كما لم يكن في رواية من روى أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم صلَّى جالساً وأمر بالجلوس ، وصلَّى جابر بن عبد الله وأسيد بن حضير وأمرهما بالجلوس ، وجلوس من خلفهما ، حجة على من علم عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم شيئاً ينسخه .

---

(١) الإحسان (٥ : ٤٩٧) .

(٢) أخرجه الشَّافعي في اختلاف الحديث (ص : ٩٠) . وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢ : ٣٢٦) . وقال ابن حجر في الفتح (٢ : ١٧٦) : إسناده صحيح .

(٣) قال في الفتح (٢ : ١٧٦) : أخرجه ابن المنذر بإسناد صحيح .

وفي هذا دليل أنَّ علم الخاصة[١] يوجد عند بعض ويعزب عن بعض، وأنَّه ليس كعلم العامة[٢] الذي لا يَسَعُ جهلُه، ولهذا أشباه كثيرة، وهذا دليل على ما في معناه منها)[٣].

أما ابن حبّان فرأى أنَّ جابر بن عبد الله قد شاهد الأمرين، ورواهما وأفتى بعد حياة النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بذلك، وكذلك أسيد بن حضير وأبو هريرة، وقيس ابن قهد عند عبد الرزاق بإسناد صحيح[٤] أيضاً، فهذا أولى بالمتابعة، خاصَّة وأنَّه لم يُنْقَل خلافٌ عن الصَّحابة في ذلك.

قال ابن حجر: (وقد ألزم ابن المنذر من قال: بأنَّ الصَّحابي أعلم بتأويل ما روى، بأن يقول بذلك؛ لأنَّ أبا هريرة وجابراً رويا الأمر المذكور، واستمرَّا على العمل به والفُتيا بعد النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم. ويلزم ذلك من قال: إنَّ الصَّحابي إذا روى وعمل بخلافه؛ أنَّ العبرة بما عمل من باب الأولى، لأنَّه هنا عَمِلَ بوفْق ما روى)[٥].

إلا أنَّ ابن حجر قال: (نازع ابن حبَّان في ثبوت كون الصّحابة صلَّوا خلفه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وهو قاعد ـ قياماً غير أبي بكر، قال: لأنَّ ذلك لم يَرِدْ صريحاً، وأطال في ذلك بما لا طائل فيه.

والذي ادَّعى نفيَه أثبته الشَّافعي، وقال: إنَّه في رواية إبراهيم عن الأسود، عن عائشة، ثم وجدتُه مُصرَّحاً به أيضاً في مصنف عبد الرزاق عن ابن جريج: أخبرني عطاء، وذكر الحديث ولفظه: (فصلَّى النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قاعداً، وجعل أبا بكر وراءه بينه وبين النَّاس، وصلَّى النَّاس وراءه قياماً). وهذا مرسل يعتضد بالرواية التي علَّقها الشَّافعي عن النخعي، وهذا الذي يقتضيه النَّظر، فإنَّهم ابتدأوا الصَّلاة مع أبي بكر قياماً بلا نزاع، فمن ادَّعى أنَّهم قعدوا بعد ذلك فعليه البيان)[٦].

---

(١) علم الخاصَّة: هو العلم الذي لا ينقله إلا فرد من الصحابة، ينفرد به عن مجموعهم.

(٢) خبر العامة: المتواتر، أو المشهور الذي تكاثر حتى غدا من المعلومات من الدين بالضرورة تقريباً.

(٣) اختلاف الحديث (ص٨٩ ـ ٩٠) وانظر الاستدلال العقلي في الأم (١ : ١٥١ ـ ١٥٢) فإنَّه نفيس.

(٤) فتح الباري (٢ : ١٧٦).

(٥) فتح الباري (٢ : ١٧٦).

(٦) فتح الباري (٢ : ١٧٧).

وذكر ابن حجر كلاماً يتعلّق بردّه على ابن حبان مستدلاً بمرسل عطاء ، إلاّ أنّه رجع وقال : إنّ مرسل عطاء يشير إلى أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال فيه : (فصلُّوا صلاة إمامكم ما كان : إن صلّى قائماً ؛ فصلُّوا قياماً ، وإن صلّى قاعداً ؛ فصلُّوا قعوداً) . قال : (وهذه الزيادة تقوّي ما قال ابن حبّان أنّ هذه القصة كانت في مرض موت النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم)[١] .

إلاّ أنه نازع ابنَ حبّان في الوجوب ، وقال بجواز الأمرين جميعاً .

والذي يبدو لي أنّ ما ذهب إليه ابن حبّان قوي راجح . والمسألة تحتاج إلى تدقيق أكثر ليس هذا محلّه ، وإنّما قصدنا بيان طرف من فقه ابن حبّان ، ودقّة فهمه ، وشدّة تمسّكه بالأثر .

وسأعرض بعد ذلك عدة مسائل من فقهه ، مشيراً بإيجاز إلى آراء العلماء الآخرين فيها ، من غير مناقشة ولا استدلال ، لتتّضح الصُّورة أكثر .

(٤) وجوب صلاة الجماعة

أخرج ابنُ حبّانَ حديث جابر بن عبد الله قال : (جاء ابن أم مكتوم إلى النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقال : يا رسول الله ، إنّي مكفوف البصر ، شاسع الدار . فكلّمه في الصّلاة أن يرخص له أن يصلّي في منزله ، قال : أتسمع الأذان؟ قال : نعم ، قال : فائْتِها ولو حَبْواً)[٢] .

وقال بعده : (في سؤال ابن أم مكتوم النّبيَّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يرخص له في ترك إتيان الجماعات ، وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «ائتها ولو حبواً» أعظم الدليل على أنّ هذا أمرٌ حتمٌ لا ندبٌ ، إذ لو كان إتيان الجماعات على من يسمع النِّداء لها غير فرض ، لأخبره صلّى الله عليه وآله وسلّم بالرخصة فيه ، لأنّ هذا جواب خرج على سؤال بعينه ، ومحال أن لا يوجد لغير الفريضة رخصة)[٣] .

---

(١) فتح الباري (٢ : ١٧٧) .

(٢) حديث جابر هذا أخرجه ابن حبّان في صحيحه (٥ : ٢٠٦٣) وأحمد في مسنده (٣ : ٤٢٣) وأبو يعلى في مسنده (٣ : ٣٣٧) وعبد بن حميد رقم (١١٤٨) . وأخرج نحوه من حديث ابن أمّ مكتوم أبو داود في الصّلاة باب التشديد في ترك الجماعة رقم (٥٥٢ ـ ٥٥٣) ، والنّسائي في الإمامة باب المحافظة على الصّلوات (٢ : ٨٤ ـ ٨٥) وأحمد في المسند (٣ : ٤٢٣) وابن ماجه رقم (٧٩٢) . وأخرج مسلم نحوه من حديث أبي هريرة رقم (٦٥٣) . وانظر : فتح الباري (٢ : ١٢٨) .

(٣) الإحسان (٣ : ٤١٤ ـ ٤١٥) .

ثم روى حديث ابن عبَّاس : من سمع النِّداء فلم يجب ، فلا صلاة له إلا من عذر[١] . وقال :

(في هذا الخبر دليل أنَّ أمر النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بإتيان الجماعات أمر حتم لا ندب ، إذ لو كان القصد في قوله : (فلا صلاة له إلا من عذر) يريد به الفضل لكان المعذور إذا صلَّى وحده ، كان له فضل الجماعة ، فلما استحال هذا وبطَلَ ؛ ثبت أنَّ الأمر بإتيان الجماعة أمرُ إيجاب لا ندب)[٢] .

فالجماعة عند ابن حبَّان فرض عين على كلِّ مسلم . ولا تسقط الجماعة عن المكلَّف إلا بعذر .

قال : (وأما العذر الذي يكون المتخلِّف عن إتيان الجماعات به معذوراً ، فقد تتبعته في السُّنن كلِّها ، فوجدتها تدل على أنَّ العذر عشرة أشياء) ملخّصها ما يأتي :

العذر الأول : المرض الذي لا يقدر معه المرء أن يأتي الجماعات .

العذر الثَّاني : حضور الطَّعام عند صلاة المغرب .

العذر الثَّالث : النِّسيان الذي يعرض في بعض الأحوال .

العذر الرابع : السِّمن المفرط الذي يمنع المرء من حضور الجماعات .

العذر الخامس : وجود المرء حاجةَ الإنسان في نفسه من الغائط أو البول .

العذر السَّادس : خوف الإنسان على نفسه وماله في طريقه إلى المسجد .

العذر السَّابع : وجود البرد الشَّديد المؤلم .

العذر الثامن : وجود المطر المؤذي .

العذر التاسع : وجود العلَّة التي يخاف المرء على نفسه العثر منها .

العذر العاشر : أكل الإنسان الثُّوم والبصل إلى أن يذهب ريحها .

وذكر لكل واحد من هذه الأعذار حديثاً يثبتها ويدل عليها[٣] . ثم قال :

---

(١) الإحسان (٥ : ٢٠٦٤) . وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات باب التَّغليظ في التَّخلف عن الجماعات رقم (٧٩٣) قال الحافظ : إسناده على شرط مسلم . كذا في نيل الأوطار (٣ : ١٤٣) .

(٢) الإحسان (٥ : ٤١٧) .

(٣) انظر هذه الأعذار وأدلتها في الإحسان (٥ : ٤١٧ ـ ٤٥١) .

(هذه الأشياء التي وصفناها هي العذر الذي في خبر ابن عبَّاس ، الذي لا حرج على من به حالة منها في تخلُّفه عن أداء فرضه جماعة ، (وليس)[١] عليه إثم ترك الجماعة وأداء الفرض . ومن أدى الفرض وهو يسمع النِّداء ، فقد سقط عنه فرض أداء الصَّلاة ، وعليه إثم ترك إتيان الجماعة .

وقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : «من سمع النِّداء فلم يُجب ، فلا صلاة له إلا من عذر» أراد به : فلا صلاة له من غير إثم يرتكبه في تَخَلُّفه عن إتيان الجماعة ، إذا كان القصد فيه ارتكاب النَّهي ، لا أنَّ صلاته غير مجزئة ، وإن لم يكن بمعذور إذا لم يُجب داعي الله .

وهذا كقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : «من لغا فلا جمعة له»[٢] . يريد به : فلا جمعة له من غير إثم يرتكبه بِلَغْوِه)[٣] .

وظاهر كلام الشافعي في الأم[٤] أنَّ صلاة الجماعة فرضُ كِفاية ، وعليه جمهور المتقدمين من أصحابه ، وقال به كثير من الحنفيَّة والمالكيَّة . والمشهور عند الباقين أنَّها سنَّة مؤكدة .

وإلى القول بأنها فرض عين ذهب عطاء والأوزاعي وأحمد وجماعة من محدِّثي الشافعيَّة ؛ كأبي ثور وابن خزيمة وابن المنذر وابن حبَّان .

وبالغَ داود فجعلها شرطاً في صحة الصَّلاة . . . ولمَّا كان الوجوب قد ينفك عن الشَّرط ، فقد قال أحمد : إنَّها واجبة غير شرط[٥] .

---

(١) في الكلام سقط لا يستقيم معه المعنى فأثبتُّ هذه الكلمة لعلَّه يستقيم .

(٢) أخرجه ابن حبّان ههنا (٥ : ٤٥١) معلّقاً مجزوماً به ، ولم يخرّجه في موضع آخر من صحيحه وأخرجه عبد الرزاق في المصنّف (٣ : ٢٢٣) من حديث يحيى ابن أبي كثير عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، ويحيى ابن أبي كثير توفي في حدود (١٣٠هـ) وقد رأى أنس بن مالك رؤية ، فإن صحّ سماعه منه ؛ فحديثه مرسل ، وإلا فحديثه معضل ! وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (١ : ٩٣) وأبو داود في الصلاة باب فضل الجمعة رقم (١٠٥١) والبيهقي في السنن الكبير (٣ : ٢٢٠) من حديث علي بلفظ : (من قال يوم الجمعة لصاحبه : صَهْ ؛ فقد لغا . ومن لغا ؛ فليس له في جمعته تلك شيء) وأخرجه ابن خزيمة (٣ : ١٥٦) وأبو داود رقم (٣٤٧) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ : (ومن لغا ؛ كانت له ظهراً) .

(٣) الإحسان (٥ : ٤٥٠ ـ ٤٥١) .

(٤) الأم (١ : ١٣٦) . وانظر تفصيل الموضوع ومناقشته ببراعة في الفتح (٢ : ١٢٥ ـ ١٣٠) ، وانظر نيل الأوطار (٣ : ١٤٢) فما بعد .

(٥) انظر فتح الباري (٢ : ٤١٥) وزاد المعاد (١ : ٣٧٧) ونيل الأوطار (٣ : ٣٠٩) .

(٥) حكم تارك الصَّلاة

في باب الوعيد على ترك الصَّلاة ، روى حديث جابر رضي الله عنه : (ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصَّلاة)[١] .

ثم ذكر (لفظة أوهمت غير المتبحر في صناعة الحديث أنَّ تارك الصَّلاة حتى خرج وقتها ، كافر بالله ـ جل وعلا ـ) وروى حديث بريدة : (أنَّ العهد الذي بيننا وبينهم الصَّلاة فمن تركها فقد كفر)[٢] . ثم روى أربعة أحاديث عن ابن عمر (١٤٥٥) وأنس (١٤٥٦) وجابر (١٤٥٧) ومعاذ بن جبل (١٤٥٨) ؛ أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قدَّم الصَّلاة عن وقتها أو أخَّرها ، مؤكِّداً على أنَّ تارك الصَّلاة متعمِّداً لا يكفر به كفراً يخرجه عن الملة ، أو كفراً تَبِين به امرأته ، أو كفراً لا يرثه فيه ورثته المسلمون[٣] لو مات قبل أن يصلّيها .

وروى بعد ذلك خبراً يدل على أنَّ تارك الصَّلاة بعد أن وجب عليه أداؤها وإن ذهب وقتها ، لا يكون كافراً كفراً يكون مالُه به فيئاً للمسلمين ، وهو خبر أبي هريرة قال : (عرَّسنا مع رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ذات ليلة ، فلم نستيقظ حتى آذَتْنا الشَّمس فقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : «ليأخذ كل رجل منكم راحلته ، ثم يتنحَّى عن هذا المنزل» ثم دعا بالماء فتوضَّأ ، فسجد سجدتين ، ثم أقيمت الصَّلاة)[٤] .

---

(١) الإحسان (٤ : ١٤٥٣) . وأخرجه مسلم في الإيمان ، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصَّلاة رقم (٨٢) . وأبو داود في السُّنة ، باب في رد الإرجاء رقم (٤٦٧٨) . والترمذي في الإيمان باب ما جاء في ترك الصَّلاة رقم (٢٦٢٠) وقال : حسن صحيح .

(٢) الإحسان (٤ : ١٤٥٤) . وأخرجه الترمذي في الإيمان باب ما جاء في ترك الصَّلاة رقم (٢٦٢١) وقال : حسن صحيح غريب . والنَّسائي في الصَّلاة ، باب الحكم في تارك الصَّلاة (١ : ١٨٧) . وهو حديث صحيح .

(٣) انظرها مرتبة في الإحسان (٤ : ٣٠٦) و(٤ : ٣٠٩) و(٤ : ٣١٣) .

(٤) الإحسان (٤ : ١٤٥٩) . وأخرجه مسلم في المساجد ، باب قضاء الصَّلاة الفائتة رقم (٦٨٠) . وأخرج الموطأ نحوه مرسلاً عن سعيد (١ : ١٣ ، ١٤) . وأبو داود في الصَّلاة ، باب من نام عن الصَّلاة أو نسيها رقم (٤٣٥) والترمذي في التَّفسير ، باب ومن سورة طه رقم (٣١٦٣) . والنَّسائي في المواقيت باب كيف يقضي الفائت الصَّلاة (١ : ٢٣٩) . وقد ضعَّفه الترمذي من جهة صالح بن أبي الأخضر عن الزهري . إلا أنَّ مسلماً رواه من طريق يونس عن الزهري ، والنَّسائي رواه من طريق معمر عن الزهري . فلم يتفرد به أبو الأخضر . انظر الترمذي (٥ : ١٩٣) ووازن .

وقال بعد ذلك : (في تأخير النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الصَّلاة عن الوقت الذى أثبته الى أن خرج من الوادي ، دليل صحيح على أنَّ تارك الصَّلاة الى أن يخرج وقتها لا يكون كافراً ، إذ لو كان كذلك ؛ لأمَرَهم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بأداء الصَّلاة في وقت انتباههم من منامهم ، ولم يأمرهم بالتَّنحّي عن المنزل الذي ناموا فيه ، والفرضُ لازمٌ لهم قد جاز وقته)[١] . وذكر عدة أحاديث تؤيد ما ذهب إليه ، ثم قال :

(أطلق المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم اسمَ الكفر على تارك الصَّلاة ، إذ تركُ الصَّلاة أول بداية الكفر ، لأنَّ المرء إذا ترك الصَّلاة واعتاده ، ارتقى منه إلى ترك غيرها من الفرائض ، واذا اعتاد ترك الفرائض ، أدّاه ذلك إلى الجَحد ، فأطلق صلَّى الله عليه وآله وسلَّم اسم النَّهاية التي هي آخر شُعَب الكفر على البداية التي هي أول شُعَبها ، وهي ترك الصَّلاة)[٢] . إذ (لو كان تأخير المرء للصَّلاة عن وقتها الى أن يدخل وقت الصَّلاة الأخرى يلزمه بذلك اسم الكفر ؛ لَمَا أمر المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أمته بالشيء الذي يكفرون بفعله ، ولعنَّف فاعلي ذلك ، فلمَّا لم يعنِّف فاعله ، دلَّ ذلك على أنَّه لم يكفر كفراً يشبه الارتداد)[٣] .

وبعد : فإليك مذاهب العلماء في هذه المسألة ملخّصة مما قاله ابن قدامة :

(تارك الصَّلاة لا يخلو : إمَّا أن يكون جاحداً لوجوبها ، أو غير جاحد .

(١) فإن كان جاحداً لوجوبها ؛ نُظِر :

(أ) فإن كان جاهلاً بوجوبها ، وهو ممن يمكن أن يجهل ، كالحديث في الإسلام والنَّاشئ في البادية ؛ عُرِّف بوجوبها ، وعلِّم ذلك ، ولم يحكم بكفره ؛ لأنه معذور ، فإن علم ثم جحد ؛ صار مرتداً .

(ب) وإن كان ممن لا يجهل ذلك كالنَّاشئ في ديار المسلمين ومدنهم ، لم يُعْذَر ، ولم يُقْبَل منه ادّعاءُ الجهل ، وحُكم بكفره ، وصار مُرتدّاً ، حكمه حكم سائر المرتدين في الاستتابة والقتل ، ولا أعلم في ذلك خلافاً .

---

(١) الإحسان (٤ : ٣١٧) .
(٢) الإحسان (٤ : ٣٢٤) .
(٣) الإحسان (٤ : ٣٢٢) .

(٢) وإن كان غير جاحد لوجوبها : كأنْ تركَها تهاوناً وكسلاً ، دُعي إلى فعلها ، وقيل له : إن صلّيت ، وإلاّ قتلناك ، فإن صلّى ، حقن دَمَه ، وإلا قتل . ولا يقتل حتى يحبس ثلاثاً ، ويضيَّق عليه فيها ، وَيُدعى في وقت كُلِّ صلاة إلى فعلها ، ويخوَّف بالقتل ، فإن صَلَّى في الأيام الثلاثة ، وإلا قتل بالسَّيف ، وبهذا قال مالك ، وحمَّاد بن زيد ، ووكيع ابن الجراح ، والشَّافعيّ ، وقال الزهريّ : يضرب ويسجن . وبه قال أبو حنيفة .

واختلفت الرواية عن أحمد ، هل يقتل كفراً أو حداً؟

(١) فذهب أحمد في رواية ، والأوزاعي ، وابن المبارك ، وحمَّاد بن زيد ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن الحسن الشَّيباني ، وهو مذهب الحسن البصري ، وأيوب السختياني من المتقدمين ، ذهبوا الى أنه يقتل كفراً .

(٢) والرواية الثَّانية عن أحمد أنَّه يقتل حّداً ، وهو مذهب أكثر الفقهاء ، وهو قول أبي حنيفة[١] ومالك ، والشَّافعي ، وأنكر ابن بَطّة قول من قال : إنَّه يَكْفُر ، وذكر أنَّ مذهب الحنابلة أنّه يقتل حداً)[٢] . اهـ .

(٦) سجود السَّهو

روى حديث أبي هريرة : أنَّ رسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم انصرف من اثنتين ، فقال له ذو اليدين : أقُصِرَت الصَّلاة أم نَسِيتَ يا رسول الله؟ فقال : أصدق ذو اليدين؟ فقال النَّاس : نعم . فقام رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فصلَّى اثنتين أُخرَيَين ، ثم سلَّم ثم كَبَّرَ فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه ، ثم كبَّر ، فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع)[٣] من طرق عديدة وبألفاظ مختلفة ، ثم قال :

(هذا خبرٌ أوهم عالَماً من النَّاس ، أنَّ هذه الصلاة كانت حيث كان الكلام مباحاً في الصَّلاة ، ثم نسخ هذا الخبر بتحريم الكلام في الصَّلاة ، وليس كذلك ؛ لأنَّ نسخ الكلام

(١) في هذا النَّقل عن أبي حنيفة غرابة ، ولعلَّه قول لأبي حنيفة .

(٢) المغني مع الشَّرح (٢ : ٢٩٨ ـ ٣٠٢) .

(٣) الإحسان (٦ : ٢٢٤٩ ، ٢٦٨٥ ـ ٢٦٨٨) . وأخرجه البخاري في السَّهو ، باب إذا سلّم من ركعتين أو ثلاث (٣ : ٩٦) ومواضع أخرى عديدة . ومسلم في المساجد باب السَّهو في الصَّلاة رقم (٣٨٩) وبقية الجماعة .

في الصَّلاة كان بمكة عند رجوع ابن مسعود من أرض الحبشة ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، وراوي هذا الخبر أبو هريرة ، وأبو هريرة أسلم سنة خيبر ، سنة سبع من الهجرة ، فذلك ما وصفتُ ، على أنَّ قصة ذي اليدين ، كانت بعد نسخ الكلام في الصَّلاة بعشر سنين سواء ، فكيف يكون الخبر المتأخر منسوخاً بالخبر المتقدم؟)[١] .

ويَرُدّ على من قال بأنَّ حديث أبي هريرة هذا منسوخ بحديث ابن مسعود الآتي .

وقال : (أخبار ذي اليدين معناها : أنَّ المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تكلَّم في صلاته ، على أنَّ الصَّلاة قد تمَّت له ، وأنه قد أدّى فرضه الذي عليه ، وذو اليدين قد توهَّم أنَّ الصَّلاة قد رُدَّتْ إلى الفريضة الأولى ، فتكلَّم على أنه في غير الصَّلاة ، وأنَّ صلاته قد تَمَّت ، فلما استثبت صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أصحابَه ، كان مِن استثباته على يقين أنه قد أتمَّ صلاته .

وأما جواب الصَّحابة رضوان الله عليهم له أن : نعم ؛ فكان الواجب عليهم أن يجيبوه وإن كانوا في نفس الصَّلاة ، لقول الله ـ جل وعلا ـ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال : ٢٤) .

فأما اليوم فقد انقطع الوحي ، وأُقرّت الفرائض ، فإن تكلم الإمام ، وعنده أنَّ الصَّلاة قد تمت بعد السَّلام ، لم تبطُل صلاته ، وإن سأل المأمومين فأجابوه ؛ بَطَلَت صلاتهم ، وإن سأل بعضُ المأمومين الإمامَ عن ذلك ؛ بطلت صلاته ؛ لاستحكام الفرائض ، وانقطاع الوحي .

والعلَّة في سهو النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في صلاته أنه بعث معلِّماً قولاً وفعلاً ، فكانت الحال التي تطرأ عليه في بعض الأحوال ، والقصد فيه إعلام الأمَّة ما يجب عليهم ، عند حدوث تلك الحالة بهم بعده صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)[٢] .

وروى حديث عمران بن حصين في سهو النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم :

(أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم سلَّم في ثلاث ركعات من العصر ، فقال له

---

(١) الإحسان (٤ : ٨أ) والمطبوع (٦ : ٢٦ ـ ٢٧) .

(٢) الإحسان (٤ : ١٦٠ ب ـ ١٦١ب) والمطبوع (٦ : ٤٠٦ ـ ٤٠٧) .

الخِرْباق : يا رسول الله ، أنسيتَ أم قُصِرَت الصلاة؟ فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : «أصدقَ الخِرْباق؟» فقالوا : نعم . فقام فصلَّى ركعة ، ثمَّ سجد سجدتين ، ثم سلَّم[١] .

وأخرج حديث معاوية بن حُدَيج قال : (صلّيت مع رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم المغرب ، فسها ، فسلّم في الركعتين ، ثم انصرف ، فقال له رجل : يا رسول الله ، إنّك سهوتَ ، فسلّمتَ في الركعتين ، فأمر بلالاً ، فأقام الصَّلاة ، ثم أتمّ تلك الركعة . وسألت الناس عن الرجل الذي قال : يا رسول الله ، إنك سَهَوْتَ ، فقيل لي : تعرفه؟ فقلت : لا ، إلاّ أن أراه . فمرَّ بي رجل ، فقلت : هو هذا . فقالوا : هذا طلحة بن عبيد الله)[٢] .

ثم قال : (هذه الأخبار الثَّلاثة قد توهم غير المتبحر في صناعة العلم أنَّها متضادة ، لأنَّ في خبر أبي هريرة أنَّ ذا اليدين هو الذي أعلم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ذلك ، وفي خبر عمران بن حصين أنَّ الخرباق قال للنَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ذلك . وفي خبر معاوية بن حديج أنَّ طلحة بن عبيد الله قال له ذلك .

وليس بين هذه الأحاديث تضاد ولا تهاتر ، وذلك أنَّ خبر ذي اليدين سلَّم النّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من الركعتين من صلاة الظهر أو العصر ، وخبر عمران بن حصين أنَّه سلَّم من الركعة الثَّالثة من صلاة الظهر أو العصر ، وخبر معاوية بن حديج أنه سلَّم من الركعتين من صلاة المغرب . فدلَّ ما وصفنا على أنَّها ثلاثة أحوال متباينة في ثلاث صلوات ، لا في صلاة واحدة)[٣] .

---

(١) أخرجه ابن حبَّان . الإحسان (٤ : ١٥٥أ) والمطبوع (٦ : ٢٦٥٤) ومسلم في المساجد ، باب السهو في الصلاة رقم (٥٧٤) وأبو داود في الصَّلاة ، باب السَّهو في السَّجدتين رقم (١٠٣٩) والنَّسائي في السَّهو ، باب الاختلاف على أبي هريرة (٢ : ٢٢) .

(٢) أخرجه ابن حبَّان . الإحسان (٤ : ١٥٥أ) والمطبوع (٦ : ٢٦٧٤) ، وأبو داود في الصَّلاة ، باب إذا صلّى خمساً رقم (١٠٢٣) والنَّسائي في الأذان ، باب الإقامة لمن نسي ركعة من الصلاة (٢ : ١٦) وإسناده صحيح . وأخرجه أحمد في المسند (٦ : ٤٠١) .

(٣) الإحسان (٤ : ١٥٥ أ ، ب) والمطبوع (٦ : ٣٩٧) .

وأخرج حديث ابن مسعود مرفوعاً : (إذا شكَّ أحدكم في صلاته فليتحرَّ الصَّواب ثمَّ ليُسَلِّم ، ثم ليسجد سجدتين)[١] . وهذا التحري يكون بعد السَّلام الأول ، كما في بعض روايات حديث ابن مسعود نفسه[٢] .

أما الباني على اليقين ؛ فيسجد قبل السَّلام بناء على حديث أبى سعيد الخدري[٣] : (إذا شكَّ أحدكم في صلاته ، فَلْيُلْقِ الشَّك ، ولْيَبْنِ على اليقين . .) ثم قال :

(قد يتوهَّم من لم يُحكِمْ صناعة الأخبار ، ولا تفقَّه في صحيح الآثار ، أنَّ التحرِّيَ في الصَّلاة ، والبناء على اليقين واحد ، وليس كذلك ، لأنّ التحري هو أن يشكَّ المرء في صلاته ، فلا يدري ما صلَّى ، فإذا كان كذلك ؛ فعليه أن يتحرى الصَّواب ، وليَبْنِ على الأغلب عنده ، ويسجد سجدتي السَّهو بعد السَّلام على خبر ابن مسعود .

والبناء على اليقين : هو أن يشكَّ في الثنتين والثّلاث ، أو الثلاث والأربع ، فإذا كان كذلك ، عليه أن يبني على اليقين ، وهو الأقل ، وليُتِمَّ صلاته ، ثم يسجد سجدتي السَّهو قبل السَّلام ، على خبر عبد الرحمن بن عوف ، وأبي سعيد الخدري)[٤] حتى يكون مستعملاً للخبرين معاً[٥] .

فابن حبَّان ـ كما ترى ـ حريصٌ أن يستعمل السُّنَنَ كلَّها ، فَيُعمِل كُلَّ سنة في الموضع الذي وردت فيه . فلم يأخذ بحديث ابن مسعود وحده في السُّجود بعد السَّلام ـ كما هو ـ مذهب الحنفيَّة ، ولم يأخذ بحديث عبد الله بن مالك بن بُحَيْنَة : (أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قام في الركعتين ، فقام الناس معه ، فلمَّا جلسَ في أربع انتظر الناس

(١) الإحسان (٤ : ١٤٦ب) والمطبوع (٦ : ٢٦٥٩) وأخرجه البخاري في السَّهو ، باب إذا صلَّى خمساً (٣ : ٩٣) فما بعد . ومسلم في المساجد ، باب السَّهو في الصَّلاة رقم (٥٧٢) وبقية الجماعة .

(٢) الإحسان (٤ : ١٤٧ ب ، ١٤٨ أ) والمطبوع (٦ : ٢٦٨١ ، ٢٦٨٢) .

(٣) الإحسان (٤ : ١٤٩أ ، ب) والمطبوع (٦ : ٢٦٦٤) . وأخرجه مسلم في المساجد ، باب السَّهو في الصَّلاة رقم (٥٧١) . وأبو داود في الصَّلاة ، باب إذا صلى خمساً رقم (١٠٢٤ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٩) . والترمذي في الصَّلاة ، باب ماجاء في الرجل يصلي فيشك في الزيادة والنقص رقم (٣٩٦) وقال : حديث حسن .

(٤) الإحسان (٤ : ١٥٠ أ) والمطبوع (٦ : ٣٨٧ ـ ٣٨٨) .

(٥) ما سبق (٤ : ١٥٢ ب) والمطبوع (٦ : ٣٩٢) وذكر نحواً من هذا هناك .

تسليمه ؛ كبَّر ، ثمَّ سجد ، ثم كبَّر ، ثمَّ سجد قبل أن يسلِّم[١] كما هو مذهب الشَّافعيَّة .

وقال رحمه الله بعد تخريجه حديث أبي هريرة الذي جاء فيه : (حتَّى يظلَّ الرجلُ إنْ يدري كم صلَّى ، فإذا لم يَدْرِ كم صلَّى ؛ فليسجُدْ سجدتين وهو جالس)[٢] :

(أمره صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لمن شكَّ في صلاته فلم يدرِ كم صلَّى ، فليسجد سجدتين وهو جالس ؛ أمر مجمل تفسيرُه أفعالُه التي ذكرناها ، لا يجوز لأحد أن يأخذ الأخبار التي فيها ذكر سجدتي السَّهو قبل السَّلام ، فيستعمله في كل الأحوال ، ويترك سائر الأخبار التي فيها ذكره بعد السَّلام ، وكذلك لا يجوز لأحد أن يأخذ الأخبار التي فيها ذكر سجدتي السَّهو بعد السَّلام ، فيستعمله في كل الأحوال ، ويترك الأخبار الأُخَر التي فيها ذكره قبل السَّلام .

ونحن نقول : إنَّ هذه أخبار أربع ، يجب أن تستعمل ، ولا يترك شيء منها ، فيفعل في كل حالة مثل ما وردت السُّنة فيها سواء :

(١) فإن سلَّم من الاثنتين أو الثَّلاث من صلاته ساهياً ، أتمَّ صلاته وسجد سجدتي السَّهو بعد السَّلام ، على خبر أبي هريرة وعمران بن حصين اللذين ذكرناهما .

(٢) وإن قام من اثنتين ولم يجلس أتمَّ صلاته ، وسجد سجدتي السَّهو قبل السَّلام على خبر ابن بحينة .

(٣) وإن شكَّ في الثَّلاث أو الأربع يبني على اليقين على ما وصفنا ، وسجد سجدتي السَّهو قبل السَّلام ، على خبر أبي سعيد الخدري وعبد الرحمن بن عوف[٣] .

(٤) وإن شك ولم يَدْرِ كَم صلَّى أصلاً ، تحرَّى على الأغلب عنده ، وأتم صلاته وسجد سجدتي السَّهو بعد السَّلام ، على خبر ابن مسعود الذي ذكرناه ، حتى يكون مستعمِلاً للأخبار التي وصفناها كلها .

---

(١) الإحسان (٦ : ٢٦٧٦ ـ ٢٦٨٠) وأخرجه البخاري في السَّهو ، باب ما جاء في السَّهو إذا قام من ركعتي الفريضة (٣ : ٩٢) . ومسلم في المساجد ، باب السَّهو في الصلاة رقم (٥٧٠) وبقية الجماعة .

(٢) طرف من حديث أخرجه ابن حبَّان (١ : ١٦) .

(٣) حديث عبد الرحمن بن عوف أشار إليه ابن حبّان هنا ، ولم أقف عليه في صحيحه ، وأخرجه الترمذي في الصَّلاة باب ما جاء في الرجل يصلِّي فيشك رقم (٣٩٨) وهو حسن .

فإن وردت عليه حالة غير هذه الأربع في صلاته ؛ ردّها إلى ما يُشبهها من الأحوال الأربع التي ذكرناها)[١] .

وموجز مذاهب العلماء في هذه المسألة ما قاله ابن هبيرة في الإفصاح[٢] : (ثم اختلفوا في موضعه .

(١) فقال أبو حنيفة : بعد السلام على الإطلاق .

(٢) وقال مالك : إن كان عن نقصان ، فقبل السَّلام ، وإن كان عن زيادة ؛ فبعد السَّلام ، وإن اجتمع سهوان من زيادة ونقصان ؛ فموضعه قبل السَّلام أيضاً .

(٣) وقال الشَّافعي : كُلّه قبل السَّلام في المشهور عنه .

(٤) وقال أحمد في الرواية المشهورة عنه : كُلّه قبل السَّلام إلا في موضعين :

(أ) أحدهما : أن يسلِّم من نقصان في صلاته ساهياً ، فإنَّه يقضي ما بقي عليه ويسلِّم ، ويسجد للسَّهو بعد السَّلام .

(ب) والثَّاني : إذا شك الإمام في صلاته وقلنا : يتحرَّى ، فإنَّه يبني على غالب فهمه ويسجد أيضاً بعد السَّلام . وعنه رواية أخرى كمذهب مالك) . ا هـ .

هذه بعض المسائل الفقهية ، اخترتها مّما خالف فيه ابن حبّان إمامه وإمامنا الشافعيَّ رحمهما الله تعالى .

وخليقٌ بأصول الاستدلال ، والفقه عند ابن حبّان أن يكتب في كلٍّ منهما رسالة علمية مستقلّة !

وقد أشرت في (المدخل) إلى أنّ الأستاذ الدكتور عبد المجيد محمود عبد المجيد كتب كتاباً بعنوان : (معالم فقه ابن حبّان) فهو معالم ، يحسن الإفادة منه[٣] .

---

(١) الإحسان (١ : ١٩٣ ـ ١٩٤) .

(٢) الإفصاح (١ : ١٤٨ ـ ١٤٩) .

(٣) صدر عن مكتبة البيان في الطائف (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م) يعني بعد عشر سنوات من كتابتي هذا الفصل عن فقه ابن حبّان .

الفصل السَّابع

أخلاقُ الإمام ابن حبَّان ومكانتُه العلمية

تمهيد : ليس بين أيدينا من النُّصوص الخارجية[1] ما يُسعف في بيان شخصية ابن حبَّان وأخلاقه ، وإن كنا لا نعدم شذرات متناثرة تدل على معانٍ كبيرة في شخصية هذا الرجل .

قال الحاكم النَّيسابوري : (كان ابن حبَّان من أوعيةِ العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال) . وقال : (أبو حاتم كبير في العلوم ، وكان يُحسد لفضله وتقدُّمه) . وقال الخطيب البغدادي : (كان ثقةً نبيلاً فَهِماً فاضلاً) .

وقال الإدريسي : (كان على قضاء سمرقند زماناً ، وكان من فقهاء الدِّين وحفَّاظ الآثار ، عالماً بالطب والنجوم وفنون العلم . . . وفَقَّه النَّاس بسمرقند ، وبنى له الأمير أبو المظفر بن أحمد بن نصر بن أحمد بن سامان صُفَّةً لأهل العلم ، خصوصاً لأهل الحديث .

وقال الحاكم أيضاً : أقام بنيسابور ، وبنى «الخانقاه» وصارت الرحلة إليه ، وقُرِئ عليه جملة من مصنفاته .

وَذُكر أنَّه بنى مدرسة لأصحابه ، ومسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة منهم ، ولهم جرايات يستنفقونها ، وأوقف داره ؛ وفيها خزانة كتبه ، وجعلها في يدي وصي سلَّمها إليه ، ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها ؛ من غير أن يخرجها منها)[2] .

وعلى قلَّة المادة الموفورة فيما يتعلق بأخلاقه ؛ نجد أنَّ الجميع يصفونه بالأمانة والحفظ والفقه ، وهذا يتعلق بعلمه ، إلا أنَّ ثمة صفات ذكروها هي التي ستكون محور بحثنا حول أخلاق ابن حبَّان .

فقد وصفه الخطيب بأنه : (١) ثقة . (٢) نبيل . (٣) فاضل . (٤) فَهِم .

---

(١) قصدت بالنصوص الخارجية : أقوال الآخرين فيه .

(٢) هذه النصوص جميعها من تاريخ دمشق (١٠ : ٥٠٢) وأعلام النُّبلاء (١٠ : ٣ : ٣٣٣) فما بعد ، وتذكرة الحفاظ (ص ٩٢١) .

ووصفه الكثيرون بأنَّه :

(٥) قاضٍ تولّى القضاء زماناً طويلاً في كثير من البلاد الإسلامية .

ووصفه الحاكم النيسابوري تلميذه : بأنه فاضل يُحسد لفضله .

(٦) وتقدمه .

(٧) عاقل من عقلاء الرجال .

وقال الإدريسي :

(٨) فقَّه الناس بسمرقند .

(٩) وبنى له أميرها صُفَّةً لطلابه .

(١٠) وبنى «خانقاه» في نيسابور ، وعلَّم الناس بها ، كما بنى مدرسة في بُسْت وبجانبها سكن للغرباء ، ولهم رواتب ينفقها عليهم .

(١١) وأوقف المدرسة والمسكن وداره وخزانة كتبه ، وسلَّمها لوصيّ .

(١٢) وهو واعظ .

فابن حبَّان إمامٌ حافظٌ رأسٌ في معرفة الحديث ، كثير التصرف فيه ، إمام في الفقه واللغة ، ثقة ، نبيل ، فاضل ، فَهِم ، متقدِّم ، كريم سخي ، ورع تقي ، مقدَّر لدى أمير سمرقند ، عاقل من عقلاء الرجال ، محسود ، حريص على تعليم الناس وإفادتهم .

هذه جملة الصِّفات التي وُصف بها الإمام ابن حبَّان رحمه الله تعالى من الآخرين وهي على وجازة ألفاظها ؛ ذات مدلولات كبيرة نجد آثارها في مصنفاته .

وإنَّني لن أتحدث عن إمامته في الحديث والفقه والكلام واللغة ، فلهذا مواضع أخرى تقدم بعضها ، ويأتي بعضها الآخر في الباب الثَّالث إن شاء الله تعالى . وسأقْصر الحديث في هذا الفصل على أخلاقه الشخصية وسلوكه ليس غير .

المبحث الأول

أخلاقُ ابن حبّان

المطلب الأول: ابن حبَّان العاقل

مهما حاول الإنسان أن يستبعد شخصيته من آثاره العلمية ، فإنَّه يعجز عن هذا ، ولا خلاف في أنَّ الكتاب صورة عن نفسية كاتبه إلى حدٍّ كبير .

وابن حبَّان الذي وُصف بأنه من عقلاء الرجال ، قد صنَّف كتاباً[(١)] كاملاً عن العقل وعدَّ العقل أول خصال الخير للمرء[(٢)] في الدنيا ، وهو من أفضل ما وهب الله لعباده .

وللعقل خمسون شعبة[(٣)] بنى عليها ابن حبَّان كتابه هذا .

والعقل عند ابن حبَّان : اسمٌ يقع على المعرفة بسلوك الصَّواب ، والعلم باجتناب الخطأ . . . وإنَّ محبةَ المرء مكارم الأخلاق ، وكراهته سفاسفها ، هي العقل نفسه[(٤)] .

أما الذين يدَّعون التمكن من العقل ، فيستعملون ضد ما يوجبه العقل من شهوات صدورهم ، ويتركون نفس ما يوجبه العقل بهجسات قلوبهم ، فهؤلاء ليسوا بعقلاء .

أولئك جعلوا أساس العقل الذي يعقدون عليه عند المعضلات : النِّفاق والمداهنة وفروعه عند ورود النائبات : حسن اللباس والفصاحة ، وزعموا أنَّ مَن أحكم هذه الأشياء الأربعة ـ النِّفاق ، والمداهنة ، وحسن اللباس ، والفصاحة ـ فهو العاقل[(٥)] . .

ويرى ابن حبَّان أنَّ «التقلُّب في الأمصار ، والاعتبار بخلق الله مما يزيد المرء عقلاً ، وإن عُدِمَ المال تقلُّبه»[(٦)] . ولذلك رأينا ابن حبَّان يتقلَّب في الأمصار ، ويتفكر في مخلوقات

---

(١) هو كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء .

(٢) روضة العقلاء (ص٢٥) .

(٣) ما سبق (ص٢٦) .

(٤) ما سبق (ص١٦) .

(٥) ما سبق (ص١٤ ـ ١٥) .

(٦) ما سبق (ص١٨) .

الله تعالى ويرى أنَّ (من حَسُنَ عقله وقَبُحَ وجهه ، فقد أفقد فضائلُ نفسه قبائحَ وجهه . ومن حَسُن وجهه ، وقلَّ عقله ، فقد أذهب محاسنَ وجهه ؛ نقائصُ نفسه ، فلا يجب للعاقل أن يغتمَّ إذا كان مُعْدِما ، لأنَّ العاقل قد يُرجى له الغنى ، ولا يوثق للجاهل المكثر ببقاء ماله ، ومال العاقل عقله ، وما قدَّم من صالح عمله)[١] .

أليس هذا كلام عقلاء الرجال وحكمائهم؟ وانظر إليه وهو يقول :

(آفة العقل الصَّلَف ، والبلاء المردي ، والرخاء المفرط ، لأنَّ البلايا إذا تواترت عليه أهلكت عقله ، والرخاء إذا تواتر عليه أبطره ، والعدو العاقل خير للمرء من الصَّديق الجاهل)[٢] .

(ولا ينفع الاجتهاد بغير توفيق ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا السُّرور بغير أمن كذلك لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عمل .

وعقول كلِّ قوم على قدر زمانهم ، فالعاقل يختار من العمر أحسنه ـ وإن قل ـ فإنَّه خير من الحياة النكدة وإن طالت ، والعقل الموعى ـ غير المنتفع به ـ كالأرض الطيبة الخراب . . .

والعاقل لا يستحقر أحداً ، لأنَّ من استحقر السُّلطان ، أفسد دنياه ، ومن استحقر الأتقياء ؛ أهلك دينه ، ومن استحقر الإخوان ؛ أفنى مروءته ، ومن استحقر العامّةَ ؛ أذهب صيانته)[٣] .

والعاقل (لا يستعين إلاّ بمن يحب أن يظفر بحاجته ، ولا يحدِّث إلاَّ من يرى حديثه مغنماً ؛ إلاّ أن يغلبه الاضطرار عليه ، ولا يدَّعي ما يحسن من العلم ، لأنَّ فضائل الرجال ليست ما ادّعوها ، ولكن ما نسبها النَّاس إليهم ، ولا يبالي بما فاته من حطام الدنيا ، مع ما رزق من الحظ في العقل)[٤] .

---

(١) روضة العقلاء (ص٢٠) .

(٢) ما سبق (ص٢١) .

(٣) ما سبق (ص٢٢) .

(٤) ما سبق (ص٢٣) .

(وعلى العاقل أن يجتنب ثلاثة أشياء ، فإنَّها أسرع في إفساد العقل من النَّار في يبس العوسج :

(١) الاستغراق في الضَّحك .

(٢) كثرة التمني .

(٣) وسوء التثبت)[١] .

(ولو كان للعقل أبوان ، لكان أحدهما الصَّبر ، والآخر التثبت)[٢] .

هذه كلمات من ابن حبَّان جعلها ـ وغيرها ـ مقدمةً لكتابه روضة العقلاء ؛ ذكرتها لتكون دليلاً عملياً على قول الحاكم بأنَّ ابن حبَّان من عقلاء الرجال .

وكيف لا يكون من عقلائهم ، وهو الذي كتب لهم كتاباً لو تأدّبوا بما فيه ونفّذوه لنالوا سعادة الدنيا والآخرة .

بل كيف لا يكون من كبار العقلاء ، وقد كتب عشرة مصنفات في الأخلاق والآداب والسُّلوك[٣]؟

المطلب الثَّاني: وفاة ابن حبَّان

لقد تلقَّن ابن حبَّان العلمَ على أكثر من ألفي شيخ ، إلاَّ أنه اصطفى منهم عدداً جعل اعتماده في تحصيل العلم والمعرفة عليهم ـ بتوفيق الله وعنايته ـ . فانظره وهو بين يدي شيخه ابن خزيمة ؛ يسأله ويلحّ عليه ، فيتأذى ابن خزيمة من كثرة أسئلته ، فيقول له : تنحّ عني يا بارد ، لا تؤذني ، فيسارع ابن حبَّان ويكتب ما قال شيخه ، إمعاناً منه

(١) روضة العقلاء (ص٢٣) .

(٢) ما سبق (ص٢٦) .

(٣) سيأتي الحديث عليها في الباب الثَّالث إن شاء الله .

وقد كتب الزميل الفاضل عبد الكريم محمد زهد رسالة علميّة بعنوان : (دور العقل في التربية الإسلامية عند ابن حبّان ـ من خلال كتابه روضة العقلاء) وهي رسالة جيّدة لم تطبع حتى الآن ، وللأسف .

في الأدب وإشعاراً منه بالتقدير والاحترام .

ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يسجِّل له في كتابه وصفاً لم ينَلْ مثله ابن خزيمة من غيره ، كما لم ينلْه أحد من ابن حبَّان سوى ابن خزيمة . قال[١] :

(ما رأيت على أديم الأرض من كان يحسن صناعة السُّنن ، ويحفظ الصِّحاح بألفاظها ، ويقوم بزيادة كل لفظة تزاد في الخبر ، ثقة ، حتى كأن السُّنن كلَّها نصب عينيه إلاّ محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ رحمة الله عليه ـ فقط) . وقال في شيخه الحسن بن سفيان الشيَّباني :

(كان ممن رحل وصنَّف وحدَّث على تيقظ ، مع صحة الدِّيانة ، والصَّلابة في السُّنة)[٢] .

فابن حبَّان وفيٌّ ودود ، وهو القائل[٣] :

(على العاقل إذا رزقه الله ودَّ امرئ مسلم صحيح الوداد ، محافظ عليه ، أن يتمسَّك به ، ثم يوطِّن نفسه على صلته إن صرمه ، وعلى الإقبال عليه إن صدَّ عنه ، وعلى البذل له إن حرمه ، وعلى الدُّنو منه إذا باعده ، حتى كأنه ركن من أركانه ، وإنَّ من أعظم عيب المرء تلونه في الوداد .

العاقل لا يقصر في تعاهد الوداد ، ولا يكون ذا لونين وذا قلبين ، بل يوافق سرّه علانيته ، وقوله فعله ، ولا خير في متآخيَيْن ينمو بينهما الخلل ، ويزيد في حاليهما الدغل) ا . هـ .

(وإنَّ من أعظم الأمارات على معرفة صحَّة الوداد وسقمه ، ملاحظة العين إذا لحظت ، فإنَّها لا تكاد تبدي إلا ما يضمر القلب من الودِّ ، ولا تكاد تخفي ما يُجِنّه الضميرُ من الصَّدِّ ، فالعاقل يعتبر الوُدَّ بقلبه وعين أخيه ، ويجعل له بينهما مسلكاً ، لا

(١) المجروحين (١ : ٩٣) .
(٢) أعلام النبلاء (١٤ : ١٥٧) .
(٣) الروضة (ص١٠٣) .

يَرُدّه عن معرفة صحته شيء تخليه . . .)[١] . فإذا تأكّد الإنسان من حب أخيه ووداده فعليه أن يتعاهده بالزيارة ، وإن قلّت ، لأن تعاهد الزيارة من الوداد والوفاء .

ولكن (مَن صحّح الحال بينه وبين الإخوان ؛ لم يضرّه قلّة الاجتماع ؛ لاستحكام الحال بينهما ، والمودة إذا أضرَّ بها قلّة الالتقاء ؛ تكون مدخولة . .)[٢] .

المطلب الثّالث: سخاءُ ابن حبّان وكرمه

قال رحمه الله[٣] :

(ما رأيت أحداً من الشرق إلى الغرب ارتدى برداء الجود ، واتزر بإزار ترك الأذى ، إلاّ رأس أشكاله وأضداده ، وخضع له الخاص والعام ، فمن أراد الرفعة العالية في العقبى والمرتبة الجليلة في الدنيا ، فليلزم الجودَ بما ملك ، وترك الأذى إلى الخاصّ والعامّ ، ومن أراد أن يُهتك عرضه ، ويُثلم دينه ، ويملّه إخوانه ، ويستثقله جيرانه ، فليلزم البخل ، ولقد ذم البخلَ أهلُ العقلِ في الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا) .

(فالواجب على العاقل إذا لم يُعرف بالسَّماحة ، أن لا يُعرف بالبخل ، وإذا لم يُعرف بالشَّجاعة أن لا يُعرف بالجبن ، وإذا لم يُعرف بالشَّهامة أنْ لا يُعرف بالمهانة ، وإذا لم يُعرف بالأمانة ، أن لا يُعرف بالخيانة ؛ إذ البخل بئس الشِّعار في الدنيا والآخرة)[٤] .

ومن دلائل الكرم قَبول الهدية والإهداء (فالواجب على العاقل إذا أُهديت إليه هدية أن يقبلها ولا يردَّها ، ثمّ يثيب عليها إذا قدر ويشكر عنها .

وإنّي لأستحبّ للنّاس بعث الهدايا بالإخوان بينهم ، إذ الهدية تُورِثُ المحبة ، وتُذهب الضغينة)[٥] .

فمن مكّنه الله من حطام هذه الدنيا الفانية ، وعلم زوالها عنه ، وانقلابها إلى غيره

---

(١) الروضة (ص١٠٦) .

(٢) ما سبق (ص١١٧) .

(٣) الروضة (ص٢٤١) .

(٤) ما سبق (ص٢٤٢) .

(٥) الموضع السابق .

وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدَّم من الأعمال الصَّالحة ؛ أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق في ماله ، والقيام بالواجب في أسبابه ، مبتغياً بذلك الثواب في العقبى ، والذكر الجميل في الدنيا ، إذ السَّخاء محبة ومحمدة ، كما أنَّ البخل مذمَّة ومبغضة ، ولا خير في المال إلاَّ مع الجود ، كما لا خير في المنطق إلا مع المخبر)[١] .

و(على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه ، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلاَّ باليسار من المال ، فمن رزق ذلك ، وضنَّ به في إقامة مروءته ، فهو الذي خسر الدنيا والآخرة ، ولا آَمنُ أن تفجأه المنيةُ ، فتسلبَه عمَّا ملك كريهاً ، وتودعه قبراً وحيداً ، ثم يرث المال بعده من يأكله ولا يحمده ، وينفقه ولا يشكره . . .)[٢] .

والسَّخاء كلمةٌ كبيرة تتفرع عنها فروع كثيرة ، فالإهداء إلى الإخوان من الكرم ، وصلة الرحم من السَّخاء ، وإعطاء السَّائل ، وقضاء حوائج النَّاس ، وإطعام الطعام ، والمجازاة على المعروف . . .

(فحقيقٌ على مَن عَلِمَ ثوابَ الله تعالى في قضاء حوائج النَّاس وتنفيس كُرَبهم ؛ أن لا يمنع ما ملك من جاه أو مال ، إن وجدَ السَّبيل إليه قبل حلول المنية . . . والعاقلُ يعلم أنَّ مَن صَحِبَ النِّعمة في دار الزوال ، لم يَخْلُ من فقدها ، وأنَّ من تمام الصنائع وأهناها إذا كان ابتداء من غير سؤال . .)[٣] .

(ومن تحرَّى قضاء حاجة أخيه ؛ ولم يُقضَ قضاؤها على يديه ، فكأنَّه لم يقصِّر في قضائها ، وأيسر ما يكون في قضاء الحوائج استحقاقُ الثَّناء .

والإخوان يُعرفون عند الحوائج ، كما أنَّ الأهل تختبر عند الفقر ، لأنَّ كلَّ النَّاس في الرخاء أصدقاء ، وشرُّ الإخوان : الخاذل لإخوانه عند الشِّدة والحاجة ، كما أنَّ شرَّ بلدة ليس فيها خصب ولا أمن)[٤] .

---

(١) الروضة (ص٢٣٥) .

(٢) الروضة (ص٢٣٣) .

(٣) ما سبق (ص٢٤٨) .

(٤) ما سبق (ص٢٤٧) .

وقال[١] : (إنّي لأستحبّ للمرء طلب المعالي من الأخلاق ، مع ترك ردِّ السؤال ، لأنَّ عدم المال خير من عدم محاسن الأخلاق ، والنَّدامة موكلة بترك معالجة الفرصة .

وإن الحرّ ـ حقّ الحرّ ـ من أعتقَتْه الأخلاق الكريمة ، كما أنَّ أسوأ العبيد ، من استعبدته الأخلاق الدنيَّة . . وليس يستحقّ المرءُ اسمَ الكرم بالكفّ عن الأذى ، إلا أن يقرنه بالإحسان . . . فمن كثر في الخيرِ رغبته ، وكان اصطناع المعروف همَّته ، قصده الراجون ، وتأمله المتأملون .

ومن كان عيشه وحده ، ولم يعش بعيشه غيرُه ، فهو ـ وإن طال عمره ـ قليل العمر والبائس من طال عمره في غير الخير ، ومن لم يتأسَّ بغيره في الخير ؛ كان عاجزاً ، كما أنَّ من استحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره ؛ كان كالغاشّ لمن تجب عليه النَّصيحة ومن لم يكن له هِمَّة ، إلا بطنه وفرجه ؛ عُدَّ من البهائم . . .) .

ألا ترى حرارة هذه الأقوال ، وشدَّة وقعها في النفس؟ أليست تعبيراً صحيحاً عن نفس ابن حبَّان؟

أمَّا عن إكرامِ الضيفِ ، وإطعام الطعام فيقول ابن حبَّان :ـ

(كلُّ من ساد في الجاهلية والإسلام ، حتى عرف بالسؤدد ، وانقاد إليه قومه ، ورحل إليه القريب والقاصي ، لم يكن كمال سؤدده إلاَّ بإطعام الطعام ، وإكرام الضيف . والعرب لم تكن تعد الجود إلا قِرَى الضيف ، وإطعام الطعام ، ولا تعدّ السَّخيّ من لم يكن فيه ذلك ، حتى إنَّ أحدهم ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين)[٢] .

ويروي ابنُ حبَّان عن عمرو بن هانئ قال : (كان رافع بن عميرة بن عمرو العنبسي ـ فخذ من طيّئ ـ يغدّي أهل ثلاثة مساجد ، ويعشّيهم يوماً بثرائد ، ويوماً بِرَطِبَةٍ ـ يعني الحَيْس[٣] ـ وما له قميص إلا قميص ، هو لجُمْعَته ، وهو للبيت . . . فيجب على العاقل ابتغاء الأضياف وبذل الكِسَر ، لأنَّ نعمة الله إذا لم تُصُنْ بالقيام في حقوقها ، ترجع من

(١) ما سبق (ص٢٥٢ ـ ٢٥٣) .

(٢) الروضة (ص٢٥٩) .

(٣) في المعجم الوسيط : «الحَيْس : تمر وأقِط وسمن تُخلط وتُعجن وتسوَّى كالثريد» مادة (حاس) .

حيث بدأت ، ثم لا ينفع ـ من زالت عنه ـ التلهّفُ عليها ، ولا الإفكار في الظفر بها ، وإذا أدى حق الله فيها استجلب النَّماء والزيادة ، واستذخر الأجر في القيامة .

وعنصر قرى الضيف هو ترك استحقار القليل ، وتقديم ما حضر للأضياف ، لأنَّ مَن حقَّر ؛ منع إكرام الضيف بما قَدِر عليه .

وإنَّ أبخل البُخلِ من بخلَ بإطعام الطعام ، كما أنَّ من أجود الجود بذله ، ومن ضنَّ بما لا بدَّ للجثة منه ، ولا تربو النفس إلا عليه ، كان بغيره أبخل وعليه أشح .

ومن إكرام الضيف طيب الكلام ، وطلاقة الوجه ، والخدمة بالنفس ، فإنَّه لا يذل من خدم أضيافه ، كما لا يعز من استخدمهم ، أو طلب لِقراه أجراً(١) .

هذا ما يقوله ابن حبَّان عن السخاء والكرم ، ولعلَّك تلاحظ حرارة أقواله وقوتها ، لكن ما الدليل على أنَّ قولَه هذا ، ليس كقول الوعاظ الذين يحثُّون الناس على البذل والإنفاق وهم أبعد الناس عن ذلك؟

أقول : إن ابن حبَّان رحلَ من مدينة بُست سنة ثلاث مئة للهجرة ، ورجع إلى موطنه (بست) بعد أربعين سنة ، وقد تولَّى منصب القضاء في سمرقند ونسا وغيرهما دهراً من الزمان ، كما كان مقرباً لدى أمير سمرقند وعزيزاً لديه ، ولا يبعد أن يكون لابن حبَّان إرث في بست ورثه عن والده حبَّان بن أحمد التميمي أرضاً وداراً ـ كما قدَّمت ـ ولا ريب أنَّ ابن حبَّان بنى مدرسة في نيسابور تعرف باسمه ، وهذا يعني أنه بناها من ماله الخاص ، إذ هذا ما يوحيه ظاهر اللفظ (بنى) وكونها تعرف باسمه ، ولا صارف عن هذا الظاهر . كما أنه بنى مدرسة ومسكناً للغرباء في (بست) وأوقف لها جرايات ـ رواتب ـ تنفق على الطَّلبة المقيمين بها ، ثم أوقف داره ؛ وفيها خزانة كتبه ، وسلَّمها لِوَصيّ .

وهذا يعني أنه خرج من الدنيا بعد أن قدَّم كلَّ ماله في سبيل الله تعالى ، وهل الكرم سوى الإنفاق فيما يرضي الله؟

ولا ريب أنَّ هؤلاء الطَّلبة يحتاجون إلى جانب العلم والمأوى ، إلى المطعم والملبس وهذا كلُّه كان يقوم به ابن حبَّان ويقدِّمه لهم . فهل بعد هذا من كرم؟

---

(١) الروضة (ص٢٦١) وانظر (ص٢٤٤) .

المطلب الرابع: زهد ابن حبَّان وتقواه

قال ابن حبَّان : (على العاقل ألاَّ يغترَّ بالدنيا وزهرتها ، وحسنها وبهجتها ؛ فيشتغل بها عن الآخرة الباقيــة ، لأنَّ عاقبتها ـ لا محالة ـ تصير إلى الفناء ، يخرب عمرانها ويموت سكانها ، وتذهب بهجتها ، وتبيد خضرتها ، فلا يبقى رئيس مستكبر مؤمَّر ، ولا فقير مسكين محتقر ، إلاّ ويجري عليهم كأس المنايا ، ثم يصيرون إلى التراب . . فالعاقل لا يركن إلى دارٍ هذا نعتها : ولا يطمئنُّ إلى دنيا هذه صفتها ، وقد ادِّخر له ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيضنّ بترك هذا القليل ، ويرضى بفوت ذلك الكثير . . .)[1] .

(والسبب المؤدي للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها ، ترك الركون إليها ، مع تقديم ما قدر منها للعيش الدائم ، والنعيم المقيم هو ترك طول الأمل ، ومراقبة ورود الموت عليه في كل لحظة وطَرفة ، لأنَّ طول الآمال : قطعت أعناق الرجال . . .)[2] .

(العاقل لا ينسى ذكر شيء هو مترقب له ، ومنتظر وقوعه ، من قدم إلى قدم ، ومن لحظة إلى شزرة ، فكم من مُكْرَم في أهله ، مُعَظَّم في قومه مبجّل فيهم ، لا يخاف الضيق في المعيشة ، ولا الضَّنك في المصيبة ؛ إذ ورد علية مذل الملوك وقاهر الجبابرة وقاصم الطغاة ، فألقاه صريعاً بين الأحبة وجيرانه مفارقاً لأهل بيته وإخوانه ، ولا يستطيعون عنه دفعاً)[3] .

فإذا كان هذا حال الدنيا ، وتلك نهايتها ، فما عسى المرء أن يفعل فيها ، ويقدّم لأخراه؟

إنَّ أول ما ينبغي للمرء فعله هو (الاعتزال من الناس ، ولو لم يكن فيه خصلة تحمد إلا السَّلامة من مقارفة الإثم ؛ لكان حقيقاً بالمرء أن لا يكدّر وجود السَّلامة بلزوم السبب المؤدي إلى المناقصة) .

و(السبب الذي يوجب الاعتزال عن العالم ، فهو ما عرفتهم به من وجود دفن الخير ونشر الشر ، يدفنون الحسنة ، ويظهرون السيئة ، فإن كان المرء عالماً بدَّعوه ، وإن كان

---

(١) الروضة (ص٢٧٨) .

(٢) ما سبق (ص٢٨٦) .

(٣) ما سبق (ص٢٨٥) .

جاهلاً عيَّروه ، وإن كان فوقهم حسدوه ، وإن كان دونهم حقَّروه ، وإن نطق ؛ قالوا : مهذار ، وإن سكت ؛ قالوا : عييّ ، وإن قَدَّر ؛ قالوا : مقتِّر ، وإن سَمَحَ ؛ قالوا : مبذِّر ، فالنَّادم في العواقب ، المحطوط عن المراتب ؛ من اغتَّر بقوم هذا نعتهم ، وزمرة ناس هذه صفتهم)[١] .

وثاني الصِّفات التي تميز الزاهد من غيره عدم الحِرْص على ما في هذه الدنيا إذ (أغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وأفقر الفقراء ، من كان الحرص عليه أميراً لأنَّ الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه ، والحرص مَحْرَمة . كما أنَّ الجبن مقتلة .

ولو لم يكن في الحرص خصلة تذمّ ، إلا طول المناقشة بالحساب يوم القيامة على ما جمع ؛ لكان الواجب على العاقل تَرْكُ الإفراطِ في الحرص . .)[٢] .

(الحرص علامة الفقر ، كما أنَّ البخل جلباب المسكنة . والبخلُ لقاح الحرص ، كما أنَّ الحَميَّة لقاحُ الجهل . والمنع أخو الحرص ، كما أنَّ الأنَفة توأم السَّفه)[٣] .

ويرى ابن حبَّان أنَّ الحرصَ المذموم ، غير السَّعي في اكتساب الرزق ، والعمل لعمارة الدنيا ، فقد (ركَّب الله ـ جلّ وعزّ ـ في البشر الحرص والرغبة في الدنيا الفانية لئلا تخرب ، إذ هي دار الأبرار ، ومكسب الأتقياء ، وموضع زاد المؤمنين ، واستجلاب المِيرَة[٤] للصالحين ، ولو تعرَّى النَّاس عن الحرص فيها ؛ بطلتْ وخربتْ ، فلم يجد المرء ما يستعين به على أداء فرائض الله ، فضلاً عن اكتساب ما يجدي عليه النفع في الآخرة نفلاً . والإفراط في الحرص مذموم)[٥] لأنَّ الإفراط فيه نابعٌ من ضعف الثّقة بالله تعالى .

(وقد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات بعللها في كتاب «الثّقة بالله» بما أرجو أن يكون فيه غنية ، لمن أراد الوقوف على معرفتها)[٦] .

كما يجب على الزاهد أن يبتعد عن الحسد ، لأنَّ (أهون خصال الحسد هو ترك

---

(١) الروضة (ص٨٣) .

(٢) ما سبق (ص١٣٠) .

(٣) ما سبق (ص١٣١) .

(٤) في المعجم الوسيط : «الميرة : الطعام يُجمع للسفر ونحوه» .

(٥) الروضة (ص١٢٩) .

(٦) ما سبق (ص١٣١) .

الرضا بالقضاء ، وإرادة ضد ما حكم الله جلَّ وعلا لعباده ، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النِّعم عن المسلم . والحاسد لا تهدأ روحه ، ولا يستريح بدنه ، إلا عند رؤية زوال النِّعمة عن أخيه ، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحسَّاد في الأحشاء)[١] .

(الحسد من أخلاق اللئام ، وتركه من أفعال الكرام ، ولكلٍّ حريق مُطفئ ، ونار الحسد لا تطفأ . ومن الحسد يتولّد الحقدُ ، والحقدُ أصلُ الشَّر ، ومن أضمر الشَّر في قلبه أنبت له نباتاً مراً مذاقه ، نماؤه الغيظ ، وثمرته النَّدم) .

(والحسدُ اسم يقع على إرادة زوالِ النِّعم عن غيره وحلولها فيه ، فأما من رأى الخير في أخيه ، وتمنَّى التوفيق لمثله ، أو الظفر بحاله ، وهو غير مريد لزوال ما فيه أخوه ، فليس هذا بالحسد الذي ذُمَّ ونُهي عنه .

ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمن عَظُمت نعمة الله عليه ، فكلَّما أتحفه الله بترداد النِّعم ؛ ازداد الحاسدون له بالمكروه والنِّقَم)[٢] .

(وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران ، أو مِن تَقارب الشكل . . . ولن يبلغ الإنسان مرتبة من مراتب الدنيا ، إلا وجد فيها من يحسده عليها ، أو يبغضه فيها . . . فليحذر المرء ما وصفت من أشكاله وأقرانه ، وجيرانه وبني أعمامه)[٣] .

وخصلة الطمع نقيض الرضا بما عند الله (وأشرف المُنى ترك الطمع إلى الناس ؛ إذ لا غنى لذي طمع . وتارك الطمع يجمع به غاية الشَّرف ، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع ولم يُعْمِ بَصَرَه الطمعُ . ومن أحب أن يكون حراً فلا يهوى ما ليس له ، لأنّ الطمع فقر كما أنّ اليأس غنى ، ومن طَمِعَ ؛ ذلّ وخضع ، كما أنّ من قنع ؛ عَفّ واستغنى . . .)[٤] .

(ودواء زوال الطمع عن القلب ، هو رؤية الأشياء من مكوّنها ، بدوام الخلوة ، وترك النَّاس)[٥] .

---

(١) الروضة (ص١٣٣) .

(٢) ما سبق (ص١٣٤) .

(٣) ما سبق (ص١٣٦ ـ ١٣٧) .

(٤) ما سبق (ص١٤٢) .

(٥) ما سبق (ص١٤٣) .

(وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثّقة بالقَسْم)[١] . و(القناعة تكون بالقلب ؛ فمن غَنِيَ قلبه ؛ غنيت يداه ، ومن افتقر قلبه ؛ لم ينفعه غناه ، ومن قنع ؛ لم يتسخط وعاش آمناً مطمئناً ، ومن لم يقنع ؛ لم يكن في الفوائت نهاية لرغبته . . .)[٢] .

(والعاقل يعلم أنَّ الأرزاق قد فُرغ منها ، وتضمَّنها العليُّ الوفيُّ على أن يوفِّرها على عباده في وقت حاجتهم إليها . والاشتغال بالسَّعي لما تَضَمَّنَ وتَكَفَّلَ ؛ ليس من أخلاق أهل الحزم ، إلا مع انطواء صحّة الضمير ، على أنَّه وإن لم يسعَ في قصده ؛ أتاه رزقه من حيث لم يحتسب)[٣] .

ومن أراد رضوان الله تعالى ؛ لزم التقوى ، وتدرّع بالورع ، و(العاقل يدبر أحواله بصحة الورع ، ويمضي لسانه بلزوم التقوى ، لأنَّ ذلك أول شعب العقل ، وليس إليه سبيل إلا بصلاح القلب . . .)[٤] .

(فالعاقل يفتشُ قلبَه في ورودِ الأوقات ، ويكبحُ نفسَه عن جميع المزجورات ، ويأخذها بالقيام في أنواع المأمورات ، ولزوم الانتباه عند ورود الفترة في الحالات ، ولا يكون المرءُ يشاهد ما قلنا قائماً ، حتى يوجدَ منه صحة التثبت في الأفعال)[٥] .

وقسوةُ القلب من أكبرِ أسبابِ البعد عن الله ، والمؤمن العاقل (لا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عليه ، لأنَّ بصلاح الملك تصلح الجنود ، وبفساده تفسد الجنود . . .)[٦] .

(ومَثَل قلب العاقل إذا لزم رعاية العقل . . . كأنَّ قلبه شُرح بسكاكين التَّقِيَّة ، ثم

---

(١) الروضة (ص١٥٠) .

(٢) ما سبق (ص١٥١) .

(٣) ما سبق (ص١٥٥) .

(٤) ما سبق (ص٣٠) .

(٥) ما سبق (ص٢٩) .

(٦) ما سبق (ص٣١) .

مُلِّح بملح الخشية ، ثم جُفِّف برياح العظمة ، ثم أحيي بماء القُربة ، فلا يوجد فيه إلا ما يُرضي المولى - جل وعلا - ولا يُبالي المرءُ إذا كان بهذا النعت ، أن يتّضع عند النَّاس ومحال أن يكون ذلك أبداً)[1] .

ومن دلائلِ صلاح المرء وتقواه ؛ خوفه من الله تعالى ، ورجاؤه رضوانَه ، والتثبُّت في أحكامه على النَّاس ، وعدم اتِّباع الهوى والتعصّبِ للمذهب .

(١) الروضة (ص٣٠) .

المبحث الثاني

مكانةُ ابنِ حبان بين العلماء

تمهيـد : لمعرفة منـزلةِ عالـم بين علماءِ الأمة ، ينبغي الوقوف على مدى عنايتهم بمؤلفاته ومدى اهتمامهم بأقواله ، وثنائهم عليه .

وقد حظي ابنُ حبّان بهذه الأمور الثلاثة مجتمعة :

ـ أمّا اهتمامهم بآثاره العلمية ، فقد ذكرتُ في المدخل أبرزَ جهود العلماء في القديم والحديث في خدمة مؤلفاته .

ـ وأمّا اهتمامهم بأقواله ، فقد عُني العلماءُ بها موافقةً ومخالفةً وشرحاً ، بمثل عنايتهم بأقوال كبار النقاد ، من أمثال عليّ ابن المديني ، ويحيى بن معين ، وأحمد ابن حنبل .

ومن وراء تتبّعي الدقيق ، وجدت الحاكم النيسابوري ، وأبا نعيم الأصبهاني ، والخليلي وابن السمعاني ، وابن الجوزي في الموضوعات والعلل المتناهية ، وغيرهم ؛ ينقلون عن ابن حبّان نصوصاً بتمامها من غير أن ينسبوها إليه .

ويكفيني هنا أن أُشير إلى عددٍ من المواضع التي نقلَ المتأخرون فيها عن ابن حبان ليتبين مدى اهتمامهم بأقواله رحمه الله تعالى في مطلبٍ خاصّ .

المطلب الأول: مدى اهتمام العلماء بأقوال ابن حبّان:

ـ قال الحاكم : حدثنا أبو حاتم مُحَمّد بن حبان القاضي إملاءً[٢] .

ـ وورد ذكره في تاريخ بغداد مرات كثيرة ، هذه بعضها[٣] .

---

(١) وقد جمعت في ذلك مادّة واسعة سوف أودعها دراسة خاصة حيال مسألة الأمانة العلميّة في نقل النصوص ، بين المتقدمين والمعاصرين .

هذه النصوص التي زادت على مائتي نصّ بعيدة عني عند مراجعة الكتاب وإخراجه ، وليس لدي من الوقت ما يسمح بتتبّع ذلك ، فمعذرة من القارئ الكريم .

(٢) المستدرك (٢ : ٤٩١) .

(٣) تاريخ بغداد (١ : ٣٢٩) و(٥ : ٧٨ ، ٣٤٦) و(٦ : ٤٠) و(٩ : ٣٠٥) و(١٠ : ٣٠٤) و(١٣ : ١٥٢) فما بعدها .

ـ وذكره السمعانيُّ في أدب الإملاء مرةً واحدة[١] .

وأفاد منه الذهبيُّ مرّات كثيرة في تذكرة الحفاظ ، منها التراجم الآتية : (٧٤٣ ، ٧٥٩ ، ٧٧٠ ، ٨٧٩) .

وأفاد منه سبط ابن العجَمي في تراجم عديدة من الكواكب ، منها : (٣٣ ، ٢١٣ ، ٧٠٩ ، ٧٢٦) .

وأفاد منه الحلبي في الكشف الحثيث في تراجم كثيرة كذلك ، منها : (٨ ، ٧٧ ، ١١٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٦ ، ٦٦٧ ، ٨١٥) .

أما إفادة الحافظ المزّي منه ؛ فقد تصل إلى ألف ترجمة أو أكثر ، وهذه بعض التراجم التي أفاد منها في المجلد الثاني من تهذيبه : (١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٧١ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣) .

ـ أما الحافظ الزيلعيّ ، فقد خرّج من صحيحه أكثر من خمس مئة حديث ، منها : (١ : ٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣) و (٢ : ٤ ، ٥ ، ١١ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩) و (٣ : ١ ، ٤ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٨) و (٤ : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١٢) .

وأمّا استشهاده بأقواله في كتابي المجروحين والثقات ؛ فقد زاد على مئتي موضع .

ـ فمنها في الثقات : (١ : ١٩ ، ٧٤ ، ١٠٣ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٥) و (٢ : ٢٥٠ ، ٢٧٤ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٨٠) و (٣ : ١١٠ ، ١٥٧ ، ٢٩٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٥٥) و (٤ : ٣٢ ، ٥٣ ، ١٢٢ ، ١٦٨ ، ١٩٦ ، ٢٤٢ ، ٣٠٤) .

ـ ومنها في كتاب المجروحين الذي سمّاه دائماً كتاب الضعفاء : (١ : ١٩ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٧٨) و (٢ : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٩١) و (٣ : ٣٨ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٩٥ ، ١٣٦ ، ١٤٥) و (٤ : ١١٥ ، ١٣٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠١ ، ٢٣٨) .

ولا يخفى على طالب علم اشتراطُ الحافظ ابن حجر في مقدمة تهذيبه (ص : ٦)

(١) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني (ص : ١١٩) .

أن ينصّ على ذكر كلّ راو ترجمه ابنُ حبان في الثقات ، وقد بلغت التراجم التي نقل فيها أقوال ابن حبان أكثر من خمسة آلاف ترجمة ، وقد ملأ كتبه من تخريجات ابن حبان وأقواله في الرجال وعلل الحديث ، ولا حاجة بنا إلى التطويل أكثر !

المطلب الثاني: من أقوال العلماء في الثناء عليه:

لا تكاد تجدُ كتاباً من الكُتب المصنفة في تراجم العلماء والأفاضل والمصنفين والمشاهير ، إلا وتجد لابن حبّان موضعاً فيه !

وقد ذكرتُ في مصادر ترجمته أنّ له تراجم في كتب الفقهاء ، والأصوليين ، والمحدثين والنقاد ، والمتكلمين ، والأدباء ، والأطباء ، والمؤرخين .

واستعراض جميع ما قيل فيه من المديح والثناء يطول ! وحسبنا بضعة نصوص ، عن عدد من العلماء الكبار ، مرتبة على سِنِيّ التاريخ !

قال تلميذه الحافظ أبو سعد الإدريسي (ت : ٤٠٥هـ) في تاريخ سمرقند : «كان على قضاء سمرقند مدة طويلة ، وكان من فقهاء الدّين ، وحفاظ الآثار ، والمشهورين في الأمصار والأقطار ، عالماً بالطبِّ والنجوم وفنون العلم . ألّف المسند الصحيح ، والتاريخ والضعفاء ، والكتب الكثيرة في كل فنّ ! وفقّه الناس بسمرقند ، وبنى له الأمير أبو المظفر السامانيُّ صُفّةً لأهل العلم ، خصوصاً لأهل الحديث ، ثم تحوّل الى بست ومات بها»[1] .

وقال تلميذه الحاكم أبو عبد الله (ت : ٤٠٥هـ) : «كان من أوعية العلم : في اللغة والفقه والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال . . ممن صنف وجمع ، وخرج له من التصنيف في الحديث ما لم يسبق إليه ، وولي القضاء بسمرقند ونَسا وغيرهما من مدن خراسان ودخل نيسابور مرتين وبنى «الخانقاه» وقرئت عليه جملة مصنفاته ، ثمّ خرج من نيسابور سنة أربعين ، وانصرف إلى وطنه بُست ، وكانت الرحلة إلى مصنفاته بخراسان !

(١) تاريخ دمشق (٥٠١/١٠ ـ ٥٠٣ خ) والمطبوع (٢٥١/٥٢) فما بعد ، وأعلام النبلاء للذهبي (٩٢/١٦ ـ ١٠٤) وتذكرة الحفاظ له (٩٢٠/٣) والميزان (٥٠٧/٣) ولسان الميزان لابن حجر (١١٢/٥ ـ ١١٦) .

قال الحاكم : وأبو حاتم كبير في العلو ، وكان يُحسد لفضله ، توفي في ليلة الجمعة ثامن شوال سنة أربع وخمسين ، ودفن بقرب داره التي جعلها مدرسة لأصحاب الحديث ، وجعل فيها خزانة كتب ، وجعلها تحت يد من بذلها لمن يريد نسخ شيء منها . شكرَ اللهُ سعيَه ، وأحسن إليه»[١]

وقال الخطيب البغداديّ : «كان قد سافر الكثير ، وصنَّف كُتباً واسعةً ، وكان ثقة ثبتاً فاضلاً فهماً . . . وساق جريدة كتبه التي أفدنا منها كثيراً في تسمية مؤلفاته كما سيأتي ، ثمّ قال : مثل هذه الكتب الجليلة ؛ كان يجب أن تكثر النُّسخ منها ، ويتنافس فيها أهل العلم ويجلّدوها إحرازاً لها ! . . إنّ أزهد الناس بالعالِم أهله !»[٢] .

وقال ابن ماكولا : «حافظٌ جليلٌ كثيرُ التصانيف» وقال : «سمع وصنّف كتباً كثيرةً وكان من الحفاظ الأثبات»[٣] .

وقال الحافظ ابن عساكر : «أبو حاتم البستي . . أحد الأئمة الرحالين ، والمصنّفين المحسنين»[٤] .

وقال ياقوت الحموي في ترجمته المطوّلة له : «الإمامُ العلامةُ الفاضل المتقن ، كان مُكثراً من الحديث والرحلة والشيوخ ، عالماً بالمتون والأسانيد ، أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيرُه . ومن تأمل تصانيفه تأمُّلَ منصف ؛ علم أن الرجل كان بحراً في العلوم . سافر ما بين الشاش والإسكندرية ، وأدرك الأئمة والعلماء والأسانيد العالية ، وأخذ فقه الحديث والغوص على معانيه ، عن إمام الأئمة أبي بكر ابن خزيمة ، ولازمه وتلمذ له وصارت تصانيفه عدة لأصحاب الحديث ، غير أنها عزيزة الوجود»[٥] .

وقال ابن الصلاح في طبقات الشافعية : «كان أبو حاتم ـ رحمه الله ـ واسع العلم جامعاً بين فنون منه ، كثير التصنيف ، إماماً من أئمة الحديث ، كثير التصرّف فيه

---

(١) المصادر السابقة ذاتها .
(٢) الجامع لأخلاق الراوي (٢/٣٦١-٣٦٣) .
(٣) الإكمال (١ : ٤٣١) و (٢ : ٣١٦) .
(٤) تاريخ دمشق (٥٢/٢٥١) .
(٥) معجم البلدان (١ : ٤١٥) .

والافتنان . . يسلك مسلك شيخه ابن خزيمة في استنباط فقه الحديث ونكته»[١] .

وقال الذهبيّ في التذكرة : «الحافظ الإمام العلامة أبو حاتم مُحَمّد بن حبان التميمي البستي صاحب التصانيف ، سمع أمماً لا يحصون من مصر إلى خراسان» .

وقال في النبلاء : «الإمامُ العلامة الحافظ المجوّد ، شيخ خراسان ، صاحب الكتب المشهورة ، ولد سنة بضع وسبعين ومئتين» .

وقال في الميزان : «محمد بن حبان أبو حاتم البستي الحافظ صاحب الأنواع ، ومؤلف كتابَي «الجرح» و«التعديل» ـ يريد الثقات والمجروحين ـ وغير ذلك ، كان من أئمة زمانه وطلب العلم على رأس الثلاث مئة !

وقال الإمام أبو عمرو بن الصلاح ـ وذكره في طبقات الشافعية ـ : غلط الغلط الفاحش في تصرفه . وصدق أبو عمرو ! وله أوهام كثيرة تتبّع بعضَها الحافظ ضياء الدين»[٢] .

قلت : أستغربُ من الذهبيّ ـ رحمه الله ـ كيف يكرّر هذه الجملة عن ابن الصلاح في ثلاثة من كتبه ، ولا ينقل عنه كلمة خير فيه !

ولعلّه كما قال ابن حجر في اللسان : «ماذا إلاّ تعصّب زائد على المتأوّلين»[٣] !

ـ وقال اليافعيّ في مرآته : «العلاّمة الحبر الحافظ ، صاحب التصانيف»[٤] .

ـ وقال ابن السبكي في طبقاته : «الحافظ الجليل الإمام صاحب التصانيف . . ونقل كلام الإدريسي والحاكم والخطيب وابن السمعاني ، وعرض (ما رُمي به أبو حاتم وتبيين الحال فيه) وختم ترجمته بـ (نُخب وفوائد عن الإمام أبي حاتم) وكان له تعليق جميل على مفهوم ما نُسب إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من الفقر والجوع ، فينظر ؛ فإنه مفيد نفيس[٥] .

---

(١) طبقات الشافعية (٢ : ١١٥ ـ ١١٦) .

(٢) تذكرة الحفاظ (٣ : ٩٢٠) والنبلاء (١٦ : ٩٢ ـ ١٠٤) والميزان (٦ : ٩٨ ـ ١٠٠) .

(٣) لسان الميزان (٥ : ١١١) .

(٤) مرآة الجنان (٢ : ٣٥٧) .

(٥) طبقات الشافعية الكبرى (٣ : ١٣١ ـ ١٣٥) .

ـ وقال الحافظ ابن كثير : «أحد الحفّاظ الكبار ، المصنفين المجتهدين»[١] .

ـ وقال الحافظ ابن حجر : «الحافظ صاحب الأنواع ، ومؤلف كتابي الجرح والتعديل . . كان من أئمة زمانه»[٢] .

هذه بعض النقول المفيدة في بيان مكانة ابن حبان بين علماء الإسلام ، وهي كافية في التَّدليل على أنّ من كان هذا شأنه في العلم والفضل ؛ لا يلتفت إلى أقوال السفهاء والأعراب والمتعصبة فيه !

(١) وفيات المشاهير والأعيان (خلاصة تاريخ ابن كثير) (ص : ٢٨٤) وانظر زوائد الشهريّ (١ : ٣٣) .

(٢) لسان الميزان (٥ : ١١١) .

وانظر مزيد فوائد عن ابن حبان في التقييد لابن نقطة (١ : ٦٤) والمؤتلف والمختلف لابن القيسراني (١ : ٥١) وكشف الظنون (٢ : ١٤٠٧) والرسالة المستطرفة للكتاني (ص : ١٠) .

الفصل الثَّامن

الاتهامات المتبادلة بين ابن حبّان وبين العلماء

المبحث الأول

موقف ابن حبَّان من أبي حنيفة

تمهيد : لقد كان لابن حبَّان مواقف من المجسِّمة الذين ينتسبون لأهل الحديث ، وما هم منهم ـ في نظره ـ وقد مرَّ معنا في فصل (عقيدة ابن حبَّان) شيءٌ من هذا .

كما كانت له مواقفه المتشدّدة مع الشِّيعة والرافضة .

بل لقد ضعَّف عدداً غير قليل من رواة البخاري ومُسلم ، لأدلةٍ قامت عنده على تضعيفهم .

فلا عجب أن نرى ابن حبَّان يُسهم بقسطٍ وافر من الحملة التي شنَّها أهل الحديث على أهل الرأي .

إنَّ مصطلح (أهل الرأي) يُفهم منه عند الإطلاق ، مدرسة العراق الفقهية التي توسعت في اعتماد القياس والاجتهاد ، وافتراض الوقائع والحوادث المستقبلية ، وتخريج الأحكام الشَّرعية لها ، ولمَّا تقع بعد .

ويقابل أهلَ الرأي (أهلُ الحديث) الذين جعلوا اعتمادهم على السُّنة ، فراحوا يجمعون الأحاديث الواردة عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، ويمحِّصونها ، ويميزون غثَّها من سمينها ، وجعلوها عمدتهم في استنباط الأحكام ، ولم يتوسعوا في القياس كما لم يستبقوا الأحداث ، واجتنبوا الفقه الافتراضي ، وعدُّوه من الابتداع في الدِّين .

إلاَّ أنَّ مصطلح ابن حبان في (أهل الرأي) لا يقتصر على ما تقدم ، وإن كان يَحْمل على من يتبع الرأي المنكوس والقياس المعكوس ، غير أنه لم يكن يضعِّف الرجل بمثل هذا ، ولا أدلَّ على قولي من إكثاره الرواية عن شيخه أبي يعلى الموصلي ، مع أنه كان حنفياً في الفروع .

وقد كان لابن المبارك ويحيى بن سعيد القطان ويحيى بن معين ، ميلٌ إلى مذهب أبي حنيفة في الفقه .

بل إنّ بين يديَّ ما هو أصرح من هذا في الدَّلالة على ما ذكرت ، فقد قال في ترجمة أبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة في الثقات :

(كان شيخاً متقناً ، لم يكن يسلك مسلك صاحبيه ـ يعني أبا حنيفة ومحمد بن الحسن ـ إلاَّ في الفروع ، وكان يباينهما في الإيمان والقرآن)[1] .

فهذا النص واضح الدَّلالة على ما ذكرت . وعلى هذا فمصطلح (الرأي) عنده علَم على أهل الإرجاء ، والمخالفين في مسألة القرآن .

وقد أوضحَ في مقدمة كتابه «الصحيح» أنَّ المرجئة يحتجّ بأحاديثهم إذا كانوا ثقات إلا إذا كانوا دعاة إلى بدعتهم ، احتياطاً في الدِّين[2] .

قال في ترجمة إبراهيم بن يوسف الباهلي البَلخي : (كان ظاهرُ مذهبه الإرجاءَ ، واعتقاده في الباطن السنّة)[3] .

فالإرجاء في مقابل السنة في الإيمان ، وليس للفروع من قوله مكان .

وقال في ترجمة جمعة بن عبد الله البَلْخيّ : (كان ينتحل الرأي قديماً ، ثم انتحل السُّنة ، وجعل يذبُّ عنها ، حتى بلغ من صلابته في السُّنة أنَّ أحمد بن حرب دخل (واشَجِرد) ودعا النَّاس إلى الإرجاء ، فأفسد بها عالَماً منهم ، فلما بلغ جمعة بن عبد الله ذلك ، خرج إلى (واشجرد)[4] فجعل يبيِّن للنَّاس ويصدُّهم ، ويخبرهم ببدعته) ا . هـ[5] .

ولا أريد أن أطيل في التَّدليل على ما ذكرت ، لأنتقل إلى موقف ابن حبَّان من أبي حنيفة . .

---

(١) الثّقات (٧ : ٦٤٦) . وانظر ترجمة محمد بن الحسن في المجروحين (٢ : ٢٧٦) .

(٢) الإحسان (١ : ١٦٠) بتصرف يسير .

(٣) الثقات (٨ : ٧٦) .

(٤) واشجرد ـ بفتح الشين وكسر الجيم ـ : مدينة من مدن ما وراء النَّهر . معجم البلدان (٥ : ٣٥٣) .

(٥) الثقات (٨ : ١٦٥) .

المطلب الأول: أسباب جرح أبي حنيفة عند ابن حبَّان

قال في ترجمة أبي حنيفة[١] ـ رحمه الله ـ :

(كان رجلاً جَدِلاً ظاهر الورع ، لم يكن الحديث صناعته ، حدَّث بمئة وثلاثين حديثاً مسانيد ، ما له في الدنيا حديث غيرها ، أخطأ منها في مئة وعشرين حديثاً ، إما أن يكون أقلب إسناده ، أو غيَّر متنه من حيث لا يعلم ، فلمَّا غلب خطؤه على صوابه استحقّ ترك الاحتجاج به في الأخبار .

ومن جهة أخرى ، لا يجوز الاحتجاج به ؛ لأنّه كان داعية إلى الإرجاء ، والداعية إلى البدع ؛ لا يجوز الاحتجاج به عند أئمتنا قاطبة ، لا أعلم بينهم خلافاً) .

ولا يخفى أنَّ ابن حبَّان لم يذكر في أسباب تضعيف أبي حنيفة آراءه الفقهية ، وإن كان هذا الجانب مطعناً كبيراً يؤخذ على منتحله ، وإنما ضعَّفه بثلاثة أشياء :

(١) الأول : أنَّه كان داعية إلى الإرجاء ، والداعية إلى البدع مردود الحديث[٢] .

(٢) الثاني : مخالفته أهل الحديث في مسألة (القرآن) .

(٣) الثالث : ـ وهو الأهم في نظري ـ كثرة الخطأ والغفلة ، وغلبة الوهم على روايته .

هذه الأمور مجتمعة ـ والثالث عمادها ـ هي التي جعلت ابن حبان يطلق الجرح في أبي حنيفة .

ولعل ابن حبان قد استشعر خطورة إقدامه على تضعيف إمام من الأئمة المتبوعين فقال معتذراً : (على أنَّ أئمة المسلمين ، وأهل الورع في الدِّين في جميع الأمصار ، وسائر الأقطار جرحوه ، وأطلقوا عليه القدح إلاَّ الواحد بعد الواحد . . .)[٣] .

---

(١) المجروحين (٣ : ٦٣ ـ ٦٤) .

(٢) انظر ترجمة جعفر بن سليمان الضبعي الشيعيّ في الثقات (٦ : ١٤٠) ، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني الناصبيّ فيه (٨ : ٨١) .

(٣) المجروحين (٣ : ٦٤) بل نقل ابن عدي عن شيخه أبي بكر بن أبي داود : أن الوقيعة في أبي حنيفة إجماع أهل العلم . الكامل (٧ : ٢٤٧٦) .

ويؤكد إنصافه فيما ذهب إليه فيقول[٣] :

(لسنا ممن يوهم الرعاع ما لا يستحلّه ، ولا ممن يحيف بالقدح في إنسان ولو كان لنا مخالفاً ، بل نعطي كل شيخ حظه مما كان فيه ، ونقول في كل إنسان ما يستحقه من العدالة والجرح .

أدخلنا زفراً وأبا يوسف بين الثِّقات ، لِمَا تبيّن لنا من عدالتهما في الأخبار ، وأدخلنا من لا يشبههما في الضعفاء ؛ بما صَحّ عندنا مما لا يجوز الاحتجاج بمن اتّصف به) .

أضف إلى هذا كلِّه أنَّ ابن حبان قد خصَّ أبا حنيفة بمزيد من العناية والدِّراسة فصنف فيه ثلاثة كتب[١] ؛ خَصَّ واحداً منها لذكر مذهب أبي حنيفة وعقيدته ، ومخالفته السُّنن ـ في نظره ـ وسماه (التنبيه على التمويه) . وصنف كتاباً آخر ذكر فيه ما جاء في مناقب أبي حنيفة ومثالبه ، مبيِّناً ما صح منها مما لا يصح ، وسماه (علل مناقب أبي حنيفة ومثالبه) وجعل كتاباً ثالثاً لمرويات أبي حنيفة ، وكشف عوارها ، سمَّاها (علل ما أسند أبو حنيفة) .

ولعل قائلاً يقول : لقد جرح ابنُ حبّان أكثرَ من ألف رجل في (المجروحين) منهم عدد ممن أخرج لهم البخاري ومسلم ، فكانت دراسة أقوال ابن حبان في هؤلاء أولى ، لأنَّ أبا حنيفة لم يُخَرَّج له في الكتب السِّتة سوى أربع روايات ، عند الترمذي والنَّسائي ليس فيها أيّ حديث مرفوع .

ولهذا المتسائل أقول : لقد عقدت هذا الفصل لمناقشة أقوال ابن حبَّان في أبي حنيفة ـ رحمهما الله ـ لأنه أحد الأئمة المتبوعين ، وجرأة ابن حبَّان على مثله تقتضي وقفة متأنية نستجلي من ورائها حقيقة التُّهَم الموجهة إلى أبي حنيفة ، ومدى دقة ابن حبان في معلوماته .

أما الرواة الآخرون ، فسيأتي الحديث على جميعهم ـ إن شاء الله ـ إما جملة ، أو تفصيلاً .

فإن قيل : إن المصادر التي اتهمت أبا حنيفة بالإرجاء ، واللفظ ، ومخالفة صحيح السُّنن والغلط والوهم في الرواية ، هي مصادر خصومه ، ومهما تجرد الخصم فإنَّه يبقى

---

(١) الثِّقات (٧ : ٦٤٦) .

(٢) سيأتي الكلام عليها في الباب الثَّالث .

متَّهماً ؛ فكيف تناقش هذه الاتهامات أنت؟

فأقول : إنَّ مصدر هذه الخصومة العلميّة عند هؤلاء الذين نالوا من أبي حنيفة خاصَّة ، وأهل الرأي عامة ، لا تعدو الغيرة على دين الله ، وإن كنت لا أدَّعي عصمتهم من الخطأ في بعض ما يذهبون إليه .

إلاَّ أنني أقول : ما بالنا نقبل أقوال هؤلاء في الجرح والتعديل ، فنحكم على فلان بالضَّعف ، وآخر بالوضع ، وثالث بالوثاقة ، ونرفض أقوالهم في أبي حنيفة؟

أجل يجب أن نحذر من قبول الأقوال التي يَثْبُت أنَّ لها مخرجاً جانحاً في النفس .

ويمكنني أن أقول بهذه المناسبة : إنَّ التهم التي وجِّهت إلى أبي حنيفة رحمه الله تنقسم على قسمين :

أولهما : ما تؤيده كتب الحنفية ، وتقرّه ، وتفرّع عليه .

وهذا يشمل التهم العقائدية ، ودعوى مخالفة أبي حنيفة للسُّنن الصّحيحة .

وثانيهما : ما لا تقرّه كتب الحنفية ، وتحسبه وليد الخصومات المدرسيّة العلميّة ، وهذا ينحصر في اتّهام أبي حنيفة بالضَّعف في الحديث . وهذا قد ذكره عدد كبير من الأئمة ؛ سأشير إلى أشهرهم .

وسأتناول هذه التهم الموجّهة إلى أبي حنيفة في عدَّة مباحث ؛ محاولاً استجلاء الحقيقة وإيضاح الأمر ، بعيداً عن التعصُّب لأبي حنيفة ، أو خصومه .

وأحبّ أن أقرّر ابتداءً أنّ أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ من كبار الصالحين ـ ولا أزكّيه على الله تعالى ـ ولقد تربّيت على فكره وفقهه دهراً ، وهو أحبّ إليّ من علماء كثيرين .

ودراستي هذه لا تعدو أن تكون خطوةً على طريق إنصافه ، وإعذار الآخرين .

أما الدراسة الموسّعة ؛ فقد صدّرت بها تحقيقي لمسنده برواية أبي نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى . وهو مخطوط .

المطلب الثّاني: مكانة أبي حنيفة في علم الحديث

تقدَّم في المطلب الأول أنّ أبرز أسباب جَرْح أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ عند المحدّثين سببان رئيسان :

ـ الأول : عدم تمرّسه من علوم الحديث .

ـ والثّاني : آراؤه العقدية في الإيمان والقرآن .

وسأتناول كلّ سبب في فرع خاص :

الفرع الأول: قلّة رواية أبي حنيفة للحديث

قلة رواية الراوي للحديث ، ليست دلالة ضعف بحد ذاتها ، فكم من راوٍ ثقة ، ليس له إلاَّ بضعة أحاديث صحيحة .

بيد أنَّ هذا الراوي الثقة ، لا يُعدُّ محدِّثاً ، ولا حافظاً ، ولا عالماً بالحديث ، يحتكم إلى أقواله في قبول الأحاديث وردِّها ، وتمييز غثِّها من سمينها .

والذين يُرجع إلى أقوالهم في هذا الشأن ، أولئك الذين سبروا السُّنة وأحاطوا بها ـ أو كادوا ـ وضبطوا طرقها واختلاف متونها ، وعرفوا تاريخ كل راوٍ من رواتها .

وأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لا يُدَّعى له الإحاطة بالسُّنة ، ولا دقة النَّظر في العلَل والأسانيد ، بل ولم ينقل عنه ما يَدُلُّ على بعض هذا .

هذا قَدْرٌ مسلَّم به ، لا أظن ثمة من يعترض عليه ، إلاَّ حمقى المتعصبين .

وأما ما نقل عن أبي حنيفة من أنه يشترط (استدامة الحفظ من آن التحمل إلى آن الأداء ، وعدم الاعتداد بالخط ، إذا لم يكن الراوي ذاكراً)[1] إن صح ؛ فلا دلالة فيه على كونه محدِّثاً ناقداً ؛ لأنَّ الافتراضات النظرية ممكنة لكل أحد ، ولأنَّ أكثر الأحاديث التي رواها ليس فيها ما يَدُلّ على ضبطه وحفظه .

ولا مانع أن يكون امرؤ سيِّئَ الحفظ ، إلاَّ أنه سمع قاعدةً فأعجبته ، أو رأى رأياً فعرضه وإن لم يكن هو متَّصفاً بما رأى . وشيوع هذا بين النَّاس لا يكابر فيه .

على أنَّ أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ متهم بسوء الحفظ ، وستأتي الأدلة على ذلك في المطلب الثالث .

أمّا عن قلة رواية أبي حنيفة للحديث ، فالمرجع في معرفة ذلك إلى الحفّاظ الذين

---

(١) مقدمة نصب الراية (١ : ٢٨) وقارن بالتنكيل (١ : ٤٣٥) .

يعرفون ما لكل راوٍ من الحديث . ولا يخفى أنَّ المقصود الأهم من الحديث هو الأحاديث المسندة إلى رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، أما الآثار الموقوفة والمقطوعة ؛ فتأتي في درجة تالية ، والمحدِّث من جمع بين هذا وذاك .

قال ابن حبان في جملة أحاديث أبي حنيفة : (لم يكن الحديث صناعته ، حدَّث بمئة وثلاثين حديثاً مسانيد ما له في الدنيا حديث غيرها)(١) .

وقال ابن عدي في الكامل : (قد روى من الحديث لعلّه أرجح من ثلاث مئة حديث مشاهير وغرائب ، وكله على هذه الصورة)(٢) .

والذي يحسُن التذكير به أنَّ ابن حبان قد ألف كتاباً مستقلاً سماه (علل ما أسند إليه أبو حنيفة) . كما ذكرت أنه صنف كتابين آخرين عنه .

وعالِمٌ يكتب عن رجل ثلاثة مصنفات ، ليس من المعقول أن يجهله .

ويبدو للنَّاظر في هذين النَّصين المنقولين عن ابن حبّان وابن عديّ ؛ أنّ ثمة تعارضاً بينهما ، بيدَ أنَّ النَّظرة العلمية تدفع هذه المظنة ؛ إذْ إنَّ ابن حبان حدَّد أحاديث أبي حنيفة فوصفَها بالمسانيد ، أي التي يسندها إلى رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بينما أطلق ابن عدي ، وإطلاقه يحتمل المسانيدَ والمقاطيعَ والموقوفات ، ويحتمل الطرق المتعددة للحديث الواحد .

ولعلَّه لا يخفى أنَّ أهل الحديث يسمُّون المرسل والمعضل والموقوف والمقطوع : حديثاً ؛ تجوُّزاً ، وإن لم يأخذ صفة الحديث المنسوب إلى رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حقيقة .

وهاتان الدعويان من ابن حبّان ، وابن عدي ـ رحمهما الله ـ وهما عند المسلمين ثقتان إمامان مؤتمنان ، ليس عندنا في الواقع العملي ما يؤيدهما ؛ لأنَّ كتب ابن حبَّان التي تختص بأبي حنيفة مفقودة ، وابن عدي لم يذكر لأبي حنيفة سوى عدة أحاديث . وكذلك مسند أبي حنيفة لابن عدي مفقود أيضاً ، ومن ثمَّ فلو أنَّنا جمعنا كتب السُّنة المشهورة كلَّها ، فإنَّنا لا نستطيع أن نجمع لأبي حنيفة مئة وثلاثين حديثاً مسانيد ، إلاَّ إذا

---

(١) المجروحين (٣ : ٦٣) فما بعد .

(٢) الكامل (٧ : ٥) فما بعد ، وانظر الضعفاء للعقيلي (٤ : ٢٦٨) .

قامت لجنة استقرأت كتب السُّنة النّوادر، فربما جمعت هذا الجمع، أو ما قاربه من العدد.

أما الأحاديث الثلاث مئة التى ذكرها ابن عدي فيمكن جمعها إذا أدخلنا في ذلك الآثار الكثيرة التى يرويها أبو حنيفة عن الصَّحابة والتابعين.

ولقد كتب أحد الزملاء رسالةً علميةً استطاع أن يجمع فيها لأبي حنيفة اثنين وسبعين حديثاً متصلاً إلى رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

قال صاحب الرسالة: (وهذه المرويات التي بحثتُها بالتفصيل استطعتُ أن أقسمها إلى ثلاثة أقسام ـ كما سبق ـ: مرويات تُوبع عليها، أو لها شواهد، ومرويات خُولف فيها، ومرويات انفرد بها.

أما التي تُوبع عليها فكان عددها خمسة وستين حديثاً، وأما التي خُولف فيها، فكان عددها ستة أحاديث فقط، وانفرد بحديثٍ واحد، لم أجدْ من تابعَه عليه، أو خالفه فيه...)[1].

ولا يخفى أنَّ ظاهرَ النتيجة التي وصل إليها الدكتور شاكر فيّاض في بحثِه تخالف مخالفةً صريحةً ما ذهب إليه ابنُ حبَّان وابنُ عدي؛ فقد قال الأول بأنَّ أبا حنيفة أخطأ في مئةٍ وعشرين حديثاً من مجموع حديثه البالغ مئة وثلاثين حديثاً، وقال الثاني: (لم يصحَّ له في جميع ما يرويه إلاَّ بضعة عشر حديثاً). وأياً ما كانت النتيجة، فإنَّ أحاديث أبي حنيفة محدودة معدودة، وهَبْ أنَّ أحاديثه كلَّها صحيحة، فهل نعتبر المرء حافظاً برواية سبعين حديثاً أو مئة، أو خمس مئة حديث؟ ويكون ممن يعتدّ بقوله في دقائقه؟

إنَّ مما لا خلاف فيه بين أهل الحديث أنَّ مثل هذا يسمى قليل الرواية للحديث ويسمى راوياً، وليس حافظاً عالماً بالحديث.

الفرع الثاني: ما قيل في غلط أبي حنيفة في الحديث وسوء حفظه

قال ابن حبان: (حدَّث بمئة وثلاثين حديثاً مسانيد، ما له حديث في الدنيا غيرها، أخطأ منها في مئة وعشرين حديثاً، إمَّا أن يكون أقلب إسناده أو غيرَّ متنه من حيث لا يعلم).

---

(١) أبو حنيفة بين الجرح والتعديل للدكتور شاكر ذيب فياض (ص٣٠٩).

وقال ابن عدي : (أبو حنيفة له أحاديث صالحة ، وعامة ما يرويه غلط وتصاحيف وزيادات في أسانيدها ومتونها ، وتصاحيف في الرجال ، وعامة ما يرويه كذلك ، ولم يصح له في جميع ما يرويه ـ خالياً من العلل ـ إلاَّ بضعة عشر حديثاً) .

إنَّ كلاً من ابن حبان وابن عدي قد جمع حديث أبي حنيفة ومحَّصه ، وبيَّن عُواره بيدَ أنَّ النتيجة التي وصل إليها أخي الباحث تخالف ما سبق مخالفة ظاهرة ، فهل وصل إلى علم الدكتور شاكر ما لم يقف عليه الحافظان؟ أو أنَّ المنظار إلى حديث أبي حنيفة يختلف؟

الحقيقة أنَّ ابن حبَّان وابن عدي قصدا بقولهما بيان درجة أبي حنيفة في سلَّم الجرح والتعديل ، وهذا ما قصده الباحث في رسالته ، إلاَّ أنَّ نتيجته التي وصل إليها مختلفة عما وصل إليه هذان الحافظان ؛ فما السَّبب؟

قال الدكتور شاكر فيّاض[(١)] : (ومما يلاحظ في الأحاديث التي تُوبع عليها ، أنَّ قسماً منها غير قليل فيه رجال ضعفاء ، سواء أكانوا من شيوخه ، أم من شُيوخ شُيوخه . ولَمّا كان ضعفهم محتملاً ، فقد تتبّعت طرق أحاديثهم بحثاً عنْ متابعات لها ، وكنتُ أرى وما زلتُ أنَّ مثل هذه الأحاديث ، إن وجدنا لها متابعات ، فإنَّها تتقوى بمجيئها من وجوه أخرى ، ويُحتجّ بها) .

والذي تجدر ملاحظته أنَّ العمل بالحديث شيء ، والحكم على رواته شيء آخر فضبط الراوي وأداؤه يحكم عليه بأنّه راوٍ ثقة ، أمَّا سوء حفظه وقلة ضبطه ؛ فتحطّه إلى رتبة سيّئ الحفظ أو ضعيف ، وإذا فحش غلطه ؛ فإلى رتبة متروك ، ويبقى الحديث من حيث هو صحيحاً يعمل به . . وكان على الأخ الباحث وهو يقوِّم شخصية أبي حنيفة الحديثية أن يتذكّر هذا ، حتى لا يقع فيما وقع فيه مِن خَلْط بين هذين المفهومين المتباينين .

وسأعرض بعض النماذج ليتوضح المراد مما سبق .

(١) أخرج محمد في كتاب الآثار قال : أخبرنا أبو حنيفة عن عبد العزيز بن رفيع

---

(١) أبو حنيفة بين الجرح والتعديل للدكتور شاكر فياض (ص٣٠٩) .

عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، عن أبيه عن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال :

(ما من نفس إلاَّ قد كتب الله مدخلها ومخرجها ، وما هي لاقية ، فقال رجل من الأنصار : ففيم العملُ يا رسول الله؟ قال : كلُّ من كان من أهل الجنة ، يُسِّر لعمل أهل الجنة ، ومن كان من أهل النّار ؛ يُسِّر لعمل أهل النار ، فقال الأنصاري : الآن حق العمل) .

قال الشيخ شاكر : (والحديث لم أجد من أخرجه عن سعد بن أبي وقاص ، لكني وجدت ابن حجر يذكره مروياً عنه ، ولم يشر إلى من أخرجه)[١] .

وراح الشيخ الباحث يذكر شواهد الحديث عن عدد من الصَّحابة ثم قال[٢] :

(ولم يذكر واحد من هؤلاء الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنَّ السَّائل كان من الأنصار . بل فى حديث بعضهم أنَّ السَّائل رجل كما في حديث علي وابن عباس ، وفي حديث عمران وابن عمر أنَّ السَّائل رجل من مزينة ، وفي أحاديث سراقة وعمران وعمرو ذي اللحية ، وجابر ؛ أنَّهم هم أنفسهم سألوا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) .

ويلاحظ فى حديث سعد عند أبي حنيفة أنَّ السَّائل رجل من الأنصار ، وبعض هؤلاء الصَّحابة من الأنصار ، فلا يستبعد أن يقصد سعد أحدهم ، والله أعلم) . ا . هـ

ويلاحظ على هذا الحديث الأمور الآتية :

(١) تفرُّد أبي حنيفة بإخراجه من حديث سعد ابن أبي وقاص بهذا الإسناد .

(٢) تفرُّد أبي حنيفة بذكر الأنصاري إما استنباطاً ، أو رواية بالمعنى .

(٣) تفرُّد أبي حنيفة بجملة (الآن حق العمل) .

وقد يقال : إنَّ تفرد الثقة مقبول ، ما لم يخالف ، وأقول : هذا صحيح ؛ ولكن نحن في معرض إثبات ذلك ، وهذا أبو حنيفة رحمه الله يتفرَّد بهذا الإسناد ، وبعض ألفاظ هذا الحديث لم يتابعه عليها أحد ، فإذا قيل إنَّ لمتن الحديث شواهد ، قلنا : بقي تفرُّده

---

(١) أبو حنيفة (ص٥٩) .

(٢) ما سبق (ص٦١ ـ ٦٢) .

بالإسناد ، ولَمَّا تتضح ثقته بعد . . كما أنَّ تفرده ببعض ألفاظ الحديث فيه ما فيه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإذا كان أبو حنيفة محدِّثاً ، فلِمَ أَعْرض عن حديث علي رضي الله عنه ، وهو حديثٌ صحيح مشهور ، وأحاديث غيره من الصَّحابة لينفرد عن أهل الحديث قاطبة بهذا الحديث الذي لم يتابعه عليه أحد؟ كل هذا يثير شكوكاً حول حديث سعد جملة .

ومثل هذا الحديث فى التفرد حديث أبي سعيد الخدري[١] في الوضوء مما مسَّته النار قال الشيخ الباحث بعد بيان ضعف إسناده : (والحديث لم أجدْ من رواه عن أبي سعيدٍ الخدري فيما بحثتُ ، وهناك عدد كبير من الصَّحابة روى أن لا وضوء مما مسَّت النار . . .) .

وهنا يتجه السؤال السابق نفسه ، لماذا يلجأ أبو حنيفة إلى مثل هذا التفرد ، والحديث مشهور عن جماعةٍ من الصَّحابة؟ وكذلك تفرد في إخراج حديث جابر في مخالجة الصلاة[٢] .

فإن قيل : إنَّ الأحاديثَ المشهورة متداولة معروفة ، وإنَّما أراد جمع الغريب ؛ قلت : هذا يسلَّم لو عرف له الأحاديثُ الكثيرة التي جمع فيها السُّنّة ، أما أن لا يعرف إلاَّ بمثل هذه الأحاديث ففي التسليم بهذا نظر وأيّ نظر !

(٢) مثال الزيادة في المتن : (أخرج حديثَ عائشةَ قالت : كان رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يصيب من أهله ولا يمسُّ ماء ، فإن استيقظ في آخر الليل ؛ عاد واغتسل) .

قال الشيخ شاكر : (ويلاحظ في حديث أبي حنيفة زيادة تتعلق بعَوده صلَّى الله عليه وآله وسلَّم للجماع بعد أن ينام ، دون أن يمس ماء)[٣] .

ولا يعنيني ههنا الحكم ، وإنَّما يعنيني التفرد والزيادة ، لأنَّها من جملة التُّهَم الموجهة إلى أبي حنيفة .

---

(١) أبو حنيفة (ص٦٦) فما بعد .

(٢) أبو حنيفة (ص١٠٧) . والمخالجة : يقصد بها هنا الجهر بالقراءة خلف الإمام . انظر النهاية (٢ : ٥٧) .

(٣) أبو حنيفة (ص٧٠ ، ٧٢) .

(٣) ومن الزيادات التي تفرد بها أبو حنيفة : تعليم التكبير كلَّما ركع الإنسان ورفع وقعد[١] .

وإنَّ الاستقصاء غير ممكن ، لأنَّ البحث لا يتسع له ، ولكن هذه أمثلة تبين لك تفرُّد أبي حنيفة ومخالفته في عامة ما يرويه ـ وما أقلَّ ما يرويه ـ .

بقى أن أحاول ذكر أرقام الأحاديث الصَّحيحة التي ذكرها د . شاكر ، لنعرف مدى دقَّة قول ابن حبَّان وابن عدي ، ويتبين من ذلك أنَّ ما بعدها معلول ، سواء كانت علته قادحة أم غير قادحة ، لأنَّ الملاحظ هنا هو تقويم الشخصية لا العمل بالأحاديث ، بل إنَّ بعض هذه الأحاديث يعلل ، إلاَّ أنَّ علته غير قادحة . وهذه الأحاديث تحمل أرقام :

(٢ ، ٧ ، ٩ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩) وهي عشرون حديثاً .

فإذا كان سبعة أحاديث مما لم يُتابع فيها أبو حنيفة عن شيخه ـ وهذا يُعدُّ ملحظاً عند النقاد ـ ؛ فإنَّ الأحاديث الخالصة لا تزيد على ثلاثة عشر حديثاً .

فهل جانبَ ابنُ حبَّان وابنُ عدي الصّواب فيما قالاه؟ اللهم لا ، ولكنَّ في بعض الأحاديث ، عللاً طفيفة لا تقدح .

وأياً ما كان الأمر ، فليس بين أيدينا في دواوين السُّنة المشهورة سوى هذا العدد اليسير من الأحاديث ، وأكثره مما فيه ضعف في بعض رواته أو تفرُّد ، أو مخالفة في سنده أو متنه ، وأنَّ الأحاديث الصحيحة ـ من غير المتابعات والشواهد الخارجية ـ لا تصل إلى عشرين حديثاً ، فهل يمكننا اعتبار أبي حنيفة ناقداً ، تُسمع أقواله في علم الحديث؟ والجواب : أن لا . .

ولعلّ معترضاً يعترض فيقول : هل يعقل أن يكون أبو حنيفة قد بنى فقهه الضخم كله على عشرين حديثاً ، أو مئة حديث ، أو ألف حديث؟

---

(١) أبو حنيفة (ص١١٤) .

والجواب على ذلك ، أنَّه لا يُعقل بناءُ فقهٍ ضخم من دون أدلة من كتاب الله وسنَّة رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

وبعد أن فقدنا أسانيد أبي حنيفة في كتبه ، فإنَّني أطرح هذا السؤال : هل يستطيع فقيه ما ـ في عصرنا هذا ـ أن يَعْمَدَ إلى صحيح الإمام البخاري ، فيبني عليه فقهاً أو لا؟

وإذا بنى هذا الفقيه فقهه على ما في صحيح البخاري ، ثم استعرضنا أدلته ـ على قصورها ـ ووجدنا هذه الأدلة ـ التي لم يروها هو بسنده ، ولا اغبرّ قدمه في جمعها ـ إذا وجدناها صحيحة ثابتة ، فهل هذا يخوِّلنا ويسوّغ لنا الحكم عليه بأنه محدِّث؟

وقد كانت كتابة أبي حنيفة لأحاديث المحدِّثين معروفةً . فقد نقل ابن أبي حاتم وغيره عن سفيان الثورى قال : «ما سألت أبا حنيفة عن شيء ، ولقد كان يلقاني ويسألني عن أشياء»[١] .

وقال ابن أبي حاتم[٢] : أخبرنا أبو بكر الجارودي محمد بن النضر النيسابوري قال : سمعت أحمد بن حفص ـ يعني ابن عبدالله النيسابوري ـ يقول : سمعت أبي يقول : سمعت إبراهيم بن طهمان يقول : أتيتُ المدينة فكتبتُ بها ، ثم قدمت الكوفة ، فأتيت أبا حنيفة في بيته فسلَّمت عليه ، فقال لي : عمَّن كتبتَ هناك؟ فسمَّيت له ، فقال : هل كتبت عن مالك بن أنس شيئاً؟ فقلت : نعم ، فقال : جئني بما كتبتَ عنه . فأتيته به فدعا بقرطاس ودواة ، فجعلتُ أُملي عليه وهو يكتب)[٣] . أبعد هذا مقال؟

مما لاشك فيه أن الكوفة كانت إحدى مدارس الحديث الكثيرة ، فقد كان فيها حديث كثير ، غير أنَّ عدم نبوغ أبي حنيفة في الحديث وتمكُّنِه فيه ؛ جعله يأخذ حديث

---

(١) الجرح والتعديل (١ : ٣) .

(٢) الجرح والتعديل (١ : ٣ ـ ٤) .

(٣) رواته كلهم ثقات . انظر تراجمهم على التوالي : التذكرة (ص٦٧٣) والتهذيب (١ : ٢٤) و(٢ : ٤٠٣) و(١ : ١٣٠) والتقريب (١ : ١٣ ، ١٨٦ ، ١٣٠) وجميعهم من الحنفية .

من يثق بمعرفتهم ويفرِّع عليه ، لا سيّما إذا جاء عن إبراهيم النَّخعي ، أو الأسود ، أو علقمة شيء من ذلك ، أما إذا ورد شيء عن ابن مسعود ؛ فلا يعدوه غالباً .

ومن أراد التوثُّق مما ذكرت ، فليرجع إلى نصب الراية ، وليطَّلع على أدلة الحنفية وأدلة غيرهم ، وليرتضِ الإمام الزيلعيَّ الحنفيّ حكماً فيما يقرأ .

ومن أراد الوقوف على كلام غير الحنفية في تقويم أدلة الحنفية وما خالفوا فيه السنَّة الصحيحة ، فعليه بمصنف ابن أبي شيبة ، فقد كتب (كتاب الرد على أبي حنيفة) وقد طبع الكتاب في الهند منفصلاً ، كما طبع في موضعه في المصنف[١] أيضاً .

وقد بقي من التُّهَم الأخرى التي وجَّهها ابن حبَّان إلى أبي حنيفة وأطال في سردها ، مخالفة أبي حنيفة صحيح السُّنة ، ولمناقشة هذا موضعه الخاصّ به !

كما أنَّه لم يبتدع في تضعيف أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وإنَّما سبر مروياته فخَلَصَ إلى حكم سبقه إليه معظم علماء الإسلام في سائر الأقطار[٢] .

هذا ما أودعتُه في رسالتي يوم كتبتُها قبل أكثر من عشرين عاماً ، فهل من جديدٍ لديّ في هذا الاتّجاه؟

أقول : إنّ أبا حنيفة عَلَمٌ من أعظم أعلام هذه الأُمّة ، ومتّبعوه ومقلّدوه من المسلمين هم جمهرتهم العظمى ، ولعلّي لا أبالغ إذا قلت : إن ثلاثة أرباع هذه الأمّة من الحنفية اليوم .

والمقلّدة هم المقلّدة ، سواء قلّدوا الإمام أبا حنيفة ، أم قلّدوا الإمام أحمد ، أم قلّدوا الإمام جعفر الصادق رحمهم الله تعالى . وما الفرق؟

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٤ : ١٤٨ ـ ٢٨٢) .

(٢) وكنت قد أعددت مبحثين ذكرت في أحدهما بعض ما نسب إلى أبي حنيفة من مخالفة صحيح السنة اجتهاداً منه ، والآخر ذكرت فيه أشهر الأئمة الذين جرحوا أبا حنيفة رحمه الله وحذفتهما امتثالاً لطلب المشرف ، وأودعتهما في صدر تحقيقي مسند أبي حنيفة برواية أبي نعيم الأصبهاني .

إذا كان كلّ من قصر علمه عن درجة الترجيح والنظر مقلّداً ، فهل يسع هذا المقلّدَ غيرُ متابعة إمامه؟ وإذا صرفنا الناس عن تقليد هؤلاء الأئمة المتقدمين وأضرابهم ، إلى تقليد بعض المعاصرين ، فما الذي صنعناه؟ وهل هجومنا على التقليد إلا جهل مركّب؟

إنّني لا أعلم بوجود عالِمٍ واحد من طبقات شيوخي وأقراني وتلامذتي بلغ مرتبة الاجتهاد المقيَّد ، فضلاً عن الاجتهاد المطلق ، فماذا يصنع مثقَّفو هذه الأمة وعوامّها؟

إنّ الإجابة على هذا التساؤل تراها في بحث لي لم يكمل بعد بعنوان : (إعادة صياغة العقل المسلم) والذي أحبّ أن أخلص إليه هنا أمران :

ـ الأول : أنّ أبا حنيفة عَدْلٌ فاضل صالح ورع من كبار العلماء الذين وُضع لهم القبول في الأرض ، ولا أزكيه على الله تعالى . ولكنّ ضبطه للحديث فيه نظر ، وهو لم يطلب علم الحديث على طريقة المحدّثين ، ولا تصرّف فيه تصرّفهم ، فلم يعجبهم ذلك منه ، وأهل الحديث عامّة لا يغوصون وراء النصوص غوص الفقهاء .

ـ والثاني : أنّ القول بضعف أبي حنيفة في الحديث ، أو ثقته فيه ؛ لا يعني اليوم شيئاً عمليّاً ، فقد أسقط علماءُ الحديث رواياته من مصنّفاتهم ، حتى إنّك لا تجد له حديثاً مرفوعاً واحداً في الكتب الستة الأصول !

وكل الذي له فيها ثلاث حكايات مقاطيع عند الترمذي (٩٩ ، ٥٩٩ ، ٩٠٦) وحديث موقوف على ابن عباس أخرجه النسائي في سننه الكبرى (٧٣٤١) وضعّفه بعاصم بن عمر شيخ أبي حنيفة فيه .

لكنّ المفيد اليوم معارضة روايات أبي حنيفة التي اعتمدها الحنفيّة واستدلّوا بها في كتبهم بروايات الحفّاظ ، والوصول إلى نتيجة علميّة تفيد في اعتماد هذه الروايات ، أو عدم اعتمادها .

ولقد كتب الزميل الدكتور عبد العزيز شاكر الكبيسي العراقي دراسة علمية بعنوان :

(مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث)[١] .

وقد جاءت هذه الدراسة الضخمة في (٥٥٠) صفحة ، حاول الباحث فيها أن يجعل الإمام أبا حنيفة من كبار المحدّثين ، وأنّ درجة أحاديثه عالية ، وأنه هو ـ رحمه الله ـ يقرن بكبار المحدّثين المعاصرين له !

قال الباحث تحت عنوان (درجة أحاديث الإمام) : «ويظهر من خلال دراسة مسانيد الإمام أبي حنيفة أنّه مثلُ غيره من أقرانه ومعاصريه الذين برزوا في رواية الحديث كمالك والسفيانين وشعبة والأوزاعي والليث بن سعد وغيرهم ، من حيث اشتمال رواياتهم على المرفوع والموقوف والمقطوع والمتصل والمرسل والصحيح والحسن والضعيف»[٢] ثم راح يشرح لنا معنى الحديث المتّصل والحديث الحسن !! .

أقول : إنّ كلام زميلنا الدكتور عبد العزيز شاكر لا يستوي إلا على قاعدة (حُبّك الشيء يعمي ويصمّ) .

ذلك أنّ الزميل الفاضل جعل أبا حنيفة في الحديث مثل مالك والثوري وابن عيينة وضربائهم ، ونحن بين خيارين لا ثالث لهما :

ـ إما أن نصوّب كلام الزميل الفاضل ، ونضرب بعُرض الحائط كلامَ جميع المصنّفين في الحديث النبوي ، ونتهمهم بظلم أبي حنيفة ، وعداوته غير المشروعة ، وبالتالي فنسقط عدالتَهم .

ـ وإمّا أن يكون هؤلاء العلماء المصنّفون ـ مجتمعين ـ أمناء على سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ، وحاشاهم أن يجتمعوا على ظلم ، وعلى عداوة عصبية ، فيكون كلام زميلنا خاوياً عديم المعنى !

ومما لا ريب فيه أنّ (البخاري ومسلماً وابن خزيمة وابن حبّان والدارمي وأبا داود السجستاني والترمذي والنسائي وابن ماجه وقَبْلَ جميعهم مالك وأحمد) أصدق وأنبل

---

(١) رسالة حصل بها الباحث على درجة الماجستير من كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد (١٩٩٢م) .

(٢) مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث (ص : ٢١٢) .

وأبرّ من زميلنا الفاضل ، ومن جميع من يوافقه على هذا الرأي الفجّ من المتقدّمين والمتأخّرين سواء !

ـ ففي الكتب التسعة السابقة ـ سوى صحيحي ابن خزيمة وابن حبّان ـ ليس لأبي حنيفة إلا حديث واحد مرفوع أخرجه له الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢١٩٤٩) .

ـ أما الإمام مالك فله في هذه الكتب ـ بالمكرّرات طبعاً ـ (٢٦٠٦) ألفا حديث وست مئة حديثٍ ، وستةُ أحاديثَ ، منها عند البخاري ومسلم (٩٩٠) تسع مئة وتسعون حديثاً .

ـ وأما الإمام سفيان الثوري ، فله في هذه الكتب (٣٦١٣) ثلاثة آلاف حديث ، وست مئة حديث ، وثلاثة عشر حديثاً ، منها عند البخاري ومسلم (٥٨٨) خمس مئة وثمانية وثمانون حديثاً .

ـ وللإمام سفيان بن عيينة في هذه الكتب (٣٠٠٦) ثلاثة آلاف حديث وستة أحاديث ، منها عند البخاري ومسلم (٨٧٥) ثمان مئة وخمسة وسبعون حديثاً .

ـ وللإمام شعبة بن الحجّاج (٥٦٥٦) خمسة آلاف حديث ، وست مئة ، وستة وخمسون حديثاً ، منها عند البخاري ومسلم (١٣٨٥) ألف وثلاث مئة حديث وخمسة وثمانون حديثاً .

ـ وللإمام أبي عمرو الأوزاعي (٧٣٠) سبع مئة وثلاثون حديثاً ، منها عند البخاري ومسلم (١٣١) مئة وواحد وثلاثون حديثاً .

ـ وللإمام الليث بن سعد (١٩٨٩) ألف وتسع مئة وتسعة وثمانون حديثاً ، منها عند البخاري ومسلم (٧٣٥) سبع مئة وخمسة وثلاثون حديثاً .

فإذا كانت درجة أحاديث أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ مثل درجة أحاديث هؤلاء فهل يكون أئمة الحديث أمناء على سنة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم حين يخرّجون عن هؤلاء هذه الألوفَ من الأحاديث ، ولا يخرّجون عن أبي حنيفة إلا حديثاً واحداً مع فقهه ، وورعه ، وعلوّ سنده؟ هل يقول بهذا من شمّ رائحة علم الحديث؟

المطلب الثَّالث: الاتِّهامات العَقَدِيَّة الموجَّهة إلى أبي حنيفة

لقد وجَّه ابن حبَّان إلى أبي حنيفة تهمتين عَقَديتين :

أولاهما : أنه كان داعية إلى الإرجاء .

والثانية : مخالفة السَّلف في مسألة (القرآن) .

قال ابن حبَّان في ترجمة أبي حنيفة :

(ومن جهة أخرى لا يجوز الاحتجاج به ؛ لأنَّه كان داعية إلى الإرجاء . . .)[١] .

وقال في ترجمة أبي يوسف[٢] :

(كان شيخاً متقناً ، لم يسلك مسلك صاحبيه ـ يعني أبا حنيفة ومحمداً ـ إلاّ في الفروع ، وكان يباينهما في الإيمان والقرآن) .

وروى في المجروحين أثرين[٣] يتهمان أبا حنيفة بالقولِ بخلق القرآن ، إلاّ أنَّ الأثرين في رواتهما من لم أعرفه .

وأما اتّهام أبي حنيفة بالإرجاء ، فهذا مستفيض عند أهل الحديث ، بل يقرُّه الحنفية أنفسهم ويعدُّونه إرجاء السُّنة . بخلاف إرجاء البدعة الذي يقول أصحابه : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وسوف أستعرض كلّ مسألة في فرع خاصّ .

الفرع الأول: مذهبه في القرآن

أما حيال مسألة (خلق القرآن) فأبو حنيفة رحمه الله يكفِّر من قال : القرآن كلام الله مخلوق ، ويرى أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، وبمثله كان يقول أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن[٤] وأما ما روي عنه من أنَّه يقول : القرآن مخلوق ، فغير

(١) المجروحين (٣ : ٦٤) .

(٢) الثقات (٧ : ٦٤٦) .

(٣) المجروحين (٣ : ٦٤ ـ ٦٥) .

(٤) انظر الفقه الأكبر (ص٢٢ ـ ٢٤) وشرح أصول السُّنن للالكائي (١ : ٢٦٩) والأسماء والصِّفات للبيهقي (ص٢٥١) .

صحيح من جهة النّقل[1] .

نعم إنَّ الحنفية يقرون بأنَّ أبا حنيفة رحمه الله يقول[2] : (اللفظ بالقرآن والتلاوة والحروف والأصوات مخلوقة) .

وابن حبَّان نفسه يعرض بمثل[3] هذا في صحيحه ، فما وجه العيب على أبي حنيفة إذن في مسألة القرآن؟

يبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ ابن حبَّان كان لا يرى التلفظ بكلمة (لفظي بالقرآن مخلوق) ونحوه ، فقال ما قال . وإلاَّ فإنَّ كلام البخاري في هذه المسألة ككلام أبي حنيفة سوى أنَّ البخاري لم ينطق بكلمة (لفظي بالقرآن مخلوق) .

وأما ما جاء عن الإمام أحمد من أنه قال : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ـ والإمام البخاري إنّما امتحن بسبب ذلك ـ فإنَّ ابن القيم ـ رحمه الله ـ يجيب على ذلك فيقول :

(خَفِيَ تفريق البخاري وتمييزه على جماعة من أهل السُّنة والحديث ، ولم يفهم بعضهم مراده ، وتعلَّقوا بالمنقول عن أحمد نقلاً مستفيضاً أنه قال : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ، وساعد على ذلك نوع حسد باطن للبخاري . . .) .

ثم قال : (البخاري أعلم بهذه المسألة ، وأولى بالصَّواب فيها من جميع من خالفه وكلامه أوضح وأمتن من كلام أبي عبد الله ، لكنّ الإمام أحمد سدّ الذريعة حيث منع إطلاق لفظ المخلوق نفياً وإثباتاً على اللفظ . . والذي قصدَه أحمد أنَّ اللفظ يُراد به أمران :

(١) أحدهما الملفوظ نفسه ، وهو غير مقدور للعبد ولا فعل له .

---

(١) انظر شرح أصول السُّنة (١ : ٢٣٩) وتعليقات الدكتور أحمد سعد حمدان في الحاشية ، وقارن بـ (١ : ٢٦٩) منه .

(٢) لفت اللّحظ إلى ما فيه الاختلاف في اللفظ للكوثري (ص : ٤٧ ـ ٤٨) ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢ : ٣٠٧) .

(٣) الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان (٢ : ١٩٥) .

(٢) والثاني : التلفُّظ به والأداء له ، هو فعل العبد ، فإطلاق الخلق على اللفظ قد يوهم المعنى الأول وهو خطأ ، وإطلاق نفي الخلق عليه قد يوهم المعنى الثاني وهو خطأ فمنع الإطلاقين .

وأبو عبد الله البخاري ميَّز وفصَّل ، وأشبع الكلام في ذلك ، وفرَّق بين ما قام بالربّ وبين ما قام بالعبد ، وأوقع المخلوق على تلفُّظ العباد وأصواتهم وحركاتهم ، ونفى اسم الخلق عن الملفوظ ، وهو القرآن الذي سمعه جبرائيل من الله تعالى ، وسمعه محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من جبرائيل ، وقد شفى في هذه المسألة في كتاب «خلق أفعال العباد»)[١] . وأياً ما كان الأمر ، فالمسألة لا تعدو أن تكون خلافاً في وجهة نظر حول إطلاق كلمة أو عدم إطلاقها .

وبعد هذا وقع في نفسي أنّ هذه التّهمة ـ على إنكار ابن حبان إياها ـ ضعيفة عنده لأنه لم يوردها في ترجمة أبي حنيفة ، نقداً قادحاً له ، وسبباً من أسباب تضعيفه . وإنَّما قصر ذلك على تهمة الإرجاء والضّعف في الحديث . والله أعلم .

غير أنَّ مما ينبغي التذكير به أنَّ مسألة خلق القرآن ليست هي[٢] مسألة اللفظ ، وإن كان بينهما عموم وخصوص ، والخلط بينهما غير مُرضٍ وغير علميٍّ أيضاً . والله المستعان .

الفرع الثاني: مذهبه في الإيمان

نقل الحنفية وغيرهم إجماع أهل اللغة على أنَّ الإيمان[٣] هو التصديق ، ولذلك فقد ذهب أبو حنيفة إلى (أنَّ الإيمان هو الإقرار والتصديق ، وإيمان أهل السَّماء والأرض لا

---

(١) مختصر الصواعق (٢ : ٣١٠ ـ ٣١١) .

(٢) كتب الشَّيخ عبد الفتاح أبو غدة رسالة صغيرة بعنوان : مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدِّثين وكتب الجرح والتعديل . وهي جديرة بالدِّراسة والتفنيد لكثير من مباحثها ، ومنها خلطُه بين مسألة خلق القران ، ومسألة اللفظ .

ثم رأيت الشَّيخ التويجري رد عليه في رسالة صغيرة تناولت الجانب العقديَّ منها ، وبقيت جوانب أُخَر سأعرض لبعضها في الباب السَّادس إن شاء الله .

(٣) الإيمان ومبطلاته للزميل الدكتور حافظ شريدة (ص٢) رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى عام ١٣٩٩هـ .

يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن به ، ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق .

والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد ، متفاضلون في الأعمال .

ويستوي المؤمنون كلُّهم في المعرفة واليقين والتوكل والرضى والمحبة والخوف والرجاء والإيمان في ذلك ، ويتفاوتون فيما دون الإيمان في ذلك كلِّه .

ولا نقول : إنَّ المؤمن لا تضرّه الذنوب ، ولا نقول : إنَّه لا يدخل النَّار ، ولا نقول : إنه يخلد فيها وإن كان فاسقاً ، بعد أن يخرج من الدنيا مؤمناً .

ولا نقول : إنَّ حسناتنا مقبولة ، وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة ، ولكن نقول : من عمل حسنة بجميع شرائطها ، خالية عن العيوب المفسدة والمعاني المبطلة ، ولم يبطلها بالكفر والردة ، حتى خرج من الدنيا مؤمناً ؛ فإنَّ الله تعالى لا يضيعها ، بل يقبلها منه ويثيبه عليها .

وما كان من السيئات دون الشِّرك والكفر ، ولم يَتُبْ عنها صاحبها حتى مات مؤمناً فإنَّه في مشيئة الله تعالى ، إن شاء عذبه بالنَّار ، وإن شاء عفا عنه ، ولم يعذِّبه بالنَّار أصلاً)[١] .

من هذا النَّص نستنتج الأمور الآتية :

(١) الإيمان هو الإقرار والتصديق ، والمؤمنون مستوون في الإيمان متفاضلون بالأعمال .

(٢) الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وإيمان أهل السَّماء وأهل الأرض واحد من جهة المُؤْمَنِ به ، ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق .

(٣) مخالفة أبي حنيفة للمرجئة القائلين : لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

(٤) صاحب الكبيرة ليس كافراً ، وإنَّما هو مؤمن فاسق عاصٍ ، وأمره إلى الله ؛ إن شاء غفر له ، وإن شاء عذَّبه .

(٥) ونتيجةً لما سبق ، فإنَّ المؤمن يقول : أنا مؤمن حقاً ، ولا يقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

---

(١) الفقه الأكبر (ص١٦٨ ـ ١٦٩) .

والذي أريد مناقشته الفقرات الأولى والثانية والخامسة ؛ لأنَّ هذه الأمور هي المعنيّة بمخالفة أبي حنيفة للسَّلف في الإيمان .

فالسَّلف جميعاً يقولون : الإيمان عقد ونية وعمل ، أو هو : قول وعمل وتصديق ، وأنَّه يزيد وينقص ويتفاوت فيه المؤمنون ، وأنه يجوز الاستثناء في الإيمان على بعض الوجوه ـ كما سيأتي تحريره ـ .

ـ ١ ـ المسألة الأولى : حقيقة الإيمان

اختلف النَّاس في حقيقة الإيمان على أقوال كثيرة جداً (فذهب مالك والشَّافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه ، وسائر أهل الحديث ، وأهل المدينة ، وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين ، إلى أنه تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

وذهب كثير من أصحابنا ـ الحنفية ـ إلى ما ذكره الطحاوي رحمه الله أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان . ومنهم من يقول : إنَّ الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي ـ رحمه الله ـ وهو مرويٌّ عن أبي حنيفة)[1] .

(ومَرَدُّ اختلافِ النَّاس في الإيمان يرجع إلى أنَّ الإيمان :

(١) إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما ذهب إليه جمهور السَّلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم ـ رحمهم الله ـ كما تقدم .

(٢) أو بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله .

(٣) أو باللسان وحده كما هو مذهب الكرّاميّة .

(٤) أو بالقلب وحده ، وهو :

(أ) إما المعرفة ـ كما قال الجهم ـ .

(ب) أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي ـ رحمه الله ـ)[2] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص٣٧٣) .

(٢) ما سبق (ص٣٧٤) .

ولنعرف قرب رأي أبي حنيفة من مذهب الإرجاء، أو بعده عنه، يلزم أن نذكر بأنَّ المرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة[(١)].

وأبو حنيفة يعدّه أصحاب المقالات في المرجئة الخالصة.

وقد اختلف المرجئة في الإيمان إلى اثنتي عشرة فرقة وجميعهم يقولون: إنَّ الإيمان لا يزيد، ولا ينقص، إلاَّ الحسين بن محمد النجّار وأصحابه فإنهم يقولون: إن الإيمان[(٢)] يزيد ولا ينقص.

والمرِّيسية يقولون: (إنَّ الإيمان هو التصديق، لأنَّ الإيمان في اللغة هو التصديق، وما ليس بتصديق فليس بإيمان، ويزعم أنَّ التصديق يكون بالقلب واللسان)[(٣)].

قال الأشعري في مقالات الإسلاميين: (الفرقة التاسعة من المرجئة.. أبو حنيفة وأصحابه يزعمون أنَّ الإيمان: المعرفة بالله، والإقرار بالله، والمعرفة بالرسول، والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير.

ولم يجعل أبو حنيفة شيئاً من الدِّين مستخرجاً إيماناً، وزعم أنَّ الإيمان لا يتبعَّض ولا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل النَّاس فيه...)[(٤)].

ولا ريب أنَّ من المرجئة من قال (إنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة) وهم الجهمية.

أما بقية المرجئة فيقترب قول بعضهم من قول أبي حنيفة، أو يبعد، إلاَّ أنَّهم يكادون يتفقون على أنَّ الإيمان هو الإقرار والتصديق فقط. وأبو حنيفة نفسه نص على أنه إنما

---

(١) مقالات الإسلاميين (١ : ٢١٣) وانظر اختلاف المرجئة في الإيمان في المقالات (١ : ٢١٣ ـ ٢٢٣).

(٢) مقالات الإسلاميين (١ : ٢١٦).

(٣) ما سبق (١ : ٢٢٢).

(٤) ما سبق (١ : ٢١٩ ـ ٢٢١).

خالف الجهمية في الأعمال فقال : (ولا نقول إنَّ حسناتنا مقبولة ، وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة) . . ـ وقد تقدم ـ[١] .

قال الشَّيخ علي القاري[٢] : (إنَّ من حصل له حقيقة التصديق ، فسواء أتى بالطاعات ، أو ارتكب السيئات فتصديقه باقٍ على حاله لا تغير فيه أصلاً) .

قلت : ولا ريب أنَّ في كلام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ما فيه .

قال ابن أبي العز[٣] : (وقد أجمعوا على أنه لو صدَّق بقلبه وأقرَّ بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاصٍ لله ورسوله ، مستحق للوعيد ، لكن فيمن يقول : إنَّ الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان من قال : (لما كان الإيمان شيئاً واحداً فإيماني كإيمان أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما) . بل قال : (كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل عليهم السَّلام) . وهذا غلوٌّ منه ، فإنَّ الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر ، ولا شك أنَّ البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه) ا . هـ .

إلاَّ أنَّ الشَّيخ زاهداً الكوثري لا يرتضي مثل جواب ابن أبي العز ، وإنما يرى (أنَّ إيمان الأنبياء وإيمان العلماء وإيمان العوام ، يتفاوت من جهة ما يحتمل الزوال منها ، وما لا يحتمله ، واحتمال الزوال أو عدم احتماله ناشئ من أمر خارج ، وذلك من تفاوت طرق حصول الجزم عندهم ، لا من التفاوت في ذات الإيمان ، فالإيمان عند الأنبياء لا احتمال لزواله منهم لأنَّ حصوله عن مشاهدة ، ووحي قاهر ، وإيمان العلماء يحتمل الزوال بطروء بعض شبه على أدلة الإيمان عندهم ، ولو احتمالاً ضعيفاً .

وأما إيمان العوام فربما يزول بأيسر تشكيك . . . فبهذا البيان ؛ اتضحت المسألة تمام الاتضاح . . .)[٤] .

ويردّ الشَّيخ المعلِّمي على كلام الكوثري فيقول :

---

(١) الفقه الأكبر (ص١٦٩) .

(٢) ما سبق (ص١١٢) .

(٣) شرح الطحاوية (ص٣٧٥) .

(٤) التنكيل (٢ : ٣٦٩) .

(لنا أن نلتمس من الأستاذ الكوثري ، أن يفكر في اعتقاده أنَّ الثلاثة من حيث العددية ، أقل من السِّتة . هل يمكن أن يتشكّك فيه يوماً ، مع بقاء عقله؟

فإن قال : لا ، فليستعرض الاعتقادات الدينية الضرورية للإيمان ، التي يرى أنه جازم بها حقَّ الجزم ؛ هل يمكن أن يتشكك في بعضها يوماً ما؟

فإن قال : لا ، فقد أخرج نفسه من زمرة العلماء الذين قضى في عبارته السَّابقة ، بأنَّ إيمانهم يحتمل الزوال . وإن قال : يجوز ذلك ، قيل له : فتجويزك هذا ، ألا يدل على أنَّ جزمك بتلك العقيدة ، دون جزمك بأن الثلاثة ، نصف السِّتة؟

فإن قال : إنَّ هذا الأمر خارج .

قيل له : هذا الأمر الخارج إنَّما حاصله قوة الدليل في حق الأنبياء وكونه دون ذلك في حق العلماء ، أو ليس من لازم تفاوت الأدلة في القوة تفاوت الجزم بمدلولاتها عند العارف بتفاوتها؟

فالدَّليل الذي يكون عندك غايةً في القوة ؛ يكون جزمُك بمدلوله وانتفاء نقيضه ؛ أقوى من جزمك بمدلول دليل دونه عندك في القوة .

فإن قال : ليس هذا بلازم ؛ فإنَّ الجزم قد يقع عن شبهة باطلة .

قلت : من جزم عن شبهة باطلة ، فإنَّه لا يراها شبهةً ، بل يراها دليلاً قاطعاً ، وكلامنا إنَّما هو في العالم الذي يميزِّ بين الأدلة .

فإن عاد وقال : تفاوت الأدلة مع الجزم بمدلولاتها ، إنَّما يكون من جهة أنَّ بعضها لا يحتمل أن تعرض شبهة تشكك فيه ، وبعضها يحتمل ذلك .

قيل له : تسمية العارض شبهةً ، فيه مغالطة . فإن من جزم بشيء ، ثم عرض له ما يجزم معه بأنه شبهة ، فإنَّ جزمه الأول لا يتغير ، وإنَّما يتغير ، حيث يجوز أنَّ العارض دليل .

فعلى هذا ، إذا كنت الآن تجوِّز في بعض ما تجزم به أن يعرض ما يشكّك فيه ويزيل جزمك ، فمعنى ذلك أنَّك تجوِّز أن يعرض مشكّك فيه ، ما يحتملُ أن يكون دليلاً صحيحاً ، وألا يكون شبهةً .

ويوضح هذا أنَّ بعضَ المسائل الحسابية والهندسية اليقينية يجوز لجازمٍ بها ، بعد أن يحيط بها ، أن يعرض ما يظهر منه خلاف ما جزم به ، ولكنه يجزم الآن بأنه لو عرض ألف عارضٍ من تلك العوارض ؛ لما تغيّر جَزمُه ، وكما يجزم بهذا في حق نفسه ؛ فكذلك يجزم في حقّ غيره ، بأنَّ من عرف تلك المسألة كما عرفها ؛ لا يتغيّر جزمُه ، ما دام عَقَلَه ، فهذا هو الذي يصح أن تحكم بأنه جازمٌ أنَّ العارضَ لا يكون إلاّ شبهة .

فإن قيل : فما قولك أنت؟

أقول : إنَّ الإيمان يتفاوت ، وإن ذلك التجويز المستبعد ، إذا كان صاحبه ينفر عنه ويشفق منه ، ويستعيذ بالله عز وجل ، فإنَّه لا يضره ، بل ولا يضره عروض الشبهة إذا كان عند عروضها يتألم ويتأذى وتشق عليه ، ويبادر إلى طردها ؛ مستعيذاً بالله عزّ وجلّ وإنَّما يضرُّه أن يأنس بها ، وتستقرَّ في قلبه وتَبيضَ وتفرّخَ ، حتى يَصْدُقَ عليه اسم «مرتاب !» هذا هو الذي تدل عليه النصوص ، والذي لا يسع الناسَ غيرُه و ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾)[1] .

ـ ٢ ـ المسألة الثانية : زيادةُ الإيمان ونقصانه

تقدم قول أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنَّ المؤمنين مستوون في الإيمان والتوحيد ويتفاضلون بالأعمال .

قال الكوثري : (يرى أبو حنيفة أنَّ العملَ ليس بركنٍ أصلي من الإيمان ، بحيث إذا أخلَّ المؤمن بعملٍ ؛ يزول منه الإيمان ، كما يرى أنَّ الإيمان هو العقد الجازم ، بحيث لا يحتمل النقيض ، ومثل هذا الإيمان ؛ لا يقبل الزيادة والنقص . . .

وحيث كان أبو حنيفة وأصحابه لا يرون تخليد العاصي في النار ؛ رماهم خصومهم بالإرجاء ، وأعلنوا عن أنفسهم أنَّهم منحازون إلى الخوارج في المعنى . . .

والإرجاء بالمعنى الذي هم يقولون به ؛ هو محض السُّنة ، ومن عادى ذلك ؛ لا بد أن يقع في مذهب الخوارج أو المعتزلة ، شاعراً أو غير شاعر . . .

---

(١) التنكيل (٢ : ٣٦٩ ـ ٣٧١) .

كان في زمن أبي حنيفة لا بعده أناس صالحون يعتقدون أنَّ الإيمانَ قولٌ وعمل ، يزيد وينقص ، ويَرمون بالإرجاء من يرى أنَّ الإيمان هو العقد والكلمة ؛ مع أنَّه الحق الصّراح بالنسبة إلى حجج الشَّرع . . . وهؤلاء الصالحون باعتقادهم ذلك الاعتقاد ، أصبحوا على موافقة المعتزلة أو الخوارج حتماً ؛ إن كانوا يعدّون خلافَ اعتقادهم هذا بدعةً وضلالةً لأنَّ الإخلال بعمل من الأعمال ـ وهو ركن الإيمان ـ يكون إخلالاً بالإيمان ، فيكون من أَخلَّ بعملٍ ؛ خارجاً من الإيمان ، إمَّا داخلاً في الكفر كما يقوله الخوارج ، وإما غير داخل فيه ، بل هو في منزلة بين منزلتين ـ الكفر والإيمان ـ كما هو مذهب المعتزلة .

وهم أشد النَّاس تبرؤاً من هذين الفريقين .

فإذا تبرَّموا أيضاً مما كان عليه أبو حنيفة وأصحابه ، وباقي أئمة هذا الشَّأن ؛ يبقى كلامُهُم متهافتاً غير مفهوم .

وأما إذا عَدّوا العملَ من كمال الإيمان فقط ؛ فلا يبقى وجه للتنابز والتنابذ .

لكنَّ تشددهم هذا التشدد ، يدل على أنهم لا يَعُدّون العمل من كمال الإيمان ، بل يَعدّونه ركناً منه أصلياً ، ونتيجة ذلك كما ترى . . . فإرجاء العمل من أن يكون من أركان الإيمان الأصليّة هو السُّنة ، وأما الإرجاء الذي يُعَدّ بدعةً ؛ فهو قول من يقول : «لا تضرّ مع الإيمان معصية» وأصحابنا أبرياء من مثل هذا القول . . . ولولا مذهب أبي حنيفة وأصحابه في هذا ؛ للزم إكفار جماهير المسلمين غير المعصومين ؛ لإخلالهم بعمل من الأعمال في وقت من الأوقات ، وفي ذلك الطامة الكبرى)[1] .

وقد أجاب على هذا الشَّيخ المعلِّمي فقال : (اختلفت الأمة فيمن كان مؤمناً ثم ارتكب كبيرة ، فقالت الخوارج : يكفر ، وقالت المعتزلة : لا يكفر ، ولكن يزول إيمانه ، وإذا مات من غير توبة ؛ دخل النَّار ، وخُلِّد فيها مع الكفار .

وقالت المرجئة :

(أ) لا يكفر .

(ب) ولا يزول إيمانه .

---

(١) نقلاً عن التنكيل (٢ : ٣٦٢ ـ ٣٦٤) .

(جـ) ولا يدخل النَّار ، لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقال أهل السُّنة :

(أ) لا يكفر .

(ب) ولا يزول إيمانه البتة ، بمجرد ارتكابه الكبيرة .

(جـ) ولكنه يكون ناقصاً .

وقال بعض الأئمة : إلاَّ ترك الصَّلاة المكتوبة عمداً ؛ فإنه كُفْر ، وحقّق بعض أتباعهم أنَّ الترك نفسه ليس كفراً ، ولكنَّ الشَّرع قضى أنه لا يكون إلاَّ مِن كافر .

ويستدل المرجئة والمعتزلة والخوارج بنصوص ظاهرها أنَّ المؤمنين لا يُعذَّبون ، ويستدل المعتزلة والخوارج بنصوص ظاهرها أنَّ مرتكب الكبيرة لا يبقى مؤمناً ، ويستدل الخوارج بنصوص ظاهرها أنَّ ارتكابَ بعضِ الكبائر كفرٌ .

وأهل السُّنة يجيبون عن الأولين ـ القائلين بأن المؤمنين يدخلون الجنة ـ بأنَّ المراد الإيمان الكامل ، وعن الثالث ـ قول الخوارج ـ بأنَّه كفر دون كفر ، فهو كفر يقتضي نقص الإيمان لا زواله . ويدفع المرجئة الجواب المذكور بقولهم :-الإيمان لا يزيد ولا ينقص والأعمال ليست من الإيمان . وهذا القول ، قد كان أبو حنيفة يقوله ، لكن يقول الكوثري : إنَّه مع ذلك مخالف للمرجئة في أصل قولهم ؛ وهو أنه لا يضر مع الإيمان معصية)[1] .

والذي ينظر فيما سبق يتبين له أنَّ أبا حنيفة وافق المرجئة في أنَّ مرتكب الذنب لا يكفر ولا يزول إيمانه ، وخالفهم بالنِّسبة للجزاء الأخروي فقال : أمرُهُم إلى الله إن شاء غفر لهم وإن شاء عذَّبهم ، أما إيمانهم فهو كامل كإيمان جبريل وميكائيل . . وخالف بقوله هذا جماهيرَ علماءِ أهل السُّنة الذين يقولون : لا يزول عنه اسم الإيمان ولا يكفر ، وإنَّما ينقص إيمانه نقصاً يتناسب مع عِظَم الذنوب التي يرتكبها .

وابن حبَّان ـ رحمه الله ـ وهو الذي يتمسك بالأثر ، ويهتدي بهدي أهل الحديث معذور فيما قاله عن عقيدة أبي حنيفة في الإيمان ـ كما كان معذوراً فيما قال عن عقيدته في القرآن ـ لأمرين :

---

(١) التنكيل (٢ : ٣٦٤) .

(١) الأول : أنه لم يقل عنه شيئاً ؛ لا يقوله هو ، ولا يعتقده أصحابه .

(٢) الثاني : أنَّ قول أبي حنيفة ؛ مخالف لظواهر الأدلة المتضافرة وأقوال السَّلف من علماء الحديث ، ومنهج ابن حبّان منهجهم !

قال البيهقي رحمه الله : (والأحاديث في تسمية شرائع الإسلام إيماناً ، وأنَّ الإيمان والإسلام عبارتان عن دين واحد إذا كان الإسلام حقيقة ، ولم يكن بمعنى الاستسلام وأنَّ الإيمان يزيد وينقص . . . كثيرة . . . وقد روينا في ذلك عن الخلفاء الراشدين أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، ثم عن عبد الله بن رواحة ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله ابن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وأبي الدرداء ، وعبد الله بن عباس ، وأبي هريرة ، وعثمان بن حنيف ، وعمير بن حبيب ، وجندب ، وعقبة بن عامر رضي الله عنهم ، ومن التابعين وأتباعهم عن جماعة يكثر تعدادهم .

وهو قول فقهاء الأمصار ـ رحمهم الله ـ مالك بن أنس ، والأوزاعي ، وسفيان بن سعيد الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وحماد بن زيد ، وحمّاد بن سلمة ، ومحمد بن إدريس الشّافعي ، وأحمد ابن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ؛ وغيرهم من أهل الحديث ورويناه عن قتيبة بن سعيد عن أبي يوسف القاضي . . .)[١] .

قلت : ظهرَ مما تقدّم أن مسألة «زيادة الإيمان ونقصانه» دقيقة الملحظ ، والمسائل الدقيقة تختلف فيها الأنظار ، وتتفاوت فيها الفهوم على حسب ما منح الله تعالى منها خَلْقَه ، وبقدْر ما استطاع كل منهم من تحصيل العلوم ، وفقه النفس .

ومما لا أرتاب فيه أنّنا لسنا على حالٍ واحدةٍ ثابتةٍ من التصديق والطمأنينة واليقين بل إنّ زيادة إيماننا بالطّاعات ، ونقصانه بنقصان الطاعات المندوبات ، فضلاً عن ترك الفرائض ؛ بَلْهَ ارتكابنا المعاصي والمنكرات ؛ يُحسُّهُ حتى كبار الصالحين ؛ فضلاً عن أمثالي من العصاة المذنبين .

---

(١) الاعتقاد للبيهقي (ص١٨٠) وانظر الإيمان لابن تيمية (ص١٩٤) فما بعد ، والطحاوية (ص٣٧٧) فما بعد ، والتنكيل (٢ : ٣٦٥) فما بعد . وانظر لزاماً كتاب الإيمان لابن أبي شيبة العبسي ففيه آثار عن جماهير غفيرة من الصّحابة والتابعين فمن بعدهم .

(٣) المسألة الثالثة: الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان معناه : أن يُسأل الرجل : أمؤمن أنت؟ فيقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

قال شارح الطحاوية : (النَّاس فيه على ثلاثة أقوال : طرفان ووسط ؛ منهم من يوجبه ومنهم من يُحَرّمُه ، ومنهم من يُجيزُه باعتبار ، ويمنعه باعتبار ، وهذا أصحّ الأقوال . . .)[١] .

(أما من يحرِّمه ، فكل من جعل الإيمان شيئاً واحداً ، فيقول : أنا أعلم أنِّي مؤمن ، كما أعلم أنِّي مسلم ، فمن استثنى في إيمانه ؛ فهو شاكٌّ فيه ، وسَمّوا الذين يستثنون في إيمانهم شكاكة ، وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى : ﴿لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شاء اللهُ آمنين﴾ بأنه يعود إلى الأمن أو الخوف ، فأما الدخول ؛ فلا شك فيه ، وقيل : لتدخلنَّ جميعكم أو بعضكم ، لأنه علم أنَّ بعضهم يموت . وفي كلا الجوابين نظر ؛ فإنَّهم وقعوا فيما فروا منه ، فأما الأمن والخوف ؛ فقد أخبر أنَّهم يدخلون آمنين ، مع علمه بذلك ، فلا شك في الدُّخول ولا في الأمن ، ولا في دخول الجميع أو البعض ، فإنَّ الله قد علم من يدخلُ ، فلا شك فيه أيضاً ، فكان قولُ «إن شاء الله» هنا تحقيقاً للدخول . . .)[٢] .

وقال الشَّيخ عليّ القاري[٣] مُوضحاً مذهب الحنفية : (إن العبد إذا وُجد منه التصديق والإقرار ؛ صح له أن يقول : أنا مؤمنٌ حقاً ، لتحقق الإيمان ، ولا ينبغي أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ؛ لأنه إن كان للشك ؛ فهو كفر لا محالة ، وإن كان للتأدب وإحالة الأمور إلى مشيئة الله تعالى ، أو للشك في العاقبة والمآل ، لا في الآن والحال ، أو للتبرك بذكر الله والتبرئ عن تزكية المؤمن نفسه ، والإعجاب بحاله ؛ فالأولى تركه ، لما أنه يوهم الشك على ما ذكره شارح العقائد ، فإنَّ صاحب التمهيد والكفاية وغيرهما من العلماء الحنفية كفَّروا القائل به ، وحكموا ببطلان قولهم : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ، وقالوا : ذلك لا يصح ، كما لا يصح قول القائل : أنا حيٌّ إن شاء الله تعالى ، وأنا رجل إن شاء الله

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٣٩٥) .
(٢) ما سبق (ص٣٩٧) .
(٣) شرح الفقه الأكبر (ص١١٦) .

تعالى . وقال صاحب التعديل : فإن لم يثبت الكفر ؛ فلا أقلّ من أن يكون التَلفُّظُ به حراماً ؛ لأنَّه صريح في الشك في الحال ، وهو لا يستعمل في المحقّق في الحال ، حيث لا يقال : أنا شابٌّ إن شاء الله تعالى) .

قلت : أنا والله لا أدري كيف يكون قول المرء (إن شاء الله) للتأدّب فقط ، أو إحالة الأمور إلى الله ، أو لعدم الجزم بالعاقبة والمآل ، أو للتبرّي عن تزكية النفس ، أو الإعجاب بالحال ؛ تركه أولى؟

أوَ ليس مما يوجبه الإسلام على المرء المسلم هذه الأمور؟ أوَ لسنا ملزمين بالأدب مع الله فلا نقدِّم بين يديه؟ أوَ لسنا مأمورين بإحالة الأمور إلى الله ، وليس أحد منا يجزم بعاقبته؟ أوَ لسنا مطالبين بالتبرئ من حولنا وقوتنا وتزكية أنفسنا ، والإعجاب بحالنا؟ فكيف يكون قول كلمة (إن شاء الله) على هذه المعاني خلاف الأولى؟

ثم أليس من الغريب أن يُكفَّر قائل هذا ؛ تعصُّباً وتزمُّتاً ليس غير؟ وهل يجوز سطر هذا في كتب العلم؟

قال الشَّيخ عليّ القاري[1] ردّاً على هذه الأقوال : (وفيه : أنَّه لا وجه للكفر والذَّنب فإنَّ بعضهم ذهبوا إلى الوجوب ، وكثير من السَّلف حتى الصحابة والتابعين ذهبوا إلى الجواز ، وهو المحكيّ عن الشَّافعي رحمه الله وأتباعه . . .) إلا أنَّ الشيخ عليّاً القاري راح ينصر مذهبه بعدئذ .

والحمد لله أن وُجد في الصَّحابة والتابعين من يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، فما حكم إيمانهم عند الحنفية ؛ غفر الله لنا ولهم؟!

أفلا يجوز لابن حبَّان أن ينتقد رأي أبي حنيفة هذا ، ويعدّه مخالفاً لرأي السلف الصالح؟

قال الحسن البصري : (الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب؟ فأنا مؤمن .

---

(١) شرح الفقه الأكبر (ص١١٦) .

وإن كنت تسألني عن قول الله عز وجل : ﴿إنَّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وَجِلَتْ قلوبهم ، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصَّلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً . . .﴾ (الأنفال : ٢ ـ ٤) فوالله ما أدري أنا منهم أم لا)[١] .

وقال سفيان الثوري : (خالفنا المرجئة في ثلاث : نحن نقول : الإيمان قول وعمل وهم يقولون : قول بلا عمل . ونحن نقول : يزيد وينقص ، وهم يقولون : لا يزيد ولا ينقص ونحن نقول : أهل القبلة عندنا مؤمنون ، أما عند الله ، فالله أعلم ، وهم يقولون : نحن عند الله المؤمنون) .

فسفيان الثوري ـ رحمه الله ـ أخبر عن أهل السُّنة أنَّهم لا يقطعون بكونهم مؤمنين عند الله ، يعني في مآل الحال ، لأنَّ الله هو الذي يعلم الغيب ، فهو عالم بما يصير إليه حال العبد ، وما يموتُ عليه ، ونحن لا نعلمه ، فنَكِلُ الأمر فيما لا نعلمه إلى عالمه ، خوفاً من سوء العاقبة ، ونستثني على هذا المعنى[٢] .

---

(١) الاعتقاد للبيهقي (ص١٢٨) .

(٢) ما سبق (ص١٨٣ ـ ١٨٤) وانظر شرح الفقه الأكبر (ص١١٦) فما بعد ، والإيمان لابن تيمية (ص٢٤٠) فما بعد ، وشرح الطحاوية (ص٣٩٧) فما بعد ، والتنكيل (٢ : ٣٧٣) فما بعد .

المبحث الثَّاني

الاتَّهامات التي وُجِّهت الى ابن حبّان

تمهيد : لقد وُجِّهت الى ابن حبّان عدة اتهامات عقدية وسلوكية ، نوجزها فيما يأتي :

وسأتناولها بالتفصيل والمناقشة فيما بعد إن شاء الله .

(١) القول بأنّ النّبوة مكتسبة : فقد نقل المؤرخون أنّ معاصريه من الأئمة أنكروا عليه قولَه : (النُّبوة العلم والعمل) فحكموا عليه بالزندقة ، وكُتب فيه إلى الخليفة ، فكتب بقتله[١] إلاَّ أنَّ الخطاب لم يصل إلا بعد وفاة ابن حبَّان[٢] .

وقيل : لهذا القول أُخرج من سمرقند[٣] .

(٢) إنكار الحدِّ لله تعالى : قال أبو إسماعيل الهروي[٤] : سألت يحيى[٥] بن عمار فقلت : رأيتَ أبا حاتم ابن حبَّان البستي؟ قال : وكيف لم أره ونحن أخرجناه من سجستان؟! كان له علم كثير ، ولم يكن له كبير دين ، قَدِمَ علينا ، فأنكر الحدَّ لله عزَّ وجلَّ فأخرجناه من سجستان[٦] .

(٣) مؤازرة القرامطة : ذكر ياقوت[٧] أنَّه نقل من خط الحافظ ابن النفيس ، وأنَّ ابن

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠ : ٥٠٢) وأعلام النبلاء (١٠ : ٣ : ٣٣٢) وتذكرة الحفاظ (ص٩٢٢) .

(٢) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي . ميكروفلم في مكتبة مركز البحث العلمي ، حوادث (٣٥٤) .

(٣) تاريخ ابن عساكر (١٠ : ٥٠٢) .

(٤) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي . ترجمته في تذكرة الحفاظ (ص١١٨٢) فما بعد ، والمنهج الأحمد (٢ : ١٨١) فما بعد ، وطبقات المفسرين للداودي (٢ : ٢٤٩) . توفي سنة (٤٨١هـ) .

(٥) هو يحيى بن عمار أبو زكريا السجستاني الواعظ نزيل (هراة) توفي سنة (٤٢٢هـ) وله تسعون سنة . ترجمته في شذرات الذهب (٣ : ٢٢٦) وله ذكر في المنهج الأحمد (١ : ١٨١ ، ١٨٧) وتاريخ جرجان (ص٤٧٣) .

(٦) تاريخ ابن عساكر (١٠ : ٥٠٢) والنبلاء (١٠ : ٣ : ٣٣٢) وتذكرة الحفاظ (ص٩٢٢) .

(٧) معجم البلدان (١ : ٤١٩) .

النَّفيس ، نقل من خط الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن عمرو السليماني[١] البِيكَنْدي قال : قدم علينا أبو حاتم ابن حبَّان البستي سمرقند سنة ٣٣٠ ، أو ٣٢٩ . . . وقد صنف كتاباً في القرامطة لأبي الطيب المصعبي حتى قلَّده قضاء سمرقند ، فلمّا علم أهل سمرقند بذلك أرادوا أن يقتلوه ، فهرب ودخل بخارى .

ونقل عن أبي علي الحافظ[٢] بنيسابور ، أنّه قدم عليهم نيسابور ، ثم إنّه خرج الى سجستان بكتابه في القرامطة الى (ابن بابو) حتى قَبِلَه وقلَّده أعمال سجستان ، فمات بها . ا . هـ .

(٤) الكذب : نقل ابن النَّفيس من خط الحافظ البِيكَنْدي من كتاب شيوخه ، وكان قد ذكر فيه ألف شيخ في باب الكذّابين ، قال : وأبو حاتم محمد بن حبّان بن أحمد البستي قدم علينا سمرقند ، فقال لي أبو حاتم سهل بن السَّرِي الحافظ[٣] : (لا تكتب عنه فإنّه كذاب . . فرأيت وجهه وجه الكذّابين ، وكلامه كلام الكذّابين)[٤] .

(٥) سرقة الحديث : أسند ابن عساكر إلى أبي عبدالله الحاكم قال : سمعت أبا عليٍّ الحافظ وذُكر كتاب المجروحين لأبي حاتم البستي فقال : كان لعمر بن سعيد بن

---

(١) ترجمته في تذكرة الحفاظ (ص١٠٣٦) ولد سنة ٣١١ وتوفي سنة ٤٠٤ .

(٢) في معجم البلدان (١ : ٤١٩) قال : وسمعت السُّليماني الحافظ بنيسابور . وهو خطأ قطعاً والصواب أبو علي الحسين بن علي الحافظ شيخ الحاكم ، قرين ابن حبَّان ، وقد كان يحسد ابن حبَّان . انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ (ص٩٠٢) ولا يستقيم الكلام إلا بما ذكرت ، لأنَّ السُّليماني تلميذه فكيف يقول : كتب مصنفاتي ، وروى عن شيوخي؟ وقد سبق نقل الحاكم عن أبي علي الحطَّ على ابن حبَّان .

(٣) لم أقف على ترجمة مفردة لأبي حاتم الحذّاء الحافظ ، لكنّه تبيّن لي أنه من تلامذة الإمام البخاري ، ومن شيوخ ابن عديّ وابن منده .

وقد وصفَه الذهبيّ وابن حجر وغيرهما بالحفظ ، وساقَ ابن عديّ في كامله (٣ : ٢٤٧) رواية من طريقه قال فيها : حدّثنا سهل بن السري أبو حاتم الحذّاء ببخارى ، وكتبه لي بخطّه .

وانظر شذرات مما يعرّف به في النبلاء : (١٤ : ٥٠) و(١٧ : ٨٦) واللسان (٥ : ٢٨٨) وتاريخ جرجان (١ : ٣٥٧) وتكملة إكمال الإكمال (١ : ١١٨) .

(٤) معجم البلدان (١ : ٤١٩) .

سنان المنبجي ابنٌ ، رَحَلَ في الحديث وأدرك الشيوخ ، وهذا تصنيفه . وأساء القول في أبي حاتم[١] .

ومن كتاب شيوخ الحافظ البيكندي نقل ابن النَّفيس عنه أنّه قال : (سمعت أبا عليٍّ الحافظ بنيسابور ، قال لي : كتبتَ عن أبي حاتم البستي؟ فقلت : نعم . فقال : إياك أن تروي عنه ، فإنّه جاءني فكتب مصنفاتي ، وروى عن مشايخي)[٢] .

(٦) العُجْب والغرور : قال البيكندي[٣] فيما روي عنه : (كان يقول لي : يا بني اكتب : أبو حاتم محمد بن حبَّان البستي إمام الأئمة . حتى كتبت بين يديه ، ثم مَحَوته) .

هذه جملة الاتهامات التي وجهها معاصرو ابن حبّان إليه ، وسأتناول كل قضية منها على انفراد ، سائلاً الله أن يوفِّقني إلى الصَّواب .

المطلب الأول: التهمة الأولى: دعوى اكتساب النُّبوَّة

ومفادها أنّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلّم ، كان يهيِّئ نفسه لمثل هذا المقام الخطير ، إما بملاحظته بعض الغرائب التي حدثت له ، كحادثة شق صدره الشَّريف وهو طفل عند حليمة السَّعدية ، وقول الراهب بَحيرا لعمه : ارجع فإنّه سيكون لابنك شأن وعدم تمكُّنه من مقارفة اللّهو والعبث ، وتسليم الحجر عليه ، أو سماعه أنّ رسولاً سيبعث فنشط لذلك . . . ولكل هذا ؛ فإنّه راح يتعلم ويتعبَّد الله تعالى حتى صَفَتْ روحه ، وعلا في العلم كعبه ، حتى أتاه الوحي في غار حراء ، فأعطاه النبوة .

ولا أريد أن أناقش هذه الفكرة في هذا المقام ، لأنَّ مناقشتها[٤] خارجة عن مقصودنا

(١) تاريخ دمشق (١٠ : ٥٠٢) .

(٢) معجم البلدان (١ : ٤١٩) وكتابه في الرجال هو معجم شيوخه ، نسبه الذهبي له في ترجمته من التذكرة (٣ : ١٠٣٦) . .

(٣) معجم البلدان (١ : ٤١٩) .

(٤) قد ناقشت هذه الفرية في بحث بعنوان «القرآن الكريم ودعاوى النَّسخ فيه» (ص٥٦ ـ ٦٥) (خ) .

ويكفي أن أبطل هذه الفكرة بما قاله الله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ (القصص : ٨٦) . وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ (الشورى : ٥٢) الآية . وقوله : ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج : ٧٥) . وفي آيات كثيرة أخرى .

وإنّما غرضي مناقشة هذه التهمة ، وهل اقترفَ ابن حبّان إثم القول بها؟

وإذا كانت قد صدرت منه كلمة (النّبوة : العلم والعمل) فهل تؤدي مفهوم اكتساب النبوة؟

قال أبو إسماعيل الأنصاري : «سمعت عبدالصمد بن محمد بن صالح يقول : سمعت أبي يقول : أنكروا على أبي حاتم ـ يعني ابن حبَّان ـ قوله : «النبوة : العلم والعمل» فحكَموا عليه بالزندقة ، وهُجر ، وكُتب فيه إلى الخليفة ، فكتب بقتله !»[(١)] .

أقول : في هذا النصّ ثلاث علل ظاهرات :

ـ الأولى : أنَّ عبدالصمد بن محمد بن صالح ، وأباه لم أقِفْ لهما على ترجمة ، وإنْ كانت الروايات التي نقلها عنهما الهروي تدلّ على أنَّ عبدالصمد هو شيخ الهروي ، وأبوه محمد بن محمد بن صالح تلميذ ابن حبَّان[(٢)] .

ـ الثانية : أنَّ محمد بن محمد بن صالح هذا قال : أنكروا على ابن حبَّان ، فلم يفصح بمن أنكر ، ولا أين كان الإنكار ، فالمنكِرون مُبهَمون ، ونحن لا ندري منزلتهم لنعرف قيمة اتهامهم ، وقيمة كلامهم ، وهذه إحالة على جهالة .

ـ الثالثة : قال الذهبي[(٣)] : (هذه حكاية غريبة ، وابن حبّان من كبار الأئمة ، ولسنا

(١) ذم الكلام وأهله لأبي إسماعيل الهروي (ص : ٢٧٨) ولسان الميزان (٥ : ١١٣) والوافي في الوفيات (١ : ٢٧٨) .

(٢) النبلاء (١٤ : ٣٧٢) و(١٦ : ١٠٤) وتاريخ دمشق (٥٢ : ٢٥٣) وتاريخ الإسلام (١ : ٢٣٨٠) .

(٣) أعلام النبلاء للذهبي (١٦ : ٩٦) .

ندَّعي فيه العصمة من الخطأ ، ولكن هذه الكلمة التي أطلقها ، قد يطلقها المسلم ، ويطلقها الزنديق) .

(١) فإطلاق المسلم لها لا ينبغي ، لكن نعتذر عنه فنقول :

(لم يُرِدْ حصر المبتدأ في الخبر ، ونظير ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «الحج عرفة»(١) ومعلوم أنَّ الحاج لا يصير بمجرد الوقوف بعرفة حاجّاً ، بل بقي عليه فروض وواجبات ، وإنما ذكر مُهِمّ الحج . وكذا ذكر مهم النُّبوة ، إذ من أكمل صفات النَّبي : كمال العلم والعمل . فلا يكون أحد نبياً إلا بوجودهما ، وليس كل من برز فيهما يكون نبياً لأنَّ النُّبوة موهبة من الحق تعالى ، لا حيلة للعبد في اكتسابها ، بل بها يتولد العلم اللدنّي والعمل الصالح .

(٢) وأما الفيلسوف فيقول : النُّبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل ، فهذا كفر ، ولا يريده أبو حاتم أصلاً ، وحاشاه . . .) .

أو يقال : (عماد النُّبوة : العلم والعمل ، لأنَّ الله لم يؤتِ النبوة والوحي إلا من اتصف بهذين النعتين ، وذلك لأنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يصير بالوحي عالماً ، ويلزم من وجود العلم الإلـهي العمل الصالح ، فصدق بهذا الاعتبار قوله : النُّبوة العلم اللَّدُنِّي والعمل المقرِّب إلى الله . فالنُّبوة إذاً تُفَسَّر بوجود هذين الوصفين الكاملين ، ولا سبيل إلى تحصيل هذين الوصفين بكمالهما إلا بالوحي الإلهي ، وهو علم يقيني ما فيه ظن وعلم غير الأنبياء منه يقيني ، وأكثره ظني ، ثم النُّبوة ملازمة للعصمة ولا عصمة لغيرهم ولو بلغ في العلم ما بلغ ، والخبر عن الشيء يَصْدُق ببعض أركانه ، وأهم مقاصده ، غير أنا لا نسوّغ لأحد إطلاق هذا إلا بقرينة)(٢) ا . هـ

هذا ما أجاب به الإمام الذهبي في الاعتذار عن مقولة ابن حبَّان ، إن كان قالها .

---

(١) أخرجه ابن حبّان في صحيحه (٩ : ٣٨٩) والحاكم في المستدرك (٢ : ٣٠٥) وقال : حديث صحيح ولم يخرجاه ، والترمذي (٢٩٧٥) وقال : حسن صحيح .

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي (٥ : ٥٠٧ ، ٥٠٨) .

وقال الشَّيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي : (إن صحَّ هذا عنه ، فهو قول مجمل وابن حبَّان معروف عنه في جميع تصانيفه ، أنه يُعظِّم النّبوة حق تعظيمها ، ولعله أراد : أنَّ المقصود من إيحاء الله عز وجل إلى النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أن يعلم هو ويعمل ، ثم يبين للناس ، فيَعلموا ويعملوا)(١) .

ويحسُن أن ننتقل الآن لنرى ماذا يقول ابن حبَّان في هذا الصدد :

قال في خطبة صحيحِهِ : (وأشهد أن لا إله إلا الله الذي بهدايته سَعِدَ من اهتدى وبتأييده رشد مَن اتعظ وارعَوَى ، وأشهد أنَّ محمداً عبده المصطفى ، ورسوله المرتضى بعثه الله داعياً ، وإلى جنانه هادياً ، فصلَّى الله عليه ، وأزلفه في الحشر إليه . . .

أما بعد : فإنَّ الله ـ جل وعلا ـ انتخب محمداً صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لنفسه ولياً ، وبعثه إلى خلقه نبياً . . . فبلَّغ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عنه رسالاته ، وبين المراد من آياته) ا . هـ(٢) .

وقال في مقدمة الثقات : (. . . وأشهد أنَّ محمداً عبدهِ المجتبى ورسوله المرتضَى أما بعد : فإنَّ الله اختار محمداً صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من عباده ، واستخلصه لنفسه من بلاده . . .)(٣) .

وإذا تركنا مقدمات كتبه ، وتعمَّقنا في بحارها ، رأيناه لا يكاد يذكر رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم إلاَّ باسم «المصطفى» .

وإذا شئت أن تقرّب عليك الشُّقة ؛ فانظر في الجزء الرابعَ عَشَرَ من ترتيب صحيح ابن حبَّان ، وهو الخاص بأحوال المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وشؤونه ، فإنَّك ستجد ذكر «المصطفى» عشرات المرات في تراجم الأحاديث والتعليق عليها ، وفي

---

(١) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (١ : ٤٣٧) .

(٢) الإحسان (١ : ٢٢ ـ ٢٣) وانظر مقدمة المجروحين (١ : ٣) ومقدمة المشاهير (ص١) ومقدمة روضة العقلاء (ص١٤) وقد كرر جملة «عبده المجتبى ونبيه المرتضى» في كل مقدمات كتبه .

(٣) الثقات (١ : ٢) والمطبوع (١٤ : ١٦٩) (٦٢٧٢) .

إحصائية غير شاملة وجدتُ ابن حبّان وصفَ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالمصطفى (٨٣٧) ثمان مئة وسبعاً وثلاثين مرّة في صحيحه ، كما وصفه بالمصطفى مرات عديدة في المشاهير والثقات والمجروحين[1] ، أوّلها في الخطبة (١ : ١٠٥) وآخرها في وصف النّار (١٦ : ٥٣٥) .

وقد روى ابن حبان[2] في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : (ما هممت بقبيحٍ مما يهمّ به أهل الجاهلية إلاّ مرتين ، كلتاهما عصمني الله منها . . .) الحديث .

أوَ ليس في روايته : «عصمني الله منها» تعني أن الله كان يتعهّده ويرعاه؟

وكأنّ ابن حبان رحمه الله تعالى ، أطلق مثل هذه العبارة ، وراح يشرحها ، إلا أنّ عوام النَّاس ، أو الحساد حمَّلوا كلامه ما لا يحتمل ، واتَّهموه بالزندقة ، وكانت تهمة العالِم بها آنئذ أسهل من الشَّراب .

ولكن أين أطلق ابن حبَّان هذه العبارة ـ إن كان أطلقها ـ ؟

بين أيدينا نصّان متعارضان ، أحدهما يقول إنّه تفوَّه بذلك في سمرقند ، والآخر يقول : بل كان ذلك في بست ، لأنَّ كتاب الخليفة الذي جاء بقتله ، وصل بعد وفاة ابن حبان ـ رحمه الله تعالى ـ في إحدى الروايتين .

والذي يترجح عندي أن ذلك كان منه في بست لا في سمرقند ولا غيرها ـ إن ثبت أنه قالها ـ لاعتبارات عديدة :

أولها : أنَّ كلَّ المصادر تنص على أنَّ الخليفة كتب بقتله ، وتسكت عما وراء ذلك إلا ابن شاكر الكتبي فإنَّه يوضح هذا الإبهام ، فيقول إنَّ كتاب الخليفة وصل إلى بست بعد وفاة ابن حبَّان . وهذا يعني أنَّ الكتابة بالقتل كانت بعد كلام قاله قريباً[3] .

---

(١) مشاهير علماء الأمصار ، الصفحات : (٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٢ . . .) والثقات (١ : ٤ ، ٨ ، ١٠ ، ٤٧) و(٨ : ١ ، ٤٥٧ . . .) والمجروحين (١ : ٩٩ ، ١٧٢ ، ٣٦٦ . . .) .

(٢) الإحسان (٨ : ٥٦ ب) والمطبوع (١٤ : ٦٢٧٢) .

(٣) الوافي في الوفيات (١ : ٢٧٨) .

والثاني : أنَّ ابن حبَّان خرج من سمرقند إلى نيسابور سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة ، ثم تولى قضاء نسا ، ثم عاد وأقام بنيسابور حتى سنة أربعين ، ثم عاد سنة أربعين إلى بست ماراً بسجستان القريبة منها ، فامتحنوه ، فأنكر الحدَّ لله تعالى ، فأخرجوه من العام نفسه ـ كما سبق ـ فاستقرَّ في بست إلى حين وفاته ، فهل استغرق كتاب أهل سمرقند عشرين سنة ، حتى جاء جوابه؟

الثالث : أنَّ مدينة بست في ذلك الحين ، لم تكن مُستقرةً ، وكانت تتنازعها الأهواء والأفكار ، وليس فيها أمن ولا استقرار بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تنشب بين أمراء الولايات في تلك البلاد ، وبسبب جموح الشيعة ، وردود الفعل من خصومهم .

ولا يخفى أن أزهد الناس بالعالِم أهله وجيرانه ، فلا يبعد أن يكون قد حسده بعض مشايخ بست ، وأوغروا عليه صدر الخليفة بكتاب فيه عدد من الاتهامات ؛ هذه منها .

قال الإمام الخطَّابي البستي : (وفي العزلة ببلد بست خاصة من دواهي الكُنُفِ الشَّارعة ، والمثاعب السَّائلة . فإنَّ جنايتها عند أهلها ؛ جنايةٌ لا أَرْشَ لها ، ودماء قتلاها مطلولة ، لا عقل ولا قَوَدَ فيها)(١) . وقال :

(ولو لم يربح الإنسان في العزلة والتخلِّي عن النَّاس ، وعن مساويهم والانقطاع عن محاورتهم إلا ما يُكفاه من فضل مُؤْنة التحرُّز منهم ، وما يستفيده من الأمان أن يرفعوا عليه قولاً يسمعونه يتكلم به في حال غفلة واسترسال ، أو يتأولوا عليه كلاماً لا تبلغ عقولهم كنهه فيوجِّهوه إلى غير وجهته ، وينحلوه غير صفته ؛ لكان فيه كفاية كافية . . .)(٢) .

ألا ترى معي هذا النَّص ، وكأنه ينطق بواقعة ابن حبَّان ، ويأسى لمصاب هذا العالم الجليل رحمه الله تعالى؟

---

(١) العزلة للخطَّابي (ص٣٣) .

(٢) ما سبق (ص٢٧) .

المطلب الثَّاني: التهمة الثانية: إنكار الحدِّ لله تعالى

سبق أن أهل سجستان طردوا الإمامَ ابنَ حبَّان لأنه أنكر الحدَّ لله تعالى .

قال الذهبي[١] : (كلاهما مخطئ ، إذ لم يأت نص بإثبات الحد ولا بنفيه ، ومن حُسن إسلام المرء ؛ تركه ما لا يعنيه) .

وقال أيضاً[٢] : (إنكاركم عليه بدعة أيضاً . . . وتعالى الله أن يُحدَّ أو يُوصف إلا بما وصف به نفسه ، أو علَّمه رسله ؛ بالمعنى الذي أراد ، بلا مثل ولا كيف) .

(فمن أثبته ـ أي الحد ـ قال له خصمه : جعلت لله حدّاً برأيك ولا نصّ معك بالحدِّ والمحدودُ مخلوق ، تعالى الله عن ذلك .

وقال هو للنافي : ساويت ربك بالشيء المعدوم ، إذ المعدوم لا حدَّ له . فمن نزَّه الله وسكت ، وتابع السّلف ؛ سَلِم)[٣] .

ولا أدري كيف يوفِّق المرء بين كلام الذهبي ! فمرة يقول : على المرء السكوت والتنزيه وأخرى يقول : تعالى الله أن يُحدَّ ، وثالثة يقول بأن إثبات الحدِّ ونفيه بدعة .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنَّ عصر ابن حبان ؛ قد أفرط فيه كثيرون في الإثبات وبالغوا في ذلك ؛ حتى أثبتَ بعضُهم لله الجلوسَ والمشي ، والاستناد إلى صخرة ، وأنه يجلس ويستقرُّ على العرش ، ويضع قدميه على الكرسي .

وابن حبان مطَّلع على هذا كلِّه ، ومذهبه الذي ارتضاه اجتهاداً وفهماً لروح الشريعة ونصوصها ، يأبى أن يثبت لله تعالى صفات لم تنطق بها نصوص هذه الشريعة ، فلا ريب ـ والحالة هذه ـ أن ينكر ابن حبَّان الحدَّ لله تعالى .

أما أنَّ الله تعالى قد استوى على عرشه ، وأنَّه بائن من خلقه ، وأنّه في السماء ، فهذا مما لا ينكره ابن حبَّان ، بل روى أحاديثه كلَّها في صحيحه .

---

(١) تذكرة الحفاظ (ص٩٢١) .

(٢) أعلام النبلاء (١٠ : ٣ : ٣٣٤) .

(٣) ميزان الاعتدال (٣ : ٥٠٧) .

قال ابن تيمية رحمه الله : (الواجب أن ينظر في هذا الباب ؛ فما أثبته الله ورسوله ؛ أثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله ؛ نفيناه ، والألفاظ التي ورد بها النصّ في الإثبات والنّفي يُعتصم بها ، فنثبت ما أثبتّتْه النصوص من الألفاظ والمعاني ، وننفي ما نفته النصوص من الألفاظ والمعاني .

وأما الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين مثل : لفظ الجوهر والعرض والتحيُّز والجهة ونحو ذلك ، فلا تُطلق نفياً ولا إثباتاً ، حتى يُنظر في مقصود قائلها ، فإن كان قد أراد بالنَّفي والإثبات معنىً صحيحاً موافقاً لما أخبر به الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، صُوِّب المعنى الذي قصَدَه بلفظه ، ولكن ينبغي أن يعبر عنه بألفاظ النصوص ، لا يعدل إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة ، إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبيِّن المراد بها . . .)[١] .

فابن تيمية رحمه الله يرى أنَّ لفظ الجهة والحدِّ والتحيُّز من الألفاظ المبتدعة ، فماذا على ابن حبان الحافظ للسنَّة ، والسابر لأغوارها ، إذا أنكر هذا اللفظ واستشنعه؟

قال الذهبي[٢] : (وقد بدَتْ من ابن حبان هفوة فطعنوا فيه لها) .

وقال ابن حجر[٣] تعليقاً على هذا : (إن أراد القصة الأولى ـ قصة الحدِّ ـ فليست هذه بهفوة ، والحقُّ أن الحقَّ مع ابن حبَّان فيها .

وإن أراد الثَّانية ـ قصة كسب النبوة ـ فقد اعتذر هو[٤] عنها ، فكيف يَحكم عليه بأنه هفا؟ ما ذا إلاَّ تعصُّب زائد على المتأوِّلين؟!

وابن حبَّان قد كان صاحب فنون وذكاء مفرط ، وحفظ واسع إلى الغاية رحمه الله) .

(١) منهاج السنة النّبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (١ : ٣٣٣) وانظر (١ : ٣٣٤ ـ ٣٣٥) وانظر تمام البحث في مجموع الفتاوي (٣ : ٤١ ـ ٤٣) و(٥ : ٢٦٢ ـ ٢٦٥) و(٦ : ٣٨ ـ ٤٠) و(١٧ : ٣٢٦ ـ ٣٢٧) وانظر الكلام على الحدِّ في (٥ : ٥٣ ، ٥٦) .

(٢) ميزان الاعتدال (٣ : ٥٠٧) .

(٣) لسان الميزان (٥ : ١١٤) .

(٤) يقصد : الذهبي .

ولا ريب أنَّ الإمام الذهبي عَنَى مسألة النُّبوة .

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ ابن حبان قد صدر منه كلام في هذا المعنى ، فهمه المغرضون ، أو حوّلوه بما يؤذي ابن حبَّان ويُسيء إليه . وليس مثل هذا بهَفْوٍ منه ، لأن الإنسان قاصر ، ويجب أن يُنْتَظَر ليشرح مراده ويوضحه ، وحتى لو صَحَّت هذه الحكاية فالمعاني التي أوردها الذهبي هي مقصود ابن حبان بدليل النُّصوص التي سُقتُها من كتبه . والله أعلم .

على أنَّ مما يَحسُن ذكره في ختام هذا المبحث ؛ أن يحيى بن عمار الذي نسب إليه قول : (وكيف لم أرَه؟ ونحن أخرجناه من سجستان . . . . أنكر الحدَّ لله) قد ولد سنة (٣٣٢هـ) وكان قدوم ابن حبَّان سنة أربعين ؛ فيكون عمر يحيى سبع سنين أو ثماني !!

المطلب الثالث: التهمة الثالثة: مؤازرة القرامطة

رأيتُ هذه القصة قد نقلت عن حافظين جليلين أحدهما : أبو الفضل البِيكَنْدي والثاني : أبو علي النيسابوري الحافظ .

أما البيكندي فيقول : إنّ ابن حبَّان تزلَّف إلى أبي الطيب المصعبي فصنَّف له كتاباً في فضائل القرامطة ، حتى ولاّه قضاء سمرقند ، وكان ذلك بين سنتي ٣٢٩ ـ ٣٣٠هـ . بينما يقول أبو علي الحافظ إنّه صنَّف الكتاب حين خرج من نيسابور إلى سجستان ، ثمَّ أعطاه لابن بابو القرمطي . . حتى ولاّه قضاء سجستان . .

وهاتان قصتان متعارضتان في ظاهر الأمر ، فإحداهما تدَّعي أنه صنف الكتاب لأبي الطيب المصعبي ، وكان هذا ذا نفوذ في سمرقند . والأخرى تقول : بل كان تصنيف الكتاب تقرباً لابن بابو المتنفّذ في سجستان .

وهذه القصة مردودة من أساسها للأمور الآتية :

(١) أنَّ مدينة سمرقند كانت عاصمة مملكة آل سامان الثانية بعد بخارى[١] وكان

---

(١) تاريخ بخارى (ص٩٨) وفيها : وعهد بحكومة سمرقند إلى أحد أبناء نصر . . .

أميرها أبو المظفر أحمد بن نصر السَّاماني من أهل الفضل والصلاح ، ومحبّي العلم والعلماء ، وكانت دولة السَّامانيين في عام ٣٣٠هـ في أحسن أحوالها ، ولم يكن لقرمطي من السَّطوة أن يدنو منها ، فضلاً عن أن يعيّن فيها قضاة يتزلفون إليه بتصنيف مصنفات يؤيدون بها باطلهم .

أما مقولة أبي علي الحافظ ـ إن صحَّتْ عنه ـ فهزيلة جداً ، لأن سجستان كانت في تلك الحقبة تحت حكم السّامانيين أيضاً ، إلا أنه كان يحكمها أمير من آل الصفار يدين بالولاء لآل سامان ، فيكون بمثابة نائب عن الملك[1] .

ولقد كانت لآل الصفار شوكة وكرامة حتى في نهاية القرن الرابع الهجري ، لدرجة أنَّ سُبُكْتُكين احتاج إلى معاونة الأمير خلف بن أحمد الصفّار أمير سجستان في حربه ضدّ أبي علي بن سيمجود .

وقد كان خَلَف هذا مكرِماً للعلم والعلماء ، كما كان أسلافه من قبل ؛ ولقد قال فيهم تلميذ ابن حبَّان الشَّاعر أبو الفتح البستي :

خَلَفُ بن أحمد أحمد الأخلاف ... أربى بسؤدده على الآلاف

أضحى لآل اللَّيث أعلامِ الهُدى ... مثل النَّبي لآل عبد منـاف[1]

فأين كان ابن بابو هذا ، وما قدرة القرامطة في سجستان ، حتى يمكِّنوا ابن حبَّان من قضائها؟

أضِفْ إلى هذا أنَّ ابن حبَّان لم يتولَّ قضاء سجستان ، وإنما دخلها سنة أربعين مارّاً من نيسابور إلى بست؟

فإن قيل : إنَّ المقصود قضاء بست ، وإنَّما أطلق اسم الإقليم ، كما أطلقوه حين ذكروا وفاته .

قلنا : وهذا مردود أيضاً ؛ لأنَّ المصادر أجمعت على أنَّ ابن حبان تفرغ في بست للعطاء العلمي ، ولم ينقل أنه تولَّى منصباً في بست .

---

(١) تاريخ بخارى (ص١١٢) وأبو الفتح (ص٦٢ ، ٦٣) والنُّبلاء (١٧ : ١١٦) .

(٢) أبو الفتح البستي (ص٦٢) والنبلاء (١٧ : ١١٦) فما بعد .

إذاً كيف نفسِّر عمل الحافظ أبي علي النَّيسابوري ، والحافظ السُّليماني البِيكَنْدي؟ ـ إن صَحّ هذا النقل عنهما ـ؟

أقول : قدّمت أنَّ الحافظ البيكندي نقل عن سهل بن السَّرِي الحذاء ، ونقل عن أبي عليّ النّيسابوري الحافظ .

أما سهل الحذاء هذا ، فرغم أن ابن عساكر وياقوت وصفاه بالحفظ في غير موضع ، إلا أنني لم أجد له ترجمة مفردة فلا يسعني الاعتماد على أقواله ، فكم من حافظ مجروح !

وأما أبو علي النَّيسابوري ، فقد كان بينه وبين ابن حبَّان جفوة ، وكان ابن حبَّان يُحسد لفضله ، كما قال تلميذهما الحاكم أبو عبد الله .

أما كيف يقول مثل هذا الكلام ، فلعلَّ ابن حبان صنف كتاباً في آداب السُّلوك ، أو الزهد ، أو العقل ، أو كان فيه ذكر لبعض مظالم العباسيين وولاتهم ، فهذا عند من يحمل شيئاً في نفسه على آخر ، كافٍ لتفسيره بآراء القرامطة الذين كانوا يعيثون الفساد بدار الخلافة ، وأقاليم كثيرة في ذلك العصر .

ومن وراء تجربتي الطويلة في طلب العلم ونشره ، والدعوة إلى الله تعالى ؛ وجدتُ علماء المسلمين ـ باستثناء أفراد معدودين ممن عرفت ـ يأخذون بالظنّة ، ويحكمون على النّوايا ، ويبنون مواقف على الشمّ[1] ويندُر وجود الورع والخوف من الله تعالى لديهم عند الخصومة . وأنا لا أبرّئ نفسي .

وهذا يعني أنّه يجب إعادة صياغة العقل المسلم في المرجعية ، والمصطلحات والانتماء ، ونقد التاريخ ، وعدم الاحتكام إليه نهائياً .

ثم يجب بناء منهج تربويّ عالٍ تتأدّب عليه الأمة ، بعيداً عن تعظيم الموروث المحبوب وتحقير الموروث البغيض في الإطار السياسي ، والإطار الطائفيّ . والله المستعان .

---

(١) في أثناء مناقشة رسالتي للدكتوراة ، قال أحد المناقشين الأفاضل : هذا الكلام يُشمّ منه النيل من الصحابة !

فقلت : وعلى هذا الشمّ بنيتَ مواقف الاتّهام الغريبة التي تقذفني بها؟ فقال : نحن بشر !

المطلب الرابع: التهمة الرابعة: تهمة الكَذِب

وتهمة الكذب وجَّهها إليه ـ إن صحَّ النقل ـ الحافظُ البِيكَنْدي ، وسهل بن السَّرِي الحذّاء . أما سهل بن السري ـ شيخ الحافظ البيكندي ـ فهو من أقران ابن حبان وعصريُّه وقد ادّعى دعوى ، لم يأت عليها بدليل ، ومعلوم أنَّ من اشتهرت عدالته ، وعرف بالحفظ ، لا يلتفت إلى قول قائل فيه ، ما لم يبيّن أسباب الجرح ، حتى ينظر فيها : أجارحة هي أم غير جارحة .

قال ابن السُّبكي[1] رحمه الله :

(الصَّواب عندنا أن من ثبتت عدالته وإمامته ، وكثُر مادحوه ومزكُّوه ، ونَدَرَ جارحوه وكانت هناك قرينة دالّة على سبب جرحه : من تعصّب مذهبيّ ، أو غيره ؛ فإننا لا نلتفت إلى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالعدالة ، وإلا لو فتحنا هذا الباب ، وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه ؛ لما سَلِمَ لنا أحد من الأئمة ؛ إذ ما من إمام إلاّ وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون) . ونقل نَحوَ ذلك عن ابن عبد البر .

وما ذلك إلا (لأنَّ السَّلف تكلّم بعضهم في بعض بكَلام ، منه ما حَمَل عليه التعصّب أو الحسد ، ومنه ما دعا إليه التأويل ، واختلاف الاجتهاد ، مما لا يلزم المقولَ فيه ما قال القائل فيه ، وقد حمل بعضهم على بعض بالسيف تأويلاً واجتهاداً)[2] .

وقال ابن السبكي[3] :

(ومما ينبغي أن يُتَفَقَّدَ عند الجرح حالُ العقائد ، واختلافها بالنسبة إلى الجارح والمجروح ، فربما خالف الجارح المجروحَ في العقيدة ؛ فجرحه لذلك . . . ومن ذلك قول بعض المجسّمة[4] في أبي حاتم بن حبَّان : لم يكن له كبيرُ دينٍ ، نحن أخرجناه من

---

(١) قاعدة في الجرح والتعديل لابن السبكي مع كتاب الرفع والتكميل (ص٦) وانظر طبقات ابن السبكي (١ : ١٨٨) .

(٢) ما سبق (ص٧) والطبقات (١ : ١٨٨) .

(٣) قاعدة في الجرح (ص١٢) والطبقات (١ : ١٩٠) .

(٤) يقصد ابن السُّبكي بالمجسمة هنا يحيى بن عمار ومن معه ممن يبالغون في الإثبات .

سجستان ، لأنه أنكر الحدَّ لله) .

وأما قول أبي الفضل السليماني البيكندي : (فرأيت وجهه وجه الكذَّابين ، وكلامه كلام الكذَّابين) ـ إن صح عنه ـ ؛ فهو كقول مالك في محمد بن إسحاق : دجال من الدجاجلة يروي عن اليهود ! فلم يلتفت أحد إلى قول مالك في محمد بن إسحاق وللسّليماني هفوات كثيرة ، فقد[1] عدَّ الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي من الشّيعة ، كما عدَّ أبا حنيفة منهم أيضاً ، وما هما من الشِّيعة بحال .

وما أحسن قول ابن جرير الطبري : (لو كان كُلُّ من ادُّعيَ عليه مذهب من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادُّعيَ به ، وسقطت عدالته ، وبطلت شهادته بذلك ؛ لَلَزِمَ ترك أكثر محدِّثي الأمصار ؛ لأنَّه ما منهم إلاَّ وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه)[2] .

ولا ريب أنَّ الحافظ أبا الفضل السُّليماني من مثبتة القرن الرابع الهجري الذين كانوا يبالغون في الإثبات ميلاً عظيماً ، فيكفي أن يؤوِّلَ ابن حبَّان صفة من الصّفات التي يُثبتها السليماني ، ليحكم عليه بأن كلامه كلام الكذَّابين ـ المؤَوِّلة ـ ووجهه بالتالي وجههم .

المطلب الخامس: التّهمة الخامسة: اتهامه بسرقة الحديث

وملخّص هذه التهمة ينحصر في شقين :

ـ **الأول** : أنه لقيَ ابن شيخه عمر بن سعيد بن سنان المنبجي ـ وهو من أقرانه ـ وكان قد كتب كتاب «المجروحين» فانتسخه ابن حبان ، ونسبه لنفسه .

ـ **والثاني** : أن ابن حبان قَدِمَ إلى نيسابور ، فكتب مصنّفات أبي علي النيسابوري وحدث عن مشايخه .

وأبو علي النيسابوري عصريُّ ابن حبان وندُّه . وقد كان مولده سنة سبع وسبعين ومئتين ، ووفاته سنة تسع وأربعين وثلاث مئة ، وقد رحل ابن حبَّان إلى نيسابور مراراً وصحب ابن خزيمة وغيره حتى توفي ، وإذا كان سماع أبي علي سنة خمس وتسعين

---

(١) كما في ميزان الاعتدال (٢ : ٥٨٨) .

(٢) هدي الساري (ص٤٢٩) .

ومئتين ، وأول رحلات ابن حبان على رأس الثلاث مئة ، فإنني لم أعثر لابن حبَّان على شيخ تقدمت وفاته على سنة ثلاث مئة ، ولئن كان أبو علي ـ رحمه الله ـ رحّالة ؛ فلقد جاب ابن حبان أطراف الأرض أربعين سنة؟ ولا يستطيع أبو علي ولا غيره أن يدّعي بأنَّ ابن حبان لم يلقَ هؤلاء الشيوخ .

ولقد رأيتُ من سلوك ابن حبان أنه يسمِّي مكانَ سماعه من الشيخ ، وإذا تعدَّد سماعه من الشيخ في أماكن مختلفة ؛ نتيجة تنقُّلات الشيخ ، فإنّه يذكر ذلك كلّه .

أضفْ إلى ذلك أنَّ الذين عنُوا بالتراجم ذكروا مشاهير شيوخ ابن حبَّان ، ومشاهير شيوخ أبي علي ، فرأيت أنّهما قد اشتركا في عدد من أكابر الشيوخ ، وانفرد كل منهما عن الآخر ببعض الشيوخ ، فقد انفرد أبو علي بالرواية عن إبراهيم[١] بن أبي طالب دون ابن حبان ، فلم أرَ ابن حبان قد روى عنه في شيء من كتبه ، وكل مشايخ ابن حبان وفياتهم بعد الثلاث مئة .

فيكون قول أبي علي ، كتب مصنفاتي ، وروى عن شيوخي ، من كلام الحسد والنفاسة إذ لا مانع أن يكتب ابن حبان كتب قرينه ، بل هذا من كمال فضل العالم ليزداد علماً وفهماً ، وليقارن بين ما عنده ، وما عند غيره . وما أظن مثل ابن حبَّان بحاجة إلى أن يروي عن مثل أبي علي .

وأما دعواه بأنَّ كتاب «المجروحين» سرقه ابن حبان من ابن شيخه ؛ فكلام ساقط الاعتبار ، لأنَّ شيوخ ابن حبان في المجروحين ، هم شيوخه في الثقات والصحيح والروضة؟

كما أنَّ كثيراً من الرواة ذكرهم في الثِّقات والمجروحين ، وبعضهم علَّق أمرهم على الاستخارة فذكرهم مرّة هنا ، ومرَّة أيضا هناك .

كما أنَّ هؤلاء الشُّيوخ روى عن كثيرين منهم في صحيحه أحاديثَ كثيرة ليس شيء منها في كتابه المجروحين ، فمن أين أتى بها ، وأبو علي لم يذكر أنَّه سرق من ابن شيخه كتباً أخرى؟!

---

(١) هو الحافظ إبراهيم بن محمد بن نوح الإمام الحافظ شيخ خراسان وفاته سنة خمس وتسعين ومائتين . التذكرة (ص٦٣٨) .

ثم إذا كانت رحلات ابن حبَّان لم تُفِدْهُ سوى سرقة كتب أبي علي ، وابن شيخه ؛ فكيف غفل عن هذا علماء عصره وتلامذته كالحاكم وغنجار وابن منده؟

ولم نسمع عن أحد منهم شيئاً من هذا؟

فضلاً عن هذا كلّه ؛ فإنَّ ابن حبان قد صرَّح في مقدّمة ثقاته ، وفي آخره أنَّ له مؤلفاً كبيراً اسمه «التاريخ الكبير» اختصر منه كتابَي الثقات والمجروحين ، والذي يطالع الكتابين يتيقن أنَّهما لابن حبَّان ، وأنّهما من مصدر واحد .

أضف إلى هذا كله أنه لم يذكر ابنَ شيخه المزعوم هذا أحدٌ من المترجمين ، ولم أقف له على رواية عند أحد من المصنّفين .

بل إنَّ عمر بن سعيد بن سنان ـ شيخ ابن حبَّان ـ ليس له في كتب السنة كلّها سوى رواية موصولة واحدة أخرجها البيهقي في السنن الكبرى ، ومتابعة أخرى عنده[1] .

بينما أشاد به ابنُ حبان أيّما إشادة ، وروى من طريقه عدداً من الروايات في الثقات والمجروحين ، و(٢٨٠) رواية في كتابه الصحيح !

وهذا يعني أن الشيخ ذاته كاد يكون نكرة أو مقلاً جداً ؛ لولا ثناء ابن حبَّان عليه ورواياته الكثيرة عنه[2] .

ولقد نقل الحاكم عبارة شيخه أبي علي حول كتاب المجروحين ـ وأغفل حكاية أنَّ ابن حبَّان كتب كتبه وحدَّث عن مشايخه لسقوطها في نظره ـ ثم قال[3] : أبو حاتم كبير في العلوم ، وكان يحسد لفضله وتقدمه .

فالحسد والنَّفاسة ، والمخالفة في الاعتقاد ؛ هما سبب هذه الوقيعة بابن حبَّان رحمه الله تعالى .

---

(١) سنن البيهقي (٦ : ٨٤ ، ٧ : ٢٨٧) .

(٢) الثقات (٨ : ١٥ ، ٩ : ١٢ ، ٢٨٥) والمجروحين (١ : ٢٤٠ ، ٣٧٩ ، ٢ : ٢١٤) وعلل الدارقطني (٩ : ١٣٢) وله ذكر في تاريخ بغداد (١٥٢/١٠ ، ١٣ : ٤٥٥) واللسان (١ : ١٥٣ ، ٢ : ٢٢٦) وانظر الإحسان (٣٨ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٦٢) وفهارس الإحسان (١٨ : ٦٢) وزوائد رجال ابن حبان للشهري (٤ : ١٧٧٠) .

(٣) تاريخ ابن عساكر (١٠ : ٥٠٢) .

المطلب السَّادس: التهمة السَّادسة: تهمة العُجب والغُرور

تقدَّم عن الحافظ البيكندي أنهم نسبوا إليه أنَّ ابن حبَّان أملى عليه قوله : يا بُنيّ اكتب : حدَّثني إمام الأئمة أبو حاتم بن حبَّان .

وسبق عند الحديث عن حياة ابن حبان أنَّ الرجل كان إماماً في الجرح والتعديل إماماً في الحديث ، إماماً في الفقه ، مقدَّماً في اللغة والزهد والطب والهندسة والفلك والوعظ ، صنّف في كل فن من فنون العلم ، وكان قاضياً على سمرقند ونسا وغيرهما من بلاد ما وراء النَّهر وخراسان ، وكان مقدَّماً على علماء عصره في العلوم والمعارف ، وقد عرف له فضله ، فبنى له أمير سمرقند داراً لطلاب الحديث والمتفقهة ، الذين يرحلون إليه لتلقي العلم والرواية عنه ، كما أنه بنى «خانقاه» في نيسابور ، وأقام بها لإفادة الناس من سنة سبع وثلاثين إلى سنة أربعين وثلاث مئة ، فالرجل عارف بأهل عصره ، فهم إمَّا فقيهٌ جَمَد على نصوص إمامه ، ولم يتعرف إلى أدلته ، ويتبع الحق فيما علم ، وإمَّا محدِّث عُني بجمع الألفاظ والطرق والروايات ، وهو لا يفقه إلا اليسير ، وإما امرؤ سلك سبيل الزهد ، فتَبعَ العزلة وانزوى ، فضيَّع الفقه والحديث والمعرفة . والنَّاس في العقائد ؛ إمَّا نافٍ للصِّفات معطِّلٌ لها ، أو مثبتٌ لها إثباتاً فظيعاً .

وابن حبان جمع أطراف هذه العلوم جميعاً ، وصنف فيها مصنفات كثيرة ، ولا أعلم أحداً في عصره جمع من العلوم ما جمع ، أو صنَّف ما صنف ، وإنَّما وجدت أقرانه قد برزوا في زاوية من زوايا العلم ، وهم لم يلحقوا فيها شأو ابن حبان ، فضلاً عن سبقه غالباً ، فافرِضْ أنَّ ابن حبَّان أراد أن يمكِّن ثقة هذا الطالب بشيخه ، ويزيده تمسكاً به والتلقي عليه ، لتحصل له الفائدة ، ويزداد به رغبة ، فقال له : اكتب يا بني حدثني أبو حاتم بن حبان البستي إمام الأئمة .

فقد يكون ابن حبان قال هذا ـ إن صحَّت الرواية ـ كما قال ابن مسعود مؤكِّداً معرفته بكتاب الله (ما من آية في كتاب الله ، إلاَّ وأنا أعلم فيم نزلت ، وأين أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني ، تبلغه المطايا لركبت إليه)[1] . ألم يقل هذا ابن مسعود

---

(١) إلى هنا أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٦٣) . وزاد ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢ : ٤٠٠) : (فقال له رجل : فأين أنت عن علي؟ قال : بدأت ؛ إني قرأتُ عليه) .

رضي الله عنه[١] ، وهناك جبل العلم ابن أبي طالب؟ فهل قيل عنه : إنَّه معجب مغرور؟ أو حملَ النَّاس كلامه على توثيق ما يمليه على الناس ، حتى لا يتشكّكوا فيه؟

أو لعلَّ ابن حبان رأى بعضَ من يكيده ويُعرِّض بعلمه ، فانتابه ما ينتاب المرء في لحظة الغضب ، فقال هذا القول .

على أن ابن حبان ليس بمدفوع عن هذا المقام ، فهو إمام عصره بلا مدافعة ، ولا ضير على المرء أن يَعرفَ قدْر نفسه .

ومما يحسن التذكير به أنَّ تُهمتَي الكذب والغرور ، لم يذكرهما أحد سوى ياقوت الذي نقلهما من خط ابن النفيس ؛ الناقل لهما من كتاب الحافظ البيكندي .

قال الشيخ[٢] المعلِّمي : (هناك عبارة طويلة زعم ياقوت أنَّه نقلها من خط ابن النفيس الذي نقلها من خط السُّليماني في معجم شيوخه .

وياقوت ليس[٣] بعمدة ، والأئمة الذين ذكروا ترجمة ابن حبان قد وقفوا على كتب السُّليماني ، ونقلوا عنها ، ثم لم يحْكوا في ترجمة ابن حبَّان حرفاً من تلك العبارة ، وفيها ذكر لأحوال ابن حبان تتعلق بسمرقند ونيسابور وبخارى ، ولكل من هذه البلدان تاريخ ذكر فيه ابن حبَّان ، ونقل ياقوت وغيره من تلك التواريخ ، فلم يقع في ذلك شيء مما في تلك العبارة وإنما نقلوا عن تلك التواريخ تعظيمه ، والثناء البالغ عليه .

على أنَّ ما وُصف به في تلك العبارة ؛ منه ما ليس بجرح ، ومنه ما هو جرح غير مفسَّر أو مفسَّر بما لايقدح ، أو غير مثبت ، ضرورة أنَّ قائل ذلك لم يكن ملازماً لابن حبَّان في جميع تنقّلاته في تلك البلدان ، وإنما لفِّقت ـ إن صحت ـ عن السُّليماني من قيل وقالوا وزعموا . فعلى كلِّ حال لا وجه للتعويل عليها ، ولا الالتفات إليها . والله المستعان) .

---

(١) علَّق ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير الآية (٥٦) من سورة يوسف ؛ على مقولة ابن مسعود قائلاً : « . . فهذه الأشياء خرجَتْ مخرج الشكر لله ، وتعريف المستفيد ما عند المفيد . .» .

(٢) الروضة (ص٢٧٨) .

(٣) ما سبق (ص٢٨٦) .

وهل يُتصوَّر من ابن حبان العُجب والتكبُّر، وهو الذي يقول:

(ما استُجلبتْ البغضة بمثل التكبُّر، ولا اكتُسبت المحبة بمثل التواضع، ومن استطال على الإخوان فلا يثقنَّ منهم بالصَّفاء، ولا يجب لصاحب الكِبر أن يطمع في حُسن الثناء، ولا تكاد ترى تائهاً إلا وضيعاً.

فالعاقل إذا رأى من هو أكبر منه سناً؛ تواضع له وقال: سبقني إلى الإسلام، وإذا رأى من هو أصغر سناً تواضع له، وقال: سبقته بالذنوب، وإذا رأى من هو مثله؛ عدَّه أخاً، فكيف يَحْسُن تكبّر المرء على أخيه؟... وما رأيت أحداً تكبّر على من دونه؛ إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه)[1].

ويقول: (التواضع لله عز وجل على ضربين:

أحدهما: تواضع العبد لربه، عندما يأتي من الطاعات، غير معجب بفعله ولاراءٍ له، عنده حالة يوجب بها أسباب الولاية، إلا أن يكون المولى جل وعز هو الذي يتفضل عليه بذلك، وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العجب عن الطاعات.

والتواضع الآخر: هو ازدراء المرء نفسه، واستحقاره إياها عند ذكره ما قارف من المآثم، حتى لا يرى أحداً من العالم؛ إلاَّ ويرى نفسه دونه في الطاعات، وفوقه في الجنايات) ا. هـ[2].

كيف يُتصور مثل هذه الخصال من صاحب روضة العقلاء؟ بل صاحب عدَّة مصنفات في الآداب والسُّلوك؟

وهو القائل: (والعاقل... لا يدَّعي ما يحسن من العلم، لأنَّ فضائل الرجال ليست ما ادَّعوها، ولكن ما نسبها النَّاس إليهم)[3] أقائل هذا الكلام يقول ذلك الكلام؟

---

(١) روضة العقلاء (ص٢٨٥).

(٢) ما سبق (ص٦٠).

(٣) ما سبق (ص١٣٠).

ومن المفيد أن أقول هنا : ما دام العالِمُ من علماء المسلمين بَشَراً ، وما دام يستحيلُ عليه الإصابةُ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، وما دام النقصُ مستولياً على جملة البشر ؛ فيجبُ أن تُجمَعَ أخطاءُ كُلِّ إمام ، ويُفَسَّر سببُ وقوعه فيها ، من غير نضالٍ ولا تسويغ ، ونلتمس له العُذر من غير تقديس ولا تنقيص .

فإنَّ تحاسُد أهل العلم بلاءٌ مُقيم ، ولا زالت مظاهره وآثاره تملأ الآفاق ، والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

والحمد لله ربِّ العالمين .

تم المجلد الأول بفضل الله وحوله

ويليه المجلد الثاني وطليعته : مصنّفات الإمام ابن حبّان

ثَبَتُ مباحث المجلد الأول

البابُ الأولُ: عصر الإمام ابن حبان

الباب الثاني: ترجمة الإمام ابن حبّان

تمت الفهرست بفضل الله وحُسن توفيقه

والحمد لله رب العالمين